البهي الخولي

تذكرة الدعاة

الطبعة الخامسة

وفيها زيادات وتنقيحات

١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م

محمد وفا المجددي
ذخيرة للأبرار

دار القلم
دمشق - بيروت

مكتبة الفلاح
الكويت

131393

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً »

(قرآن کریم)

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الله أكبر والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، أفضل الداعين اليه على بصيرة ، والمجاهدين فيه باحسان ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين .

وبعد : فقد طالعت هذه التوجيهات بل المحاضرات في أساليب الدعوة وتكوين الدعاة ، فأعجبت بها وهششت لها ، وشمت فيها بوارق الاخلاص والتوفيق ان شاء الله ، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده ، موجهة لقلوب الناطقين بكلمته والهاتفين بدعوته .

وليس ذلك غريباً على كاتبها وملقيها الأخ الداعية المجاهد الأستاذ البهي الخولي ، فهو بحمد الله صافي الذهن ، دقيق الفهم ، مشرق النفس . قوي الايمان ، عميق اليقين ، أحسن الله مثوبته ، وأجزل مكافأته ، وبوأنا واياه منازل من أحب من عباده ، فرضي عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون . آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

الفقير اليه تعالى

حسن البنا

القاهرة { المركز العام للاخوان المسلمين
في غرة رمضان سنة ١٣٦٣ هـ

Marfat.com

المقـدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه .

أما بعد : فقد طلب الى بعض اخواني الفضلاء ، أن أتحدث اليهم في بعض الوسائل التي تبلغ بهم أن يكونوا دعاة الى الله عز وجل ، في صفوف الاخوان المسلمين ؛ وراق لهم أن يسموا أنفسهم : « كتيبة الدعاة » وقد هممت أن أعتذر ، لان تلك منزلة لايرشحني لها علم ولا موهبة ؛ ولكني عدت فقلت : آخذ بحسن الظن كما أخذوا ، والله يسلك بي وبهم ما يشاء . وسرنا في الطريق معاً ، فكانت تلك الأحاديث التي أقدمها اليوم للقراء ، أو التي يقدمها هم ، فهم الذين أرادوني على طبعها ، والانفاق عليها من أموالهم الخاصة ، ونشرها بين الناس وتقديمها لمن لم يشهد القاءها من الاخوان .

وأنا أعتذر سلفاً لكل قارىء عما لايرضيه في هذه الأحاديث ، فما وجدت من زلة فاسترها ياأخي ، وما وجدت من قصور أو تقصير فأنت جدير بغض الطرف عنه .

ليس كتاباً للخطابة

واني أقرر من الآن أنه ليس كتاباً يعرض للخطابة . فيستوعب قواعدها العلمية ، ويستقصي أصولها الفنية ، ويبني على تلك القواعد مايريده العلم ، ويفرّع من تلك الأصول مايوحي به الفن ، ويجد

Marfat.com

فيه الراغبون ما يشبع رغبتهم ، ويمتع عقولهم وقلوبهم ؛ ولكنه أحاديث لم أرجع فيها الى كتاب مما دوّن في الخطابة وأصول الوعظ، انما هي نظرات في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجارب خاصة ، عرضت لي في ميدان دعوتنا العظيمة ، ولفتات قبست فيها من عبقرية أستاذنا المرشد رحمه الله،عبقريته الروحية والعقلية • فاقرأها على هذا ياأخي ان أردت قراءتها ، وأسأل الله أن يشرح لها صدرك ، وأن ينفعك ببركة ما أحاط بها من حسن القصد بدءاً وختاماً •

الفرق بين الداعية والخطيب

على أني لست آسفاً اذ أخرج هذه الأحاديث غير مستوعبة لقواعد الفن وأصوله ، بل انني راض غاية الرضى ، فما قصدت أن أتحدث بها الى خطباء أو راغبين في تعلم الخطابة ، وانما قصدت أن أتحدث الى دعاة يرغبون أن يدعوا الى الله عز وجل •

والداعية غير الخطيب • الخطيب خطيب وكفى • والداعية مؤمن بفكرة ،يدعو اليها بالكتابة ، والخطابة ، والحديث العادي ، والعمل الجدي في سيرته الخاصة والعامة ، وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية • فهو كاتب وخطيب ومحدّث وقدوة ، يؤثر في الناس بعمله وشخصه ••• والداعية أيضاً طبيب اجتماعي يعالج أمراض النفوس ، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة ، فهو ناقد بصير ، يقف حياته على الاصلاح الى ما شاء الله ••• وهو رفيق ، وصديق ، وأخ للغني والفقير، والكبير والصغير ، ومن هذه الصفات تشيع المحبة في قلبه ، وتتدفق الرحمة من عينيه ، وتجري المواساة على لسانه ويديه ، وهذا ضروري جداً للداعية • وهو من مواهب الروح والجنان ، لا من صفات البلاغة وملكات اللسان ••• والداعية قائد في محيطه ، وسياسي في بيئته ،

Marfat.com

وزعيم لفكرته ومن يتبعه في ناحيته • وكل هـذا لاتنهض الخطابة وحدها بحقوقه ، فلا بد له من التأثير النفساني ، والهيمنة الروحية ، والاتصال بالله ، واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأحوال الناس •

ولست بهذا أغض من قدر الخطابة وضرورتها للدعوة ، وانما أبين بعض صفات الداعية لتستبين طبيعة هذه الأحاديث التي سيقت للدعاة ، لا للخطباء كما سترى ان شاء الله في فصولها القادمة •

أودية روحية

واعلم ياأخي أن كل ما نذكره في هذه الأحاديث عن الدعوة والـداعية والخطابة والخطيب ، انما نقصد به دعوة الاخوان التي أعلى معالمها ، وقرر سبلها وتقاليدها ، امامها الشهيد الفذ : الاستاذ حسن البنا رضوان الله عليه •

وحين نقصر الكلام عليهـا فقد قصرناه على أصدق مثل الدعوة وأقومها ! فانها دعوة الحق الذي قامت به السموات والارض،واستوعب سنن الكون ظاهره وباطنه •• وكفانا اطمئنانا أنها دعوة الله الذي هو الحق ، وله دعوة الحق •

ولهذا سيجد القارىء في هذه الرسالة فصولا تلم بأودية روحية ، وآفاق نفسية ، بعيدة عما ألفه الناس في كتب الخطابة والدعاية ، سيجد فصولا لا تحدثه عن حركة الخطيب واشارته ، ولا عن صوته ونبرته ، ولا عن طبيعة جسمه وأوصاف قامته ، فذلك في رأيي أحرى أن يوجه الى ممثل الصالات ، وخطباء المسارح ،أما أن يوجه الى « دعاة » يراد لهم أن ينشئوا أمة أو يساعدوا على انشائها، وأن يبنوا دولة أو يساعدوا على بنائها •• فلا •• انه القول الفصل وما هو بالهزل ، والأمم لاتقام

Marfat.com

بالتهريج ولا تنهض بالحركات المصطنعة المتكلفة ، لقد حاولنا في فصول هذا الكتاب أن نلم مع القارىء بأودية روحية وإنما نريد بهذا أن يهتدي الى فطرته ، فالفطرة هي الصفحة المنيرة في حياة كل آدمي ، وقد اودعها الله أشرف الغايات ، وأقوم السبل ، وأحق الحقائق التي يعلو بها ويعز قدر الانسان .

الرجل الرباني

فاعلم ياأخي أن كل انسان كائنا ما كان ينطوي على مناجم الهية من العبقريات العظيمة ، وكنوز من القيم والفضائل التي تنضر وجه الحياة ، وتزدان بها الانسانية ، ولا سبيل الى اثارة هذه المناجم النفيسة الا أن تثيرها باسم الله العلي الكبير ، فاسم الله وحده هو مفتاح هذه الكنوز الربانية المغلقة ،ولا يضع الله هذا المفتاح الا في يد العبد الرباني الذي يتخلق بصفات الربانية الفاضلة ، يجاهد نفسه حق المجاهدة ، ويقمع هواه في غير هوادة ، فيفضي بذلك الى ما شاء الله من بطولة وتوفيق ، « والذين جاهـدوا فينا لنهدينهم سبلنـا ، وان الله لمـع المحسنين » .

وأنت واجد تفسير ذلك كله بصورة عملية واقعية في تاريخ الغر الميامين ،الذين خرّجهم رسول الله ، وصاغهم بعين الله أبطالا ، فتحوا أقطار الأرض لأنهم فتحوا قبل ذلك أقطار النفوس ، وأضاءوا الدنيا بنور الحق ، لأنهم أطلعوا شموسه قبل ذلـك في جنايا الصدور ، وأسعدوا البلاد بنعمة العدل والحرية والايثار ، لأنهم بثوا ينابيعها قبل ذلك في خفايا القلوب ، وانبعثوا الى تخليد الباقيات الصالحات من الأعمال والأخلاق والمبادىء ، فأتوا من ضروب البطولات النفسية والمادية ما يدهش الألباب ، ويعجز الأبطال ويشبه الاساطير ، لأنهم انبعثوا بهمة لاترى لها متعلقاً دون عرش الله عز وجل فلو كان الايمان

Marfat.com

عند الثريا لناله رجـال من هؤلاء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أين هذا ياأخي من شأن أولئك المطموسين الذين ضلوا السبيل وفتنوا عن أنفسهم ، ورأوا أوربا تهتف بالوطن والوطنية ، وخصائص العناصر ، ومزايا القومية ، فقلدوهم تقليد القرود ، والببغاوات . فاصطنعوا مبادىء سياسية واقتصادية واجتماعية ، ذات شعارات تستر أطماعا ومآرب باطلة ، واتخذوا احزابا وأندية تخطط للمغانم ، وينبعثون منها للفساد والسحت ، ولا تجد لها خلال ذلك سوى أحفال واجتماعات. وأقوال قد يبرق ظاهرها بالخداع والتمويه ، ولكن باطنها يخلو من أي مضمون تشهد له الفطرة ، أو تنظر اليه معايير العقل ، حتى غدوا فارغين تافهين ، لا قيمة لأعمالهم ولا لأقوالهم .

* * *

لاأزكي الاخوان

ولست بهذا أزكي الاخوان فهم أعقل من أن يزكوا أنفسهم . وهم يقرءون في كتاب الله عز وجل « ألم تر الى الذين يزكون انفسهم ، بل الله يزكي من يشاء » . ويقرءون « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

ولست أزكي لهم منهاجاً ، فهم لم يأتوا بجديد ، وانما هو منهاج قديم ،زكاه الله عز وجل ، وأمر بالدعوة اليه الى يوم الدين . « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، ولا فضل لهم اذ يدعون الى هذا المنهاج الالهي ، فذلك فضل الله عليهم و « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله » .

Marfat.com

ولست أزكي لهم قولا ، فهم لاقول لهم الا ماكـان قائما بحق هذه الدعوة ، وافياً بأغراضها ، آخذاً من معين كتابها ، وسنة رسولها صلى الله عليه وسلم •

وقد زكى لهم الله كل ذلك « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » •

لاتعصب

وبعد : فهذا ياأخي ماعندنا وما عند الناس ؛ ونحن مؤمنون كل الايمان بأن ما عندنا هو الحق الذي لاحق غيره ، وما عداه فهو الباطل الـذي لا يؤبـه له ولا يوزن بميزان ، فليس بعـد الحق الا الضلال ، ولهذا أهملناه ، فلم نعرض له بقليل ولا كثير ، فلا تجعله حجة علينا في شيء ، فالباطل لاحجة له • وفي هذا القليل الذي نذكره عن دعوة الحق وأساليبها غناء عن الكثير الذي عندهم •

وسوف يعرض لك في أثناء هذه الكلمات ما يوهم ظاهره أني أتعصب للاخوان فاعلم أن ذلك لم يـدر بخلدي ، كما أنـه لا يدور بخلد أحـد منهم ؛ نعم أنا أتعصب للاخوان ، ولكن باعتبارهم فكرة في الحق؛ لا باعتبارهم هيئةخاصة ذات صبغة معينة، فنحن فكرة ولسنا هيئة ، فكرة واسعة خطيرة ، أوسع من السماء والأرض ، لأنها روح من أمر الله ، فليس لنا أن نضيقهـا بحيز مقدر ، أو صبغـة معينة ••• والمدعوون الى تمثلها وتمثيلها هم أفراد الانسانية كافة ، هكذا أراد الله ، فليس لنا أن نحصرها في عـدد مقرر ، أو هيئة محـدودة • فنحن براء ــ ولله الحمد ــ من مذمة التعصب للصور الظاهرة ، والميادين الضيقة ؛ وما قد يفهم أني أتعصب فاحمله على هذا الوجه يا أخي ، فهو تعصب للحق المبين ، تعصب من يؤمن بأنه عـلى الحق لا محالة ، ومخالفه عـلى

Marfat.com

الباطل لا محالة ، تعصب من يفهمك مقدماً ، أنه غير مستعد بحال من الأحوال لأن ينحاز الى رأي لك تخالف به جوهر هذه الدعوة ، أقمت عليه البرهان أم لم تقمه ، أفحمته بما تحشد من الحجج أو لم تفحمه ، لأنه غير مستعد لأن يقبل رأي بشر ما فيما قضى الله عز وجل فيه بحكمه. هذا هو ايماننا بدعوتنا ، يسميه بعض الناس — جهلاً — تعصباً ، وقد أسميناه تعصباً مجاراة وجدلاً ، وأسأل الله عز وجل أن يثبتنا واياك على الحق ، وأن ينير بصائرنا به ، وأن يجعلنا من جنوده العاملين ، انه قريب مجيب .

المؤلف

Marfat.com

الباب الأول

فقه الدعوة والداعية

Marfat.com

الفصل الأول

قضيّــة بين فهــمين

الإسلام الحنيف هو دعوة التوحيد الكبرى التي بعث بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لتكون نظام الانسانية الكامل في حياتها الروحية والمادية ، في كل زمان ومكان •

هذه قضية واضحة ، بل حقيقة جلية كالشمس ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، يستعلن وضوحها في البصائر ، حتى لتحتل في كياننا محل الضرورة الفطرية ، أو البدهية التي لاتحتاج الى دليل ••• ولكنها مع هذا غامضة مبهمة لدى بعض « المسلمين » ، حيث تبدو له هذه الحقيقة ، مجموعــة من الأفكار الصدئة ، والنظم البالية ، ويرى القائمين بها قطيعاً متخلفاً عن قافلة الانسانية ، لا يساير أسلوب الحضارة ، ولا يلين لأوضاعهــا ، فإذا أحسن أحــدهم الرأي فيك ، ظنك متعصباً اسلامياً ، طوّعتْ له حماسته أن يغالي في قيمة الأشياء •••

هذان فهمان متناقضان لهذه الحقيقة : فهم يقبلها ويقرها ، وآخر ينكرها ويردها ، فأي الفهمين أحق بالقبول والتقدير ؟

لا نريد أن نقطع بجواب الآن • ونريد أن نقرر حقيقة مقطوعاً بها وهي أن هؤلاء ليسوا أعظم منا ذكاء ، ولسناأقل منهم فطنة ، فإذا فاقونا

في هـذا أو فقناهم ، فليس بالقدر الذي يفصل بيننا وبينهـم ، ويقيننا واياهم على طرفي هذا الفارق العظيم •• ونريد أ نتقرر حقيقة أخرى ، وهي أننا ــ ولله الحمد ــ بصدد المجاهدة لكي نحتفظ بملكاتنا الباطنة حية يقظة •• لا نزعم أننا بلغنا الغاية من ذلك ، ولكنا بصدد المجاهدة التي نحاول بها أن نكون بمنجاة من طغيان الموجة المادية بأهوائها على تلك الملكات فتختم عـلى أذواقهـا ومداركها • أما هم فليسوا يدعون لأنفسهم مثل هذه المجاهـدة ، بل هم جدّ راضين اذ تغمرهم المدنية الزائفة بما تغمرهم به من حلو ومر وخير وشر ••• وأنت بعد هذا جدير بأن تعرف علّة ما بيننـا وبينهم من التناقض في فهـم الحقيقـة التي عرضناها آنفاً •

محور الخلاف

هذه النقطة هي محور الخلاف ، ومركز التحول والافتراق • ان هؤلاء في حالة ركود روحي ، طغى عليهـم تيار المدنية الباطـلة ، فغمر مواهبهم الباطنة فأصابها بخدر أو جمود ، وهيهات أن تصل الى اقناعهم بسداد عقيدة الاسلام ونظمه ، ما دمت تخاطب هـذه الحاسة المعطلة فيهم ؛ فتراهم يستمعون اليك وهم لا يفقهون ، وينظرون اليك وهم لا يبصرون « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وان يرَوا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين » ولسنا نقصد أنهم لا يفهمون ، لأن عقولهم متبلدة ، بل هم لا يفهمون لأن قلوبهم ــ وهي مركز العقائد وحقائق الايمـان ــ معطلة عن الفهم بما شغلها وألهاها •

أجل ، فإن فهم العقائد والقيم والمبادىء والمثل ، والعبر منوط بأذواق الباطن ومداركه وحواسه •• وهو فهم ليس كالفهم الرياضي

Marfat.com

الذي يمارس معادلات الرياضة ، وأقيسة الحساب ، وليس بعمل العالم الطبيعي الذي يقرر لنا كائنات الطبيعة وعناصرها وطاقاتها وخواصها وكيفية الانتفاع بها ، بل الفهم هنا عمل حاسة أو ذوق باطن ، ووجدان حاد يحب الحق أشد الحب ، ويبغض الباطل أشد البغض .

حسية الإدراك

فللانسان ضربان من الإدراك (١) : ضرب حسي تؤديه الحواس بمعونة العقل ، فيتم لنا به ادراك الكائنات الحسية المحيطة بنا في السموات والأرض ، ويسمى « الإدراك الحسي » . (٢) والضرب الآخر تؤديه خاصية عقلية تسمى « الفكر » هي التي تدرك دلالة الكائنات على الله .

أي أن الادراك الحسي خاص بإدراك الجانب المادي من الكون ، والإدراك الفكري خاص بإدراك الجانب المعنوي الممثل في دلالة الكائنات على صفات الخالق تعالى .. صفات القدرة ، والعلم ، والحكمة ، والرحمة والكرم ، والود الى ما له سبحانه من صفات ...

١ ــ فإذا سلم للمرء هذان الإدراكان امتلأ وعيه بمنطق المحسات ، وبمنطق المعنويات كليهما .

ومنطق المحسات يتكون بمعرفة مادة الكائنات وعناصرها ، وخصائصها ، وقوانينها وكيفية تناولها وتنظيم دنيانا ومعايشنا .

أما منطق دلالة الكائنات على الله ، فالكائنات هي آثار صفاته تعالى ، فإذا أبصر الفكر تلك « الآثار » فإنه لا يبصر جرماً ولا لوناً ولا نحوهما ؛ انما يبصر « الطابع المعنوي » الذي يستشعر به القلب وجدان صفة العظمة ــ مثلاً ــ ومعناها ، ووجدان صفة قدرته تعالى ومعناها ، ووجدان صفة الرحمة ومعناها ؛ ووجدانات ومعاني صفات البر والود والكرم ، والخير ، والاحسان الى ماله تعالى من صفات ، فيقوم بالقلب

Marfat.com

« كيان » من المعنويات التي تمثل آثار الصفات القدسية ، مع كل صفة الوجدان الشريف الذي يناسبها •• وهذا الكيان الجليل أو هذا البناء المعنوي الرائع هو لب معرفتنا لله تعالى ، وهو الذي نسميه الايمان . والعقيدة ، وهو معدن قيم الانسان ومبادئه ، وخصائص انسانيته •• وللوجدانات مهمة خطيرة بالغة الخطر في حياة الانسان ، اذ بها يبصر المرء حسن الحسن وقبح القبيح ، فيحب الحق أبلغ الحب ، ويكره الباطل أشد البغض « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم . وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » ، وهو بهذا يمحق من نفس الانسان عقد الكراهة والحسد ، والشح والأنانية ، والفساد ، ويسيطر على الإرادة فيوجهها الى غايات الحق ، والخير والعدل ، ومقاصد البر . والود ، والرحمة ونحوها •• وبهذه الوجدانات — أيضاً — تحيى في ضمائرنا حقائق معرفتنا بالله ، فلا تكون ميتة ، ولا فاترة . ولا يرى المرء الا عاملاً بمنطق وبمقتضى هذه المعرفة •• وذلك ما نعني بمنطق الدلالات المعنوية ••

ثم ماذا ؟!•• ثم يسيطر الوجدان الفكري بكل حقائقه العلوية ووجداناته ، وخصائصه الإلهية على منطق المحسات ويغدو الادراك الحسي منقاداً متوجهاً بكل امكاناته الى الغايات والمقاصد التي يرسمها له منطق المعنويات ، غايات الحق ، ومقاصد الخير والعدل ••• وهذا هو النمط الأمثل لصلة الانسان بالكون وبالله ••• وهو مقتضى الإيمان به تعالى •

٢ — هذا اذا سلم للانسان هذان الإدراكان : ادراكه الحسي . وادراكه الفكري، أما اذا انفرد الادراك الحسي بالعمل والنشاط . وتخلف أو توقف الادراك الفكري لسبب من الاسباب فلم يعد يبصر الدلالات المعنوية ، فإنه لا يبقى في وعيه الا منطق المحسات المادية الذي ننظم به

معاشنا ، وتنسلخ وصاية المنطق الفكري عن الادراك الحسي ، فلا يكون له من رائد أو موجه يرتاد له الغايات والمقاصد الا أهواء الحس ورغباته الطائشة ، فيكون نموذجاً للمثل الذي قال فيه تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ »•• ويكون تصوره وحكمه على المعنويات والإلهيات هو تصور وحكم على غير موجود ، ومن هنا ينزلق الماديون الحسيون الى درك الانكار والجحود ، ويقول قائلهم : « ان الدين خرافة » •

فالذين ينكرون علينا قضايانا وأحكامنا المعنوية والإلهية هم من هذا القبيل ، ليس في أذهانهم من شيء يقام له اعتبار الا المادة التي تُرى بالعين ، وتلمس باليد ، وتدرك بالحواس ، ولا اعتبار بتة لغيرها الا اعتبارهم لشيء غير موجود ، فهم ينزهون عقولهم عن الاعتراف به أو النظر فيه ، وذلك مدى ادراكهم لصلتهم بالكون على ما أشار اليه تعالى بقوله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » •

أفترى هؤلاء ، أو من أخذ أخذهم منا ، خليقين أن يستمعوا اليك ، ويقبلوا عليك ، حين تتحدث اليهم بروح الرسالات السماوية ؟ أترى في قلوبهم وحياتهم النفسية ، متسعاً لما تدعو اليه ؟ انك في وادٍ وهم في وادٍ آخر ، وهذا هو ما يباعد بينك وبينهم ، « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ، وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، واذا ذكرتَ ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا » • ولا تظن أنهم لا يفهمون معنى القرآن ، بل هم يفهمونه ، ولكن بإدراكهم الحسي فهم الحس ، أما قلوبهم فلا تسيغه ولا تقبله ، ولا تعرفه ، وهذا هو المراد بفقه القلوب حين يرد في كتاب

Marfat.com

الله عز وجل ؛ فقد يسيغ كثير من هؤلاء أن تقول لهم : ان الله خالق هذا الكون ، وهو الذي وهب لنا الحياة ، وهو الحقيق منا على هذا ، بالشكر والثناء والتعظيم ••• وقد يسيغون أن تقول لهم : ان الانسان جسم وروح ، ويجب أن يكون للروح مطالبه كما للجسم مطالبه . وان الانسان الكامل هو الذي يقبل على ناحيتيه كلتيهما بالعدل في توزيع الحقوق ، فلا يجور على احداهما ليعطي الأخرى • وقد يسيغون أن تقول لهم : ان رسالة تجيء لتحقيق هذا النظام عملياً ، لهي رسالة الحق ، وقانون الوجود كله ، وهي الرسالة التي تعصم الإنسانية من الزلل والشطط ، والشقاء النفسي المجدب •••

المنطق الحسي والمنطق المعنوي :

قد يسيغون ذلك كله ، ولكنهم يسيغونه « بمنطق الإدراك الحسي » لا « بمنطق الادراك المعنوي العاطفي » والمنطق الأول ــ المنطق الطبيعي والرياضي ــ يسيغ ما يسيغ في ركود وسلبية ، أما العاطفي . فيسيغ ما يقبله في حرارة وحركة وشوق وقبول ايجابي ، وانما تحتاج الرسالات السماوية الى أن تفهم على هذا الوجه الأخير فالعقل العاطفي هو الذي يفتح لها آفاق النفس ، ويصل بها الى قرار الفطرة ، ويمكّن لها في حبات القلوب ، ويسري بها الى الأعصاب يقظة وعزيمة ، ويشيعها في الدماء نشاطاً وحيوية ، فيصبغ صاحبها بصبغتها من جميع أقطاره الظاهرة والباطنة . فتبدو ألوانها في أعماله . وأقواله ، وأفكاره ، ونياته ، واتجاهاته ، وعواطفه ، وأهوائه ، فإذا هي قد ملكته ولا يملكها ، وسخرته لها ولا يسخرها ، فيحيى لها منفعلاً بخواطرها ، غيوراً على حرمتها ، مجاهداً لإعلاء مبادئها ، باذلاً في سبيلها ماله ، وراحته ، ووقته ، ومواهبه ودمه ونفسه ، سعيداً بذلك غاية السعادة ، وراضياً به تمام الرضى • وهذا الفهم هو المعروف لدى علماء التوحيد ، بأنه التصديق القلبي • وهيهات

Marfat.com

أن يؤتى العقل المنطقي هذه الثمرة الباهرة ، والقوة القاهرة .. فالمسألة على هذا ليست مسألة الذهن الذي يفهم ، أو لا يفهم ، والعقل الذي يصدّق أو لا يصدّق ، وانما هي مسألة القلب الذي يرضى ما يقال أو يجحده ويبش له أو يرفضه ، « قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

والآن نعود الى تساؤلنا الذي طرحناه أول هذه الكلمة: أي الفهمين أحق بالقبول والتقدير ؟ وما نظن أنا بحاجة الى القول بأن الحق قد وضح . وأن أكثر هؤلاء المنكرين علينا ، لا ينكرون شيئاً غامض المعنى ، بل يعرضون عما تنكره قلوبهم، وهذا شر ما يبتلى به انسان من تناقض، وشر منه أنه يرضاه ولا يسعى الى تغييره .

* * *

Marfat.com

الفصل الثاني

ذبذبة بين غايتين

في أخبار الأدب المشهورة ، أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر رضي الله عنه فقال :

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فهاج وماج ، وأرغى وأزبد ، وشكا الأمر الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فسأل عمر حسان بن ثابت ، وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين له قيمة الهجو في هذا الشعر . ولم يكن ذلك جهلاً من عمر بمرامي الكلام ، فأجاب حسان بما معناه . الأمر أفحش من الهجاء ، وان أقذع الهجاء لأهون من هذا بكثير . وانه لدنس صبه عليه لا تقوم به كرامة • فقضى عمر بحبس الشاعر في سجن مظلم •

والقارىء لا يرى في هذا الكلام ذكراً للآباء والأمهات . ولا تعريضاً بالأعراض والسوءات • ومع هذا كانت منزلته في الهجو ما قرر حسان رضي الله عنه • لم يقل الحطيئة للزبرقان ، الا أن يقعد عن طلب معالي الأمور ، ولا يجشّم نفسه تحصيل المكارم التي تشرف بها النفوس . فإن همته لا تتعلق بشيء من ذلك ، وانه اذا كلف نفسه مشقة في هذا السبيل،

Marfat.com

فقد أعنتها ، وكلفها ما ليس من طبيعتها ، اذ لا يليق به الا أن يركن الى الطعام واللباس • فليس يصلح الا لهذين ، و لامأرب لهمته الا فيهما ، أو قال له بالتعبير العصري : ان مثلك الأعلى الذي تعيش له • ولا تصلح لغيره • هو الاستغراق في شهوة الطعام واللباس •

وفي هذه القصة معنيان بارزان :

الأول: أن الحطيئة كان خبيراً بالحياة ، وأنها ذات وجهين أو غايتين، غاية خسيسة يعيش عليها الأدنياء ، وغاية شريفة يحيى لها الفضلاء ، فالأولون يرون سعادتهم لذة المطعم والملبس وكفى • والآخرون يجدّون لتحصيل زادهم من الفضيلة ، ومتاع نفوسهم من الخير والحق ، وهذا هو ما كانت تقوم عليه الحياة فعلاً في ذلك العهد العمري الزاهر •

أما المعنى الثاني الذي يبرز في هذه القصة ؛ فهو أن شعور الرأي العام كان شديد الحساسية بالفارق العظيم بين الغايتين ، فكان أحدهم يسمو بهمته أن تنضمر في مطالب المعدة وترف البدن ، ويفزع أن يوصم بين الناس بهذه الوصمة القاصمة ؛ والى مكان هذا الفزع سدد الحطيئة ضربته القاسية الى غريمه ، أو صب عليه دنساً لا تقوم به الكرامة ، على معنى ما قال حسان رضي الله عنه :

١ ـ غايتان احداهما دانية المنال ، والأخرى بعيدة المدى •

٢ ـ حساسية مرهفة في الشعور ، تصدّ عن الغاية الاولى ، وتثير أشواق العزائم الى الاخرى •

وهاتان هما دعامتا الحياة الفاضلة يا أخي ، اعتراف بغايتين • وحساسية تحقر الأولى ، وتمجد الأخرى ، والناس بخيرٍ ما سلمت لهم هاتان الدعامتان ••• هذا منطق الفِطَر المستقيمة ، والعقول السليمة ، فهل هذا هو ما تقوم عليه أساليب الحياة في حضارتنا المادية السائدة ؟

13/393

Marfat.com

لك أن تزن اهتمام الناس ، فماذا ترى ؟ هل تراهم يهتمون ويقبلون على مطالب الغاية العليا . أم تراهم يهتمون بزينة الملابس والمساكن ، ولذائذ المطاعم والمشارب؛ حتى العاجز منهم لا يمنعه أن يخرج على الناس في زينة ما ، الا أنه لا يجد ما ينفقه ، فهو لا ينفك يمد عينه وقلبه الى ما يتمتع به غيره من زهرة الحياة الدنيا .

حولك طوائف من صغار الموظفين وكبارهم ، وطوائف من التجار والأطباء والصناع ومن يسمون رجال الأعمال . فسائل نفسك ، أي مثل أعلى تهفو اليه قلوب هؤلاء ؟ أي فضيلة تتناجى بها ضمائرهم في محيطهم العملي وخارجه؟ أي أسلوب من أساليب الحياة الرفيعة يستغرق تفكيرهم بالليل والنهار ، فهم يدعون اليه ، ويبذلون الجهد لتحقيقه ؟ بل قف في ميدان كبير بمدينة كبيرة أو صغيرة ، وتأمل من يمر بك من رجل وامرأة ، وفتى وفتاة ، وسائل نفسك : فيم يفكر هؤلاء ؟ أي شيء يشغل الآن قلوبهم ؟ وتسبح به خواطرهم ؟ وتسعى اليه أرجلهم ؟ هل شيء غير المال والملبس والمطعم ، والأفكار التافهة ، والنزوات الفارغة الوضيعة ؟ هل شيء غير مآرب البدن المباشرة وغير المباشرة . ومطالب النفس الحيوانية الباطنة والظاهرة ؟!

لقد يجلس أحد هؤلاء فيحدثك بنعمة الله عليه ، ماذا أريد من من دنياي ؟ اني — ولله الحمد — أسكن حسناً ، وآكل حسناً ، وألبس حسناً ، ولا مأرب لي من دنياي غير هذا ، وهل يأخذ ابن آدم من دنياه الا أن يعيش هذه المعيشة المريحة المحترمة ؟ ترى لو أنك قلت لصاحبك : ان هذه غاية معيبة ، أكان يغضب عليك غضبة الزبرقان ؟ ويثور بالجريرة الى الحاكم؟ أيفعل هذا وهو الذي حدثك به وأظهر ارتياحه اليه؟ أيفعل هذا وهو يرى الجمهور يقيس الناس بمظاهرهم ، لا بشرف معادنهم .. يقيسهم بما تحصي لهم الخزائن من الأموال لا بما تحمد لهم الانسانية

Marfat.com

من كريم الفعال؟ لا، لايغضب ، ولا يثور الى الحاكم ؛ فإذا غضب فلأنك عبت عليه منهجه ، وخالفت رأيه ، وقد ينقلب أستاذاً متفلسفاً يسفه لك رأيك ، ويرميك بأنك لا تفهم حقائق الحياة ، وأنك خيالي غير عملي ، أي أنه يغضب لأنك لم توافقه على ما يستحسنه ، يغضب فقط لدنياه الطاعمة الكاسية ، فاذا كان أستاذك الفيلسوف ممن لا يزالون يحسنون الظن بالدين ، مضى يخبط في تأويل كتاب الله على غير هدى ، واستعدى عليك الحجة من مثل قوله عز وجل : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » الى آخر ما لديه من جهل وسفسطة ، وسوء فهم لمقاصد آيات القرآن الكريم .. والعجيب أنه اذ يتحمس للطيبات من الرزق لا يجد في نفسه خلجة واحدة من حماسة لما ورد في القرآن الكريم عن الغايات التي تتعب في نيلها الأجسام .

لقد تقرر فيما سبق من هذا الفصل أن للحياة الفاضلة دعامتين ، واعترافاً بغايتين ، وحساسية في الشعور تحقّر الاولى منهما وتمجد الأخرى ، فأين مواقع هاتين الدعامتين في عقول الناس ، وحياة قلوبهم ، ومظاهر حياتهم ؟

لست أكتمك أني أجد الاعتراف بالغايتين مسلّماً به لدى الجمهرة العظمى من الناس ... نعم وليس في هذا مناقضة لما تقدم ، فإن ما يلقاك به صاحبك ، أو فيلسوفك السابق من انكار ومخالفة ؛ انما هو جدل بغيض ينجم حين تأخذه العزة بالإثم لعيب تنتقصه به ، وهي آفة تلحق الناس حين لا تستقر عقائدهم على قرار ما ؛ فيظلون مذبذبين مترددين بين مختلف الاتجاهات .

يستمعون ولكن

تحدّثْ الى الناس في مزايا الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، واضرب لهم الأمثال ، وقص عليهم القصص من سير هؤلاء

Marfat.com

الأبطال المؤثرين،وتحدث اليهم بأخبار أولئك الذين آمنوا بالله واتخذوه مثلهم الأعلى ، فكان أحب في جوانحهم من الاوطان والاموال والاهل والأبناء ، فهجروا الوطن هجرة الى الله ، وفارقوا العشيرة والابناء سعياً الى رضوانه ، وبذلوا الأموال رخيصة هينة ، لأنهم وجدوا ما عنده أثمن من كل متاع، حتى لينفق أحدهم ماله كله فيسبيل الحق لا يبقي لأبنائه درهماً واحداً • وهو مع ذلك سعيد جذلان ، يجد في قلبه حلاوة الإيمان. يقول لمن سأله عما تركه لأبنائه : لقد وكلتهم الى ثروة أعز من كل ثروة : وكلتهم الى الله ورسوله وهو يتولى الصالحين •

حدثهم عن جنود الله الذين أقاموا معالم الحياة الفاضلة • بإقامة العدل الحازم الحاسم ، وتحقيق معاني الأخوة في الله . والتضحية في سبيل الحق أينما كان ، والثورة على مظاهر الباطل أينما وجد . والمساواة التي تتكافأ بها دماؤهم وحقوقهم ، وتتفاوت من ورائها بالتقوى منازلهم وأقدارهم •

حدثهم عن هؤلاء الجنود ، الذين جعلوا هذه الخلال كلها حقائق عملية لا نظرية ، حقائق لبست من الواقع المحسوس صوراً درجت بها على الارض حيناً ، فكانت بهجة الحياة ، ونور بصائرها وأبصارها • تحدث في ذلك كله أو بعضه ، تجدهم يصغون اليك . ويشاركونك الإعجاب بهذه الخلال ، ويفيضون الثناء الضافي المعطر على أصحابها رضوان الله عليهم ؛ ومعنى هذا أنك اذ تجنبت في حديثك مثيرات الجدل. ألفيتهم يعترفون بالغايتين : الدنيا والعليا ، يذمون الاولى ويسجدون الاخرى •• ولكن ما وراء ذلك ؟

هل هناك محل له في القلب ، أم هي قضايا يستحسنها الادراك الحسي . ويتحرك بها اللسان وحسب ؟••• هل هناك شوق في القلب يهيم بمحاسن هذه المثل العليا ، ويطير بصاحبه اليها في كل واد . لا يبالي ما يصحبه

Marfat.com

من ظمأ ، ولا نصب ، ولا مخمصة ، ولا ما ينفق من نفقـة صغيرة أو كبيرة ، ارضاء لأشواق قلبه ، وتحقيقاً لزينة حسه ونفسه(١) ؟

هل هناك محل لهذه الأشواق ، أم أن شهوات الموجة المادية طغت على منابت هذه الفضائل في القلب فطمستها ، ولم تبق مجالاً لغيرها ؟

فضائل مزعومة

وما أريد أن أسرع بجواب هذا التساؤل ، قبل أن أعرض لفضائل يزعمون أنها قائمة في الغرب حيث مصادر هذه الموجـة المادية ، فهناك احسان ومحسنون ، وهناك ايثار على النفس وموثرون ، وهناك مساواة وحرية وعدل ، وهناك شجاعة واقدام ، وجرأة على المخاطر واقتحام ، وبذل للدم والنفس ، وتضحية بالجهد والوقت بل بالعمر كله ، في غير منفعة خاصة ... هناك هذا وغير هذا مما نعلم أنه من فضائل النفس ، ومتاعها الشريف النبيل ؛ فكيف نسرف اذن في ظلم هذه الموجة المادية ؟ ان هذا ـ حقاً ـ جدير بالتفات من يتهم هذه الموجة ؛ وغير جميل أن يتهمها ثم يغضي عما يزعمون من جمالها .

الواقـع ـ يا أخي ـ أن هـذه الموجة الطاغية ، أو هذه المدنية الزائفة ، أعقم من أن تنجب مثل هذه الفضائل النفسية العالية ؛ فما كان للشر أن ينبت الا شراً ، وما كان للباطل أن يلـد الا باطـلاً « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكداً » وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ... فما هذه الفضائل التي

---

(١) لاأقصد بزينة الحس متعة البدن من طعام ولباس ، وانما أقصد أن محب الفضيلة لايشبعه منها صفة محبوبة في نفسه وكفى ، بل لابد أن يراها قد لبست صورها في عالم الحس والواقع ؛ ولا بد أن يكون له مجهود ايجابي ، وأثر عملي في تحقيقها فتسر برؤيتها عينه وتسعد بها حواسه في ظاهر الحياة كما سعدت نفسه .

Marfat.com

يزعمونها الا زهرات سامّة لهذا النبت النكد ، في تلك الارض الخبيثة ؛ زهرات ليس لها من خصائص الزهر الا لونهـا وشكلها ؛ أما رائحتها ورحيقها ، ومخبرها ، فكريه سام خبيث ···· أجل : فإن ما تراه ليس له من حقائق الفضائل الا سماتها الظاهرة ، وصورها المحسوسة ، أما غاياتها فباطلة ، وبواعثها فغير كريمة ، ومنابعها فسطحية ، ليست من أعماق الطبع الأصيل ·

تزييف مالدى القوم من فضائل

الفضيلة حقّ يا أخي ، والحق حق في كل زمان ومكان ، لا يتغير بزيادة في جوهره ولا نقصان ، فإذا رأيت انساناً يتحمس للحق والذود عنه في موطن من المواطن ، ثم رأيته يخذله أو يحاربه في موطن آخر ، فما أظنك ترضى أن تصفه بأنه من عشاق المثل العليا ، وما أظنك تتردد في الشك في حقيقة موقفه الأول ؛ وهؤلاء قوم يزعم الناس أنهم يقدسون الحرية في بلادهم ، والحرية حق ، فلو أنهم يقدسون هذا الحق ، كما يزعمون لاطّردت مظاهر التقديس في كل مكان · في داخل بلادهم وخارجها ، فلا يجدون ضعيفاً الا أعانوه ، ولا خائفاً الا أمنوه ، ولاذليلاً الا أعزوه ، ولا مستعبداً الا سعوا في حريته ، أما أنك تراهم يحرصون عليها في بلادهم ، ثم تراهم في الخارج حرباً على حرية الشعوب الضعيفة ينكلون بطلابها ، والمجاهديين في سبيلها ، فيشردونهم ويسجنونهم ، ويقتلونهم ، فذلك من أبشع الرذائل ، ولا يمكن أن ينسب الى فضيلة من الفضائل ·

لقد قلت سابقاً : ان محب الفضيلة يراها دائماً زينة حسه ونفسه ، فلا يغنيه أنها صفة معنوية مُسلّمة في قلبه ، بل لا بد أن يرى صورها العملية في عالم الحس والواقع ، فهل ترى من المنطق المطرد ، أن يناهض هذا الجمال ، ويطارد أنصاره ، ويعمل على اخفات صوته ، وطمس معالمه؟

Marfat.com

اذا أردنا الخير لأنفسنا ، فلنكن شجعاناً صرحاء ، نسمّي الحق حقاً ، والباطل باطلاً ولو أجمع الناس على خلافنا ، وحسبنا أن تتركز عقائدنا على الحق ، وأن يتركز الحق في عقائدنا ، وأن نعتز بأنفسنا ، ونجهر بما نعتقد أنه حق ، وحسبنا كرامة أن نكون غير مقلدين ولا مترددين ، أما أن يبدو لنا وجه الحق ، فنشيح عنه ، ولا نجد الثقة في النفس لتقبله ، لا لشيء الا لأن الناس لا يعتقدونه ، فتلك منزلة الغثاء والهباء ، لا يرضى بها الا سَقَط المتاع •

فلنقل اذن : ان هذه فضائل زائفة ، ولنجهر به في ثقة ويقين ، ولو ملأ الناس الدنيا بغنائهم وتمجيدهم لهذا الزيف ، فإن الأذن التي تسمع لحن غنائهم هي التي تسمع في الوقت نفسه أنين المستضعفين لما يلقون من ذل وعنت وشقاء •

وتريد أن تذكر ما عندهم من عدل ؟ أتريد أن تذكر المساواة ؟ أنت في غنى بعد ذلك عما يكشف لك من رذائل هذه الفضائل !

أخلاق هي مخالب وأنياب

ليست هذه فضائل اذن ، انما هي مواضعات شكلية ، يسير بها نظام جماعتهم تواضعوا فيما بينهم عليها ليتم تعاونهم ••• تعاونهم على ماذا ؟ تعاونهم على اشباع أنانيتهم ، وامتاع حواسهم وجوارحهم ، التي لا تعرف حداً تنتهي اليه في الاشباع والامتاع ، تعاونهم لا على البر والتقوى ، ولكن على الإثم والعدوان • فلو أنهم لم يصطنعوا العدل مثلاً فيما بينهم ، وظلم بعضهم بعضاً ، لانفرط عقد جماعتهم ، ولرأيت أنانيتهم التي يأكلون الناس بها الآن تنقلب عليهم فتأكلهم ، وتنشر الضعف والفساد في صفوفهم ، فحقيقة عدلهم أنه « نظام صناعي » لا خلق نفسي أصيل •

Marfat.com

والداعي الى المساواة والصدق ، ونحو هذا . هو نفس الداعي الى العدل ، هو الحرص على أن يظل تعاونهم وثيق العرى ؛ فإن هـذا التعاون هو وسيلتهم الى السطو ، هو المخلب ، هو الناب الذي يحطون به على الفريسة التعسة .

وقد اشتد هذا الحرص حتى استفاض بأنانيتهم فخرج بها من حدود الأنانية الفردية ، الى الأنانية الجمعية ، فالرجل يهب لجماعته ، لأمته ، لقومه ، جهوده وتأييده وعواطفه ، لأنها تعمل لشخصه . فهي جهود عائدة عليه ، مردود خيرها اليه . فهو اذ يحب الجماعة . انما يحب شخصه ، ومتعتـه ورفاهيتـه ، واستعلاءه في الناس وعلى الناس ... وتضخم حب نفسه في الجماعة وحب الجماعة في نفسه فكان ما تغنّوا به من-وطن ووطنية ، أو عنصرية وقومية ، وكان ما رددوا أنباءه من تضحية بالمال ، واقتحام للمخاطر والأهوال ، وبذل للنفوس والأرواح . مما سقناه في « قائمة فضائلهم المزعومة » .

مناسر اللصوص

حذارِ يا أخي أن تغتر بظواهر هذا الجنون الوحشي . وسل نفسك دون أن تخدعها : في سبيل أية غاية يبذل هذا المخاطر روحه ؟ انه لسعادة أمته بلا مراء . وهنا أطلب اليك أن تخطو الخطوة التالية فتسأل : من أي سبيل تسعد أمته اذا لم تسعد على حساب الضعفاء من الأمم والشعوب ؟ لقد طلبنا منـذ قريب أن نكون أقوياء ، أقوياء في التحديق في هذه الصور لنتبين حقائقها فنسميها بأسمائها .

أسألك الصراحة يا أخي : هل ترضى للرجل أن يعدو على آخر فيظلمه ويحرمه ، ويسلبه حقه في الأمن والحرية ؟ ان كنت لا ترضاه له ، ولا تقبله منه ، فانك لن تشرح له صدرك اذا ارتكبتـه أمة من

Marfat.com

الأمم ... أي أنك اذا استنكرته من ذلك الأناني الصغير ، فأنت له من الاناني الكبير أشد انكاراً . خبرني بربك : أي فرق بين منسر من اللصوص يقطعون الطريق على المارين أو يغيرون على الغافلين ، فيسلبون هؤلاء وهؤلاء أمنهم وأموالهم ، ليسعدوا بها وأولادهم وأزواجهم أي فرق بين هذا المنسر وبين أمة تصنع الصنيع نفسه ، مع الأمم الضعيفة على تفاوت في بعض الأساليب والوسائل ، لا في الغايات والأهداف ؟ ان الامر لا يعدو أن يكون تدرجاً بالأنانية من حيزها الضيق الى حيزها الواسع ، وتطوراً بالجريمة من حال الفردية والاستخفاء ، الى حال العرف المستعلن في بأس الدولة في غير تأثم ولا ريبة .

فما التضحية ، والتفدية ، والإقدام ، والشجاعة ، والمخاطرة — كل هذه — ما هي الا أسماء يطلقونها على صور الجنون الوحشي، حين ينطلق الرجل لتحقيق غاية من غايات قوميته ووطنه ، أو بعبارة أصح أنانيته الكبيرة ووثنه .

حين ننظر بعين الحقيقة

وما نحسب الظن يذهب بك الى تمني هذه الأنانية الجمعية ، حيث ابتلينا نحن في بلادنا بالأنانية الفردية ، فالشر شر كله ، ولا فضل له ولا خير فيه ، وحين تنظر الى الأمر بعين الحقيقة العليا ، يبدو لك الساعي الى الاثم بمفرده كالساعي اليه في جماعة ، بل قد يبدو لك الفرد أقل بشاعة في أنانيته من الجماعة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، هل فعلت الأنانية الكبيرة أكثر من أن جعلت الشعوب والامم، والدول ، في حال تنافس مستمر ، وعداء شديد ، وتربص دائم ؟ فبعد أن كان الأفراد ينافس بعضهم بعضاً ، زاد الشر فغدت الأمم والشعوب على ما نشاهد الآن من تخريب المدن ، والحصون ، والمرافق ، وابادة ملايين البشر ... فهل ترى يتمنى الشرق لنفسه مثل هذه الأنانية ؟

Marfat.com

يقول قصار النظر : نعم . ونقول : لا . انا لنرجو للشرق والغرب شيئاً غير هذا كله ، سنذكره عما قريب ان شاء الله ؛ وهو الذي يدعو اليه الاخوان المسلمون . ويجهدون لتحقيقه .

عود على بدء

وبعد : فقد كنا نقول منذ قريب أو بعيد : ان للحياة الفاضلة دعامتين :

(١) اعتراف بغايتين (٢) وحساسية في الشعور ، تحقر أولاهما وتصد عنها ، وتسجد الاخرى وتحفز العزائم اليها . ولقد ادعينا أن اكثر الناس يقبلون هذه الحقيقة قبولا نظريا ، ثم تساءلنا : هل لهذه الحقيقةوتر مشدودفي القلب،تنبعث عنهالعزائم الراغبةفي الفضيلةوالبطولة؟ وأظن أني ألتقي مع كل قارىء على أن أوتار القلب التي تهدف الى الغاية العليا . وتقذف اليها بشهب الهمم والعزائم هي أوتار ضعيفة محلولة ... وسوف تبقى هذه الغاية منصوبة معطلة لا تحظى من الانسان الا بالقبول السلبي ، وسوف يظل الانسان موزعاً بين الغايتين . مذبذباً بينهما ، ناظراً بعقله المادي الى الحسنى . مربوطاً بقلبه الى غيرها . حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ...

★ ★ ★

Marfat.com

الفصل الثالث

إلى العلاج

وبعد : فقد وضعنا لهذا الباب عنوان « فقه الدعوة والداعية » وما أردنا به أن نشرح ما هي الدعوة ، أو هو الداعية ، وانما أردنا مسألتين كبيرتين •

الأولى : أن نبين أن العلة الكبرى التي تتسلسل منها علل المجتمع كله ، هي المادية في جميع صورها وأشكالها ، ولا سيما المادية التي حلت في القلوب ، فعلقتها بعبادة المال والشهوات والأهواء المختلفة •

نريد أن ننص على هذه العلة الكبيرة ، التي أورثت الانسانية هذه القلاقل المضطربة في كل صقع ، والعداوة والبغضاء في كل قلب ، والحروب المخربة المدمرة بلا انقطاع ؛ وهم مع ذلك لايلتفتون اليها ، واذا التفتوا لا يجدون العزيمة للتخلص منها •

وكل داعية ، يجب أن يعرف هذه الحقيقة مسلما كان أو غير مسلم ، مادام قد صحت عزيمته على أن ينقذ الانسانية ويسعدها ، وما حسن أن يخبط الداعية في علاج مسألة ما على غير هدى ودراية ،

وان علاج أي مسألة على غير هذا الاساس الذي ذكرت ، لهو علاج ميئوس من نجاحه ، وكل ما يبذل فيه من جهد ؛ انما هو امتداد للداء ، وتأخير للشفاء . فليرجع الداعية المسلم كل ما يعرض له من فساد في أوساط المسلمين ، أو غير المسلمين . الى هذه العلة الكبرى : وليعالج ما هو بصدده بعد ذلك معالجة الفطن بما يجد في كتاب الله عز شأنه من طب وشفاء ...

أما الداعية غير المسلم : فاننا ندعوه الى التوراة والانجيل والقرآن نعم فليأخذ أيضا من القرآن ، ان خلصت نيته في استنقاذ الانسانية . فليأخذ منه ما تهديه فطرته الى أنه صالح ، واننا لعلى يقين من أنه سيجده كله صالحا . وليضرب بأوهام العصبية عرض الحائط . فما حسن في العقول المتحررة المستنيرة أن يدع الانسان مريضه يسير الى الذبول والفناء ويرفض ما يقدمه له جاره من الدواء الشافي . لا لشيء الا لأنه يستنكف أن يعترف بفضل دواء الآخرين .

الثانية : **أن نبين أن حياة الرسالات منوطة بالعقل العاطفي والتنفيذ العملي .**

وذلك يصدق حتى على الرسالات الأرضية . وبدون هذا العقل تظل الرسالة سطورا مطمورة في مجلداتها ... وأفكارا راكدة في أذهان أصحابها . فالنازية مثلا ظلت فلسفة باردة تقرأ في الكتب وتدرس في الجامعات ، حتى تلقفها وجدان هتلر فغلى بها وفار . ونهض ينادي في حماسة وقوة وثقة ، حتى أخذت قلوب الشعب تتهيأ لرسالة هذا الزعيم الجديد ، وتنتقل بالتدريج الى ما يشاء . وساعدته ظروف الزمان والمكان حتى صارت النازية عقيدة راسخة يقاتل الشعب في سبيلها ، رغم ما فيها من حماقة وسخافة .

Marfat.com

أصلان كبيران

ونخرج من هذا بأصلين كبيرين : أن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية في أعصابه ، متوهجة في ضميره ، تصيح في دمائه ، فتعجله عن الراحة والدعة ،الى الحركة والعمل ، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله ... وهذا هو الداعية الصادق ، تحس ايمانه بدعوته في النظرة ، والحركة ، والاشارة ، وفي السمة التي تختلط بماء وجهه وهو الداعية الذي ينفذ كلامه الى قلوب الجماهير فيحرك عواطفهم الى ما يريد من أمر دعوته .

ولا نقصد بهذا أن يكون الداعية رجلا مهرجا ، يصطنع الحماسة ليلعب بحماسة الجماهير لأتفه الغايات ، ويثير مشاعرهم اثارة مصطنعة، فذلك شأن الدخيل المدّعي لما ليس فيه ، بل نريد الصنف المفطور على يقظة الطبيعة ، الذي يتكلم فتتكلم أسرار الدعوة في ألفاظه ونبراته ، وهو اذ يفعل ذلك لايثيرهم الى باطل ، بل يهيئهم لقبول الحق الذي يألفه العقل والفطرة ... واذا كان هذا لازما للرسالات الأرضية على ما فيها من باطل ، فهو ألزم للاسلام ، لأنه رسالة الحق الخالص ، وبين الحق وفطرة الانسان نسب ، فكلاهما من روح الله ، فاذا أثرت حماسة قلب المرء الى حقائق هــذه الرسالة ، رأيت فطرته تسرع اليهــا اسراع الأليف الى أليفه في غير انكار ولا تردد ، وتقبل عليها في معرفة وثقة ويقين ، بل في لذة وشوق وحنين « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنــا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله في كل فطرة ، والفطرة السافرة التي لارين عليها اذا سمعت الحق يتلى في أي وجه ، أحست أنــه صدى أحاديثها ، وصورة ما هــو مكتوب في أطوائها « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العــلم ، وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » .

Marfat.com

فاذا رأيت نفسك ياأخي راكـد العاطفـة ، منطفىء الحماسة لرسالتك ، أو اذا وجدت من نفسك أنك تقبل علينا لتكون خطيبا ، يعجب الناس ببلاغتك ، فاعلم أنك ـ على الحالين ـ في حاجة الى فهم جديد لدينك ، هو الفهم العاطفي ، والتصديق القلبي ، هو الايمان القوي الذي يشغل ضميرك بدعوتك في كل لحظة ، فتذكرها في نومك ويقظتك ، وعلى طعامك ، وبين أهلك ، وفي حلك وسفرك ، وفي كل مجالسك ، اذا قصدت انسانا فللدعوة ، واذا سالمته أو عاديته فلها ، واذا فرحت أو حزنت فمن أجلها . وبالجملة تكون هي المسألة الأولى الحاضرة لديك في كل وقت من أوقات حياتك ... هي صلب الحياة ولبها وصميمها ، وأمور عيشك على هامشها وأطرافها ، ولا تظن هذا كثيرا عليك ، فأنت داعية ولست مدعوا ، وشتان ما حال هذا وذاك .

أقبل على دعوتك ياأخي هذا الاقبال ، واصنع لها هذا الاهتمام . وتكلف في صدق أن تكون لها ، واغمر نفسك في محيطها . وأكثر الاتصال بمرشدها وقادتها وأنصارها ، فانـك لاتلبث أن تكـون كذلك ـ ان شاء الله ـ كالسيف اذا شحذه صاحبه ، زايله صدؤه وصار مرهفا بتارا .

هذا الأصل هو ما يتعلق بالكلام عن الداعية .. أما الأصل الثاني فهو ما يتعلق بالدعوة .

فما هي الدعوة مجردة عن التعريف الفني والحد الاصطلاحي ؟ هي : نقل أمة من محيط الى محيط ، تلك هي مهمته ، وفيها يندرج مجمل منهاجه ومفصله ، ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته .

الدعوة والاصلاح

هناك جماعات تظن الإصلاح مدارس تنشأ ، وجامعات تقام ، وترعاً تحفر ، ومصحات تبنى ، ومصارف تدبر المـال ، ومصانع

تسد حاجة البلاد ، الى آخر ما هنالك مما يدور على ألسنتهم ، ويشيع من أنديتهم وصحفهم ، وليس هذا من الإصلاح في شيء ، انما هو ضرورات حيوية ، يجب أن يسار اليها ، مع منطق الحاجة الاجتماعية ، أما أنها هي الاصلاح والإنقاذ فلا .... أرأيت لو أن انساناً رأى غريقاً جائعاً أشرف على الغرق ، فشرع يبحث له عن طعام يسد به جوعه . ماذا تكون نتيجة حماقة هذا الانسان ؟ وماذا تكون نتيجة حماقته لو أنه ترك مريضاً ومرضه فلم يستدع له الطبيب ، واستدعى معلماً يعلمه الحساب أو شيئاً من هذا القبيل !؟؟

ماذا أغنى الاهتمام بالترع والجسور والمدارس والمصانع والمسارح والصحف وغيرها في أوربا ؟ ماذا أغنى الاهتمام بهذا ــ والروح مريض ، والاتجاه القلبي فاسد ، ماذا أغنى ذلك غير الاضطرابات والقلاقل والمبادىء التي تقوم ثم تزول ، والحروب التي تنطفىء ثم تستعر الى ما شاء الله .

أيها الداعية ، أنت بصدد أمة ، بل بصدد انسانية تعيش في محيط آسن خانق ، ومهمتك أن تنقلها الى المحيط العذب الفسيح الهنيء ، من محيط المادية الى محيط الربانية ، من محيط قلبي الى محيط قلبي آخر . ثم أنشىء لها بعد ذلك ما تدعو اليه ضرورة الحياة الجديدة .

فأقبل بقوة على غرضك ، واجمع له عزيمتك ، ودبر له خطتك ، واستفت رسالتك دائماً فيما تريد عمله . فإن أفتتك بطبع كتاب فاطبعه وانشره ، وان أفتتك بفتح مدرسة فافتحها ، ولا تظن هذا يناقض ما حملت عليه سابقاً ، فإنك تفتحها وتنشئها لنقل التعليم من محيط الى محيط ، ونقل القلب من حال الى حال .

Marfat.com

وهناك كتّاب يظنون أن الاصلاح مقالات تكتب ، أو تؤلف ، فتصف لنا ما في الغرب من علم وسياسة ، ونظام وحرية ، وأسلوب خاص في الاستمتاع بلذائذ الدنيا ، فإذا كتبوا أو ألفوا أو نشروا . ظنوا أنهم أدوا رسالة ، وخدموا أبناء وطنهم •

هذا الصنف قد يعجبك ويدهشك بكثرة اطلاعه على ما للقوم من علم وفلسفة وأدب وأوضاع اجتماعية وسياسية ونحوها . قد يدهشك بهذا ••• أما أن هذا هو الرسالة الواجبة عليه لوطنه فلا •

اقرأ مقالة له أو كتاباً ، فإذا أحسست أنه ينقلك من محيط الى محيط ، ويكشف لقلبك آفاقاً روحية جديدة ، ويهدي اليك نفسك ، أو بعض نفسك، ويدعوك في قوة وايمان الى الربانية الشاملة التي تهيء لك حياة صالحة سعيدة ، فيها للقلب حقه من معرفة الله ، وللبدن حقه ، فهو داعية فطن خبير ، أما اذا قرأت فلم تجد الا انساناً يتحدث ليسليك ، أو ليعرض عليك بالقلم ، ما يصح أن تراه في السينما أو الصحف المصورة ، أو ليطلعك على نوع ثقافته وكثرة معارفه . اذا قرأت فلم تجد الا هذا ـ فاعلم أن صاحبك ببغاء مطموسة . لأن علمه لم يفتح له بصيرة ، ولم يفقهه بحقيقة ما نحتاج اليه في النهوض والاصلاح، انه ظن أن ما عند القوم هو المثل الاعلى لما تنشده الانسانية من حضارة ، وهذا جهل محض لا يزيله أن يستكثر صاحبه من معارف القوم أو يصطنع من أساليب معيشتهم ، فإنه بهذا لا يزداد الا امعاناً في ضلاله وضلالهم •

عبيد يتغنون بمجد سادتهم

ولو أنه وثق بنفسه واعتز بشخصيته • وأخذ ما تعلمه أخذ الناقد المحص لاستبانت له الحقائق ، ولأهدى لأمته خيراً كثيراً • ولكنه

ألقى بكل ذلك عن كاهله ، وألغى وجوده وارادتــه ، وأسلم نفســه لسادته يملأونها بما يشاءون . ويفرغون فيها ما يريدون ... وهذا شر أنواع الاستعباد ، لأنه الفناء التام للشخصية ، ومن هنا تجد صاحب الثقافة الألمانية يتغنى بألمانيته ، وصاحب الفرنسية يمجد فرنسيته ، ومن تعلّم في انجلترا فالانجليز مثله الأعلى ، وهكذا ... وحسبك من هؤلاء جهلا وضلالة ، بل عمى وبلادة ـ أن أحدهم لا يشرع قلماً يعيب به على ســادته أنهــم يستذلون الضعفاء ، ويحتلون أوطــانهم ويستأثرون بثرواتهم ، بل انه لا يكف عن التغنى بما يتوهم لهم من مزايا ومآثر ، فما رأينا مثلا كاتباً ذا ثقــافة فرنسية أعلن على فرنسا حرباً بيانية على احتلالها تونس والجزائر ومراكش والسنغال والصومال ، وما الى ذلك من أقطار تأتّى فيها من المآسي الانسانية مالا يطيقــه ضمير الحر الأبي الكريم(١) ، هل تراه وقف يرســل النداء الحار من أعماق قلبه ، ويصب صواعق غضبه ، على هؤلاء الأنانيين الغلاظ ؟ . لا . انه يعمى عن ذلك كله ، ولا يرى الا محاسن سادته وأساتذته . وما تفيض به بلادهم من حياة الاباحة والمجون .. واني أدعوك يا أخي الى أن تشك في علم هؤلاء وفهمهم وانسانيتهم ، فإن الذي لا يفهم رسالته ، لا يعول عليه ، والذي يخذل الخير ، لا خير فيه ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

هذا النوع من الكتابة الذي لا ينقلك من محيط الى محيط ، بل يمعن بك في محيط الحضارة الآلية الصماء ـ لا ينبغي أن يكون نهجك في الكتابة ، وهؤلاء الكتاب يجب أن تعرف منذ الآن زيفهم وحقيقة جهلهم ، فلا تغرنك ألقابهم وشهرتهم . وليكن همك الأول من قلمك أن تنقر به على قلب ليستيقظ ، وتنفث منه في نفس لتهب وتنهض ،

(١) كتب هذا الكلام قبل تحرير هذه الدول .

Marfat.com

وتعلم به باسم ربك الذي خلق مالا تعلمه الكتابة العادية من ظواهر العلوم والفنون ... اذكر دائماً أنك قائد ، وأنك طبيب ، واذكر دائماً أن مهمتك الكبرى هي احياء الضمائر واثارة الهمم الى المثل العليا .

الدعوة والوعظ

وأريد للداعية أن يعرف أن نهجه في الوعظ هو نفس نهجه في الكتابة ، وأن مهمته في الحالين هي مهمة الأنبياء ، هي تغيير ما بنفوس الناس حتى يغير الله ما بهم من فساد ، وكل وعظ لا يبلغ هذا الهدف . أو لا يرمي الى هذه الغاية فهو جهد ضائع ، وعمل باطل .

لا يكن كل همك ياأخي أن تتظرف بالنكت اللبقة . والفكاهات البارعة ، ليقول الناس انك مجدد في الوعظ . وعند هذا تنتهي مهمتك ، ولا يكن همك أن تسلّي الجمهور . وتقضي معه ساعة في حديث لا يرمي الى هدف ... لا تكن كذلك الذي يقبل على الناس في حذر وخفة . فلا يمسهم الا مساً رقيقاً كأنما يخشى عليهم أن يتكسروا، فيسوق لهم من قصص التاريخ،وحكايات السابقين وأسباب نزول آيات القرآن الكريم ، مالا صلة لبعضه ببعض ، ومالا يؤلف بمجموعه موضوعاً ذا غرض معين ، وهدف مقصود ... لا يريد بما يسوق الا أن يجلس الناس من حوله ، فيستمعوا له ثم يخرجوا ، وقد أسعدهم بوقت قضاه معهم في مؤانسة ، ومتعة عاطفية بريئة ... هذا وعظ سلبي لا شأن لك به ، ولا مقام له في رسالتنا . ان رسالتك تقتضيك أن تدخل على مشاعر جمهورك في حكمة ، فتحرك وجدانهم . وتستثير عواطفهم الى الله ، فإذا تأتى لك ذلك ولانت نفوسهم لقولك ، فاصنع منهم ما تشاء صنعه ، أبنْ لهم عن غرضك . وابعث بآمال قلوبهم الى ما تحب أن يصلوا اليه ، فإنهم مستجيبون لك ان شاء الله .

Marfat.com

أيها الأخ : حذارِ الوعظ الجاف ، الذي لا حياة فيه ، وحذارِ الوعظ الركيك المفكك الذي لا غرض له ، وحذارِ أن تقف موقفاً وأنت لا تنوي أن تخرج منه بصيد ... أنت صياد ماهر فاطرح شبكتك ، وانقل ما يخرج لك منها الى محيط آخر ، محيط الإخوان المسلمين ،محيط دعوة الله ورسوله .

قد يكون الوعظ السلبي ضرورياً في وقت ما ، ولكنه على كل حال ضار في أوقات النهضات ، وارادة التخلص من الفساد العام ... فاذا استوت النهضة على أمر الله ، وتخلصت الأمة من الفساد ، جاء دور الوعظ السلبي الذي يحذر ويزجر ، ويمنع ، لا الذي يثير ، ويغير ، وينقل ... وتكون مهمة الواعظ حينئذ أشبه بالطبيب الذي يقوم على رعاية الجسم السليم بالوقاية ، ويأخذ بالحكمة الطبية المعروفة « الوقاية خير من العلاج » .

أيها الأخ : هذه هي الدعوة ، وهذا هو الداعية ، وهكذا الفهم، فافهم دعوتك به ، والله يؤيدك بروح منه ، ويهدينا واياك سواء السبيل .

* * *

Marfat.com

الباب الثاني

مـزاج الدّاعيـة

تمهيـد :

نقصد بمزاج الداعية ما يلزمه من عدة عقلية ، وروحية ، ونفسية، فلا بد له من :

١ ــ عقلية واقعية تصويرية ، لا نظرية .

٢ ــ حياة روحانية يحياها فيما وراء المادة ، على أن تكون روحانية اجتماعية ، لا تعتزل الناس ، ولا تدع الأخذ بالأسباب ، فذلك من الجهل بقوانين الله وسننه .

٣ ــ طبيعة ايجابية تنفيذية لا سلبية .

وقد تكون هذه العدد واضحة قوية في مزاج الداعية ، فهي طبيعية لديه ، وقد لا تكون كذلك ، فعليه أن يحاول كسبها بالتجربة والممارسة ، والمران ، فإنه لن يحرم نصيبه الكسبي منها ان شاء الله .

Marfat.com

الفصل الأول

العقلية الواقعية

قلنا ان مهمة الداعية هي : نقل الأمة من محيط الى محيط •وليس هناك ما هو أصعب مراساً من الإنسان ، فهو كثير المراء والجدل ، سريع الانتقاض والعصيان ، شموس لا يسلم زمامه الا لهواه ؛ ومن هنا ترى مهمة الداعية شاقة . فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه انسان الى خطوة واحدة يكرهها ، ولكن ما أطوع الانسان لنداء قلبه اذا ناداه الى خير أو شر ؛ وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد ، ونفقة المال ! بل ما أجمل ذلك وألذه لديه !••• القلب هو القوة العجيبة التي تسخر هذا العاصي العنيد في مشيئتها ، وهذا من حسن حظ الانسان ، فإن الداعية الحكيم يستطيع أن يركز جهده ، وانتباهه في مخاطبة هذا القلب ، ومحاولة ارضائه ، والنفوذ اليه ؛ حتى اذا امتلك عنانه ، قاده في رفق ورضى وسرور ، الى الاصلاح الذي يرجوه له •••

أسلوب القرآن في عرض الحقائق

ولكن كيف نخاطب هذا القلب ؟ وبأي أسلوب نعرض عليه المعاني الربانية ؟

Marfat.com

هناك من يعرض معانيه عرضاً نظرياً عقلياً محضاً ، لا هم له الا أن يستوعب العلل والمعلولات ، ويتعمق في التفكير التجريدي ، ليحيط بالكليات والجزئيات ، ومختلف الفروض والحقائق ، فاحذر أن تكون مثلهم في مخاطبة الناس ، فهو منهاج لا تحرك به الجماهير ، ولا تثار به النهضات • فالداعية حق الداعية ، هو الذي يواجه الواقع العملي ويصلح بسنة الله ما شذ عن سنة الله ، في بساطة لا تعقيد فيها ولا تكلف •

ألا ترى أن الله عز شأنه حين عرض علينا الحقائق والمعاني والفلسفات ، عرضها عرضاً عملياً محسوساً ، ولم يعرضها عرضاً نظرياً ! فقدرته مثلا لم يحدثنا عن كنهها ، وكيفها ، وعن أسرارها الخفية ومعانيها التجريدية ؛ بل عرضها عرضاً سافراً في مخلوقاته ، فأنت تراها في البحر والجبل ، والزهر والشجر ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك مما تقع عليه العين في الارض والسماء •• وفي هذا العرض العملي مقنع لإدراكها ، والشعور بها •

ولم يحدثنا عن فلسفة الموت والحياة ، بل ساق ذلك فيما نراه كل يوم من مواليد ووفيات ، وتطور بين الميلاد والوفاة . فما عليك الا أن تنظر وتتأمل ، وتدرس ثم تعتبر • ويرى الله ــ والحق فيما يراه ــ أن في هذا القدر كفاية ، اذ لا تتسع طاقتنا العقلية لأكثر منه ، ولا يتعلق نفعنا المادي والروحي بما وراءه •

وغرائز الانسان : حبه للبقاء ، ورغبته في العلو والاستئثار ، وميله الى الزوج • هذا وغيره صفات أو قوى مستترة في كيانه . فهل أنزل الله لنا في ذلك كتاباً فلسفياً يشرحه شرحاً عميقاً ويحيط بحقائقه؟ نعم أنزل فيه كتاباً ولكنه كتاب الطبيعة ••• كتاب الحياة التي تشرح أسرار

Marfat.com

الإنسان كل يوم ، بل كل ساعة ، بل كل دقيقة ، شرحاً ، فكل أعمال الانسان ان هي الا تفسير لقواه وغرائزه المستكنة فيه •

ضرورة الأسلوب التصويري

فهـؤلاء المتعلقون بالنظريات المعنـة في الفروض ، يفسدون أنفسهم حين لا يسايرون قوانين الحياة ، ثـم يحاولون أن يفسدوا على الناس نظام طبيعتهم السهل وأنت تريد أن تنهى عن رذائل ، وتصد عن حضارة فاسدة ، وتريد أن تدعو الى فضائل ، وتهدي الى حضارة صالحة ، فاتبع سنة الله في عرض المعاني ، واعرض دعوتك في صور عملية ، تمشي على قدمين ، وتسعى على الأرض ، وتؤثر في الناس ، فذلك سبيلك الوحيد الى بث الحياة في القلب ، والحركة في العقل • وحين تدب الحياة والحركة في الانسان : قلبه وعقله ، فقد حيّ الحياة التي ترجوها له ••• واياك ومنهج النظريين ، فإنه يمل الناس ويصرفهم عنـك •

أما الأساليب التصويرية التي تدخل على القلوب بدعوتك فنذكر منها ما يأتي :

أولا القصـة

تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة ، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم وأخلاقهـم ، وأفكارهم ، واتجاهات نفوسـهم ، وبيئتهم الطبعية والزمنية•تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش ــ عرفت ما يستكن في النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل

Marfat.com

الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأي العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيى بينهم .

وتمتـاز القصة كذلك بأن النفس تميـل اليهـا ، فغريزة حب الاستطلاع ، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصي البارع ، استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه الى أعماق القلوب ، فهي بالميزة الأولى تعرض هـذه التعاليم في صورة عمليـة حيـة تحرك الوجدان . وترفـع نبض المشاعر .. وهي بالميزة الثانية : ميزة التنبه والتقبل . تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار .

فاستمسك بذلك يا أخي فهو من سنة الله ، والله عز شأنه قد سنه في القـرآن الكريم ، فقص على رسوله أحسن القصص ، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتاً له ولأمته على الحق « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما تثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » .

وخير القصص كله ، قصص القرآن الكريم ـ شرح الله صدرك له ، وأنار بصيرتك بما فيه والى ما فيه ـ لقد أحكمت به عروة العقيدة، واكتمل نظام الأخلاق ، واشتدت بـه أركان الحضارة الإسـلامية ، فكانت أوفى وأكمل الحضارات ...

مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلا قصة سليمان ، وملكة سبأ ، ولا تؤاخذني ان قصّر بي العجز عن الإحاطة بمراميها القيمة البعيدة .

ان هدهداً كشف لسليمان عليه السلام ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث اليهم سليمان أن يسلموا لرب العالمين ، فحاولوا استرضاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئاً ، فقد رفض المال وأوعدهم وأنذرهم جنوداً لا قِبَل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان وجاءوه مسلمين •

وفي هذه القصة يقرر الله تبارك وتعالى القواعد الأصيلة ، المادية والروحية ، التي لا بد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتـي :

١ ـ قوة وعلم

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعـلم •

فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الأسلحة والآلات •

والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك الى معرفـة قوانين الوجود وسنن الطبيعة لتسخير ما يمكن تسخيره منها في منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله عز وجل •

هـذا أصل صالح من أصول الدولة • ذكره الله عز وجـل في مواضع كثيرة من كتابه : « قالوا : أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟! قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم » ولكن الله عز شأنه لـم يقف بنا عند حـد الترسيم والوصف النظري لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكا عملياً ، ودولة نموذجية ، لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان • في معالم ملكها الشامخ ،

فنحتذي حذوها على بصيرة ، فإن لم نبلغ هذا المثال ــ ولن نبلغه[1] ــ فلنحقق منه ما تتسع له الطاقة .

القوة في قصة سليمان

ان الله عز وجل يريد لنا ملكاً عملياً ، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ثم أوردها محققة في ملك سليمان لنكون عمليين في بناء المجد ، لا كلاميين ، ولا نظريين . فما القوة هنا ؟ وما كثافة الجند ؟ اقرأ معي قول الله عز وجل : « وحُشر لسليمانَ جنودُه من الجن والإنس والطير فهم ــ من كثرتهم وتزاحمهم ــ يوزعون » يدفعون حفظاً لنظامهم ، وابقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم . وهذه الجنود الكثيفة التي لم يعرف لها مثيل في تعدد أجناسها تبعث الرعب في جميع الآفاق ؛ حتى ليدخل الوجل في قلوب النمل فضلا عن غيره ، فإذا « أتوا على وادي النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ؛ لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » .

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده . وأنها لا يقف لها شيء في الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

أرأيت ــ يا أخي ــ الجند مصوراً هذا التصوير الرائع في مثل هذا الكلام اليسير الموجز ؟ وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحي الجند الا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، القاؤه الرعب في قلوب المخلوقات ، حتى اليسير منها والتي لا قصد للجنود اليها ، وكونه جنداً غالباً مظفَّراً على أعدائه في كل المواطن . فتبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم !

---

(١) ملك سليمان عليه السلام لا ينبغي لأحد من بعده كما ورد في القرآن الكريم .

Marfat.com

ثم أين العلم في هذه القصة ؟ وأين رسالته التي أداها للدولة ؟ اقرأ معي قول الله عز وجل : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عبـاده المؤمنين ، وورث سليمان ـ ميراث نبوة وعلم ـ داود » •

وهذا العلم الذي أشار الله اليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات ، وسائر أنواع العلم في قوله : « يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهو الفضل المبين » •

فأما منطق الطير وغيرها ، فانك تراه في حواره المعروف مع الهدهد كما سيأتي ،وتراه كذلك في فهمه ما قالت النملة التـي أنذرت ذويها بجنده ليدخلوا مساكنهم •

وأما ما عدا اللغات من سائر أنواع العلم ، فهو قوله « وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهو الفضل المبين » •

ونرجو أن تتأمل قوله عز وجل : « ان هذا لهو الفضل المبين » فسيأتي بعد قريب تفسير هذا الفضل بأنه هو العلم معترفاً به على لسان سليمان الشاكر الذاكر عليه السلام •

وأما ثمرة هذا العلم العملية في الدولة ، فهي السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة ، ليسخرها أهله في منافع الدولة كما تقدم ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يأتي :

لما أيقن أهـل سبأ وملكتهم أن سليمان عليـه السلام ليس ممن يعملون للمال ، وأنه لا بد آخذهم بالبأس الماحق ان لم يسلموا ، خرجت الملكة في وفد كبير ذاهبة اليه ، فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد عليه السلام أن يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم للايمان ، فقال

لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود : « ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ... فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي » أرأيت الذي عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل ، والإمام الفاضل، والنبي الصالح ؟... وهذا الذي عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على سليمان ليكونوا في خدمة ملكه ، فلما تحقق فضل الله بتسخير هذا العلم عملياً ، اعترف به فقال : « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربي غني كريم » .

وفضل الله كما تراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فانك تقرأ في هذه السورة : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » وتقرأ في سورة أخرى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوّبي معه والطير ، وألنّا له الحديد » فسبحان الله العظيم : مسخر الأسرار للعاملين في الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهداً لتسخير العلم والقوى الطبعية ، فهي وحدها كافية لتصوير المراد ، والا فانك تجد تسخير الطبيعة لملك سليمان في آيات أخرى « ولسليمان الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر(١) ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه. ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من

---

(١) عين القطر : عين تفيض بالنحاس المذاب .

Marfat.com

محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » •

هذا شأن العلم والقوة في هذه القصة ، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكمله كما رأيت •

٢ ـ ورسالة

ولا بد للدولة من رسالة ؟ مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف اليها قوتها وعلمها ، فما هـذه الرسالة ؟ هل هـي اتسـاع الملك ، وكثرة المستعمرات والاستيلاء على أراضي الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك أن تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد في الأرض رسالة مجيدة ؟ ان علم الله أرفع من أن يسخر لمثل هذه المخازي والمآسي ، وان الله عز وجل أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة •• ان الغاية الفاضلة التي يجب أن تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها ، غير ناظرة الى شيء سواها ، هي : توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الإيمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ••• يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل ، يجب اقامة النظم السياسية ، والتشريعية ، والعملية ، التي تكفل استقرار الناس في ظلال هذه الغاية ، فان استقر ذلك بالتي هي أحسن فبهـا ونعمت ، وان استعصى الأمر على الوسـائل السلمية فلنتذرع بالتي هي أحسن أيضا ، وليس أحسن في هذه الحالة من القوة المسلحة ••• فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له ما لنا ، وعليه ما علينا ، والا فلن نكف عن أعداء الله ، حتى تطهر الأرض من رجسهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » •

Marfat.com

تلك هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنهم عاشوا لها : لتطهير الأرض من الرجس ولتثبيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله» وأثنى على القائد الصالح القوي صاحب سورة الكهف ، الذي آتاه من كل شيء سبباً ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعونتهم « قلنا : يا ذا القرنين ، اما أن تعذب ، واما أن تتخذ فيهم حسناً » فوضع لقوته دستوراً صالحا ، يعذب عليه أو يثيب « أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً ».

وهذا حسن في موضعه بالغ درجة الحسن ، لأن الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هـذه الغاية والنص عليها ، أما حين أراد تصويره عمليا فقد أقامه لنا في قصتنـا الخالدة ، في منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والاعجاز ، اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد : « اني وجدت امرأة تملكهم ـ سبأ ـ وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » .

وهذا ضـلال في العقيدة .. وضـلال في العمـل ، يفسدان على الدولة غايتها ويقودانها الى شر المصير .. وهل صلاح الحياة ، الا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ .. وبعد أن بين الهدهد فساد هذه الدولة عقيدتها وأعمالها ، استمر في بيان العقيدة الصالحة التي يجب أن تبنى عليها الانسانية أفراداً وجماعات : « ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » وترى سليمان عليـه السلام ، وهو رئيس

Marfat.com

الـدولة الأعلى يعمل لهـذه الغاية نفسهـا ، وفق مـا يحكيه الله عن الهدهد ، فيرسل الى سبأ بهذا الكتاب الموجز الحكيم ، يدعوهم الى الاسلام لله : « انه من سليمان،وانه : بسم الله الرحمن الرحيم،الا تعلوا علي وائتوني مسلمين » ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الاسلام ، فيهدد ما يهدد بالقوى المسلحة الجبارة • حتى تقول ملكتهم في النهاية : « رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » •

ألا ترى يا أخي أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقاً عاملة لهذه الغاية الكريمة ، أولا ترى أن هذه الغاية واضحـة جميلة في النسـق التصـويري المحكم الذي ساقها الله عز وجل فيه •

٣ ـ ايمان الرئيس الأعلى وعنايته بكل شيء

والحقيقة الثالثة في هذه القصة تبين لنا أن من تمام نظام الدولة ، أن يكون رئيسها الأعلى عالماً بغايتها ، مؤمناً بها ، عاملا جهده لها • هذه واحدة والأخرى أن يكون يقظاً ومتنبهاً ، متعهداً لشؤون رعيته صغيرها وكبيرها ، حـازماً في محاسبة المسؤولين ، فان لم يكن كذلك انحل التناسق في قوى الدولة وانفرط عقدها • وهذا كلام لا غبار عليه ولا تردد في قبوله ، فلا نطيل في الاستشهاد له من كتاب الله ، ولنلتمسه مصوراً في قصتنا أبدع تصوير • « وتفقد الطير فقال : مالي لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ » ••• ألا تراه عليه السلام معنياً برعيته ، يتفقدهم ولا يهملهم ؟ والذي يعنى بتفقد الطير ، لا يفوته أن يتفقـد ما هو أهم منه ، وذلك استقصاء كامل في رعاية نواحي الدولة ، والعناية بأمرها ••• ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنتـه الحساسة اذ يفطن الى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق المحشورة له . فيقف متسائلا : « مالي لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ » وهذا مثل أعلى في يقظة الحس ، من العسير ان لم يكن من المستحيل

Marfat.com

على بشر عادي أن يدركه ، ولكنه من الأمور الميسورة لنبي من انبياء الله ، ينظر الاشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى في اليقظة ، ينصبه الله عز وجل ، ليحتذيه كل من ولي من أمور الناس شيئاً ، وانظر اليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب الهدهد ، ويسأل عنه ، ويتوعده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرني بربك ، ما قيمة هدهد في هذه الجيوش الجرارة ؟ ما غناء هذا الهدهد اذا حضر ، وما مضرته اذا غاب ؟... هو القائد الحكيم يا أخي ، يرى أن لكل شيء رسالة صغر أو كبر . ولكل جندي عملا لا يؤديه غيره ، فاذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق في العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ، ومن هنا يعظم في صدر القائد الحساس ، مايقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازماً في مؤاخذة أصحابها مؤاخذة تحمل العذاب الشديد . وتمتد الى عقوبة الإعدام « لأعذبنه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين » وفي المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكنا نكتفي بالاشارة الى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان ، هذا المثال ، ليعلمنا أن الذي يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماماً ، وأن الذي يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو تافهاً ، لا يمكن أن يفرط في المؤاخذة على الأخطاء الجسيمة .

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال : « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » .

وأما ايمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون الى غيرها . من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة الى آخرها ، فليس له هدف الا الله ، وتسخير كل شيء لله . وحسبك منه انصرافاً عن كل ما عدا الله . أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم . وقال هذا القول الذي يصور اعراضه عن المال، وتهكمه بأهله أصدق تصوير ، فلما جاء سليمان

Marfat.com

قال متهكما : « أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع اليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف ما يشبه ذلك : «قالوا : ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض — فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال : ما مكني فيه ربي خير — من المال — فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً » •

٤ ــ ايمان أفراد الشعب برسالة الدولة

ورابعة ننقلها من هذه القصة ، ولا بد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ، وكل ما مضى مما قررناه ، يصبح عديم الجدوى ، اذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا الى غير هذا الاتجاه ، وأنت ترى الهدهد ، يعتز بواجبه ، ويقول في ثقة المؤمن العامل لغايته العليا مخاطبا سليمان ، وهو حاكم الجن والإنس : « أحطتُ بما لم تحط به ! وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، اني وجدت امرأة تملكهم و ••• الخ » ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة ، أن نتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وانما هو خطاب الذي رضي عن نفسه ، واطمأن الى أداء واجبه ، فهو لا يعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوي ، ولو كان هو سليمان حاكم الإنس والجن •

يا أيها الناس ، يا أيها الشباب ، أعرفوا واجبكم • واسعوا في صدق الى غايتكم ، فان أمة لا يساوي رجالها هدهداً لهي أمة من الغثاء والهباء ، وان أمة هدهدها خير من رجال لهي أمة مقعدها في السماء فوق هامة الجوزاء •

Marfat.com

وماذا بعد هذا في هذه القصة يا أخي ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل كما رأيناه في دولة سبأ ، لا يخلق الا رجالا لا عقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذي جمعته بلقيس ، لتستشيرهم فيما نزل بها من خطب جسيم ، فلم يكن عندهم من غَنَـاء ، الا أن قالوا : « الأمر اليـك فانظري ماذا تأمرين » وما جمعتهم لهذا ، وانما جمعتهم لتقول لهم : « ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » فلم يسعفوها برأي تستأنس به . وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة • ولا تنبته الا عقيدة زائفة . ونظام من العمل فاسد مضطرب • فالعقيدة العقيدة أيها الاخوان •

★ ★ ★

نحن في هذه القصة أمام أربع معانٍ دقيقة خطيرة . لا تقوم دولة عظيمة الا بها •

(١) قوة وعلم (٢) رسالة مجيدة (٣) ايمان الرئيس الأعلى وتفقده في انتباه ــ كل شيء (٤) ايمان أفراد الشعب بغايتهم وشدة اخلاصهم لواجبهم ••• فخبرني يا أخي ، لو أن قصصياً من الأفذاذ النوابغ ، أراد تصوير هذه المعاني الجليلة ، أكان يعرضها عليك في مثل هــذه القوة ، وفي مثل هذا الوضوح الذي يفوق ضــوء الشمس في شدة جلائه ، أو كان يعرضه عليك في مثل هذا القدر الوجيز من البيان الرائع المعجز !!•

ولسنا بصدد اعجاز القرآن فنحدثك عن احكام التعبير . ودقــة التركيب ، وسداد مرامي الارشادات ؛ أو نحدثك عن خــلود المعاني والقوانين الصحيحة التي ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع من أسرار الاعجاز ، اذ لا يلتفت الى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر ••• لا يحيط به الا الله الذي خلق كل شيء وأحاط بكل شيء علما « ألا

يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » وصدق الله العظيم : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » •

أقول : لسنا بصدد شيء من اثبات هذا الاعجاز القرآني ، وانما بصدد طبيعة القصة، في عرضها للمعاني الدقيقة عرضاً مصوراً في حوادث عملية • ونحسب أن قد قمنا في تحليل هذه القصة بقدر يكفي للاقناع بما قصدنا اليه •

والآن نسوق لك القصة بأكملها في نسقها الإلهي المعجز ؛ قال عز شأنه في سورة النمل : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون • حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون • فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين• وتفقد الطير فقال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين • لأعذبنه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين • فمكث غير بعيد ، فقال : أحطتُ بمالم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين • اني وجدتُ امرأة تملكهم ، وأوتيتْ من كل شيء ، ولها عرش عظيم • وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون • ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبْء في السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون •الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ، قال : سننظر أصدقت أم كنت من

Marfat.com

الكاذبين • اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون • قالت : يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين • قالت : ياأيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين • قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون • واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون • فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟! فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون • ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ، ولنخرجنَّهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين • قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين • قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربي غني كريم • قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون • فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو،وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين • وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، انها كانت من قوم كافرين • قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال : انه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » •

وأنت ترى في القصة بعد تلاوتها الآن أن فيها غير ما قدمنا لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار ، وسوء عاقبته على الذين يحل بهم في قوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة

آهلها أذلة » • وان هذا ديدنهم في كل زمان ومكان « وكذلك يفعلون » فلا ينفكون عنه ••

وترى فطنة بلقيس ، وتوقد ذكائها في ادراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الذكاء في تريثها ، واختبار حقيقة سليمان ، فانها لم تحاول أن ترشوه بالمال والا كانت غبية • وانما حاولت أن تختبر حقيقته ، فان كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضي بما يدفع له من خراج ، واذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها اليه في خطابه ــ فسوف يرد الهدية ولا يقبل الا السيف ، فاذا تبين لها ذلك كان حقاً عليها ــ وهي العاقلة الذكية ــ أن لا تتردد في مبايعة هذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة •••

وهو الذي قد كان كما ترى في القصة ••• ومحاولة الاختبار تلمحها في قول بلقيس : « واني مرسلة اليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون » فقولها فناظرة بم يرجع المرسلون ــ يضع يديك على رغبة الاختبار الذي قصدت اليه ••• وتلمح هذا الذكاء أيضاً حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكّروه ، فغيروا معالمه بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : انه هو ، لأنها تركته وراءها في بلادها والمسافة بعيدة ، ولكنها في الوقت نفسه لم تقل ليس عرشي لأنها تراه بكثير من معالمه وصفاته ••• ولم تقل لا أدري لأنه غباوة وبلادة ذهن ، فخرجت من هذا السؤال المحرج ، بهذه الاجابة الكيسة اللبقة ، التي ما كان يصلح للموقف غيرها ••• فقالت : « كأنه هو » •

وترى في القصة غير هذا من اللفتات اللبقة الدقيقة ، تتركه آسفين خوف الإطالة والاملال •

فعليك بقصص القرآن يا أخي ، وادرس أغراضه ومعانيه ،

Marfat.com

واجعله من وسائلك في تبليغ دعوتك ، فانه يسعفك بما لا يسعفك به قصص آخر •

القصص النبوي

ومن القصص الذي يجب أن تستعين به قصص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قصص كان يختاره عليه السلام من تاريخ السابقين ليشرح ما يريد من المعاني بالأمثلة الحية الواقعية ، وهذا القصص يأتي في المرتبة بعد قصص القرآن الكريم ، ولنسق . لك مثلا منه •

الإيمان بالله وحده ، أو العقيدة الصالحة . تحيى وتنتشر بما يأتي:

١ ــ الثبات عليها واحتمال أنواع الأذى في سبيلها •

٢ ــ التضحية من أجلها بما يملك الانسان من جاه ومنصب ومال، أو رفض ما يعرض عليه من هذا •

٣ ــ أن يلجأ صاحب العقيدة الى أنفع الحيل . وأجدى الوسائل في نشر عقيدته وتثبيتها ، ولو كلفه هذا تقديم حياته ثمناً له ••• هذا معنى جميل ، أو قل : انه حقيقة جميلة من حقائق الحياة التي لا شك في صدقها ••• ومن الحقائق الصادقة أيضا أن الله عز شأنه . اذا علم من أوليائه هـذا التجرد لـه ، والصـدق في الإيمان به ، منحهم مـن الأسرار ما تجري لهم به بعض الكرامات بإذنه . هاتان حقيقتان ، بل قانونان من القوانين التـي يطـّرد عليها نسق الحيـاة الصحيحة ، فمن تحقق بمعاني الولاء فقد استقام على سنة الله ، وكتب الله لرسالته النجاح في الدنيا ، وأسعده بالفوز في الآخرة ، ولكن أترى هذا الكلام يبلغ أعماق القلوب بمجرد تقريره هذا التقرير ؟ لا ••• لابد من شيء غير التقرير ، يشرحه ويصوره أبين التصوير ، ولقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مئونة هذا ، فاختار لنا من قصص السابقين ما يقرره ويصوره•

Marfat.com

روى الإمام مسلم في صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : اني قد كبرت فابعث الي غلاماً أعلمه السحر ، فبعث اليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه — اذا سلك — راهب ، فقعد اليه ، وسمع كلامه ، فأعجبه ، فكان اذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد اليه ، فاذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك الى الراهب ، فقال : اذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، واذا خشيت أهلك،فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو « الغلام » كذلك اذ أتى — مر — على دابة عظيمة « حيوان مخيف » قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم : آلساحر أفضل ، أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وانك ستبتلى ، فان ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرىء الأكمه، والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ؛ فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ههنا لك أجمع ، ان أنت شفيتني ، فقال : اني لاأشفي أحدا ، انما يشفي الله » — وهذا منتهى اعتراف المرء بعجزه واقراره بفضل الله القادر على كل شيء ، وهو من مستلزمات الايمان بالله ، ثم قال الغلام الذي لا يبغي مالا : « فان أنت آمنت بالله ، دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك ، فجلس اليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ قال : ربي ، قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام ، فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص،وتفعل وتفعل ؟ قال : اني لاأشفي أحداً . انما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ،

Marfat.com

فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه» ـ وهذا ثبات على العقيدة، واحتمال لأشد أنواع الأذى في سبيلها ـ « ثم جيء بجليس الملك ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه » ـ وهذا علاوة على ما تقدم . تضحية بجاه المجالسة الملكية، وما الى المجالسة من مال ونحوه في سبيل العقيدة ـ « ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه الى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به الى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته ، فان رجع عن دينه ، والا فاطرحوه فذهبوا به ، فصعدوا الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا » ـ وهذا من كرامة أولياء الله عليه ـ « وجاء يمشي الى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فدفعه الى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور ـ سفينة صغيرة أو كبيرة ـ فتوسطوا به البحر ، فان رجع عن دينه ، والا فاقذفوه . فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا » ـ وهذا من الكرامات أيضاً ـ « وجاء يمشي الى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله ... » .

وهنا فتح الله للشاب باب حيلة ، أو وسيلة جميلة . ليبلّغ بها الناسَ جميعاً دعوة الإيمان ، ويجعلهم يتحولون عن شركهم وعقيدتهم الفاسدة، نعم هي حيلة فيها هلاكه المحقق، ولكنه يرى أن سعادته أن ينشر عقيدته بالوسائل الناجعة ، بل يرى أن حياته الحقيقية ، وسعادته الكاملة أن يتطوع ، فيقدم نفسه للقتل ، مادام يثق أن من وراء ذلك حياة العقيدة، فانظر ماذا قال الشاب للملك : « انك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به : قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على

جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل: باسم الله رب الغلام ثم ارمني،فانك اذا فعلت ذلك قتلتني»•هذه هي الوسيلة ، فقد أراد الغلام أن يعرض على الناس مشهداً من مشاهد الايمان بالله ، من مشاهد قدرة الله الذي باسمه يستطيع الملك أن يقتل هذا الغلام العجيب ، الذي لم تفلح الوسائل في قتله ، فإذا رأى الناس هذه القدرة ، عرفوا أن رب الغلام الذي آمن به ، هو الرب الذي لا اله غيره ، وقد تحقق ما أراد الغلام ؛ فإن الملك الغبي الحقود ، لم يفطن الى أن جمع الناس ليشهدوا قتل الغلام ليس في مصلحته « فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام • فأتي الملك ، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد — والله — نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ••• فأمر بالخدود في أفواه السكك فخدّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه ، فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا ؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبي ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه : اصبري فانك على الحق » •

وبعد : أفرأيت هذا الاختيار النبوي لهذه القصة القوية التي صورت ما نحن بصدده من الفضائل أروع تصوير ، وأثرت به في الضمائر أبلغ تأثير ؟

اذن ليكن القصص من أساليبك التي تلجأ اليها في شرح وتثبيت تعاليمك ، بل وبعث الناس على التحقق بها عملياً ، فإن القصص — كما رأيت — من سنة الله في كتابه ، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

Marfat.com

قصص مخترع

ولقد فطن السابقون الى هذه السنة القصصية ، فوعظوا بقصص القرآن ، وقصص رسول الله ، واخترعوا قصصاً من ابتداعهم ، ادراكاً للغاية التي ينشدونها وهي جمع الناس على الإيمان بالله ، والدار الآخرة.

ونحن نسوق اليك مثلا من هـذا القصص الموضوع ، ليكون نموذجاً لك تحتذيه ، اذا كنت ممن يستطيعون ابتكار القصص ، أو تجمع ما يشبهه .

•

الرجل يعمل العمل لا يبتغي به الا وجه الله عز وجل ، فيمده الله من حوله وقوته ، بما يغلب به كل ما يعترضه ، والآخر يعمل العمل رياء الناس ، أو سعياً لمال ، أو منفعة مادية ، فلا يكون له من الله مدد . اذ يتخلى الله عنه ، ويكله الى نفسه ، فيكون مغلباً غير غالب ...

وهذا قانون من قوانين الله عز وجل ، اذا عمل بمقتضاه جند الله . فهم الغالبون لا محالة، ولو قامت ضدهم كل قوة في الأرض، ولكن كيف يتصور العقل هذا المعنى ؟ وكيف ينبض له القلب ، اذا لم يكن له صورة ترينا مكانه في حياة الناس ؟ لقد وضعوا له قصة فقالوا :

كان في قرية من قرى بني اسرائيل ، شاب صالح عابد ، وكان في القرية شجرة قديمة ، أوهمهم الشيطان أنها مباركة ، تمتـاز بأسرار وعجائب . ففتنوا بها ، وأخذوا يتقربون اليها ، ويمنحونها من التعظيم والتقديس ما حقه أن يكون لله تبـارك وتعالى ، فغضب الشـاب لهذا الشرك ، وعزم أن يقطـع الشجرة ، فيخلص الناس من شر الشيطان الذي يقودهم الى النار ، فأخذ عدته ومضى ، وبينما هو في الطريق . عرض له الشيطان ، فقـال له : الى أين أيها الشاب ؟ قال : الى هـذه الشجرة ، قال : وما حاجتك بها ؟ قال : أقطعها . قال :ولم ؟ قال : لأن الناس فتنوا بها ، وعبدوها من دون الله ـــ والشاب هنا صادق النية في

Marfat.com

العمل لوجه الله لا يبتغي شيئاً لنفسه ــ فقال الشيطان : لا ، لن تستطيع الوصول اليها ، واني أمنعك من هذا ، وأمسك بتلابيب الشاب ، فغضب الشاب ، وأمسك الشيطان ، ورفعه بين يديه كما ترفع الريشة ، وطرحه على الأرض ، وبرك على صدره ، وضيق عليه الخناق ، حتى احتبست أنفاسه ، وكادت روحه تزهق . فأخذ الشيطان يستعطف الشاب ، ويتلطف اليه بالكلام اللين ، ويعتذر ، ويرجوه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطأه ، وظل يتوسل ويتذلل ، حتى رق له الشاب وخلّى سبيله ... وهنا أخذ الشيطان يتودد الى الشاب ويقول له : يا سيدي ما كان قصدي أن أمنعك عن قطع هذه الشجرة ، وانما كنت أريد أن تتركها يوماً أو يومين ، لأن لي مأرباً فيها ، فاذا قضيت مأربي منها لا يهمني بعد ذلك أبقيتْ أو قطعتْ ، وأنت الآن وشأنك بها ، ان شئت قطعتها ، وان شئت أبقيتها ... انك أحسنت الي فعفوت عني ، ورددت علي حياتي ، ووهبت لي عمري من جديد ، فاذا رأيت أن تضاعف منتك ، وفضلك علي ، فاترك لي هذه الشجرة يوماً أو أكثر حتى تنتهي حاجتي اليها ، ولك ان فعلت ذلك أن أعطيك ديناراً عن كل يوم ، وما زال الشيطان يدخل على الشاب بهذه المداخل اللينة ، حتى مال الى ابقاء الشجرة ، وقال في نفسه : وماذا علي لو تركتها بضعة أيام ، لآخذ بضعة دنانير ، ثم أقطعها ؟ .. واتفق الشاب مع الشيطان على ابقائها بضعة أيام نظير دينار عن كل يوم ، ومضى كل الى شأنه ... وفي اليوم التالي جاء رسول الشيطان ، ودق الباب ، وأعطى الشاب ــ وكان فقيراً ــ ديناراً ففرح به ، وأنفق منه على نفسه وأمه ، واشترى لحماً ، وسمناً ، وخبزاً وفاكهة ، وفي اليوم الثاني جاء الرسول بالدينار الثاني ، فاشترى كسوة لنفسه ولأمه...وتوالت الأيام وتوالت الدنانير ، وركن الشاب الى النعيم المادي ، وأغضى عن الشجرة التي تعبد من دون الله .

Marfat.com

وفي يوم من الأيام ، انقطع الرسول ، وانقطع الدينار ، فأخذ الشاب ينتظر طول نهاره ، فلم يجده الانتظار شيئاً ، فقال في نفسه : لعل صاحبي في سفر ، أو لعله في شيء ألهاه عني ؛ ثم ترقب الدينار في اليوم التالي ، فلم يجيء الرسول ، ومضى اليوم الثالث والرابع ، كل ذلك والشاب يلتمس المعاذير لصاحبه ، ويعلل نفسه بالأباطيل ، حتى مل الانتظار ، ويئس من زيارة الدرهم والدينار ...

وهنا فقط ذكر أمر الشجرة،وقام يقطعها نكاية بصاحبه الذي قطع عنه راتبه العزيز ، فأخذ عدته ومضى اليها ، فقابله صاحبه ، فقال له : الى أين أيها الشاب ؟ قال : الى هذه الشجرة التي يعبدها الناس من دون الله، فأقطعها لأنك قطعت عني الدينار اليومي ــ هنا تجد الشاب قد تغيرت نيته ووجهته ، وأصبح يعمل لا غضباً لله ، ولكن غضباً للدينار . فقال الشيطان : هيهات هيهات ، لن تصل اليها وسأمنعك ، وأمسك بتلابيب الشاب فأمسك الشاب بالشيطان ، وحاول أن يرفعه كما رفعه بالأمس القريب ، فأحس أنه أثقل من جبل ، فرفعه الشيطان بين يديه كما ترفع الريشة . وطرحه على الأرض . وبرك على صدره ، وضيق عليه الخناق حتى احتبست أنفاسه ، وكادت روحه تزهق ، فأخذ يستعطف الشيطان ويتلطف اليه بالكلام اللين ، ويعتذر ، ويرجوه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطأه ، وظل يتوسل ، ويتذلل ، ويعطي على نفسه العهود والمواثيق ، أنه لن يعود الى قطعها أبداً . وقبل الشيطان تذلله وتضرعه وعهده أن لن يعود الى قطعها ؛ ولكنه أبى أن يتركه الا بعد أن قبل شيئاً آخر ، هو أن يفعل للشجرة مثل ما يفعل سائر الناس لها ؛ من الكفر عن طيب خاطر .

فلما خلّى عنه ، جعل الشاب يشكره ، لأنه رد عليه حياته ، ثم سأله : اني لأعجب لأمر غريب . لقد كنتَ في يدي كالريشة بالأمس

Marfat.com

فغلبتك .أما اليوم فقد كنت أثقل علي من جبل، وكنت في يدك كالريشة، فما سر هذا ؟ فقال الشيطان للشاب : لقد كنت بالأمس غاضباً لله عز وجل ، فوهب لك الله هذه القوة الجبارة التي صرعتني بها ، وأنا الذي أصرع الجبابرة،أما اليوم فأنت غاضب للدينار،فسلبك الله قوته وتخلى عنك، ووكلك الى الدينار ، وليس للدينار حول ولا قوة يمدك بها ، فغلبتك ، فخجل الشاب ونكس رأسه •

أيها الأخ : لقد وجدتَ القرآن يدعو الى الله ، ويسوق من القصص ما يتضمن تعاليم هذه الدعوة ، ووجدت الرسول العظيم صلوات الله عليه وسلامه يفعل ذلك ، ووجدت السلف الصالح ينهجون هذا النهج في تصوير التعاليم تصويراً قصصياً ، فعليك بهذا واستمسك به . فانك تأخذ بسبب من النجاح ان شاء الله •

ثانياً ضرب الأمثال

المثل قول واضح ، موجز ، حكيم ، ينتصب صدقه في العقول ، فيألفه الناس ويجري بينهم ، ويشيع في أحاديثهم •

والناس من قديم الزمان ، يجدون في طبائعهم الميل الى الاستشهاد بالمثل . فقد يكون أحدهم بصدد حال يحكيها أو يسمعها ، فيحضره مثل يشابهها في المعنى فيستشهد به ، لا لأن الكلام يزيد به صدقاً ، بل لأن النفس تستأنس بالمثل ، ويلتمع في جوانبها ضوء من وضوحه ، وجمال حكمته ، فما أسرع ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل القديم ومعنى الحديث الجديد ، ثم تنطبق عليهما في تزاوج ووئام ، فاذا بالحال التي كانت تحكي قد استقرت لدى السامعين في رضى وقبول واطمئنان ويسمّى هذا بضرب المثل •

ونحن نوصيك ــ أيها الأخ ــ أن تحرص على ضرب المثل في الاستئناس لدعوتك . نوصيك أن تستكثر من أمثال العامة وغيرهم ، وأن تجعلها في يدك (مفاتيح) صدق تفتح بها مغاليق النفوس أو ثغراتها المنورة ، أرأيت لو تحدثت الى الناس آن يقبلوا على الله في رفق لا شدة فيه ، فيأتون من أمره عز وجل ما استطاعوا دون أن يشقوا على أنفسهم بالغلو والافراط ؛ وأخبرتهم أن هذا هو المنهج الطبعي المأمون الذي يبلغون عليه غايتهم ، فان الغلو في صيام النفل ــ مثلا ــ وهجر ما أحل الله للمؤمنين من طيبات،والمبالغة في احياء الليل بالصلاة والاستغفار والضراعة ، هذا وغيره قد يورث النفس مللا فتنتكس . وتصد عن الله ؛ أو قد يصيب الانسان من هذه الشدة مرض يوهن جسمه . ويعكر عليه صفوه ، فيقطعه عن العبادة . ويحرمه أن يجد لذتها ؛ أما الاعتدال والتوسط في الأمر ، فهو النمط الذي لا ملل معه ولا انقطاع . ...

أقول : أرأيت لو تحدثت الى الناس بهذا ، ماذا يكون سرور العامة حين تستأنس بالمثل الذي يجري على ألسنتهم : « كشكار دايم ولا علامة مقطوعة ؟ » والكشكار : هو النخالة أو السن الخشن ، والعلامة: هي الدقيق المصفى.ومعنى هذا أن السن الخشن الذي يجيء باستمرار، خير للمرء من الدقيق المصفَّى ، الذي يأتي مرة أو مرتين ، ثم ينقطع .. وهذا مثل يضرب في تفضيل القليل الدائم على الكثير المنقطع . وأنت اذ تضرب هذا المثل ، تشبه العبادة اليسيرة التي يستمر عليها الانسان في غير كلفة بالكشكار ، وتشبه العبادة المفرطة في الغلو التي لا يلبث صاحبها أن ينقطع عنها بالعلامة المقطوعة .

ضرب المثل حركة تجديد وتنشيط

فضرب المثل ، انما هو تشبيه حالة ما بأقرب الأمثال شبها بها وأكثرها مماثلة لها ، وهو تشبيه يحدث في النفس حركة التفات بارعة .

Marfat.com

يلتفت بها المـرء من الكلام الجديد الى صورة المثل المأنوس ، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق ، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح ، ويجري ذلك كله في أقل من لمح البصر •• وهذه الحركة النفسية البارعة ، لها ما لسـائر الحركات من تجـديد وتنبيه وتنشيط ، علاوة على أن المثل يمتاز بخلابته ورشاقة موقعه في النفس وطرافته التي تتجدد ولا تبلى ، مما ترى أثره يبرق في وجوه السامعين ونظراتهم وثغورهم ، أو على الأقل مما يشعر السامعين بأن سرائرهم تبتسم له وتهش •

قال ابن المقفع : اذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث • وقال ابراهيم النظّام : يجتمـع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية •

هذا الشأن للمثل أيها الأخ هو الذي يحملنا على أن نوصي الداعية به . بل هو ما يجعلنا نراه ضرورياً للداعية الجاد الغيور ، الذي يريد أن يمهـد لدعوته سبيلها الى النفوس ، وأن يفرش لها هـذه السبيل بالأزهار والرياحين •••

ألوان من ضرب الامثال

١ ــ وقد ذكر صاحب العقد الفريد في طائفة الأمثال المروية عن أكثم بن صيفي « لكل نبأ مستقر » فاذا صح ذلك ، فهو ــ اذاً ــ مثل ساقه الله في القـرآن الكريم ••• قال أحـد الاخوان : أيكون الكلام الجاهلي قرآنا ؟ فقال له صاحبه : هـذا مثل ، والمَثل حكمة ، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحـق الناس بها ، ولا يضير الحكمة أن يجريها الله على لسان حكيم جاهلي ، وقد ينطق الله بعض

عباده بعبارات مما ادخرها لبعض أنبيائه ، ثم يأتي بها الوحي على ما نطقت به من قبل .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يورد الأمثال المروية في حديثه مع الناس ولا يرى بذلك بأساً .

٢ ـ وقد اجتمعت ميزات المثل في بعض عبارات القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجرت بذلك على الألسنة . وزادت بها ثروة الأمثال وشرفت ، مثل قوله عز وجل : « كل حزب بما لديهم فرحون » وقوله : « بضاعتنا ردت الينا » وقوله : « من عمل صالحاً فلنفسه » .

وقد أورد السيوطي في الإتقان طائفة كثيرة من العبارات القرآنية التي جرت أمثالا بين الناس ، فليطلبها هناك من يشاء .

ومن العبارات النبوية التي صارت أمثـالا : قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين » و « ان المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ومعناه أن المسافر الذي يغذ السير بما فوق طاقة دابته ، قد يهلك دابتـه من العنف ، فينبت ـ ينقطع ـ في الطريق . فيخسر خسارتين ، فلا هو قطع المسافة ، ولا هو أبقى على دابته . وقد قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد في العبادة حتى غارت عيناه .

٣ ـ ومن ضرب الأمثال ، أن تشبه أمراً دقيقاً خفياً ، أو به بعض الخفاء بأمر حسي مما يعهده الناس في حياتهم اليومية ، وهذا النوع ورد بكثرة عظيمة في القرآن الكريم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء . فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

Marfat.com

هذه صورة من الصور التي تجري تحت سمع الناس وبصرهم ••• الماء ينزل من السماء ، فيسيل في أودية الأرض ، فيجري في كل منها بقدر . فيطفو على وجه السيل زبد كثير ••• ولكن ما المراد بهذه الصورة ؟••• ان الله عز وجل لا يريد ظاهر معناها ، فانه يذكر في آخر الآية : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » و « كذلك يضرب الله الأمثال » ••• فما مضرب المثل هنا ؟

جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم . كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة الخ ••• ورسول الله صلى الله عليه وسلم أحق من نأخذ عنه تفسير القرآن العظيم ، وهو في هذا الحديث يشبه ما نزل به الوحي من الهدى والعلم . بالمطر ، ولنا على ضوء هذا التفسير النبوي أن نرى الآية القرآنية أو المثل القرآني الذي نحن بصدده ، مؤلفاً من العناصر الأربعة الآتية :

١ ــ قد جاءنا من الله علم وهدى ، مثله كمثل الغيث المبارك •

٢ ــ والذين جاءهم هذا الهدى والعلم ، كالأرض التي ينزل عليها الغيث •

٣ ــ وهذا الهدى الإلهي يجري في بواطن أهله وأعماق قلوبهم ، كما يجري الغيث في أعماق الأرض وأوديتها ••• وقلوب الناس تقبل من هدى الله وعلمه بحسب طبيعتها من الضيق والسعة ، كما يقبل كل واد من أودية الأرض قدراً من الغيث ، يناسب سعته أو ضيقه •

٤ ــ وكل ما مضى ليس هو لب العبرة في المثل ، انما لب العبرة ما ذكره الله سبحانه في قوله : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ••• والزبد رغوة لينة ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء ، ثم لا تلبث أن تذهب

جفاء تاركة تحتها الماء الصريح النافع ••وذلك تمثيل لحال الحق والباطل: فالباطل في تفاهته وسرعةزواله كرغوة الزبد •• والحق في أصالة وجوده وعموم نفعه كالماء الذي لا حياة للوادي بدونـــه « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » •

هذه عناصر المثل ، ولك أن تتوسع في الشرح بما لا يخرج عن أصول هذه العناصر فنقول :

١ ــ ان الله عز شأنه لما أنزل من السماء ماء ، فجعل منه كل شيء حي في عالم المادة،اقتضت حكمته أن ينزل للأحياء الروحية،ما به حياتها وغذاؤها ، وكل انسان يا أخي يتألف من جسم ظاهر وسر باطن ، فما كان من الحكمـــة ، واطراد نظـــام الخليقة ، أن ينزل الله للأجسام ما به تحيى وتغتذي ، ثم يهمل شأن الروح الذي هو كل شيء في هذا الكائن الحي ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا • وهذا القول الذي تقبله البدائه ، وتسيغه العقول ، يبدد شبهات الملاحدة الذين ينكرون النبوات ، ولا يتصورون نزول الرسالات من السماء •

وهذا الذي أنزله الله للقلوب والأرواح ، مقابل الماء الذي أنزله للأبدان ، هو الوحي الذي أنزله على رسله من لدن آدم أبي البشر ، الى خاتمهم وامامهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا الوحي روح القلوب ، وسر حياتهـــا ، فاذا لبسها ، وتسرب فيها ، حييت واستنارت وأشرقت ، وأدى لها ما يؤدي الماء للأجسام ••• وقـــد أشار الله عز وجل الى ذلك بقوله الكريم : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء » •

Marfat.com

وقد يبدو في هذا الكلام كثير من الغموض ، فانا نرى الماء بأعيننا ، ونعرف بالتجربة والمشاهدة أثره في حياة الانسان والحيوان والنبات ... أما هذا الذي أنزله الله لحياة القلوب والأرواح فما هو ؟ ... اننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا ، ولا أن نلمسه بأيدينا ، وهذا ما يعجزنا أن نتصور له صورة ما ، أو كيفية ما .

ونحن اذ نقرر هذا الغموض لا نحاول أن نعرض له بما يجلوه ، فليس ذلك في طوق بشر ، وقد رأيت أن الله سبحانه أسماه روحاً في قوله : «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » ولا سبيل الى الكشف عن حقيقة الروح مرسلة في أجسام الكائنات ، أو مضمرة فيما أنزل الله من وحي على رسوله صلى الله عليه وسلم ... ولهذا الغموض نفسه ضرب الله هذا المثل ، وعرض ذلك السر علينا ممثلا في صورة ما ندركه بحواسنا من الأرض والمطر والنبات والثمر ، ... ولو كانت حواسنا ومداركنا العادية تسمو الى شيء من ذلك لأشار الله تعالى اليه ، أو لعرضه علينا عرضاً عادياً لا مجاز في ألفاظه ولا تمثيل ...

ليس هذا السر ياأخي هو الكلام الذي تقرؤه في المصحف الكريم، وانما هو الروح المستكن في ذلك الكلام .

* * *

٢ ــ هذا مجمل ما يقال عن العنصر الأول من عناصر هذا المثل ، ويمكن أن يقال في العنصر الثاني .

ان حياة النفوس في هدى الله عز وجل ، ولا حياة لها بغيره ، كما أن حياة الأرض فيما أنزل الله لها من الماء ، ومحال أن تجد الأرض

Marfat.com

رياً تحيى به في غير هذا الماء •• لا تجده في ذهب ولا في فضة ، ولا هواء ولا نار،ولا غير ذلك،انما تجده في الماء فقط••فالذين يطلبون أن تحيى نفوسهم بغير ما أنزل الله ، من مدنيات زائفة ، أو علوم خالية من الروح ، أو يظنونها تحيى بكثرة مـا يجمعون من عرض الدنيا ومتاعها ، ••• انما يضربون في الوهم ، بل يخبطون في أودية الموت ، اذ لا موت الا فيها يطلبون ، ولا حياة الا فيما يعرضون عنه « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » •

وسوف يظل هؤلاء التعساء أمواتاً غير أحياء ، ما داموا بعيدين عن مصدر الحياة الحق ،كما تظل الأرض الميتة ميتة ، الى أن تمسها رحمة الله بالغيث المبارك فتهتز وتربو ، ويشيع في ظاهرها وباطنها بركات الحياة وأسرارهـا •

والله عز وجل ينادينا نحن الغافلين « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » وما يقصد الله الا ارض القلوب والنفوس ، فانه عز وجل يذكر قبل ذلك مباشرة : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكـر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ، اعلموا أن الله يحيي الأرض بعـد موتها ••• » الخ •

ونستطيع أن نمضي في الاستشهاد لهذا المعنى بالكثير من آيات القرآن الكريم التي وردت في احياء الأرض بالمطر بعد موتها ، وهي آيات مسبوقة أو ملحوقة بما يشير الى حياة النفوس ، وزكاة القلوب ، ولكنا نخشى الاطالة بهذا الاستشهاد •

وليست هذه الحياة طاقة حيوانية ، تسري في الأعضاء والأوصال،

Marfat.com

فيتحرك بها المرء كما يتحرك كل حيوان ! ••• وانما الحياة التي نعنيها طاقة روحية تسري الى كائن روحي في سرائرنا غير منظور •

وهذه الطاقة لا تتعلق بالطعام والشراب تعلق الطاقة الحيوانية ، وانما هي سيالات خفية مستكنة فيما أنزل الله من وحي ورسالة ؛ فاذا سرى شيء من تلك السيالات العلوية الى هذا الكائن اهتز وخفق ، وانتعش ، وحلّت به الحياة ••• والا فهو حطام هامد لا حياة فيه ، مهما يبدُ على هيئة صاحبه من نضارة وقوة •

وهنا نحب أن نتساءل : ما علامة تلك الحياة اذا سرت في هذا الكائن الروحي ؟ •• ان للماء حين يختلط بالأرض ويمشي في أديمها سر الحياة ، أثراً مشاهداً ملموساً نعرفه في الزرع والزهر والثمر ؛ أفما لهذه الحياة التي نتحدث عنها من علامة تعرف بها ؟ •

نعم لها علامات وردت في القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي عبارة عن مجموعة كريمة من المشاعر والوجدانات لم تكن له من قبل ، وانما نسوق اليك طرفاً قليلا منها على سبيل المثال لا الحصر •

١ ــ أن يشعر بغبطة ورضى عن حظه في الحياة ••• فليس للكم القليل أو الكثير حساب في غبطته ورضاه ؛ انما هو سر نبع في وجدانه من عالم غير عالم الكميات التي يحصرها الحيز ، أو يحصيها العد ، أو يقدرها الكيل والميزان •• فهو سعيد مغتبط لغير سبب من أسبابنا المنظورة •

٢ ــ أن يشعر بيسر ما يُلقى عليه من أعباء الحياة ، وخفة ما يزاول من عمل « ومن يتقِ الله يجعل له من أمره يسراً » لأنه لا يعمل في تلك الأعباء بطاقته الحيوانية وحدها ، بل بمدد من الطاقة الروحية التي حلّت في كيانه كذلك •••

Marfat.com

٣ ـ أن تتلاشى في نظره الفوارق الاجتماعية الناشئة من تفاوت الناس في المال ، والمنصب ، والمهنة ، والمولد ونحوها ؛ وتتراءى أقدار الجميع له متكافئة في وحدة تسوّي بينهم في الحقوق والواجبات الاجتماعية ...

٤ ـ يحل في نفسه شعور ببغض الرذيلة في أي صورة من صورها ، وازدراء أهلها أياً كانوا ، وحب الفضيلة في كل صورها وألوانها والارتياح الى أهلها حيثما وجدوا .

٥ ـ لكل انسان نفس تجيش بمختلف الرغبات ، والأهواء ، والشهوات، نحو المآكل، والملابس، والمشارب، وفخامة المنازل، وأناقة الفراش والأثاث ، وألوان الترف والرواء ، وعزة المناصب . والجاه والمال ، والأبناء والزوجات والعشيرة ونحوها ؛ واليه وردت الاشارة في القرآن الكريم بقوله سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب »... هذه الميول والأهواء ، وتلك الرغبات والشهوات . ماذا يكون شعور المرء نحوها اذا حل فيه سر الحياة التي تتحدث عنها ؟ .. انه يشعر نحوها بحالة تشبه « الشبع » فإذا التمس حظه من طعام أو شراب التمسه في غيرِ نهم ولا شره ، التمسه وهو يبغي لبدنه ما يقيمه ويقينه ، دون سعي الى لذة ، أو قصد الى شهوة ... واذا لبس . لبس ما حضر وما تيسر أداء لحق البدن ، دون تأثر بما تطمح اليه النفس من تلفت الناس الى زينته ، واذا عرض له لون من ألوان الشهوات التي أشار اليها الله سبحانه في الآية الكريمة أو نحوها ، وجدت وجدانه مشغولا بحالة تشبه « الشبع » ؛ سمها الزهد ، أو سمها عزوف الهمة عنه ، أو سمها ما شئت بحيث لا يغيب عن ذهنك أنها حالة تشبه الشبع تعتري

Marfat.com

الوجـدان ؛ لأن واردات الحيـاة التي حلت في كيانه الروحي • أتت له بألوان من الاذواق ، والطرب ، والنعيم ، واللذة ، انطفأت الى جانبها ورخصت كل متع الحياة الحيوانية وأهوائها ورغباتها الصغيرة الدنيا ، وأصبح الوجدان مشغولا بالوارد العميق الجميل الذي لاينقطع له مدد من عالم الخفاء ؛ وفي هذا الوارد أو نحوه كان يقول الامام ابن تيمية . « انه ليمر بي أوقات ، يرقص فيها القلب من الطرب ، فأقول : لو أن أهل الجنة في مثل ما أنا فيه ، انهم اذاً لفي عيش طيب » •

٦ ـ تحدثنا اليك بخمسة من هذه الواردات التي يجدها المرء في نفسه حين يحل سر الحياة الإلهية في كيانه الروحي ، ونستطيع أن نقول : ان من أظهر علامات تلك الحياة أن ترى صاحبهـا في سيرته العامة والخاصة . مفسراً لهذه المشاعر تفسيراً عملياً واقعياً ، يخرجها من حيز السر المختلج في الضمير ، الى حيز الأوضاع المقررة ، والأمور المشاهـدة ، والمعاملات الجارية ، تفسيراً يلبسها حللا من الواقـع ، ويرسلها مثلا عليا ذات كيان يعترك في الحياة ، ويترك آثاره العميقة في مختلف النفوس ؛ وهو في كل ذلك لا ينافق ولا يرائي ، أو لايستطيع أن ينافق أو يرائي ، لأنه منفعل بسر وجداني يسخره وينهضه ، فلا يستطيع معه الا أن ينهض وأن يعمل ، راضياً به كل الرضى سعيداً به غاية السعادة •

ليست الحياة على هذا صراعاً على حطام الدنيا يجري بين شياطين البشر ؛ لا ، وليست شهوة حسية تحرك تلك التماثيل الآدمية الفارغة هنا وهناك ، فيصدم بعضها بعضاً ويبغي بعضها على بعض ، وليست هي تلك الجثث التافهة التي تلبس الحرير والصوف الأنيق وتقذف في أفواهها الطعام والشراب ، انما الحياة حياة النفوس النامية ، والمشاعر الكريمة التي تربو بإذن الله ، أو هي حياة هذا الكائن الخفي الذي يحيى وينمو،

Marfat.com

ويعظم في خفايا النفوس ، دون أن تراه العيون ، وهذا الكائن الحي هو كل شيء في حياة الأفراد والأمم ، فهو معدن العلم في الانسان ، ومقر الحياة والقوة ، ومبعث الكرامة والحرية والعزة ، ومصدر كل خلق نبيل كريم،ولاحياة لهذا الكائن الا بما أنزل الله من الهدى والعلم.

هذا الكائن الحي الباطني المبارك ، هو الزرع الطيب الذي ينبت في أرض بشريتنا ، ويسقيه ما أنزل الله من أسرار الحياة في القرآن الكريم ، وهذا الكائن الحي ، هو هو الذي نبت قديماً برعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم في بشرية الصحابة ، حين سقيت وهي ميتة بوحي الله العظيم ، فاهتزت وربت وأنبتت هذا الزرع الباطني . ومازال يكبر ويغلظ ، ويشتد ، ويعلو ، حتى قوي أمره ، وطاب أكله وثمره ، فوصفهم الله عز وجل : « كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزرّاع — وما ثمرة ذلك — ليغيظ بهم الكفار » .

هذه هي الحياة — يا أخي — لا حياة أوربا وأمريكا التي يشتهيها الجهلة في كل مكان ...

ان هذه البلاد الطاغية الكافرة ، ليس فيها في الحقيقة أناس ، انما فيها مردة من الشياطين ، يسكنون هذه الأجواف الفارغة من أجواف الآدميين ، فالصورة صورة انسان . والجوف يقبع فيه شيطان يحركه بالشر وللشر في كل وادٍ ، فتراهم مخربين مدمرين ؟ لا يبنون الا ليهدموا ، ولا يخترعون الا ليهلكوا ، ولا يعدّون الا ليبطشوا ولا يستغنون الا ليطغوا في الارض ويكثروا فيها الفساد . وليس هذا من الحياة في شيء ؟

★ ★ ★

Marfat.com

٣ ــ ويمكن أن يقال في العنصر الثالث • ان الأودية تختلف سعة وضيقاً •• فأعظمها شأناً أكثرها ماء ، وأبعدها عمقاً واتساعاً ، وأصلحها لإمداد الأرض بالماء ، وثمرة ذلك ، كثرة الثمار والاشجار على جانبيه ، وامتداد الحقول والبساتين من حوله ، وأن تهوي اليه أفئدة الناس •

وكذلك الناس تتفاوت قلوبهم في تقبل أمر الله ، فمنهم من يمتلىء ويتضلع ويتقبل الكثير الغزير ، الذي يغمر آفاق نفسه الرحيبة ، ومنهم من يقبل دون ذلك ، أو لا يتسع لما يتسع له الاول ••• وعلى هذا تتفاوت أقدار الناس ، فأعلاهم قدراً انما هو أكثرهم احاطة ووعياً لما أنزل الله ، وأعظمهم افاضة على العباد ونفعاً لهم ••• وثمرة ذلك ــ أن تينع شجرة التقوى في القلب، وتستفيض دائرة الهدى والخير من حوله، وتهوي أفئدة الناس الى منهاجه والاقتداء به •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح بكثرة أتباعه ، ويفخر بهم ، ويحث على أن يتكاثروا •

هذا ، ولكل وادٍ طاقة ، يتقبّل الماء بقدرها ، فإذا أمد بما فوق طاقته كان طغياناً وفيضاناً ، وتخريباً وتدميراً ، واتلافا •

كذلك لكل نفس طاقة تقف عندها في تقبل هدى الله وعلمه ، فإذا أراد المرء أن يحمل فوق طاقته ، تمزق بالسأم ، والصدّ عن الله ، أو بالشك ، أو بتلقي مالم يؤهل لفهمه •

« ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » •

فاذا أريد أن يحمل الوادي أكثر مما يجري فيه ، فلا يكون ذلك الا بالأسلوب الطبعي المأمون ، فيقوم أصحابه بعملية حفر وتطهير ،

وتعميق وتوسيع ، وكذلك أودية القلوب لا تتسع ولا تعمق ، الا اذا فعل لها صاحبها ذلك ، صاحبها لا غيره ، وما صاحبها الا الله عز وجل « فقلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن ، ان شاء آزاغها وان شاء أقامها » « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ...»

والوادي قبل أن ينحدر اليه السيل ، يكون جافاً ، به كثير مما حملت اليه الرياح من التراب والأرواث والقش ، وقطع الخلقان والجلد، وما شابه ذلك ، فإذا جاء السيل كسح ذلك كله ، وطهر جوف الوادي منه ، ورفعه الى وجه الماء ليطرده ويقذف به الى الخارج . وكذلك هدى الله اذا جرى في قلوب العباد طهرها وأزال ما فيها من أكدار الطبائع ودنسها ، فلا يبقى شيء منها في قرارات القلوب . بل تطفو متخذة سبيلها الى الزوال السريع ...

نعم سيحل في القلوب وجدان جديد مبارك فيه كثير من الأسف والندم على ما مضى من حياة الإثم والغفلة .. والأسف والندم من أكبر وسائل التطهير والاقلاع عن الذنوب ... وعلى صفحة هذا الوجدان تطفو صور ما كان من صغائر وكبائر . كما يطفو غثاء السيل من قش وخلقان ... ولا تزال تلك الصور البشعة ، تثير اشمئزاز صاحبها بمرآها القذر ، وتضاعف له من حمد الله على نعمة الوارد الجديد . حتى تغيب عن خياله ، ويتخلص منها وجدانه . كما يتخلص السيل من غثائه الذي يطفو فوقه الى حين ...

وفي هذا اشارة دقيقة حكيمة الى حظوظ الشيطان في النفوس البشرية ، قبل أن يجري فيها وحي الله فيرويها ويطهرها . فإن لكل نفس حظاً خبيثاً للشيطان ، تنبعث منه الظلمة والشرور . والنفوس المحرومة يزيد بها حظ الشيطان وأكداره ، ويكثر فيها ما تلقي الشهوات والأهواء الباطلة من رجس ودنس ، ويرين عليها ما تكسب من ذنوب وآثام .

فإذا أرسل عليها فيض من رحمة الله عز وجل أرواها وطهرها ، وأعاد عليها نعيمها وبهجتها ••• وقد كانت نفوس صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك في الجاهلية ، كانت أودية فيها كثير أو قليل من جهل الجاهلية وأوزارها ، فلما هبط عليها وحي الله صارت أودية الهدى . وأوعية العلم والحكمة •••

تلك سنة الله لا محيد عنها : في كل نفس حظ للشيطان قليل أو كثير . لا يطهر منه الوادي ، الا اذا جرى فيه الهدى والعلم الإلهي • وحسبك أن تجد شاهداً لهذا في تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بما تقرأ في حاله في الجاهلية والاسلام ••• بل انا نقرأ في كتب السيرة والحديث : ان الله عز وجل طهر قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من حظوظ الشيطان ، بما أرسل من الملائكة الذين شقوا قلبه الشريف ، واستخرجوا منه المضغ الخبيثة وملؤوه ايماناً وحكمة أكثر من مرة قبل النبوة وبعدها ، وفي طفولته ورجولته ، فامتاز صلى الله عليه وسلم ، بأن الله طهر واديه الطاهر • وبالغ في تطهيره ، ليجري وحي الرسالة الطهور في الوادي المبارك الطهور ، ويلتقي ما نزل به جبريل من النور بما ينبثق في جنبات الوادي المستنير من النور « نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم »•

وهذه الإشارة الدقيقة تخرج منها معارف قيمة من معارف علم النفس وطبيعة تكوينها واستعدادها لتقبل الخير والشر ، وهي مباحث نفيسة ، لسنا بصدد بيانها •••••• ونستنبط من هذه الاشارة أيضاً منافع جليلة للذين يرجون فضل الله ، ولا يقنطون من الإصلاح والتوبة• ففي كتاب الله ما يشفي صدورهم ويطهر أفئدتهم ؛ فعليهم بإدامة النظر فيه ، والارتواء من معانيه •

Marfat.com

٤ ـ وهذا الزبد الذي يحتمله السيل ما هو ؟ وما موقعه في هذا المثل ؟

أما الزبد فهو رغوة لينة ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء حين يتخلل مسام الأرض ويتسرب في ذراتها وشقوقها . أو حين يسخضه الجريان بين جانبي الوادي ، أو حين يضطرب لسبب من الأسباب ... ولا يلبث أن تنشق فقاقيعه ، وتذهب رغوته الى لا شيء .

وأما موقعه في هذا المثل فهو صورة دقيقة عرضها الله سبحانه ؛ ليمثل لنا موقع الباطل في هذا الوجود الى جانب الحق الأصيل « كذلك يضرب الله الحق والباطل : فأما الزبد فيذهب جفاء . وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » .

وقد علمنا مما مضى أن الله ضرب الماء مثلا للحق ، وشبهه به ... ومثل قلوب الناس أو طبيعتهم البشرية حين يسري فيها نور الحق والهدى ، بالأودية حين ينطلق فيها السيل ... وهو يتم عناصر المثل بهذا الجزء الأخير الذي يشبه فيه الباطل برغوة الزبد الهش الحائر فوق الماء .

الزبد وعناصر تكوينه

وهنا تتساءل : لقد عرفنا أن الزبد رغوة طارئة . ولم نعرف بعد من أين جاء ، وما أصله ؟

تساؤل يكشف لك تفاهة الباطل وهوان شأنه .

ليس الزبد عنصراً من عناصر الماء . وكل شأنه أنه يوجد ـ ان وجد ـ على سطحه !! فكيف يتكون ـ اذا ـ وما أصله ؟.. هل هو شيء أصيل يمت الى عناصر الأرض بصلة ؟

Marfat.com

كل ما يمكن قوله في هذا المقام أنه ظاهرة عارضة تتألف على وجه الماء من غازات منتفخة ، وهباء لا يؤبه له ، يجتمع بعضه الى بعض ، ويؤلف بينه ليونة يستعيرها من الماء !

أفترى في ذلك شيئاً له وجود يعتد به ؟

ليونة أو طراوة مستعارة من الماء ، لا تلبث أن تنشق فيذهب معها كل شأن له ، فإذا هو لا شيء !!

وكذلك شأن الباطل بإزاء الحق ... فالحق جوهر الأصالة لكل شيء في الوجود .. والباطل لا أصالة له ، أي لا وجود له ، ونسبته الى الحق كنسبة فقاعة الزبد الى الماء .. فهو ظاهرة من الوهم وغرور الأهواء ، يحاول أن يبدو للناس في أثواب الأصالة التي يبدو فيها الحق، فيتخذ من شارات الواقع صوراً وأوضاعاً حسية ، قد ينخدع بها أهل الغفلة وقصار النظر .. ولكن العقبى للجانب الـذي يتضمن عناصر البقاء وخصائص النفع .. فإنك اذا ذكرت أن فقاعة الزبد حين تستعير من ليونة الماء انما تستعير لتستر لاشيء أدركت أن الباطل بما يصطنع من مظاهر لدعم وجوده انما يحاول في الحقيقة دعم لا شيء ، وأدركت تبعاً لذلك هوان هذا الباطل في هذا الوجود ، وضيعته التي لا يماثلها الا تفاهة الفقاعة المتطايرة الضائعة .

وهباء لا يؤبه له يجتمع بعضه الى بعض ، ويؤلف بينه ليونة يستعير لها من الماء ... هو التعبير الحق عن هذه الظاهرة الملفقة من لا شيء . ونخشى معه أن يظن ظان أن هذا الهباء الذي اجتمع بعضه الى بعض قد صار شيئاً ، فليرجع القارىء الكريم الى حفنة كبيرة من رغوة هذا الزبد ــ لا الى فقاعة واحدة ــ ثم لينظر ماذا يبقى في كفه من الهباء المجتمع حين تتطاير عنه ليونة الماء ، فما يجده في كفه من ذلك فهو

Marfat.com

العناصر التي قام بها وجود هذا اللاشيء ! وليقس على هذا المثال الهباء أو العناصر التي تؤلف كيان الباطل في هذا الوجود .

الباطل في نظر أهل الحقائق

وحين ترتسم هذه الصور في أذهاننا لا نستطيع معها أن نتصور للباطل من فائدة أبداً . ولا من قوة تسك له وجوده الا بمقدار ما تتصور من ذلك في زبد الماء .

فإذا تقررت لديك هذه الحقائق ــ وهي من اللباب الذي لا يتطرق اليه الشك ــ فقد استقر في ذهنك وفي بصيرتك نور قوي واضح تميز به حقائق الأشياء ، ولا تنخدع معه بظاهرة من الظواهر ، وسهل على أهل هذا النور أن يدركوا أن منازلة الباطل ومكافحته في ميدان من الميادين لا تكلفهم من الجهد أكثر مما يتكلفون في ازالة جيش من الزبد على وجه الماء !! ولا تسألني يا أخي كيف ذلك . ولكن سل نفسك أين أنت من هذا النور الذي ندرك به حقائق الأشياء.وماذا حققت في نفسك من شرائط أهله ، فإنك حينئذ تغنيني عن الإجابة . وتدرك أن بقاء هذا الزبد الرابي ، أو الباطل الكثيف مرهون بالأيدي التي يقذف الله بها عليه فتدمغه ، فمتى وجدت هذه الايدي واستعلنت أنوار الحق في بصائرها كان هوان الباطل عليها ، كهوان الزبد على من يلعب به بعصاه ، أو يطؤه بقدمه . أو ينفخه بفمه . أو يلاشيه بكفه .

وعلى ضوء هذا المعنى نجد أنساً كبيراً حين نقرأ في كتاب الله سبحانه : « لا يغرنك تقلّب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » فما ينقلبون اليه من سوء المصير في الخاتمة، فهو الى الله وحده ، وأما سوء مصيرهم في الدنيا . فهو ما يغرينا به سبحانه بقوله : « لا يغرّنك تقلب الذين كفروا في البلاد » فإن ما نراه

Marfat.com

من بسطة السلطان وكثرة المستعمرات ، وانتشار مناطق النفوذ • ان هو الا زبد لا يضخم الا في أفئدة الأغرار من أطفال الرجال ، أو الرجال الاطفال ، فدونك هذه الرغوة فانها لا تثبت لشيء • وهو اغراء حلو مؤنس ، لا يعترف معه المؤمن الحق بعقبات • « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده • قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله • والله مع الصابرين » وليس من شأننا في هذا المقام أن نمضي في الاستشهاد بكل ما ورد في القرآن الكريم عن التهوين من شأن الباطل • من حيث هو قوة وجند ، أو متعة وزينة ، أو سيرة وعمل • فبحسبك أن تستحضر دائماً في ذهنك ذلك التصوير القوي الجلي الماثل في قوله سبحانه : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » فإنه كفيل أن يجعل من كل آية اطاراً يتبدى فيه كل ما للباطل من معالم التفاهة •

أهواء الباطل وغازات الزبد

وبعد •• فهل تكلمنا عن حقيقة الزبد ؟

اننا يا أخي لم نفرغ بعد من ذلك ، وان ما بقي منه لهو أهم من كل ما مضى !! بقيت تلك الغازات التي لولاها ما ربا الزبد ، ولما تجمع من الهباء ذلك اللاشيء ، فما هذه الغازات ؟

يقول العلم انها غازات تكونت من عفونة أجسام تحللت وفسدت ببعض عوامل التحلل والفساد •

تبارك شأن الله في دقة التحليل وروعة التصوير !!

نعم فهذه الغازات العفنة المتحللة ، يقابلها في المثل أهواء المرء وشهواته ونزواته التافهة الرخيصة ، فإذا كانت الغازات هي العامل الأسي لتكوين الزبد وما اليه من يعاليل ونفاخات ، فان أهواء المرء

Marfat.com

وشهواته ، وتعلقها بهباء من حطام الحياة الدنيا ، هي العامل الأساسي لوجود كل باطل في هذه الارض •

ولكن أي شيء في الانسان ضربه العفن ، وأدركه التغير والفساد، حتى صعدت منه تلك الغازات أو تلك الاهواء والشهوات الفاسدة ؟

نعم يا أخي ، لا شيء في الانسان أدركه العفن ، أعني أنه لم يطرأ عليه عفن جديد ، فقد جاء بالعفن في جبلته الأولى مذ خلقه الله من ماء مهين ، وطين منتن ، وحمأ مسنون متغير الرائحة • فإذا رأيت في أهواء الناس تفاهة وضعة ، فمرجعها خسة الطين ، وتفاهة الماء المهين •• واذا رأيت فيها ما هو قذر يزكم الأنوف برائحته الكريهة ، فرده الى الاصل المكنون في الحمأ المسنون ••• وهل خلقنا الله سبحانه ، من هذه الطينة التي تحمل المهانة والنتن ، الا ليكون لذلك مقابله فيما يتسرغ فيه بعض الناس من نقص ، وضعة ، وهوان ، واثم ، وضلالة ؟

ولا شك أن من رحمة الله أن الماء المتجدد الطهور في الوادي يأتي على مضار ذلك العفن فيخففها ، أو يزيلها كأن لم تكن ، فلا تكون مصدر ايذاء لأحد ، لا برائحتها الكريهة ، ولا بجراثيمها القاتلة •• هذا شأن الماء في الوادي فأي شيء ذخره الله لتطهير أودية الناس من عفن بشريتهم ، وماتنتزى به طباعهم من أهواء فاسدة وشهوات ؟

وأحب قبل الإجابة عن ذلك ، أن نلاحظ أننا في كل ما كتبنا لم نخرج عن عناصر المثل الذي ضربه الله قيد شعرة ، فنحن ما فتئنا — مذ بدأنا الكلام عنه — نتناول الأشباه والنظائر ، ونقيس بعضها على بعض مستهدين ما أودع الله هذا التصوير المعجز من دقة واحكام ، ولهذا لا نجد مشقة في الإجابة عما تساءلنا عنه الآن ، فالله سبحانه مذ خلقنا من طينة زهيدة ، منتنة ، تداركنا بفيض طاهر من روحه القدسي ، نفحه في أوديتنا ، وأقره في سرائرنا ، وجعل اليه حياة ما فينا من موات ،

Marfat.com

وزكاة ما لدينا من دنس ، وطهـر ما فينا من عفن ؛ ولأمر ما لم يجد سبحانه في تكريم هذا الكائن الجديد أدنى من أن يسجد له الملائكة !

على أن الله سبحانه لم يكتف بإقرار تلك الفطـرة النورانية في سرائر الناس ، بل أمدها على مدى العصور والأجيال بمدد من نوره وهداه فيما أنزل على أنبيائه ورسله ، وهو الذي يشير اليه المثل بقوله : « أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها » ، وهو الذي يؤدي لأوديتنا ما يؤديه الماء للوادي من تطهير ووقاية وري •

خصائص النقص في طينة البشر

ولقد عرفنا أن الزبد رغوة ، أو مظهر تافه لا نفع منه ، ولا قوة له . ولا استقرار ولا بقـاء •• وعرفنا كذلك سبب هـذه الظاهرة ، ولا يعنينا هنا أن نذكر نوع الغازات التي يتألف منها الزبد ، ولا كيفية التحلل والعفن الذي يسببها ، وانما يعنينا مرامي المثل الكريم العميق ، يعنينا ما ترمز اليه هذه الغازات من أهوائنا وشهواتنا ، والعفن الذي تتصاعد منه !•• فحقيقة هذا العفن أنه الاوصاف التي تصف لنا بدقة طبيعة الطينة التي خلقت منها بشريتنا •

ونستطيع أن نتجنب الإمعان في الفلسفة والفروض ونواجه الواقع فنقول : انها طينة ميتة ، تحتاج الى الماء ، لكي تدب فيها الحياة ، أو أنها بشرية سلبية محض ليس فيها صفة واحدة من صفات الإيجاب والفاعلية، فهي ضعيفة لا قوة لها ••• ذليلة لا عزة لها •••• فقيرة لا غنى لها ••• خسيسة لا قدر لها ولا نفاسة ••• جاهلة لا علم لها ••• فماذا عسى تكون طبيعة هذه الطينة ؟ أو هذه الجبلة التي اشتق منها الانسان ، الا أن تكون طبيعة سلبية لا تنطوي على شيء البتة من معاني الإيجاب وخصائصه ؟

هذا الخلو أو هذا الافتقار العادم ، هو طبيعة هذه الطينة ، وهو المراد بالموت المعنوي حين يرد في القرآن الكريم ••• وليس من ذات تنزهت عن كل صفات السلب ، وقامت بها كل صفات الايجاب الا ذات الله سبحانه • والى هذا المعنى الدقيق يشير عز شأنه في القرآن بقوله : « يا أيها الناس : أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد » ••• فقراء من حيث كل شيء • من حيث العلم والقوة . والعزة . وأسباب النباهة والرفعة، الى آخر ما أثنى به سبحانه على ذاته وندبنا الى الاتصاف به ، وبث في فطرنا سر التطلع اليه والشوق الى تطلبه •

أشواقنا الى الكمال ، وكيف ترتد أهواء مهلكة

وهذا كلام يرفع لبصائرنا لوناً من البحث في صفات الله لسنا بصدده ، وانما بصدد ذلك السلب المحض الذي جعل طبيعة لنا • ذلك السلب الذي يترك في طبيعة المرء شعوراً فطرياً ، بالنقص والخلو والافتقار ••• شعوراً قد لا تدركه حواسه الظاهرة السطحية • ولكنه في عقله الباطن أشد ما يكون انفعالا ، فعلى غير وعي من المرء يجد نفسه منهوماً بأمور هي التي نسميها الاهواء والشهوات •

فقد ينهم ــ مثلا ــ بجمع المال جمعاً لا ينظر فيه الى سد ضروراته، وحاجاته، ولا ينظر فيه الى أنه عدة للحق . أو قوة على العدو ، وانما هو نهم ووله عميق ، أو صدى الهتاف الفطري في الطينة التي لا تملك غير الافتقار •• فالمسكين لا يجمع لسد ضرورة ، وانما يجمع ليواجه نداء ذلك الخلو الذي تستغيث منه جبلته ••• ولكن هيهات أن يقوم المال بسد مثقال ذرة من ذلك ، اذ لا يملكه الا الله سبحانه ، فصفاته الموجبة وحدها هي ري هذا الظمأ ، وشبع هذا الجوع ، وغنى هذا الفقر ،

Marfat.com

وجبر هذا النقص، وحياة هذا الموت، ولذا نرى المسكين في جمعه لا يقفه عند حد ، ولا يشعر بشبع ، لأنه يرتوي من غير مصدر ، كالطفل الجائع الذي لم يهتد الى ثدي أمه فالتقم أصبعه ؛ فما عسى أن يذهب ذلك من ظمئه وجوعه ؟

قد ينهم بالمال ، وقد ينهم بمطالب الترف وأنواع الزينة •• أو يؤخذ بحب الثناء وعلو الذكر •• أو يذهب مع الأنانية والرغبة في الاستئثار ••• أو يمضي مع نزعة الغلبة والقهر والتفوق على الأقران •• أو ينطلق بجهده وراء غير ذلك من النزعات التي يسف فيها أو يعلو بغير الحق •• وقد يتورط أثناء هذا في كثير من الاخطاء والمظالم والآثام •• وقد يجني على نفسه وعلى غيره من عباد الله شر الجنايات ؛ وقد تضيق جناياته ، وقد تتسع تبعاً لما له من سيطرة ونفوذ في هذه الأرض ••وقد يكون المعتدي فرداً وقد يكون أمة •• وقد تكون الجرائم مادية ظاهرة ، وقد تكون معنوية باطنة كذلة الجبن ، وخسة الملق ، وغرور السيادة أو وهم الألوهية ••• أو قل على سبيل الإجمال : يتورط في أخطاء الشراهة ، وصغائر التفاهة ؛ شراهة قارون وما وراءها من جمع وكنز وشح •• وتفاهة فرعون اذ لم يكفه أن يقول للملأ أنا ربكم الأعلى،فراح يطلب أسباب السماء ليبسط عليها أوهام ألوهيته المضحكة•

ينهم المرء بكل هذا أو بعضه ، مدفوعاً •• بماذا ؟ •••••• هو لا يدري لماذا ، لكنه يجد فيه لذة ، ومتعة ، وهوى ، وشهوة ، وحسبه ذلك •• أما لماذا هو منبعث ، أو ما هي الحوافز التي تبعثه وتسخره ، فمرده الى طبيعة السلب المحض ، أو الافتقار العاجز المحروم ، الذي ينشد الرفعة لخسته ، والقدرة لعجزه ، والكمال لنقصه ، والعلم لجهله، والامتلاء لخلوه ، والجِدَة لفقره ، فكان له صوت استغاثة أزلي يدوي في أعماق الوعي الباطن ، لا تسمعه اذن صاحبه ولا يلتفت اليه

ذهنه ...انه استغاثة كائنه الروحي الذي يبسط كفيه الى ماء الحياة على قرب منه فلا يبلغه . ولكن صاحبنا بدلا من أن يواجه هذه اللهفة بمصادر الري الحق ، واجهها بما لا غناء فيه .

فحقيقة الاهواء والشهوات . أنها أحلام الجبلة المحرومة تطفو الى وعي الطفل النائم المسكين ، فيقبل على أصبعه لا يدري حقيقة ما يفعل ، فإذا كان بين العملين : عمل الطفل الصغير ، والطفل الكبير مشابهة في ذهاب كل منهما الى غير نتيجة وصيرورته الى الهلاك . فإن بينهما فرقاً شاسعاً يستثير المقت على من كره الخير لنفسه باختياره ، وعلى من لا ارادة له في شيء : « ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون » .

حيرة امام العلم الزاخر

يا أخي ، ان معركة الحق والباطل ، هي معركة الوجود كله . وان طريق من يعرض لبيان ألوان هذا العراك ، لكثير المزالق ، والمضايق ، والحرج والمشقة ؛ ولذا أراني في حيرة بالغة ، وعجز شديد ، ماذا آخذ من معاني هذا المثل الخطير ، وماذا أدع ؟ انني أمام أعماق مخوفة لا أرى لها قراراً ، فهي تمتد بأسرار الحق والباطل حتى تجاوز أسوار عالمنا هذا المادي الى عالم الآخرة ؛ وليس لنا بعد ما قدمناه الا أن نلوذ بآيات الكتاب المبين ، نقف عند مدلول ألفاظها ، أو نطمح بالنظر الى مرامي اشاراتها ، كلما حدثتنا عن الحق والباطل ، فإن ما قدمناه من نور هذا المثل كافٍ لأن ندرك على ضوئه أهداف كل آية .

لقد تحدث القرآن عن الهوى الذي يورد صاحبه موارد الهلاك . وتحدث عن الجهود الضائعة التي يحسبها الظمآن ماء . وتحدث عن الأخسرين أعمالا ، وتحدث عن الذين يعذبون بأموالهم وأولادهم في

Marfat.com

الحياة الدنيا •• وحماقة أهل الهوى ، وحصافة أولي الألباب•••وذلك الذي كان ميتاً فأحياه ، وأولئك الموتى الذين لا يسمعون ••• والغيث الذي أعجب الكفار نباته ، والزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ••• تحدث عن ذلك كله ، وعن غيره مما يصرفنا المقام عن الاسترسال اليه • واني لأحسب أن هذا المثل الكريم عدسة مباركة تكشف لأبصارنا وبصائرنا كثيراً من الحقائق اذا نحن نظرنا من خلالها الى كل آية •

★ ★ ★

وبعد : فتفاهة الباطل والزبد تلتقيان في ثلاث :

الأولى : أن كلاً منهما ظاهرة عارضة ضائعة الاصل والنسبة ، ليس لاحداها ما يجعلها ذات وجود أصيل يعتد به •

الثانية : أن كلاً منهما شيء لا نفع له ، ولا ثمرة ينتهي اليها •

الثالثة : أن كلاً منهما سريع التحول والزوال • لا استقرار له ولادوام•

وليس في وسع أحد أن يرسم في ذهنك أصالة الحق ، وتفاهة الباطل كما رسم لك القرآن وصور • وليس في وسع أحد كذلك أن يبعثك على احترام الحق وتمثل جلالته • الى جانب الاستخفاف بالباطل وتصور ضآلته ، كما فعل هذا التصوير الرباني المعجز ! فلا تطمع أن أمدك أو يمدك غيري بشيء في ذلك ؛ فقد وصف الناس الباطل قديماً وحديثاً ، وفيهم العالم والجاهل ، والفيلسوف وغير الفيلسوف ، فما منهم أحد ألم بفلسفته ، وحقيقته ، في يسر وايجاز ووضوح ، كما ألمَّ الحق تبارك وتعالى في كلامه الحكيم •

Marfat.com

الهفوات من لوازم الطبع البشري

وكل ما قدمناه خاص بالزبد الرابي ، والباطل الكثيف الذي يطفو في أودية قلوب الناس • ومحيطات دنياهم الواقعيـــة . فيحجب عنهم الحق • ويزين لهم ماهم عليه ، وذلك شأن كثير من الناس • وبقي شأن فريق آخر ••• بقي أن المؤمن حين يمتلىء واديه بوحي الله والحكمة لا يخلو أمره من هفوات تافهة فارغة . تطفو في محيطه الظاهري . ثم لا تلبث أن تزول ، ويبقى من بعدها المعين النافع ـ كما هو ـ فياضاً بمعاني الحق والخير •• وهذا من طبائع النفوس . فقد أراد لنا عز شأنه أن يكون من شأننا الخطأ والنسيان. وأن يكون في طبيعتنا مايربطنا بالحياة الدنيا ، ويعلقنا بها ؛ ومن هنا كانت الذنوب لازمة من لوازم بشريتنا ؛ كما أن الاستعداد للترقي والتطهر سر من أسرارها كذلك . فقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها . وترك الى العبد أن يزكّيها بالتقوى ، أو يدسّيها بالفجور ؛ ولكن مهما تترقّ بالتقوى وتصفُ بالمراقبة ، فإنها لا تتخلص دائماً من هفوات الطبع . وفقاقيع الدنيا ؛ فلا بد من حصول شيء من ذلك ؛ فالقلب لا يفتأ الدهر معرضاً للتقلبات كالوادي المائج الذي تتقلب فيه المياه • ومن شأن هذا التقلب . أن يحدث على الوجه فقاقيع فارغة • وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم القلب فقال : « مثل القلب في تقلبه كالقدر اذا استجمعت غلياناً » فهل ترى يثور الغليان دون أن يطفو فوقه زبد ؟ وزبد القلوب هنا هو الهفوات كما تقدم ••• والى هذا كله أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم . ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم » •

وليس في نفوس البشر نفس سمت فوق ما سمت نفس مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا فقد جاءت السنة ، بأنه صلى الله عليه وسلم نظر الى علَم ثوبه ـ نقشه وتطريزه ـ وهو في الصلاة ـ

Marfat.com

فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال : شغلني عن الصلاة !... وروي عنه عليه الصلاة والسلام أن خاتماً من ذهب كان في يده ، فنظر اليه وهو على المنبر ، ثم رمى به ، وقال : « نظرة اليه ونظرة اليكم » وكان ذلك قبل تحريم الذهب ... بل قد جاء في الحديث الشريف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ... وانه ليغان على قلبي » والغين الغيم ؛ قال صاحب المصباح في معنى الحديث : ان هـذه كناية عن الاشتغال عن المراقبة بالمصالح الدنيوية ، فإنها وان كانت مهمة ، فهي في مقابلة الامور الأخروية كاللهو عند المراقبة .

فهل ترى هذه الخطرات التي تطفو في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تؤثر في واديه ؟ وهو عليه السلام وادي الاودية الربانية ، ومحيط المحيطات الإلهية ؟ ألا ترى كيف كانت هذه الخطرات تزول سريعاً بالتفاته صلى الله عليه وسلم اليهـا ، فيرمي بالثوب والخاتم ، فيذهب كما يذهب الزبد جفاء عن وجه الوادي ؟

وبعض المؤمنـين كثـير الزبد ــ عفا الله عنهـم وغفـر لهم ــ وبعضهم قليل الزبد وقليل ما هم « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

هـذا ــ يا أخي ــ ما وسع الجهد أن يستخرجه من هذا المثل العظيم ، ولئن عجزت عن استخراج الكثير مما فيه ، ففي هذا القليل الذي عرضته مقنع يقنعك بسعة علم الله في القرآن الكريم ، وامتداد آفاق كلماته وبعد أغوارها .

وبعـد :

فإن هذه المعاني الكثيرة العظيمة ، قد ظهرت واضحـة في سطر واحد من كتاب الله ، فكيف تست هذه المعجزة ؟ سر هذا في المثل

Marfat.com

الذي أحكمه الله ، وساق فيه ما شاء من العلم والحكمة « ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » .

الرسول يضرب الامثال

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستن هذا السنن . ويضرب كثيراً من الامثال . يشبه فيها الامور المعنوية الخفية بأمور محسوسة . تقربها للأذهان بل تكاد تظهرها للعيان .

ونحن نسوق منها على سبيل التمثيل ما يأتي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله سبحانه وتعالى آمر يحيى بن زكريا صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات . أن يعمل بها . ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها . وانه كاد أن يبطىء بها . فقال عيسى عليه السلام : ان الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها . فإما أن تأمرهم واما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى ان سبقتني أن يخسف بي أو أعذب . فجمع الناس في بيت المقدس . فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف . فقال : ان الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن . وآمركم أن تعملوا بهن .

١ ــ أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . وان مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق[١] فقال : هذه داري وهذا عملي . فاعمل وأدِّ الي ... فكان يعمل ويؤدي الى غير سيده ! فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك .

٢ ــ وان الله يأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا . فان الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته . ما لم يلتفت .

٣ ــ وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة ــ جماعة ــ معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب و يعجبه ريحه ، وان ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك .

٤ ــ وآمركم بالصدقة ، فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده الى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

٥ ــ وآمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً ، حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ... كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله تعالى.

وهو حديث جليل ، رواه الامام أحمد والترمذي . وأنت ترى أن كلاً من توحيد الله ، والصلاة ، والصيام ، والصدقة ، وذكر الله ؛ قد فسّر بشكل يوضح معناه، ويبين مافيه من الخير والنجاة للانسان .

فتوحيد الله ، أن تفرده بما في قلبك من حب وخوف ، ورجاء ، فالانسان انما يتصرف في حياته بوحي هذه العواطف الكبيرة الاصيلة ، وما يتفرع منها . فاذا جعلها لله وحده فقد صار كله لله : قوله وفعله ، وضربه في الارض ، وطعامه وشرابه، غدوه ورواحه.. صلاته ونسكه.. محياه ومماته .. وهذا ما يريده منا الله تعالى وما خلقنا الا له . وهو معنى التوحيد ، وما خلق الله لك هذه العواطف الثلاث الا لتمدها نحوه ، كالخيوط المباركة فتصلك به ، وتعلقك بمقامه عز وجل ... فإذا أنت صرفت هذه العواطف عن الله ووهبتها لغيره ــ لا قدّر الله ــ فقد وضعت الشيء في غير موضعه ، وسخرت نفسك لغير خالقك ، وهذا عين الجحود والجهل والعمى . وهو الذي فسره المثل تفسيراً

واضحاً بقوله : ان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله . بذهب أو وَرِق ، فقال له : هذه داري وهذه مزارعي أو بساتيني أو مصانعي وأعمالي فاعمل بها ثم احمل الثمر الى داري ، فجعل العبد يعمل ثم يحمل الثمر الى دار غير دار سيده ! فأي الناس يقبل أن يكون عبده أو خادمه كذلك ؟.... فإذا كان أحدنا لا يرضاه ، فأولى ثم أولى أن لا يرضى الله لعبيده أن يهبوا لغيره عواطفهم ، وأعمالهم التي هي ثمار هذه العواطف ... وهو مثل مقنع ، يشرح الصدر ، ويستقر بعقيدة التوحيد على قرار مكين .

والصيام ، هو حبس النفس عن شهواتها الظاهرة ، والخفية . الحسية والمعنوية ... وصرف الهمة الى ابتغاء ما عند الله من زكاة وخير .. وهذا هو الصيام الفاضل الكامل .

والصيام بهذا المعنى منهاج تتطور به صفات الانسان : وتترقى من غلبة دواعي الحس وشهواته، الى سيادة الارادة التي تبتغي المعنويات من فضل الله ورضوانه ؛ وهو المعنى الذي يقرره الحديث القدسي بقوله : « يدع طعامه وشهوته من أجلي » أي يدعهما من أجل مايطمح اليه في مقابلهما من رضوانه تعالى ، واحسانه ، ورحمته ، وبره .. فيكون بهذا كيان الانسان الباطن مؤلفاً من حقائق ملكوتية تنتمي الى صفات الله عز وجل ، طيباً ، وشرفاً ، وزكاة ونورا .. فيكون الصائم في ظاهره كياناً من لحم ودم ينطوي على كنز من الطيب . والطهر ينفح الناس من نفسه بالكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والخلق الفاضل .. وهذا ما يجمله المثل بقوله عن الصيام : « فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة ، معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه . وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

Marfat.com

أما الصدقة ، فهي ما يتصدق به الانسان في سبيل الله ... وحب المال والحرص على امساكه من الطباع التي جبلت عليها بشرية الانسان .. وعلى هذا فإخراج الصدقة في سبيل الله هو قهر نفسي يقاوم به الانسان ويعالج خليقة الشح في نفسه ، وعلاقة ذلك بالمثل ان قلب الانسان بما له من ملكات وحواس باطنة عليا،هو حقيقة وجود الانسان، وزاد ذلك القلب ورحيقه الذي يتزوده ، ونسيمه الذي ينتشيه هو ذكر الله عز وجل .. ومجال عمله وسعيه الذي تتأكد به الحياة الروحية وتتضاعف . ويدرك به منازل السعادة والعزة هو المسارعة الى فعل الخير وانفاق المال ابتغاء مرضاة الله .. والشيطان يتحين من الانسان غفلة عن الله ، فيسوق اليه — في مثل لمح البصر —من أهواء الباطل فتناً تجثم على القلب وملكاته ، فتنقطع عنه موراد رحيقه ونسيمه ... ويثير في داخل النفس خلائق الشح وآنانية الحرص على الدنيا ، فتعطل فيها كل خاصية ايجاب ، ولا تدع بها حركة أو خلجة ما لأي مكرمة ، كأنما سلكته في أثقل الاغلال والسلاسل .. وذلك هو سبيل هلاك المرء .. ولا منجاة حينئذ الا أن يراجع المرء نفسه ، ويفك حصار البخل والشح بانتزاع الدنيا من قلبه في صورة ما يخرج من صدقة في سبيل الله . فيخلص اليه نسيم الحياة ورحيقها ، وتنبعث في اهابه الهمم الناهضة الىمروءات الحق..أي يبطل عمل الشيطان،وهذا ماجاء به المثل اذ قال : « وآمركم بالصدقة ، فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده الى عنقه ، فقال : أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

وذكر الله هو مادة حياة النفوس ، وعماد قوتها ... والشيطان وهو أعدى أعداء الانسان ، لا يفتأ يحتال لصرفه عن الله ، فيوسوس له بالشر ، ويزين له الشهوات ، فإذا انقاد له ، فقد نسي الله ، ونسيه الله ، وانقطع عنه مدد الحياة الإلهية ، فهزل قلبه أو مات ، وغدا لاحول

Marfat.com

له ولا قوة ، والقلب الميت أعجز من أن يسد صاحبه بذرة من ذلك••• والحياة في القلب ، ليست نبضاً يدق ، أو دماً غزيراً يفد اليه أو يخرج منه . انما الحياة كل الحياة ، هي ليونته لمعاني الخير ، وشوقه الى مثل الحق . فاذا حيّ هذه الحياة ، عاش صاحبه جندياً مجاهداً للخير والحق والفضيلة طول حياته ، يستمد من ليونته شدة على أعوان الشر ، ومن رقته غلظة(١) على جند الباطل ، ومن شوقه غضباً وكراهة لأنصار الفساد والرذيلة ، وليس هناك حياة غير هذه الحياة . الا حياة الأموات الذين يحصون في الأحياء ظلماً أو جهلا . والقلب الحي يستمد سر حياته بل سر بطولته من حضور الله فيه . وليس أبغض الى الشيطان من هـذا . فهو لا يكف لحظة عن استدراجه بعيداً عن مصادر الحياة . بما ينسيه ذكر الله عز وجل ••• والانسان هو قلبه الحي . فمن لا قلب له فهو هيكل فارغ ، لا يقام له وزن في الدنيا ولا في الآخرة • لهذا اقتضت رحمة الله عز شأنه ، أن يلفتنا الى خطره علينا . وأن ينادي فينا بالفرار منه الى حصن الأمان ، الى ذكره عز وجل « ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين » وقال في حديثه القدسي على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي » ••• ومن كان في معية الله ، فهـو القوي الغالب ، الذي لا يقف لقوته عـدو ، ولو اجتمعت له الإنس والجن ، وذلك قوله عز وجل في الحديث القدسي : « ان عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاقٍ قرنه(٢) » فاذا كانت هذه المعية الشريفة تكسبه كل تلك القوة فأولى ثم أولى أن تكون عصمة وحرزاً له من كل شيطان أو انسان يبغيه بسوء ••• وهذا المعنى هو الذي يشرحه المثل بقوله : « فان مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو

---

(١) مما رسم الله لنا قوله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » .

(٢) قرنه : كفؤه ومنازله .

Marfat.com

في أثره سراعاً ، حتـى اذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله تعالى » •

هذا مثلان أحدهما من الكتاب ، والآخر من السنة • وبقـي أن نورد مثلا من الأمثلة التـي لا يمكن أن تسـمو الى هذين المقـامين الكريمين ••• هبك وقفت تقرر ما شرع الاسلام من عقوبات عادلة ، وحدود رادعة حازمة ، تقطع الشر وتستأصل الجريمة ، ثم بدا لك أن ترد على السخفاء الذين يعترضون بأن في بعض هذه الحدود قسوة وهمجية ، فلا عليك أن تقول ما قاله أحد الإخوان في هذا المقام : ان الطبيب الحكيم ، عليه أن يعالج مريضه ، بما يقطع عنه المرض ويكفل له الشفاء والصحة ، فاذا اقتضى العلاج أن يسقيه الدواء المر سقاه ، فان لم يسقه فهو طبيب خائن لمريضه •••

واذا اقتضى العلاج أن يفتح بطنه ، أو يشق عضواً من أعضائه ، فمن الجهل أن نسمي ذلك قسوة ووحشية ، ان هو الا الرحمة التـي تسوق الى المريض المسكين سعادته وقوته ••• واذا اقتضى العلاج أن يبتر الطبيب اصبعاً أو ذراعاً أو نحو ذلك انقاذا لحياته ، فالحكمة ، في المسارعة الى هذا الاجراء ، الذي ظاهره القسوة والألم •

فإذا كان ذلك كله لا اعتراض عليه ، بل توجبه المصلحة ، فكيف يسوغ في عقول المعترضين ، أن يعترضوا على المشرع الحكيم ، الذي يستأصل بتشريعه جذور الشر والفوضى ؟•••وهل المشرع الا طبيب ؟: ذاك يعالج أمراض المجتمع ، وهذا يعالج أمراض الأجسام ؟••• ان مهمة الطبيب أن يشفي مريضه من علته ، وأن يضع له أفضل القواعد الصحية، التي يتبعها في طعامه وشرابه ، ونومه ورياضته ، حتـى يعيش دهره معافى ••• وكذلك المشرع : مهمته أن يشفي المجتمع من علته ، وأن يضع له أفضـل القواعد والحـدود النفسية الاجتماعية والسياسية ،

Marfat.com

والماليـة ، ونحوها ، مما تنحسم بـه عوارض الانحلال والفوضى ، ويتماسك بناء المجتمع ، ويستقر به الأمن على الأعراض ، والاموال والدمـاء .

وكما أننا نقيس نجاح الطبيب بدرجة شفاء المريض ، وانتظـام صحته ، يجب أن نقيس نجاح المشرع بمقدار مـا ينال المجتمع من حصانة ، ونظام ، وترَقٍّ في معارج الانسانية ومطالب الروح .

وكل ما يطلب من الطبيب أن لا يلجأ الى الدواء المر ، الا حين لا يجد غيره ، وأن لا يلجأ الى بتر الأعضاء أو شقها ، الا بعد اليأس من طرق العلاج الأخرى ... وكذلك المشرع ، كل ما يطلب منه أن لا يقسو على غرائز المجتمع ، ما دام ارضاء هذه الغرائز لا يلحق ضررا ما . بالمصالح العامة أو الخاصة ، وأن لا يعنف في اختيار العقوبات . الا عندما يرى أن العقوبات السهلة غير كافية لقمع نزوات الشر ، ومحق تطلعات العدوان الأناني .

وهذا نفس ما سنه المشرع الاسلامي أو طبيب المجتمع الانساني . فقبل أن يضع حد السرقة مثلا ، قرر لكل محتاج حقـه فيما تجبيـه الحكومة من المال ، الذي هو مال الله ، فاذا تعطل من العمل مونته الدولة ان كان من أهل الأسواق ، أو دبرت له عملا ان كان من الصناع وذوي الحرف ، أو أسعفته بما يكفيه حتى يعمل بما يكفيه .. واذا أصيب في نفسه أو ماله ، وجب على الحكومة أن تدبر أمره بما يرفق به ، واذا أدركته الشيخوخة فأقعدته عن العمل وليس له مال ففي بيت المال أي خزانة الدولة ، حقوقه مذخورة له لمثل هذا اليوم .. فاذا توفي وترك ذرية ضعافاً فقراء لا كافل لهم ، فالإمام ــ أي الحاكم ــ ملزم بتدبير أمرهم ، حتى يغنيهم الله من فضله .

Marfat.com

هذا هو روح التشريع في هذه المسألة • فان عجز المال عن الوفاء بمطالب المحتاجين من المستحقين ، فلتجمع لهم الدولة بحكم القانون ، أو بقوة السلاح من القادرين ما يسد حاجتهم ••• فأي اعتدال أرضى للنفوس من هذا ؟•• فاذا جاء المشرّع بعد ذلك كله وقال : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » كان هذا عين الحكمة ، ومنتهى العدل ، •••

ذلك أن الشارع انما ينظر في عقوبة السرقة الى مكان السرقة من بنية المجتمع ، على شأنه فيما يشرع من حقوق وأحكام ، وحدود •• فالمجتمع في الاسلام بنية ، قوامها العقيدة ، والاقتصاد ، والعمل — في تفصيل لسنا بصدده — ونعني بالاقتصاد الثروة العامة ، فهي لله أولا ، ومن الله للمجتمع لتكون في مطالب العقيدة ، ودعم مؤسساتها ومعالمها ، والذود عنها •• وذلك يثمر في الأذهان والضمائر أن الثروة العامة هي قوام أمرهم عامة ، وأنها مورد يتضامن فيه كافتهم بالوجدان والفكر بحيث ينشأ في ضمير كل فرد منطق واضح واحساس عميق بمكان هذا المال من حياته ، يفرح لنمائه ، ويحرص على مقاومة آفاته ودفع أسباب التلف عنه ، لأنه انما يدفع عن نفسه ، فتراهم في هذا التضامن الجماعي، كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ؛ وذلك هو « حقيقة التضامن » ؛ فليس التضامن اقتراحاً يقترحه مصلح ، ولا خاطراً يرد على بال مجتهد أو مشرع ؛ انما هو « حقيقة كونية معنوية » ينشئها في الصدور ايماننا بالله خالق كل شيء •• ليست المسألة مسألة قانون جيد أو رديء ؛ انما هي وحدة الاحساس لدى أفراد المجتمع بهذا التضامن ورسوخ حقيقته في مكان اليقين من الفؤاد ، بحيث يجد كل فرد نفسه — بيقينه ووجدانه — منبعثاً الى العناية المتجددة بالمال ، ناظراً الى مكانه من مصالحه لارتباطه الوثيق بازدهاره وعلو شأنه •

فاذا زال هذا الاحساس ، وامّحى هذا اليقين ، ووهنت بواعث العمل التضامني ، وانحلت رابطة الاخوة والوحدة ، قامت الفردية مكان ذلك كله ، وذهبت الأنانية تنفث سموم الحسد ، والفرقة ، واستحلال حرمة الغير وماله .. فاذا لم يبادر ولي الامر عند أول بادرة لهذا الانحلال .. اذا لم يواجه أول نذير بما يحسم شره في غير هوادة . استشرى خطره ، وأتى البنيان كله من القواعد . فلا مجتمع . ولا عقيدة ، انما جماعات الغدر واللصوص ، المجترئة على القانون . المتسلحة بأخطر ما ابتكرت الحضارة من أسلحة الدمار ... وهذا هو حقيقة هلاك الأمم في ميزان الاسلام .. فاذا جاء الاسلام يحض المجتمعات ، ويعصم ملكية الاموال بقطع يد السارق . فانه لا ينظر الى عدوان فرد على مبلغ ما من مال غيره . انما ينظر الى العاقبة الخطيرة التي ألمعنا اليها .

وهذا الروح الحكيم هو ما يطالعك في كل شرع يشرعه الاسلام. وفي كل عقوبة يقررها . فهو يسن لكل غريزة حقوقها الطبيعية بقسطاس معتدل ، لا ينعتها بالحرمان . ولا يتسلقها بالغلو والطغيان . .. فاذا أرضاها بالحلال ، ارضاء موسعاً فيه . فقال مثلا في الزواج « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أقام عقوبة الجلد أو الرجم ، لكل من يقع في جريمة الزنى .

فاذا أردنا أن نعرف نجاح مشرّعنا ونجاح مشرّعهم : فنسأل ماذا أشبع تشريعنا من الفقراء . وماذا أشبع تشريعهم . والى أي حد نجح مشرعنا في قطع دابر السرقة . والى أي حد نجح مشرعهم ... ولنسألهم : لقد عالجنا طهارة الأعراض وعالجتموها . فهل تظنون أنكم بلغتم في حسم الشر ، وتطهير المجتمع ، وحل أزمات الزواج . هل بلغتم في ذلك ما بلغناه ؟ .. هل تستطيعون أن تقولوا نعم . وجيوش الشبان

Marfat.com

والكهول العاطلين من الزواج يحدثونكم بما يلقون من شبع وري ، فيما يبذل لهم من حرمات وأعراض وهم آمنون ؟ هل تستطيعون أن تقولوا ان شرعكم وعقوبتكم نجحت في قمع نزوات الشر ؟ والـزام الرقعاء السخفاء حدود الاعتدال والعفة ؟ ..

اذاً هو مشرع خائب أو خائن ، يجب أن يضرب وجهه بتشريعه ، كالطبيب الخائب أو الخائن ، يجب أن يضرب وجهه « بروشتة » الدواء اذا هو عجز أو فرّط في علاج مريضه ... اننا لا نريـد الا مجتمعاً صحيحاً معافى من العلل ، فأيما علاج كفل لنا ذلك في حزم وحكمة ، فهو الشرع الواجب الاتباع ، والا كانت الفتنة والفوضى ، « فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتَّبع هواه بغير هدى من الله ان الله لايهدي القوم الظالمين» .فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيراً من الناس لفاسقون .. أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ..

بهذا المثل الذي تشبه بـه المشرّع بالطبيب ، وتحلل عمل كـل منهما وتقيسه بالآخر ، تبلغ بمعناك قرارة القلوب ، وتقطع كل حجة لجاحد أو مغرور .

* * *

٣ ــ ومن قبيل ضرب الأمثال سياق الحوادث للعبرة ، وهو غير القصة ، فالقصة تسوقها لتعرض بها معناك، وتبث فيها تعاليمك ، فيعينك النمط القصصي على توضيح مرادك ، واظهاره حياً مؤثراً في صورة عملية . أما سوق الحادثة للعبرة فلا يراد به ما يراد من القصة،وانما يراد به الاعتبار بالخاتمة ، ردعاً للقلوب عما هي عليه ، أو تحذيراً لها وانذارا، أو تنشيطاً لها وترغيباً ، وهذا النوع من ضرب الأمثال تتعلمه من القرآن الكريم ، فقد ساقه الله عز شأنه في مواضع كثيرة منه .

Marfat.com

فالكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بحقها يعقب زوالها . والعيش من بعدها عيشة ضنكاً . هـذه سنة من سنن الله في خلقه ، نقرؤهـا في القرآن ونرى مصداقها في شؤون الحياة .

ولقد قال عز وجل : « ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، وأحلّوا قومهم دار البوار » وقال : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله .. فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » ..

وقد كان العرب يعرفون دولة سبأ . وما كان أهلها يتقلبون فيه من نعيم ، ويعرفون حادثة السيل المشئومة ، التـي أتلفت أرضهم ، وخربت ديارهم ، وفرقت جمعهم ، وشتتتهم في أنحاء الجزيرة العربية ، يطلبون عيشها الخشن ، في رمالها المقفرة . حتى ضرب بهم المثل . فقيل لكل جمع يتفرق : « تفرقوا أيدي سبأ » ، كان العرب يعرفون ذلك فساقه الله عز وجل في هذا المقام الذي قررناه تحصيلا لعبرته فقال تعالى: « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا . فأرسلنا عليهم سيل العَرِم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأثل وشيء من سِدْرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نُجازي الا الكفور » .

وهذا النوع من ضرب الأمثال شائع جداً بين الناس . وهو من مألوفهم في النصائح ، والمواعظ ، فلا نطيل بذكر أمثلة له ، ففي حوادث الأفراد والأمم مادة عظيمة لمن يطلبه . غير أنه يلاحظ أنه كلما كانت الحادثة قريبة العهد ، أو حاضرة في الذهن ، كانت أعظم وقعاً . وأبين عبرة .

★ ★ ★

٤ ـ ومن قبيل ضرب الأمثال القصص الرمزية ، وهي قصص يضعها مؤلفها ولا يريد ظاهر معناها ، بل يريد معنى مستوراً يكشفه بعد الانتهاء منها ، أو يشير اليه قبل البدء فيها ، ونحن نوصي به كثيراً ، فقد يكون الداعية في مقام لا يحسن فيه التصريح ، فيسعفه مثله القصصي الرمزي بمراده ، ... هذا الى أن فيه طرافة ، وتجديداً للنشاط النفسي ، ... وقد يغرب المؤلف قليلا ، ويطالعك في قصته بشيء من الأوضاع الشاذة غير المألوفة أو غير المعقولة ، فتعذب القصة ، وتفيض طرافتها حلاوة ، فتقبل عليك العقول بأزمتها ، فاذا انتهيت ، وشرعت تحل العقدة . وتوضح الرموز ، لمعت الأنوار في العقول والقلوب ، واستفاض الرضى عن معناك في النفوس ، ... كيف وقد فسرت الشيء بالشيء ، وأصبح ما كان غير معقول من الأوضاع الشاذة معقولا وشاهداً على أن الانسان يقيم في حياته على كثير من الأوضاع غير المعقولة وهو لا يشعر ، فاذا استكشف السامع تلك المناقضة في نفسه ، عجب لحاله ، وكنت أنت له الرائد الموفق في هذا الاستكشاف ...

وانا نسوق لك هذا المثل الرمزي نموذجاً لهذا النوع من ضرب الأمثال بعد التمهيد له بما يأتي .

أكثر الناس يغترون بزينة الحياة الدنيا، فيجعلونها غايتهم ويصرفون اليها جهودهم ، وتفكيرهم ويجمعونها ، ويثمرونها ، ويستغرق هذا الجمع والتثمير أوقاتهم ومشاعرهم ، فلا يفكرون في الآخرة ولا يعملون لها شيئاً ، فبينما ترى دنياهم عامرة بالزينة وآثار السعي ، ترى آخرتهم أفقاً مهجوراً قفراً ليس به الا رسوم الضيعة الموحشة ، وهذا من سوء رأي الانسان ، وفساد تدبيره ، وغفلته عن مصيره الذي سيصير اليه لا محالة ... هذا معنى حق ولكنك اذا سقته مجرداً كما سقناه الآن ، يكون ضعيف الأثر في قلوب الغافلين ... ولقد قرأنا هذا المعنى في

Marfat.com

موعظة لأبي حازم الواعظ الزاهد المشهور ، فقد سأله سليمان بن عبد الملك فيما سأل : « يا أبا حازم . لماذا نخاف الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم ، والانسان يفزعه الانتقال من العمار الى الخراب » قرأنا هذا المعنى في هذه الموعظة فكان له أثر عميق في النفوس . ولكن هل ترى هذا الأثر العميق يبلغ عمق الأثر الذي تبلغه القصة الرمزية التالية ، حين تعرض هذا المعنى نفسه ، في أسلوبها الجذاب ؟...
قالوا : كان من عادة مملكة من الممالك ، أن تولّي عليها ملكاً لمدة ما . سنة أو نحوها ، ولكنهم يشترطون على من يقبل الملك والتنعم به . أن يسيروا به في نهاية المدة الى صحراء مجدبة لا ماء فيها ولا زرع ثم يجعلونه في هذه الصحراء ، لا يبرحها . لا طعام معه ولا ماء ، ولا سبيل الى أن يجيئه طعام أو ماء ، حتى يموت المسكين ميتة تعسة من الجوع والظمأ ، في هذه الصحراء الصامتة الموحشة . ومر بهم يوماً سائح غريب ، فرآهم في حيرة وهرج ومرج ، فسألهم عن أمرهم فقالوا : لا نجد من يقبل أن يكون ملكاً علينا . لم يقبل ذلك أحد من الوطنيين ولا من الأجانب ، فهل تقبله أنت ؟ فقال الرجل : ولم لا ؟ وهل يرفض الملك عاقل ؟ فقالوا له : أتعرف ماذا نشترط على من يتولى هذا الملك ؟ وماذا تكون عاقبته ؟ فقال : وماذا تشترطون .

قالوا : نشترط كذا وكذا . فبهت الرجل ، وسكت قليلا . وقال : أو ما عندكم غير هذا ؟ قالوا : هو ذلك فقط ... فأطرق وفكر ودبر . وكان عاقلا أريباً ، ثم رفع رأسه وقال لهم : قد قبلت .. أقبل الرجل على ملكه يدير شأنه بسياسته الحكيمة ويقيمه على سنة العدل . ففرح به الناس ، وانتظمت أحوالهم ، واتسعت ثروتهم ولكنه مع ذلك لم تلهه زينة الملك ، وأبهة السلطان عن مصيره الأسود الذي ينتظره في الصحراء المقفرة ، فأخذ يعمل جهده لتعمير هذه الصحراء . فأوفد اليها المهندسين ليخططوا فيها حدائق وبساتين وقصوراً . وأرسل اليها العمال والآلات

Marfat.com

والمواشي وكل ما هو ضروري لانجاز هذه المهمة .. وما أسرع ما تم ذلك ، فشقت الأنهار ، والترع ، وجرت اليها المياه العذبة ، وغرست الأشجار الجميلة . وأقبل الفلاحون يزرعون مختلف الزروع ، وقام للملك هناك قصر جميل وقصور أخرى لمن يحبون الاقامة هناك ، حتى صارت الصحراء بذلك جنة فيحاء .

ومضت الأيام والناس يجهلون ما صنع الملك بالصحراء ، وانتهت المدة ، فأقبلوا عليه وقالوا : قد انتهت مدتك أيها الملك ، فتفضل اذاً الى مصيرك بالصحراء ، فأجابهم في ثقة واطمئنان ، ورضى وابتسام : نعم... وعجب الناس لثباته ، فلم يضطرب ، ولم يزغ بصره من الهلع ، وساروا به نحو الصحراء وهم في عجبهم هذا لا يدرون سر اغتباطه وسعادته ، الى أن بلغوا الصحراء ، فما راعهم الا البساتين ، والحدائق ، والزروع ، والدور قائمة وسط هذا النعيم البهيج . فدهش الناس وأقبلوا على الملك يسألونه : ما هـذا ؟ فقال لهم : ان من تولى الملك قبلي شغلته لذته العاجلة ، عن أن ينظر في مصيره الذي ينتظره في النهاية أما أنا ، فلم تشغلني العاجلة ، عن بشاعة المصير المحتوم ، فدبرت له ما دبرت ، حتى اذا انتهت المدة انتقلت الى مقام جميل ، فيه الرفاهة والخير الجزيل.

هنالك فرح به أهل المملكة وقالوا له : أيها الملك العاقل ، أنت الرجل الحكيم الذي لا يصلح أن يتولى أمرنا غيره ، فارجع بنا الى العرش فانا بك مستمسكون .

وانك لترى في هذه القصة بعض أمور غير معقولة ، تكفل الخيال بتحسينها ، كاشتراط أهل المملكة على من يتولى الملك ، أن ينزل عنه في وقت معين وأن يصير الى الصحراء لا محالة ، فهذا من العجب بمكان لا يصدقه العقل ، ولكن ألا ترى أن كلاً منا سوف يترك هذه

Marfat.com

الحياة الدنيا ، وزينتها يوماً ما ، في أجل محدود ؟ وأنه صائر الى وحشة القبر لا محالة ؟ فلم يكون هذا أقل عجباً من حال الملك الذي ينقل من أبهة الملك الى وحشة الصحراء ؟ ألست ترى مطابقة كل حال منهما للأخرى ، مما يشرح الصدر وينبه عقل الانسان الى أمور عجيبة تحيط به وهو غافل عنها ، انه مثل يكشف الغطاء .. ويزيل الغفلة ، فما أحوجنا الى الكثير منه ! ولسنا نريد أن نمضي في تحليل بقية هذه القصة الرمزية فهي واضحة .

وتستطيع أن تجعل الكثير من القصص الخرافية قصصاً رمزية اذا أنت أحكمت اختيار ما يطابق مرادك . وقد أعجبني من هذا ، ما قرأته لتلستوي ، الفيلسوف الروسي المعروف . في أحد كتبه ... فقد حمل على طبقة الأغنياء الذين استأثروا بحكم البلاد وخيراتها ، ومضى يتدفق في حملته ، ويبين أن هؤلاء المترفين لا عمل لهم في الحياة ، فهم يعيشون كلاً على الطبقة الفقيرة ، هم الطبقة العاجزة والفقراء هم الطبقة العاملة ، ومع هذا فالخير والسلطان لهم ، والفقر والحرمان والذل لغيرهم.ماذا يقدم هؤلاء للحياة. ان الحياة جد وعمل وكفاح واستخراج للرزق من شقوق الأرض ، أو من بين المطارق ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، ومن عمل أكل من عمل يده ، فأي عمل يعمله هؤلاء المترفون . وهم يمسون ويصبحون في أعطاف النعيم ؟ . ان أحدهم يقضي نهاره في الترهل والكسل. واللهو واللعب ، وانه ليقضي ليله في العبث والمجون ، والسمر القبيح وغير القبيح .. فأي شيء من هذا يسمى عملا ترضاه الحياة ؟ أي شيء من هذا يفلح الأرض أو يطرق الحديد أو يثمر المال أو يجلب الثروة ؟ .. فيا عجبا لهؤلاء الكسالى ! كيف حصّلوا هذا المال الوفير ، والخير الكثير ، والسلطان النافذ ، وهم لا يعملون شيئاً ؟

Marfat.com

ان الحياة ضنينة ان تمنح خيرها الا للعاملين •• ولكل واحد من أبناء الحياة رسالة يؤديها اليها : رسالة من العمل المثمر ، والجهد الايجابي الذي يدفع عجلتها الى الأمام ، والقوة التي ينفخها في كيانها من روحه ••• ثم هي تمنحهم أجورهم بعد ذلك ، مقابل ما يسنحونها من قوة وحياة ، تمنحهم بقدر ما يسنحون ، فأكثرهم حظاً منها ، أكثرهم عملا لها ، فما جدوى هؤلاء العجزة على الحياة وأي رسالة أدوها اليها غير الكسل ، والقعود والغطرسة على عباد الله العاملين ؟ •• ترى هل اختل قانون الحياة ؟ فأضحت تمنح العجزة والكسالى ، وتحرم العاملين الدائبين ؟ ان قانون الحياة لا يتخلف ، وليس للعاجز الا أن يعيش على عطف العاملين المجدين وفضل ما يجودون عليه به •• اذاً فكيف عكست الأوضاع ؟ وغدا الفقر ، والعري ، والجوع ، والضعف ، من نصيب العاملين • وانتقل المال والأمر والنهي والتحكم الى جانب المتبطلين القاعدين ؟ ••

ليت هؤلاء المقعدين اذ قعدوا عن العمل ، وانحازت اليهم الثروات ، والخيرات ، والسلطان ، حسدوا لأهل العمل فضلهم ، ورعوا لهم حقوقهم فأكرموهم ، وأعزوهم وكسوهم ، وأطعموهم ، ليت ! وهل ينفع شيئاً ليت ؟ • ان القوم على عجزهم وعقوقهم للحياة ، لم يكتفوا بظهور وضعهم الشاذ،فراحوا يلهبون ظهور العاملين المكافحين، بسياط الحكم ، ويضيقون عليهم الخناق بقبضة السلطان ، ويحتقرونهم، ويرهقونهم بما ورثوه عن آبائهم من تكبر وطغيان •• فلم يبق منهم الا عيون غائرة ، ووجوه شاحبة ، وبطون جائعة ، وأجسام مهدودة بالتعب والمرض •• لقد استوى هؤلاء العجزة والكسالى ،على أكتاف أهل العمل المجدّين فاستمرءوا الركوب ، وخشوا أن يلقيهم هؤلاء الضحايا عن كواهلهم ، فأحكموا القبض على أعناقهم ، وهددوهم ان أبدوا حركة تمرد أن يخنقوهم ، فقضي على هؤلاء التعساء أن

يشقوا بصيبتهم الى ما شاء الله •• قال الفيلسوف كلاماً شبيهاً بهذا ، أو قريباً منه لا أذكر نصه ، وحين بلغ هذا الحد من القول ذكر قصة خرافية من خرافات كتاب ألف ليلة وليلة ، أجاد الاستشهاد بها فقال : ان مثل هؤلاء العجزة المقعدين مع ضحاياهم كمثل ما جاء بألف ليلة وليلة من أن شاباً قوي البنية ، صحيح البدن ، رحيم القلب ، كان يمشي في مرج واسع جميل • فمر بقزم عليل • خائر القوى • مهزول الجسم ، دقيق الذراعين ، كأنما هما ذراعا قرد ، نحيل الساقين ، فهما لا تقويان على حمله ، كأنما هما قطعة حبل ، فلما بصر بالشاب ناداه ، وأخذ يشكو له مرضه وجوعه ، ويلين له القول ، ويرجوه أن يحمله الى مكان عيّنه له ، لأنه لا يقوى على السير فرق له الشاب ، وحمله على كتفيه ، فما أن استوى عليه حتى لف ساقيه النحيلتين حول عنقه ، وقال له : أيها الشاب ، عليك أن تحملني الدهر ، تذهب بي وتجيء وأنا على كتفيك ، وتمضي الى الشجر فألقم منها الثمار ، وأنا على كتفيك ، وترد بي الأنهار فأشرب من مائها ، وأنا على كتفيك••• لا أريحك لحظة ، ولا أعطيك فرصة ترتاح فيها مني ، وحذار أن تحاول التخلص من شأنك هذا ، فاني أخنقك وأقضي عليك • ثم ضغط بساقه على عنق الشاب ضغطة أذهلته ،وأطلق صيحة هائلة من حلقه المخنوق ، فانعقد الدم في وجهه ، وجحظت عيناه وجعل يتوسل الى القزم أن يخلي له سبيل الهواء ، وله عليه ما يشاء ، فخلاه لـه • وقضى الشاب المسكين ، وقته يحمل هذه المصيبة على كاهله لا يشرب الا اذا أذن له قزمه ، ولا يأكل الا ما يفضل له من طعامه ، حتى انهد جسمه وتعس عيشه ، وضاقت به الدنيا ، وصاحبه لا يبالي ما يصيب هذه المطية الذلول من شقاء •

★ ★ ★

٥ ــ ومن قبيل ضرب الأمثال ما يضعه الوضاعون من الحكم والحكايات على ألسنة الطيور ، وأنواع الحيوان ؛ وهـذا النوع ، يعظم من شأن الحكمة في نفس السامع ، لصدورها من مصدر لا يجيد من الكلام ما هو حكمة أو غيرها •

ولقد حكوا الكثير من هذا نسوق اليك واحدة منه •

زعموا أن رجلا صاد قبّرة ــ والقبّر نوع من العصافير ــ ، فقالت له : يا هذا ماذا تصنع بي ؟ فقال :أذبحك فأطبخك فآكلك ،ـ فقالت : اني لا أسمن ولا أغني من جوع ، فخير لك أن تدعني وأعلمك ثلاث خصال نفيسة ، وهي أجدى عليك من أكلي ؛ فأما الأولى فأعلمكها وأنا في يدك ، والثانية ، اذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة اذا صرت على الجبل ، فقال : هات • فقالت : لا تأسفنّ على مافاتك • فخلّى عنها ، فلما صارت فوق الشجرة ، قالت : اذا سمعت بأمر لا يقبله العقل فلا تصدق أنه حصل أو سيحصل ، ثم طارت الى الجبل ، فقالت : يا شقي لو ذبحتني لوجدت في حوصلتي درة زنتها عشرون مثقالا « أي ثلاثون درهماً »(٥ر٢ أوقية) فعض الرجل على شفتيه ندماً وأسفاً، ثم سكت قليلا وقال : هات الثالثة • قالت : يا مسكين لسرعان مانسيت الاثنتين ، فكيف أعطيك الثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تأسفن على ما فاتك ؟ • وها أنت ذا تأسف على أن فتك • وقلت لك : اذا سمعت بأمر لا يقبله العقل ، فلا تصدق أنه يحصل ، أو يكون ، وها أنت ذا تصدق أن في حوصلتي درة تزن عشرين مثقالا مـع ان عظمي وريشي وجسمي كله لا يزنها •

وهـذا يبين لك بعض طبـاع الآدمي الذي يستحسن الحكم استحساناً نظرياً فقط ، حتى اذا كان في ميدان التجربة، والحياة العملية،

Marfat.com

غلبت عليه موازين الطمع ، ونسي منطقه وحكمته ... فهل يعتبر الإنسان حتى لا يكون سخرية لصغار الحيوان ؟

ثالثاً : الالتفات الى الآثار

ومن خصائص العقلية العملية ، ذات النظر الواقعي ، أن تقف على الآثار والأطلال ، والذكريات ، والمخلفات ، لا وقوف الجامد الغافل ، المغلق ، بل وقوف الحي ، المنتبه ذي الوجدان المتحرك اليقظ ، فيناجي الآثار ، ويستخبرها ما فعل الليل والنهار ، ويكلف خياله أن ينصب سرادق هذه الحياة الماضية ، وأن يقيم معالمها ، وينفخ الحياة في أصحابها .. وأن يقف منهم بعد ذلك بمرصد يرقب حركاتهم، ويستمع الى كلماتهم ، ويدرس معاملاتهم ، ويتأمل اضطرابهم بين مختلف العواطف الخيرة والشريرة ، فاذا استوى له كل ذلك ، ونبض به قلبه . وحسب نفسه في حياة قائمة حقاً ، ذكر أن الذين يراهم الآن . ان هم الا أموات قد صاروا الى البلى ، ومضوا مع الزمن الى حيث لا يعلم الا الله .. فيرق ، ويلين ويخشع ، وكأنما انزاح عنه ألف غطاء وحجاب من الركود والغفلة .

أيتها الآثار : حدثينا عن أصحابك ! ماذا كانت قلوبهم ، وعواطفهم وهم ينشئونك، أكانوا غافلين عن مآلهم، سارحين في لهوهم وآمالهم؟ أم كانوا ذاكرين مشمرين في سفرهم الى الله والدار الآخرة ؟...

أيها الأحياء : ان هذه الآثار تخبركم أن أصحابها مضوا الى غايتهم. وهم أشد ما يكونون تعلقاً بالحياة ، وانكم كما سافروا لا محالة مسافرون ، فتزودوا لسفركم هذا بتقوى الله عز وجل . تزودوا بما يصلح نفوسكم ويؤهلها للتجانس مع كنه الحياة الآخرة . وأوضاعها ونعيمها ... واحذروا أن تسافروا اليه وأيديكم صفر من كل خير .

Marfat.com

ليكن الوقوف بالآثار شبيهاً بهذا أو أحسن منه ، يذكرنا بحقيقة وضعنا في هذا الكون العميق الخطير ، ويذكرنا الله عز وجل ، وما يجري من تصاريف القدر على خلقه في كونه العجيب •

انك يا أخي داعية . مهمتك الأولى ايقاظ القلب ، واحياء مواته ، ومثل هذا الوقوف يصل بك الى غايتك •• لا تقف لتدرس هذه الدراسة الجافة . فتقول : انهم كانوا يستعملون من أدوات المطبخ كذا وكذا . وكان لهم من أدوات الزينة كيت وكيت، وكانوا يقصرون الملابس أو يطيلونها . ويوسعونها أو يضيقونها ، كانوا يحرثون بالمحراث الذي نحرث به . وكانت طقوس عبادتهم تشابه طقوس العبادة عند أمة كذا ، الى آخر ما يجري عليه الاسلوب المدرسي أو الجامعي ، ثم ينتهي الدرس أو الرحلة ، والطالب مغلق لم يستفد غير رسوم ميتة •

ولسنا نقصد آثار السابقين القدماء أو المحدثين فقط ، بل نقصد كل أثر ، ولو كان أصحابه أحياء ، فآثاري السابقة ، وآثارك الماضية ، وآثار غيرنا من المعاصرين . في كل منها واعظ يتكلم ، لا يسمعه الا القلب الذي يريد أن يفهم ويتعلم ، في كل منها سطر من قضاء الله ، يتلو عليك آية من كتاب الوجود المتغير المتبدل ، اذا أصغيت الى وحيها ، وأحسسته يتخلل شعاب نفسك ، ويرطب جوانبها بحنين الذكرى ، اذا أصغيت وأحسست . ثم ترجمته للناس في لباقة وخشوع ألنت القلوب ، وأحييت المشاعر ، وأنرت البصائر •

ولست هنا بصدد التحدث عن الوقوف على الآثار لكل من يعنيه الوقوف على الآثار . بل أورد منه بعض ما يتصل بمهمة الداعية فقط ، فلا تطالبني بكلام جامع مانع ، يشبع الأدباء والشعراء ، ويعجب علماء الآثار ، ورجال التاريخ ونحوهم •• فلسنا نحب للداعية أن يدرس

قواعد وفنوناً ، انما نريد له أن يلين قلوباً ، ويثير فِكرًا وعبَرا ••••• وفيما أوردناه سابقاً اشارة خاطفة ، تشير الى الطريق •

وقد تعلمنا هذا الوقوف على الآثار ، والتأمل في سطور الأيام والليالي ، من القرآن الكريم ، من الكتاب الجليل ، الذي يشرح لكل داعية الى الله أفضل وسائل الدعوة اليه عز وجل •

فنرى الله يندبنا الى السياحة في الأرض . والتأمل في آثار الماضين ، وذكرياتهم فيقول : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » •

ويرسم لنا منهاج التأمل فيقول : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة . وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها . وجاءتهم رسلهم بالبينات . فما كان الله ليظلمهم . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » •

ويزيد عز شأنه في العبرة . فيأمر بصفة خاصة أن تتأمل آثار أولئك الذين أنزل عليهم عذابه . لما فسقوا عن أمره . فأهلكهم وتركوا مساكنهم من بعدهم خلاء، « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا . وكنا نحن الوارثين » •• وكم في قوله تعالى : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم » ! كم فيه من عبرة تلين القلوب والمآقي ، وتكسر النفوس للحي الوارث الباقي . « وكنا نحن الوارثين » « وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » •

ويشير الله الى المساكن والقصور ، والآثار . لكي يقف المتأمل وقفة يناجيها أو يناجي أهلها الذين عمروها ، ثم خلفوها وراحوا « فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة . فهي خاوية على عروشها وبئر

Marfat.com

معطلة وقصر مشيد »« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ••فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » •

بل ان الله سبحانه ، ليذكر أن هذا التأمل هداية ، ويلفتنا الى تحصيل الآيات من الديار التي نمشي خلال مساكنها الخاوية ، الصامتة، فكم في صمتها من عظة لمن يسمع « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ••• ان في ذلك لآيات !!• أفلا يسمعون » ويبين لنا عز شأنه ، أن هؤلاء الذين أصبحت منازلهم خاوية من بعدهم ــ ما حاق بهم غضب الله الا لأنهم اعرضوا عن معين حياتهم ، وسبب صلاحهم وعاندوا ، ومكروا لإحباط أمره سبحانه . وان المؤمنين الذين كانوا يعاشرون هؤلاء ويساكنونهم ، قد أنجاهم بما آمنوا وكانوا يتقون ، وهذا أبلغ في العبرة ، وأكمل للموعظة « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ؛ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ؛ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ••• ان في ذلك لآية لقوم يعلمون ؛ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » •

وأخيراً ترى أن الله عز شأنه ، يجعل هذه الآثار في مقام الواعظ البليغ ، ويجعلها حجة على الغافلين ، حين ينزل بهم عذابه « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا الى أجل قريب ، نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام » •

Marfat.com

وكثيراً ما يصرح الله سبحانه بأسماء هؤلاء السابقين وخطاياهم . فذكر الأثر مقروناً باسم صاحبه . وخطيئته . وعقوبته ، أبعد غوصاً بالموعظة في أعماق القلب . واليك نبأ قوم لوط على سبيل التمثيل : أرسل لوط عليه السلام الى أهل سدوم (شرق فلسطين) مكان البحر الميت الآن . وقد كانوا يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر . فكان من أمرهم . بعد أن أنذرهم رسولهم . أن أمطرهم الله مطر السوء. وزلزل الأرض بديارهم فجعل عاليها سافلها . وظلت آثارهم باقية . تقص نبأهم على المعتبرين ... وفيهم يقول الله عز وجل : « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » نعم في ذلك آيات للمتوسمين . وأي آيات ... كم يقرأ تلك القصة قارىء من المحجوبين . فيداخله الشك والعياذ بالله في صحتها ! فاعلم يا أخي أن ذلك حق كل الحق وفيه العبرة كل العبرة . فقد دمر الله هذه القرية بما أمطر عليها . وبما زلزل بها . وفي مكان هذا الزلزال . انشقت الأرض فحدثت البحيرة الصغيرة التي تسمى الآن بحيرة « لوط » أو « البحر الميت » وهي تسمية قديمة .. فهؤلاء الصرعى تحت أنقاض قريتهم . سرى اسم الموت منهم الى البحر الذي غمر أماكنهم بمائه .. وظلت بقايا الأنقاض على شاطئه . تطالع المارين بما كان من أحداث خطيرة في تلك القرون الخاليات . قال الامام ابن كثير(١) في تفسيره:« ان الله أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح . وجعلها بسبيل مقيم . يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ».. ويقول أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء طبعة سنة ١٩٣٣ ص ٩٣ : « وأعتقد أن البحر الميت المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط ، لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وانما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو ربعمائة

(١) جـ ٤ ص ٣٠ .

متر » ۰۰۰۰ ، ثم التفت الى ما يقوله الأستاذ بعد ذلك رحمه الله : وقد جاءت الأخبار في السنتين الماضيتين « سنة ۱۹۳۰ ـ ۱۹۳۱ » بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة « البحر الميت » ۰۰۰۰ وصدق الله العظيم ، « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » ٠

ولقد أطلنا بعض الشيء ليقوى يقين المؤمن بما يقول الله عز وجل شأنه ، ويزول شك الضعيف الملحد ۰۰۰۰۰ والآن فلنمض في سبيلنا الذي رسمه الله لنا من التأمل في ديار هؤلاء الهالكين ، فكان العرب يرون هذه الديار المدمرة في سفرهم الى الشام ، ذهاباً واياباً ، قال عز شأنه : « ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ، أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشوراً » ۰۰۰ « وان لوطاً لمن المرسلين اذ نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزاً في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » ؟ ۰۰۰۰

وحادثة لقوم آخرين نسوقها على سبيل المثال أيضا : هي حادثة قوم عاد ، أصحاب الأحقاف في جنوب جزيرة العرب ، فقد أهلكهم الله بالريح العقيم ، « سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » ؟

لم يبق من هؤلاء البائدين الا مساكنهم ، كانت تتراءى للعرب الرحل والمسافرين ، ولكنها طمرت الآن تحت الرمال ، بما سفت عليها السوافي ، فلعل الله يقيض لها من يكشف عنها ، قال عز وجل عن العذاب الذي أرسله عليهم : « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ، قالوا : هذا عارض ممطرنا ۰۰۰ بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ٠ تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم » وهذا شاهدنا من الآية « كذلك نجزي القوم المجرمين » ولقد خاطبنا الله عز

Marfat.com

وجل بما يصح أن نخاطب به نفوسنا ، في كل وقفة على مثل هذه الآثار فقال : « ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ويقول عز وجل بعد هذا بقليل تكميلا للعبرة : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم ، وذلك افكهم وما كانوا يفترون » .

أرأيت يا أخي هذا المنهاج الكامل ، الذي يقرره الله ليكون دستورنا في النظر الى الآثار ؟ أرأيت كيف جعل « السمع والأبصار والأفئدة » مناط التبصر في آيات الله لتحصل العبرة وأسباب الصلاح منها ؟ .. أرأيت بقوله : « فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ؟ » .. لماذا ؟ لانهم « كانوا يجحدون بآيات الله » .. وآيات الله ليست هي المَتْلُوَّةُ في كتبه فحسب انما هي مع ذلك آياته المشهودة في الآفاق .. فهل رأيت منهاجا مثله يحيط بأطراف الموضوع وخطواته هذه الإحاطة ؟.. لقد سنه الله لسيد الدعاة ، ولكل داعية من بعده ، فكان عليه السلام يرى أن الوقوف على آثار الظالمين دون تأمل تتحرك به نفس الانسان فيخشع قلبه ، وتندى عينه ، ويرى أن الوقوف الجامد الخالي من العبرة ، يجلب سخط الله وغضبه ، وهذا من صميم الحق ، فلا نطيل بشرحه والبرهنة عليه ، فتأمل فيه ينكشف لك وجهه ... وكان عليه السلام، يستن بهذا السنن الإلهي ، ويعلم أصحابه كيف يقفون على الآثار .

خرج عليه السلام الى غزوة تبوك ، وفي الطريق اليها ، تقع مساكن صالح أو ديار ثمود ، وهي بيوت منحوتة في الصخر ، كما ورد في القرآن الكريم ، ونحن نعرف شأن هؤلاء ، قبل أن يبعث اليهم صالح عليه السلام ، وبعد أن بعث ، ونعرف عصيانهم لنبيهم وتمردهم على

Marfat.com

حكم ربهم ، حتى أرسل عليهم صاعقة فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين •

ولما اقترب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ديار ثمود – وهي لا تزال ظاهرة الى اليوم – ثارت ذكرى الظلم والظالمين بنفسه • وهي ذكرى بغيضة ، فسجّى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ، وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم باكون ، خوفا أن يصيبكم ما أصابهم » •

ولسنا نرى وصفاً أبلغ في الدلالة على الوجدان المرهف ، والطبيعة الحية بل لسنا نرى عملا أعظم دلالة على حساسية الشعور من فعله صلى الله عليه وسلم « سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته » •

ان التعاليم حية ، بل حارة قوية في قلبه عليه السلام ، فهو غير محتاج الى مشهد ينبه قلبه « حاشاه » • ان المشهد يقع من قلبه صلى الله عليه وسلم ، كما يقع المشهد من عين أحدنا ، فانظر الى السرعة الخاطفة ، التي تدرك بها عينك جمال الشيء أو قبحه ، فتنشرح له في الحال أو تشمئز ••• وانظر الى السرعة الخاطفة ، التي ترى بها وجه حبيبك فتنبسط اليه ، أو وجه عدوك البغيض ، فتنقبض لفورك منه ••• وليس أبغض الى قلب رسول الله من وجه الظلم والظالمين ، والكفر والكافرين ، فما أن وقعت عين رأسه . وعين قلبه على مشاهد ثمود ، حتى شهد فيها غفلتهم عن ربهم واعراضهم عن آياته وصدر رشدهم وصلاحهم ، فظلموا أنفسهم وجهلوا حقيقة الحياة •• وما أن شهد ذلك حتى ثار وسخط ، واستعاذ بالله ، وسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته •• فيالله لهذه النفس الحية ، البالغة ذروة الحياة ، والإحساس !

ولكن أصحابه ليسوا كهيئته صلى الله عليه وسلم فهم محتاجون الى التذكير، وهو يخشى عليهم أن يلفتهم الاعجاب بهذه البيوت والقصور

المنقورة في الصخر . عن العبرة والتأمل . فتقسو قلوبهم . فاذا قست . كانوا أهون شيء على الله وعلى عدوهم .. قال لهم : « علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم » ؟ فناداه رجل فقال : نعجب منهم يا رسول الله. فقال عليه السلام : « ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك ؟ : رجل من أنفسكم . ينبئكم بما كان قبلكم . وما هو كائن بعدكم ... استقيموا وسددوا ، فان الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئا . وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » .

وأهاب بهم جميعاً : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين . الا أن تكونوا باكين . فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم . لا يصيبكم مثل ما أصابهم » والحق يا أخي أن هذا تعليم سام جداً . فان الأثر العجيب اذا كان لظالم وأعجب به الانسان. فقد أعجب بالظلم من حيث لا يدري، وأدخل على قلبه الفساد والجمود وهو لا يشعر . وما الانسان الا قلبه الحي . وضميره المعتبر الذكي فاذا فقده . هان شأنه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً . فانظر — يا رعاك الله — الى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حياتنا . ويقظة بواطننا . ياقوم : من يريد الحياة فيتعلم اسرارها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... والله ان قلبي لا يكاد يطاوعني أن أغادر هذا الموقف من مواقف الرسول عليه السلام لأمضي الى ما أنا بسبيله من أجزاء هذا الكتاب .

والالتفات الى العهود السابقة . وما كان للمرء فيها من ذكريات . أمر من طبيعة الانسان . فلنوجه هذه الطبيعة . وجهتها النافعة .... . فاذا ذكر هذه العهود أو أماكنها . فليجعل الذكرى حياة لقلبه . ورجوع الى ربه .... فـاذا كانت خيراً فهي خـير . واذا كانت شراً وفسوقاً ومجانة ، اعتصر الخير منها أسفاً وتوبة . وكان منها له حياة ... وان كانت لا من الخير ولا من الشر . فليوازن بين حاله اليوم.وحاله بالأمس. ثم ليخرج منه بعبرة .

Marfat.com

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يرعى وهو صبي ابل أبيه الخطاب في بعض شعاب مكة ، وكان عمر الصبي ، يرى نفسه هيناً على أبيه ، لأنه كــان غليظاً عليه يؤذيه ويتعبه ••• ودارت الأيام ، وانبثق نور الدعوة المحمدية ، ودخلها عمر ، ثم هاجرت الدعوة الى المدينة ، فانتقل اليها عمر ••• ودارت الأيام والأعوام أيضاً ، وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وأبو بكر من بعده، ودارت الأيام دورة ثالثة ، فاذا الاســلام مبسوط الرقعة ، مرفوع الراية نافــذ الكلمة ، واذا عمر سيد الناس جميعاً وأمير المؤمنين ، ومدبر أمرهم بعد صاحبيه ••• ونسي عمر شعابه القديمة والابل التي كان يرعاها هناك•••وذهب مرة الى مكة للحج في رفقة من أصحابه، فاذا به في احدى جولاته ، يرى نفسه في هذه الشعاب ، واذا بقلبه الذكي المرهف يقف فجأة ، ويتذكر عهود صباه في هذه المراعي المجدبة ويذكر ما كان من شأنه المغمور بين أقرانه الرعاة المغمورين ، ومـا صار اليه اليوم من علو السلطان ، ونباهة الذكر • فيعجب لتصاريف الله التي تقلبت به بين الأمس واليوم هذا التقلب ، ويصل به العجب الى عمق العبرة ، فيقول لصحبه : « لقد رأيتني في هذه الشعاب ، أرعى ابل الخطاب ، وكان غليظاً يدئبني ••• ثم أصبحت وليس فوقي أحد •• » ولا يجد تصويراً يصوغ به مشاعره الرطبة الا أن ينشد هذا البيت من الشعر :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الاله ويفنى المال والولد

من هذا ياأخي ترى ضرورة الحرص على الاستفادة من ذكر الآثار ، واستحضار الذكريات ، ونسأل الله توفيقاً في ذلــك ، نبلغ به ما نريد ، فانه يحتاج الى فطنة وكياسة • وطبع حي متأثر •

Marfat.com

رابعاً : النظر الى صور المعنويات ، وآثارها المحسوسة واوصافها

وهذا مظهر رابع لخصائص العقلية العملية ، التي تخاطب الناس بلغة الواقع فعلى الداعية حين يتكلم عن الفضيلة والرذيلة ، والخير والشر ، والحق ،والباطل ،وما الى ذلك ، أن يتجنب ما وسعه التجنب تحليل هذه المعنويات ، والتكلم عن معانيها التجريدية . وفلسفتها النظرية ، وأن يكف عن الجري وراء الفروض والتخمين . وأن يكتفي بتناول صور هذه المعنويات . وآثارها العملية . فذلك هو الذي يراه الناس ويعقلونه ، وهو الذي يحسه الناس ويتأثرون به . وهو الذي تتقرر به عواقبهم في دنياهم وأخراهم ... أما أن نصدع رؤوسهم بالبحث عن الأخلاق مثلا : ما أصلها . وكيف تتكون ؟ فهذا مالا شأن لعامة الناس به ، ولا يتوقف عليه نفع لهم في الدنيا ولا في الآخرة ... فحسب الجميع من الخلق الأصيل أن يروا حسن أثره في القلب ، وطيب ثمره في عالم الواقع .

ونحن نتعلم هذا من القرآن الكريم . فانظر مثلا حين أراد الله عز وجل أن يتحدث عن صفات فاضلة ، تخلق بها قوم فاستحقوا رضاه ، لم يذكر أصلها وفصلها . كما تذكر كتب الأخلاق ، بل سن لنا ذلك السنن الواضح،الذي يفهمه كافة الناس . لأنه يظهرها لهم في صورة عملية واقعية ، فقال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً . والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً . والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً . والذين لايدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاماً .. والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً .

Marfat.com

والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ، والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما ، أولئك يجزَون الغُرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاماً » .

وانك لا ترى في هذا الكلام المشرق شيئاً يكد الذهن ، أو لفاً ودوراناً يورث السأم والملل ،بل تراه كثير المعاني ، سامي الحقائق ، شديد الظهور ، يزاحم ضوء الشمس في الوضوح والجلاء ، حتى ليخيل للجاهل أنه ليس شيئاً لقربه من البديهة وهو في الحقيقة كل شيء في بابه .

ولست أريد أن أحلل هنا هذا السياق الجميل ، الذي تجلت فيه هذه الفضائل تجلياً عملياً ، في مشية أصحابها ، وكلامهم ، وصلاتهم في ليلهم ومناجاتهم لربهم ، والقصد في معيشتهم ، والكف عن العدوان والشهوات المحرمة .. الخ ولكني أريد أن أنص على أن هذا السياق ، له من قوة التأثير ، ما ينهض الانسان ، ويحمله على الاقتداء بهذه المثل العملية الفاضلة .. وذلك من أسرار الاعجاز ، التي لا طاقة للعقول بالتحديق في آفاقها ، فضلا عن سبر أغوارها وأعماقها ...

* * *

وطبعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشرب هذا التعليم الحكيم ، وطبع على هذا المنهج القويم ، فلم يعمد في تعليم أصحابه الى أنواع الفروض والتخمين ، بل سار على النهج العملي الذي سنه الله تعالى ... ومن طرقه عليه الصلاة والسلام في هذا :

Marfat.com

١ ـ أن يشير الى الهيئة الظاهرة للعيان ، أو يقف عليها ويستنبط منها ما يريد ؛ ومن أمثلة ذلك ، أنه كان يكرر في أحاديثه المعنى السامي ، الذي يدور حول تقدير الرجال بقيمهم النفسية لا بصورهم الظاهرية ، وكان يقرر هذا تقريراً عمليا يبلغ به قرارة اليقين ويطيب له خاطر الفقير والمسكين .. مر به يوماً رجل ، فقال لرجل عنده جالس معه : ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حري ان خطب أن يزوج ، وان شفع أن يشفع . فسكت رسول الله صلى عليه وسلم . ثم مر رجل آخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيك في هذا ؟ فقال : يارسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حري ان خطب ألا يزوج ، وان شفع ألا يشفع ، وان قال أن لا يسمع لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

ونلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يختر للمقارنة رجلين متماثلين في المظهر فقراً أو غنى ، ولو أنه فعل وقارن بين فقيرين . ثم حكم بأفضلية أحدهما على الآخر . لكانت المقارنة كافية لتثبيت المعنى ، وكذلك لو قارن بين غنيين ؛ ولكنه عليه الصلاة والسلام قارن بين غني خبث باطنه وحسن ظاهره ، وبين فقير طاب باطنه وهان مظهره ، وتلك من اللفتات النبوية الدقيقة ، التي من شأنها أن تظهر لك المفارقة الشاسعة بين هذين الطرفين .. وقال في هذا المعنى يوماً لأبي ذر : أترى كثرة المال هي الغنى ؟ قلت نعم يارسول الله ، قال : فترى قلة المال هي الفقر ؟ قلت.. نعم يا رسول الله قال : انما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب .. فهذه أسئلة ألقاها الرسول على أحد تلاميذه ، وقد أجاب التلميذ على قدر ما يعرف ، فذكر له المعلم الأعظم صلوات الله عليه ، الحكم الصحيح في الغنى والفقر ؛ ولكن أتراه اكتفى بهذا ؟ لا ، بل انه مضى في أسئلته الحكيمة المثيرة لرواكد

Marfat.com

النفس ... قال أبو ذر : فسألني عن رجل من قريش ، هل تعرفه فلاناً ؟ قلت : نعم يارسول الله ، قال : فكيف تراه ؟ قلت : اذا سأل أعطي ، واذا حضر أدخل . قال : ثم سألني عن رجل من أهل الصفة(١) . فقال : هل تعرف فلاناً ؟ قلت : لا والله ، فما زال يحلّيه وينعته حتى عرفته ، قال : فكيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة قال :« فهو خير من طلاع الأرض من الآخر » .

وفي كتب السنة ما يفيد أن هذه المقارنة تكررت بصور مختلفة لتقرير هذا المعنى نفسه .

ومما نمثل به لما نحن بصدده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق يوماً ، والسوق هو الدنيا مصغرة ، هذا يبيع ، وهذا يشتري ، وذاك ينادي على سلعته وآخر مقبل ، وغيره مدبر ، ولكل امرىء شأن يغنيه ، فهذا يحدث نفسه بربح ، وذاك يتمنى أن يظفر بسلعة رخيصة ، فأراد عليه السلام أن يبين لهم قدر الدنيا التي أقبلوا عليها هذا الاقبال .. وكانوا قد علموا من قبل أن متاع الدنيا قليل ، وأنها لاتزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن هذا تعليم ، يقرر القواعد والأحكام العامة تقريراً تجريدياً ، فأحب عليه السلام أن يقرره اليوم لهم عملياً ، وهم في زحمة الدنيا ، ووسائل الايضاح بين أيديهم .. مر عليه السلام وهو بالسوق بجدي أسك(٢) ميت ، فقال لمن حوله : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ! وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً لكان عيباً فيه أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

---

(١) الصفة : جانب من جوانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقيم به فقراء الصحابة الذين لا مساكن لهم .

(٢) أسك : صغير الأذنين .

Marfat.com

وكما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم المعنى السابق في أساليب متعددة من الموازنة العملية ، قرر هذا المعنى بالوقوف مرات متعددة على مثل هذه المناظر التي تعافها النفس ...

٢ ـ ومن طرقه عليه السلام في تجلية المعاني الدقيقة الخفية ، أن يلفت النظر الى ما لهذه المعاني من آثار محسوسة في القلب ، لاتخفى على الانسان .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما الاثم ؟ وما الايمان ؟ وما البر ؟ ... هذه أسئلة عن معان دقيقة خفية ، يطلب بها أصحابها تعريفاً وافياً عن حقيقة ما يريدون . فبماذا أجاب عليه الصلاة والسلام ؟

ترى لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة ، أو أحد حملة الاجازات العليا من الجامعات الكبرى ، فبأي شيء كانوا يجيبون ؟ ... أما حامل الاجازات العلمية فكان يذهب الى بطون الكتب ، ليستخرج منها أقوال العلماء ، ويوازن بينها ويفاضل ، ثم يخرج لك ببحث يظنه يرضي ويشفي ، أما الفيلسوف فيعرفه لك تعريفاً تجريدياً ، يزيد الأمر غموضاً عليك ، وقد يتفضل فيملأ الأفق من حولك تحليلات وتعليلات، وفروضاً وتخمينات . مما تخرج منه وأنت تشعر كأنك لم تتصل بشيء مما سألت عنه ، ونادم على أنك سألت !. ولكن انظر يا أخي الى اجابة سيد العارفين ، وقدوة المعلمين صلى الله عليه وسلم .

الاثم : اذا حاك في نفسك شيء ... فدعه ... الاثم ما حاك في صدرك ،وكرهت أن يطلع عليه الناس .

الايمان : اذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك . فأنت مؤمن .

قال وابصةبن معبد : رأيت رسول الله صلى عليه وسلم ، وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر الا سألت عنه ، فقال لي : أدن

Marfat.com

يا وابصة، فدنوت منه ، حتى مست ركبتي ركبتيه ، فقال لي: يا وابصة، أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت : يارسول الله أخبرني ، قال : جئت تســأل عن البر والاثم ، قلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاث ، وجعل ينكت بهــا في صدري ، ويقول : ياوابصة ، استفت قلبك : البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر ، وانْ أفتاك الناس وأفتـوك •

وما أحب أن أعلق هنا بشيء ، لأني أريد أن تسائل نفسك عن مبلغ رضاك ، واطمئنانك الى سداد هذه الاجابة ، التي تصل بينك وبين هذه المعاني بصلات قلبية وثيقة ••• فعليك ياأخي بهذا النهج الفطري العملي ، فانه نهج يعرض عن كل مالا تأثير له في الموضوع ، ويتناول ألوان الأحاسيس التي هي ثمر ذلك كله والتي ينبعث الإنسان بقوتها الى البر أو الاثم •

وقال عليه الصلاة والسلام : « في القلب لمتان : لمة من الملك ؛ ايعاد بالخير وتصديق بالحق،فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه• وليحمد الله ؛ ولمة من العدو (الشيطان) ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » •

جزى الله عنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أهل له ، بل ما الله أهل له ، أي نفس هذه يا أخي ، اقرأ الحديث ، بل اقرأ كل ما سبق من أحاديث ، وخبرني : ماذا أراد لنفسه منا ؟ انها كلها لنا ، فقد وقف حياته يعلمنا ويطهرنا ، ويذود الشيطان عنا ، ويحرص على سعادتنا ، ويقول في صدق وحنان : (انما أنا منكم كالوالد من ولده)

ماذا أخذ رسول الله لنفسه ؟ ... لقد خرج من الدنيا ودرعه العزيزة مرهونة عند يهودي على حفنات من شعير ...!

لا نقرأ الا تعليماً للحقائق ، وتوجيهاً للخير ، وايقاظاً لملكات القلوب ، ونلمح من خلال ذلك ومن وراء ذلك ــ قلباً يفيض حناناً ، ورحمة ، وحرصاً عجيباً على سعادتنا ... حرصاً عميقاً نشهده في كل كلمة ، ونحسه في كل عمل ، كأشد ما يستغرق الرجل في خير أبنائه . صلى الله عليك يا رسول الله صلاة دائمة وسلم تسليماً كثيراً ...

ونقول مرة أخرى : أي نفس هذه ... ! انك تراه يا أخي يعلّم هذا التعليم العجيب ، وهو يحرص على تحذيرك وتنبيهك . فللقلب جانبان ، في كل جانب لمة ، واللمة : الشَعَر الذي يجاوز شحمة الأذن مسترسلا الى المنكب ليقترب منه . احدى اللمتين بيد الملك والأخرى بيد الشيطان ، فهما يتجاذبان القلب من هاتين اللمتين . ولكل جذبة منهما خواطر في الصدر ، فجذبة الملك تبعث خطرات الخير وتصديق الحق بإذن الله . وجذبة الشيطان تبعث خواطر الشر . وتكذيب الحق والشك فيه ، أرأيت يا أخي هذا التنبيه العجيب ؟ وهذا التعليم السديد الذي يحيلك الى أعماق نفسك ، ويلفتك الى الانتفاع بتحليل خواطرك ؟ فمن وجد خواطر الخير فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله عليه . ومن وجد خواطر الشر فليفر الى الله مستعيذاً به من الشيطان الرجيم . « والشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » .

واني يا أخي أدعوك معي الى الاستغراق في الاعجاب التام بجمال التعليم ، وبجمال الرحمة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم . فرحم الله عبداً أدام الإصغاء الى هواتف قلبه ، فما كان من هواتف الخير استجاب

Marfat.com

له وأمضاه وأنفذه ، وما كان من هواتف الشر قمعه بالمجاهدة والتطهير والفرار الى الله سبحانه وتعالى .

٣ ــ وصف هذه المعاني بأقرب أوصافها العملية ، التي تبين أو تمثل حقيقتها ، على أن يكون هذا الوصف مرغباً أو منفراً ... فالذي يسأل الناس مثلا انما يريق ماء وجهه ، وأكرم شيء على الانسان وجهه ، فانظر كيف يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة تصويراً يصد عنها وينفر منها ... قال عليــه الصلاة والسلام : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى ، وليس في وجهه مزعة(١) لحم » . وقال : « انما المسائل كدوح(٢) ، يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك » .

وقال علي كرم الله وجهه : قلت للعباس : سَلِ النبي يستعملك عــلى الصدقة ــ أي يكون من الأمراء الذين يشرفون عــلى جبايتها ويأخذون أجراً عليها ــ فسأله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس » وهذا الوصف حق ، توصل اليه النبي عليه السلام ، بملاحظة معنى قوله عز وجل : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ينام كل الليل حتى يصبح ، فقال : « ذلك رجل بال الشيطان في أذنه » .

وذلك أن الــذي لا تحدثه نفسه أن يقوم من الليل ، فيصلي ، ويستغفر ، ويدعو الله عز وجل ، انما هو رجل غافل ، محجوب عن حقيقة الخير ، جاهل بأوقات المغانم ؛ رجل يسخر به الشيطان ، ويبول في أذنيه الفارغتين ، استهزاء بغفلتهما عن نداء الله في الثلث الأخير من

---

(١) قطعة .
(٢) خدوش .

Marfat.com

الليل : هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب أتوب عليه ؟ ... الى آخر الحديث القدسي المعروف ... فنعوذ بالله من الغفلة عن ذكره بالليل والنهار .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ... الجمعة ـ أي صلاتها ـ حج المساكين » وهو وصف صادق يلم بحقيقة الجمعة من هذا الوجه خير الملم . فالمساجد بيوت الله ، والكعبة المشرفة بيته عز وجل ، لكنها تمتاز بأنها أعظم البيوت قدراً وبركة ... فالحج الى المساجد يوم الجمعة لزيارة الله ، كالحج الى زيارته عز وجل في بيته المعظم ، مع مراعاة أن الفرق بين حج المساجد ، وحج البيت الأكبر . كالفرق الشاسع بين حرمة هذه المساجد العادية . وحرمة بيت الله الحرام ... لكن الله عز وجل بفضله وكرمه يطلّع على المساكين من عباده . الذين تقعد بهم حالهم عن الحج الأكبر ، فيكتب لهم مثوبة حج بيته الحرام. فطوبى للمساكين. عيال الله في الأرض . وأولى الناس برعايته . وحمايته . فاللهم ارحمنا برحمتك اياهم . واجعلنا منهم . واحشرنا في زمرتهم تحت لواء رسولك الكريم .

ومن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارتعوا في رياض الجنة ! قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ... فاغدوا وروحوا في ذكر الله . وذكّروه أنفسكم » .

وقد قدمنا في كلمة سابقة . أن ذكر الله نفحات تتنزل من رياض ملكوته ، تعجل للانسان أرواح الجنان وهو في قرارة الدنيا . وكان بعض الصالحين يقول : « من أحب أن يستوطن الجنة وهو في الدنيا ، فليستوطن مجالس الذكر » ويقول بعضهم في هذا : « ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة » وهذا كله مأخوذ من الوصف الحقيقي الذي أبان به عليه السلام حقيقة الذكر .

Marfat.com

ويقول عليه السلام : « ان المؤمن ينضي[1] شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر » ومانرى وصفا أصدق ولا أبين من هذا الوصف، الذي يشرح اجتهاد المؤمن في سفره الى الله عز وجل، فإنه سفر يبادر فيه بالطاعات ، والباقيات الصالحات ، ويتحصن فيه بدوام الذكر، فلا يجد شيطانه فرصة للقبض على عنانه ، وتحويله عن غايته ...

ولكل انسان شيطان يلزمه من مولده الى مماته ، كما يقول عليه السلام ، وشيطان المؤمن الجاد في سيره ، يلهث من وراء صاحبه حتى يلحقه الضنى والهزال ، وليس أطيب لقلب المؤمن من هذا الوصف ، ولا أبعث منه على مضاعفة الجد والحذر .

هذه يا أخي أحاديث تتناول وصف بعض الرذائل ، ووصف بعض الفضائل ، سقناها على سبيل التمثيل لأسلوب من أساليب الدعوة الى الله وهو الذي وضعناه عنواناً للمظهر الرابع من مظاهر العقلية العملية في صدر هذه الكلمة .

وهي أوصاف كما رأيتها تمتاز بميزتين أصيلتين : الصدق التام في بيان الحقيقة ، ثم اثارة شعور البغض أو الرضى ، اثارة قوية ، تنفر من الرذيلة ، أو تستحث الهمة الى الفضيلة ، وحذارِ يا أخي أن تظن أن هذه أوصاف وضعت كيفما اتفق ، بقصد الترهيب والترغيب فقط ، هيهات هيهات ، ان هذا شأن البشر العادي ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه لا ينطق عن الهوى ، ولا يحدث الا بميزان ، فهو الوصف الصادق الذي يقتنص الحقيقة ، ويضعها بين يديك ... وحذار مرة أخرى ، أن تظن في هذه الأوصاف شيئاً من ارادة التمثيل والمجاز ، كما يظن بعض ضعاف العقول أحياناً ، فان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من جلالة القدر بحيث ينتهي مثلي ومثلك ومن هو أكبر

---

(1) يضنيه ويلحق به الهزال .

Marfat.com

مني ومنك عن أن يقتحم حرمته ، فيؤول كلامه ، ويصرفه عن ظاهره بغير موجب ، ولو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الظاهر من لفظه ، لكان في التشبيه وضرب الأمثال ، وأنواع الاستعارات ، وغير ذلك من ألوان البيان العربي ، ما فيه الكفاية لبيان مراده .

وقد ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من مراده في تشبيهات، وضرب أمثال، واستعارات وكنايات ، حين رأى المقام يقتضي ذلك ، فكن على هذا يا أخي في تفهم كلمات الرسول ، وتفهم كلام الله عز وجل ، فهو أبقى على عقيدتك ، وأنزه لعرضك ودينك .

أقول هذا حتى لا يترك أحدنا لنفسه الحبل على الغارب ، فيصف الفضائل بما يشاء من الأوصاف الحسية ، التي تحلو في بيانه الصناعي ، ويصف القبائح بما يرضاه الفن الدارج ؛ لا .. اننا نصف الحق ، فعلينا أن نستقي هذه الصفات من المصدر الذي تعلمنا منه الحق ... الكتاب والسنة ، فاذا عدوتهما لحقك الخطأ ، وظهر التناقض في كلامك بعد قليل ... هذا شأن الورعين فعليك به . والتزم منهاجهم في كل وصف تريد أن تقرب به حقيقة من الحقائق الى أفهام الناس وقلوبهم .

ولنضرب لك مثلا من كلام السلف تنسج على منواله ان شاء الله . فمثلا يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : شيطان المؤمن مهزول ، وهو وصف يأخذ من معين الحديث الذي سقناه منذ قريب ... ويقول في هذا المعنى نفسه قيس بن الحجاج : قال لي شيطاني : « دخلتُ فيك وأنا مثل الجزور(١) ، فصرتُ الآن مثل العصفور ، قلت : ولم ذلك ؟ قال : تذيبني بذكر الله » ... فهي محاورة تصور ما بين المؤمن وشيطانه بحيث لا تعدو ما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك .

---

(١) الجزور من الابل يقع على الذكر والأنثى .

Marfat.com

وهاك مثلا آخر ، وهو يأخذ من معنى الحديث الذي يصف الصدقات بأنها غسالة ذنوب الناس •

قال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : قال لي عبد الله بن الأرقم : دلني على بعير من العطايا ، استحمل عليه أمير المؤمنين — أي يطلبه من أمير المؤمنين ليحمل عليه أثقاله ويقضي مآربه — قال أسلم : فقلت له : نعم ، هذا جمل من ابل الصدقة •• وهنا عف عبد الله بن الأرقم عن هذا الجمل ، لأنه كان يرجو جملا من الغنائم ؛ أو مما شري أو حبس للمصالح العامة ، فقال لأسلم يصور له زهده في جمل الصدقة : أتحب لو أن رجلا بادناً في يوم حار ، غسل ما تحت ازاره ورفغيه(١) ، ثم أعطاكه فشربته ؟ قال أسلم : فغضبت ، وقلت : يغفر الله لك ، لم تقول لي مثل هذا ؟ قال : فانما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم •

هؤلاء يا أخي كانوا ينظرون الى كلام رسول الله بالمنظار المكبر ، أستغفر الله ، بل بالمنظار الذي يرى المعاني على حقيقتها كبيرة عظيمة ، منظار القلب المتدبر الواعي ، ثم يأخذون من قلوبهم ما يشاءون ، فيتصرفون فيه على ما رأيت •

وقد يأتي شيء من هذا القبيل في باب مصادر الداعية ان شاء الله تعالى • جمعنا الله واياك على الحق الذي اجتمعوا عليه انه قريب مجيب •

٥ ـ مقابلة الحقائق المغيبة كالسمعيات••• بأحوال دنيانا العملية

قد وصف الله لنا أحوال الجنة والنار ، ووصف الحساب والميزان، ووصف عرض الناس عليه ، وما يكون من حسرة يومئذ وندامة ووصف زلزلة الساعة ، وما لها من هول شديد ، وتحدث عن ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، ووصف العرش والكرسي ، وذكر اللوح والقلم ،

(١) إبطية •

Marfat.com

وذكر غــير ذلك من حقائق لا شك في وجودهــا ، ولا شك في أننــا لا نستطيع أن نبصرها أو نحسها ؛ لأننا لم نجهز بالمدارك التي تدرك هذه الحقائق العليا ، كالذي يولد فاقد حاسة الشم مثلا ، لا يستطيع أن يجد ما للعطر والمسك والزهر من ريح طيب ، لأنه لم يجهز بالحاسة المختصة بادراكه ؛ فاذا أراد الله عز وجل أن يطلع أحدا من خلقه على شيء من هذه المغيبات ، كان ذلك بغير حواسنا العادية ... يرفع عنه الحجاب فيرى ما شاء الله أن يرى ؛ « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » .

وقد جاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مفصّلة لما أجمل القرآن الكريم من هذه الحقائق المغيبة .

وهذا باب خطير ، لو أحسنا عرضه على الناس حتى أحسته قلوبهم، وتمثلته نفوسهم ، لأنقذنا الانسانية من شر مستطير ، ولفتحنا لها باذن الله أبوابا تنفذ منها الى سعادة الدنيا والآخرة ، فان الناس أصيبوا بالغفلة عن معادهم، وكثير منهم أصيب بالشك فيما بعد الموت من حياة وحقائق. وأصيب بغير ذلك من انكار الجن والملائكة وكل ما يقال عنه أنه وراء المادة ، وهذه الآفات التي أدركت أكثر الناس حجبتهم عن خير كثير . أو عن الخير كله ، وجعلتهم لا يؤمنون الا بالمدنية المادية وما فيها من المتاع الأدنى ، فهم يتنافسون فيها كالمساعير ، ويتقاتلون عليها كالمجانين. ويذهبون في هذا التنافس والتقاتل الى أبعد مدى من الشناعة ... الى مدى نحسب معه الوحوش أقرب الى الانسانية منهم ... « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » اذاً فلندعُ هؤلاء الى الايمان بالغيب الذي جحدوه . ولندعهم الا الايمان بما بعد الموت من حياة وحقائق ، حتى تعود اليهم انسانيتهم وسلامهم وسعادتهم ...

Marfat.com

والمدار هنا على حسن عرض هذه الحقائق ••• فيجب أن تعرض عرضاً يلمس بها القلوب لمساً ، فتفيق فجأة ، أو تفيق بالتدريج •••

في الناس أقلية يزعمون أنهم خاصة أهل الفكر ، فهم يحتاجون الى أن تعرض عليهم هذه الحقائق في أساليب علمية . وقضايا منطقية ، فلتدع هؤلاء بمنطقهم اذا استطعت ، أما الجماهير فمن أقرب الوسائل الى التأثير فيهم ، أن تعرض كل حقيقة من هذه الحقائق بعد أن تختار لها ما يقابلها من أحوال دنيانا العملية ، فتعرض الحقيقة وشبيهها ، وتعقد بينهما شبه مقارنة ، فان هذا مما يفتق لها أغلفة القلوب وينفذ بها الى سويدائها ••• ونوصي هنا بكثرة التذكير وتلاحقه ، فان طول الأمد ينسي ، فتقسو القلوب •

وقد وقف أحد الإخوان مرة يتكلم فقال: ان ملكاً عظيماً أراد أن يحدث في ملكه منصباً خطيراً ، هو منصب النيابة عنه في ناحية هامة من ملكه ، فاستشرف لذلك كبراء المملكة وأمراؤها ، وأخذ كل منهم يبدي من التلميحات، ما يكاد يصرح برغبته في تولي هذا المنصب، وفيما هم كذلك فاجأهم الملك بأنه سيختار شخصاً ليس في حسبانهم، شخصاً من عامة الناس لا يؤبه لشأنه. وكلفهم أن يقروا له بالتعظيم، احتراماً لأمر الملك، واختياره اياه ، فنزل الجميع على ارادة الملك طائعين ، الا شخصاً أكل الغيظ قلبه ، وملأ الكبر نفسه ، فأبى أن يقر لهذا الوضيع — في زعمه — باحترام أو تعظيم وعصى أمر الملك ، فطرده الملك من نعمته ، وأعلن عليه غضبه • فاغتاظ هذا المطرود وأخذ يقول : سوف ترى ما يحصل من هذا الذي قدمته علي ••• سوف أتحبب اليه والى أبنائه حتى يجحدوا جميلك ، ويبتعدوا عنك ، ويكون أكثرهم معي على ما يغضبك ، فأخرجهم من كرامة قربك ، وعزة الجاه بك و •••

وكان الملك رحيماً بهذا الرجل وذريته ، فأخذ يرسل اليهم يذكرهم

عداوة هذا الخبيث المطرود، ويحذرهم منه، وينهاهم أن يطيعوه في شيء، وينذرهم بأن العاقبة اذا أطاعوه ، لن تكون الا الطرد من عزة المنصب ، ونعمة الملك ، الى حيث الهوان والشقاء •

ومضى الأخ يقول : والعجيب أيها الإخوان ، أن هذا الشخص الذي ولي المنصب الخطير وذريته من بعده ، سرعان ما نسوا عداوة هذا العدو المبين ، فصار أكثرهم يعرض عن تحذيرات الملك ، ويستمع الى حلاوة حديث عدوه الجذاب وانها لحلاوة فيها السم الناقع ، فاذا مال أحدهم اليه ، ظل يستدرجه حتى يوقعه في غضب سيده ، فيكون من المطرودين : فهل هذا من العقل والحزم ؟ وهل هو من الإقرار بجميل الملك وشكر نعمته ؟ هل من العقل والحزم ، أن ينقاد هؤلاء الى عدوهم اللدود ، الذي طرده الملك بسببهم ؟ هل من العقل والحزم أن يقتربوا منه • فضلا عن أن يطيعوه في شيء يغضب سيدهم ولي نعمتهم ؟ ••

قال الأخ: أيها الإخوان اذا كنتم تعجبون لهذا الشأن أو تستبعدون حدوثه ، فاعلموا أنه قد حصل فعلا ، واننا نحن الواقعون في هذا الذي نستبعد ••• فان الملك العظيم هو الله عز وجل ، والمنصب الخطير هو منصب النيابة والخلافة عنه في هذه الأرض ••• وكبار المملكة هم ملائكته، الذين قال لهم: اني جاعل في الأرض خليفة، فكأنهم استشرفوا للمنصب وأحبوا أن يؤثرهم الله به ، وأرادوا أن يشيروا من بعيد في أدب جم الى استحقاقهم هذا الشرف ، فقالوا : هل يكون جديراً بهذا المنصب الا من يصلح له ولا يفسده « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » فكأنهم يشيرون الى خصوصياتهم العالية التي ترشحهم لهذا الأمر الخطير ، وانظر الى قولهم : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » فأجابهم الله عز وجل : « اني أعلم مالا تعلمون » •

Marfat.com

وأعلن الله حقيقة الشخص المختار ، فاذا هو •• قبضة من تراب الأرض لا أقل ولا أكثر ، وأمرهم أن يعظموه لأن الله عظمه ورفعه •••

« اذ قال ربك للملائكة : اني خالق بشراً من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، الا ابليس استكبر وكان من الكافرين • قال : يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ استكبرتَ ؟ أم كنتَ من العالين ؟ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين ، قال : فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك لعنتي الى يوم الدين » •

هذه يا اخوان قصتنا مع هذا العدو اللدود ، يقصها الله علينا ، فماذا كان من شأننا معه ؟ لقد وقعنا فيما كنا نستبعده ونستنكره من الرجل وذريته ، وما هذه الذرية الا نحن ، وما الخطأ الشنيع الا خطؤنا نحن •

لقد ثار العدو فقال : « رب بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين » • « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال : اخرج منها مذموماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » •

فانظروا يا اخوان الى أي مدى بلغ حرص هذا الشيطان على اهلاكنا واخراجنا من رحمة الله ؟ كل هذا لعداوته وحقده الذي لايطفئه الا أن يكبنا على وجوهنا في نار جهنم ، وهيهات أن يطفأ هذا الحقد أو تذهب هذه العداوة •

وكان من رحمة الله بنا أن نبهنا الى هذا العدو وحذرنا من كيده « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » •

« ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ويلفتنا الى الحرص على عزة الخلافة ، ويحذرنا أن ننحرف الى موالاة هذا العدو فيقول : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » .

وصور لنا حقده الذي لا يهدأ ، فذكر أنه لا يزال بفريسته ، يستجرها بعيداً عن الله، حتى تقع في قبضته فيسومها الحرمان من الرحمة والكرامة ، ثم يكبها أخيراً في نار جهنم ، فاذا بلغ أمنيته ، وقف يتشفى بمنظرها وهي تحترق في نار السعير ، ويصب في أذنها من التهكم والسخرية ، ما يقطع القلب غيظاً وألماً : « وقال الشيطان لما قضي الأمر : ان الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني . ولوموا أنفسكم . ما أنا بمُصْرِخكم وما أنتم بمُصْرِخي . اني كفرتُ بما أشركتمونِ من قبل ، ان الظالمين لهم عذاب أليم »وأخذ الأخ يتكلم عن غفلة الانسان عن رسالته في خلافة الأرض وما فيها من عزة وكرامة . ويتكلم عن غفلته عن عداوة الشيطان الرجيم الذي لا أرب له الا أن يهلكنا ...

ويتكلم عن غفلتنا عن تحذير الله وانذاره . حتى انتهى بوجوب الخروج عن هذه الغفلات كلها، والاقامة على الحذر والخشية والتنبه... أي الإقامة على ذكر الله وشكره .

وليس هذا النوع من قبيل ما تقدم فيضرب الأمثال . فان ما سقناد هناك ، انما هو خاص بتشبيه حال المعنويات ، بحال تناسبها من الواقع . أما هنا فمقارنة بين أمور واقعة فعلا في عالم لا نراه وبين أمور تشبهها بعض الشبه تقع في عالمنا المنظور ، والقصتان اللتان ذكرناهما الآن . ليستا من نسج الخيال ــ نستغفر الله ــ فان احداهما حصلت فعلا في الملأ الأعلى ، والاخرى مما يقع أو مما يجوز وقوعه في عالمنا .. وبهذه

Marfat.com

المقارنة نقيس الغائب بالحاضر ، حتى تنقشع عن القلب حالة الغموض والإبهام ، التي تحيط بهذه السمعيات ، فيشاهدها القلب ، حتى لكأن الانسان يراها رأي العين • كما يقول سيدنا حارثة رضي الله عنه ، في الحديث المشهور : « يا رسول الله عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، حتى لكأني أرى عرش ربي بارزاً ، وكأن الجنة عن يميني والنار عن يساري والصراط تحت قدمي » •

ومما نسوقه على سبيل المثال أيضاً • أن من عادة الملوك الحكماء أن يكافئوا أهل الجد والاخلاص الذين يعملون غير ناظرين الى جزاء مادي •••

هؤلاء الصادقون الذين يرضون سيدهم ، يكونون في نفسه في المحل الرفيع ، فاذا قدموا عليه يوماً ، أفاض عليهم كرامته ، وتلقاهم بما يشرح صدورهم ، وأمر حاشيته « والتشريفاتية » أن يدخلوا عليهم للترحيب بهم والاحتفاء بمقدمهم ، والتسليم عليهم •• هذا الذي يحدث في الدنيا ، يحدث خير منه لدى ملك الملوك عز وجل ••• اقرأ معي قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » •

ويفيض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في توضيح حال هذه الكرامة بقوله : « ان أول من يدخل الجنة من خلق الله ، الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء • فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ايتوهم • فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك •

Marfat.com

وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ، ونسلم عليهم ؟! فيقول : انهم كانوا عباداً يعبدونني ، لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء . فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

هذان أمران أحدهما غيب من غيب الملأ الأعلى ، والآخر مما يألفه أهل هذه الدنيا ، ولكن الموازنة بينهما تسر القلوب ، وتبعث النفوس على الاشتغال بحقائق هذا الغيب

ولا تظن أننا ذكرنا في هذه المقارنة كل ما يجب أن يقال ، انما فتحنا الباب ، وأشرنا الى الطريق فقط ، وما عليك الا أن تستعين بلباقتك في اتمام المقارنة ، فأمامك مثلا أن ملوك الأرض . لا يلتفتون الا الى تكريم أهل الثراء والوجاهة ممن يتظاهرون بالاخلاص والعمل . ولكن الله عز وجل ، لا يقيس بهذا المقياس فالمعول عليه عنده حقائق القلوب ومعادن النفوس ، حتى ليكون أول من يدخل الجنة من خلقه « الفقراء المهاجرون ... الخ. » وأمامك غير هذا مما لا نطيل بذكره فهو واضح.

ويذكر الكثير من اخواننا ، أن حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام للاخوان المسلمين ، الاستاذ حسن البنا ، كان يعظ الناس بموعظة من هذا القبيل ، فيذكر(۱) أن أحدنا اذا كانت له قضية ، وجاءه اعلان من المحكمة بموعد الجلسة ، فانه يشتغل بأمر هذه القضية فلا يغيب لحظة عن باله ، فيستشير أهل العقول الناضجة ، ويشرع في اعداد المستندات ، وتوكيل المحامي ، واختيار الشهود ، فاذا كان يوم الجلسة . مضى اليها وهو منفعل بشتى الأحاسيس ، كل هذا وقد يحكم عليه — اذا حكم — بغرامة مالية ، أو سجن شهور أو سنوات ... فاذا حكم

(۱) نحن هنا نلخصها في ايجاز فقط والا فهي مسهبة رائعة اهـ .

Marfat.com

عليه كان أمامه فرصة يرفع فيهـا أمره الى محكمـة أعلى هي محكمـة الاستئناف ، فاذا حكمت عليه ، رفع أمره أخيراً الى محكمة النقض والإبرام..مع هذه الفرص تراه يوم الجلسة كثير الوساوس والمخاوف.

يقول الأستاذ المرشد : اذا كان حالك يا أخـي في هذه القضيـة التافهة على ما نرى ، فكيف وأنت مدعو الى قضية كبرى ، اعلان الدعوة فيها القرآن الكريم ، والمحضر الذي يعلنك بالمحاكمة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموعد الجلسة يوم الفصل ، ومكانها الساهرة(١) ، والقاضي ليس بشراً من البشر ، بل هو رب العزة والجبروت ، قهّار السموات والأرضين . وشهودك منك وعليك ، وهم لسانك ويداك ورجلاك وجلدك،والحكم أخيراً لانقض فيه ولا ابرام، لأنه حكم القاضي الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا غرامة هنا ولا ايقاف تنفيذ ، وانما هنا نار وقودها الناس والحجارة ، أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقـين .

كل ذلك يستشهد له فضيلة الأستاذ ـــ رحمه الله ـــ بالقـرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما نحسب الا أن هذه الأمثلة قد جلت لك حقيقة ما نريد .

٦ ـ النظر في آيات الله في الآفاق ونعمه السابغة على الناس

تمهيـد :

يا أخي ، ها هو ذا الكون أمامك ، تملؤه آيات الله سبحانه ، في السماء والأرض ، وها أنت ذا تنظر اليه بعينك ، وتصغي اليه بأذنك ،

---

(١) الساهرة : هي أرض يوم القيامة ، والله يقـول : « فانما هي زجـرة واحدة ، فاذا هم بالساهرة » .

Marfat.com

وتذوق طعومه بفمك ، وتشم روائحه بأنفك ، وتسير في فجاجه برجليك، وتعالج مواده بيدك ، فأنت متصل به ، وهو متصل بك، لاينفك أحدكما عن الآخر .

هذه حقيقة لا تقبل المراء ، فهي من الأمور الواقعة تحت الحس . وادراكها من البديهيات التي لا تقبل الجدل ...

فأنت اذ تقول اني أرى سماء وأرضاً.وشمساً وقمراً. وجبالاوأنهارا وزرعا وأنعاما وناسا ، أرى ذلك كله . أرى شخوصه . وأسمع أصواته . وأشم روائحه ، وألمسه ويلمسني ، وأتسرب اليه ويتسرب الي — حين تقول هذا ، انما تعبر عن شيء ملموس . واقع تحت حسك وحس الناس جميعاً ...

ماذا فهمنا من الكون ؟

ومن حقنا أن نجعل هذا الكلام مقدمة لنتيجة منطقية مترتبة عليه هي : أن الانسان لا بد أن يكون قد أحاط بهذه الأشياء التي اتصل بها واتصلت به ، وتسرب اليها وتسربت اليه . فأشبعها نظراً وتأملا . حتى أفضى الى أسرارها وعرف أقدارها ... أليست هي أول شيء طالعه في هذا الوجود ؟ ومعرفتها أول بدهية حلت في خزانة معارفه ؟

لا نطلب اليه أن يحيط بها احاطة علمية . على معنى الاستيعاب الفني الاصطلاحي الجامع ،فهذا جدّ عسير انما نطلب أن يكون نظره اليها نافذا الى دقائق تكوينها وعجائب الصنع فيها . حتى يستشعر جلال وجمال ما فيها من معالم الصنع ووفور النعمة والعناية .. هذا ما نرتبه بل ما يرتبه المنطق على المشاهدة الساذجة الأولى ... فهل ساير الانسان هذا المنطق ؟ فترقى في نظره الى الوجود ، مبتدئاً من النظر الأولي السطحي . الى النظر الشامل النافذ ، المثير لعواطف الإعجاب ؟ أم آنه اكتفى بالنظرة العابرة الغافلة ، ووقف لا ينقل قدماً على قدم ؟

Marfat.com

طفولة الانسان :

انه رأى السماء وهو طفل ، ويرى السماء الآن وهو رجل ، فهل تغير نظر الرجولة عن نظر الطفولة ؟... انه رآها وهو طفل ، شيئاً أزرق يغطي الدنيا ، فهل تأمل فيها وهو رجل ؟... هل تأمل في سعة أقطارها ، وامتداد أرجائها ، وعظمة خلقها ؟ ... هل حاول أن يمد يده اليها — مثلا — لينظر حقيقة عجزه عن أن ينالها ؟ ... هل فكر في أن يقارن بين ما يصنعه هو بيده وبين ما صنع الله في هذه السموات الهائلة الرائعة ، لينكشف لقلبه خطورة هذه الآية الضخمة المعجزة ؟... هل حدّق بعين قلبه في هذا المخلوق الجليل العجيب ، باحثاً عن خالقه المقتدر العظيم ، الذي يصنع ما تراه العيون ، وهو مستتر بلطفه عن العيون ؟.. هل نظر اليها هذا النظر وهو رجل ؟ أم ظل ينظر كما كان وهو طفل ؟... لا مراء أن نظر الرجل الى السماء ، والى غيرها من آيات الله لا يعلو نظر الطفل .. فالرجل من هذه الوجهة طفل كبير ؛ لم يتقدم في نظـره الى الوجود تقدماً يذكر ، .. بل ان الانسانية في تاريخها الطويل ، لـم تتقدم في هذا المضمار ، تقدماً يسمح لنا أن نقول انها غادرت به طور سذاجتها الأولى وطفولتها الغافلة اللاهية .

الانسانية بين نظرة ونظرة

ان تقدم الانسانية الصحيح ، مرهون بالانتقال من النظر الساذج ، الى النظر القوي الفاحص ، الذي يفتح عين صاحبه وقلبه على روعة الآية التي ينظر اليها ، ويبث فيه الانفعال بما فيها من عبر وحكمة .. أو هو النظر الذي يبصر الأشياء في اطار صلتها بخالقها وصانعها تعالى ..

في هذا النظر تقدمُ الانسانية وكمالها، فان النظرة عنوان صاحبها، أو عنوان حياته الباطنية : فاذا كانت نظرة جامدة فهـي عنوان الباطن الجامد والشعور الخامد ، والقلب المحجوب .

Marfat.com

واذا كانت نظرة قوية حية ، فهي آية الباطن القوي الحي ، والوجدان المنفعل المياد ، والقلب اليقظ الفياض بمختلف المشاعر الكريمة . وانما يكون ذلك حين يبصر العقل طابع المخالفين في الاشياء.

فانظر يا أخي الى الانسان وغفلته . بل وبلادة مداركه الباطنة .. ينظر الى السماء ، وينقل طرفه في أنحائها ، فلا تحرك فيه احساساً من أحاسيس الروعة والجلال !..

وينظر الى الشمس مسخَّرة في السماء ، فلا يتقطع وجدانه اعجاباً بها ودهشة لشأنها ... بل ينظر الى هذا وغيره كأنه لا خطر له ، بل كأنه لا وجود له .

انه الانسان الطفل ، وان بلغ من العمر ما بلغ !! وانها الانسانية الأولى، وان قطعت من الأجيال والاحقاب ما قطعت ... نعم هي الطفولة التي تقتضيك أن ترثي لصاحبها ، وتعطف عليه . الطفولة التي لا تفهم الا ما يدور في محيطها الصغير ، وتنفض يدها معرضة عما يدور بين الرجال ذوي المواهب الكبار ... انظر الى الطفل يرى رجالا يتحدثون في شأن ما ، فيسمع كلامهم ، ولكنه لا يفقهه ، ولا يروقه ، فيعرض عنه. فاذا رأى أطفالا يلعبون ، أو يتحدثون أسرع اليهم ، وفهم عنهم . وذاب فيهم وفرح بهم ... وهؤلاء الرجال . أستغفر الله ، بل الأطفال الكبار. يعلن فيهم ماركوني : أنه سيدير زراً في ايطاليا لينير به مصباحاً في استراليا ؛ فيعجبون ، ويجعلون هذا النبأ حديث مجالسهم ، وسمر أنديتهم ، وكلهم تمجيد لهذه المواهب ، وتكريم لقدرة مخترعها الكبير(١) ... بينما السماء تطل عليهم كل ليلة ، بما لا يحصى من ملايين المصابيح لا مصباح واحد ، ينيرها الله عز شأنه بغير زر .. مصابيح

(١) كتبت ذلك في مطلع الاربعينيات .

تضيء ولا زيت لها ! وتنير ولا كهرباء فيها ! فأي النبأين أحق بالإعظام، واطالة التعجب والاهتمام ؟ ولكنك ترى الأطفال الكبار ، لا يعيرون مصابيح السماء لفتة واحدة ، ولا يجعلون لها في أحاديثهم ساعة من ليل أو نهار .. ذلك أن هذه الكواكب المطلة من علياء سموات الله ، تحدث عنه أحاديث العظمة والجلال وهي أحاديث لا يفهمها الا كبار الرجال لا كبار الأطفال !.

مرض يجب أن يزول

وان تعجب يا أخي . فاعجب لبقاء الانسان طفلا وعوامل النضج مزدحمة في فؤاده . تنتظر وقفة واحدة على آية من آيات الله ، تتأثر بروعتها . فاذا هي تتحرك وتجيش وتبعث الحياة والنمو في قلبه ...

وان تعجب كذلك فاعجب لهذه الانسانية ، التي تقضي أعمارها تحت سماء باهرة الآيات . معجزة المشاهدات ، وفوق أرض ضخمة الجبال . جليلة البحار . رهيبة الصحارى والقفار ، حافلة بأسرار الله فيما خلق من نبات وحيوان وجماد .. وهي مع ذلك تمضي ذاهلة ، كأنها لا تعيش تحت شيء . ولا فوق شيء ! .. ولو أن هذه الآيات التي تملأ الآفاق ، أمر خفي . أو يحتاج الى كد ذهن ، لالتمسنا لها المعاذير في هذا الاعراض ، بل في هذا العمى . ولكنها أشياء بارزة للعيان شاخصة للحواس ، تعترض المرء في كل وجه ، وتفرض نفسها عليه في كل وقت.

أليس من العجيب ، أنه تخلص من كل ذلك ، فلم يلتفت اليه ، ولم يتأثر به . بل أليس من المحزن المؤلم ، أنه لم يتخلص منه ، الا لانطماس باطنه ، وامتلاء وجدانه بالكثافات المظلمة الثقيلة ؟

ان هذه البلادة ، وهذه الغفلة ، هي مرض الانسانية الشائع ، اذا مرض به القلب ، فسد وأظلم، وماتت مشاعره، فلا تتأثر بشيء من آيات

الله ••• ترى عين رأسه ما تراه ، دون أن ينطبع على صفحته شيء من هذه المرائي،«فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

قال أحد الاخوان : يخيل الي أن هذه الغفلة أمر طبعي ، وليست مرضاً من أمراض القلوب . وان آيات الله في الآفاق ، ليس من شأنها أن تثير العواطف هذه الإثارة ••

فقال له صاحبه : لا ، ليس الأمر كما يخيل اليك . ولأضرب لك مثلا يزيل عنك كل تخيل فاسد . فتابعني فيه :

يحلم بعض من ينظر الى مستقبل الانسانية بتشاؤم ، أن ستقوم بيوت . بل مدن كاملة تحت الأرض . طلباً للأمان من مصائب الحروب ، وويلات الغارات•• فافرض معي أن مدينة من هذه أنشئت.وأن الناس فيها ألفوا العيش في التهوية الصناعية. والاضاءة الصناعية.بعيدين عما على وجه الأرض من نعم الطبيعة وهباتها••وافرض أن مولوداً ولد في هذه المدينة وترعرع في ربوعها وميادينها . لا يرى الا مصابيح الكهرباء تضيء بالليل والنهار ، ويرفع بصره الى سماء المدينة . فلا يجد الا سماء من المسلح أو غير المسلح . محمولة على دعائم قوية عالية ••• واستقر في روع هذا الصبي . أن الدنيا هكذا . وأن طبيعة هذه الحياة تجري على هذا الأسلوب ••• وكبر الصبي . وصار شابا . ثم عرض له يوماً أن يسافر الى ظهر الأرض . فسافر ••وهنا أترك لك أن تتصور الشاب وهو قائم ، يحدق في روعة السماء ، وهو ينظر اليها لأول مرة . ويقارن بينها وبين سماء مدينته ، فهناك سماء تقيد البصر . قائمة على عمد ، وهنا سماء رائعة ، يسرح الطرف في آفاقها علوا واتساعاً ، رفعها خالقها بلا عمد ، وأمسكها بلا دعائم ••• مالي أتحدث. ان كل حديث يعجز عن تصوير كيان هذا الشاب . وهو يجيش بانفعالات الدهشة لهذا المشهد الجليل الرهيب ! ! ! تأمل الشاب ،

Marfat.com

وهو ينظر في دهشته الى الشمس ، فيراها مشرقة الضياء ، باهرة اللألاء، تغمرالوجود بفيض نورها ... فيستحضر الفرق الهائل ، بل الآماد الشاسعة ، بين أضواء هـذا السراج السماوي العجيب ، وأضواء مصابيح مدينته الباهتة ... فيرى أن لو اجتمعت هذه المصابيح في قوة واحـدة واتحدت طاقاتها ، فكانت طاقة واحدة ، لما بلغت شيئاً مذكوراً . في بهرة أنوار هذا السراج العالمي الوهاج ! . . وينفعل الشاب ، اذ يرى هذا السراج غير محمول على قائم ، ولا معلق في شيء ، كمصابيح مدينته ، ... ويزيد به العجب ، اذ يراه يجري في فضائه الشاسع ، متنقلا من الشرق الى الغرب ، فكيف يتنقل ؟ وبأي قوة يتحرك ، ومن أين له هذا الضوء ، ومن يدبر له هذا كله ؟ ...

ثم تصور حال هذا الشاب ، وقد جن الليل ... وتغير المنظر ، وظهرت في السماء هذه الكواكب الدرية . تملأ أقطارها في كـل جهة . .. انه لشيء يذهل اللب . ويملأ القلب حيرة ، ويقطع الأنفاس من الاستغراق في الدهشة والعجب . وتصوره حول منتصف الليل ، وقد ظهرت له فلقة من النور الوضيء ، فأخذت تمسح ظلمة الليل عن وجه السماء ، وتلقي من نورها الوديع على الأرض الغارقة في الوحشة والسكون .... أي نظام هذا ؟ وأي جمال هذا ؟ وأي آيات هذه في هذا الكون الرائع العجيب ؟ انك يأخي لو صحبت هذا الشاب يوماً وليلة . وأخذت ترقب ملامحـه الظاهرة ، وتستشف خوالجه الباطنة . لرأيت حقاً . كيف يجب أن ننظر الى آيات الله ، واحكست قطعاً . بأن بواطن الناس مطموسة ، حيث لا تتحرك لوحي العظة في هذه المشاهد الجليلة المحكمة .

عـــلاج

والآن : هل من سبيل الى علاج هذا المرض ، فيزدهر باطن المرء ،

Marfat.com

ويجيش بالحياة النامية ؟ هل من سبيل الى ازالة هذا الحجاب الكثيف. فينكشف قناع قلب الانسان ؟ .. فيرى الله من خلال كل شيء . كأن له في كل شيء نافذة ، يطل منها على الملأ الأعلى ... ، وبعبارة أوضح ، هل من سبيل الى ارتقاء الانسانية وتجاوزها دور الطفولة العاجزة ، الى حياة الرجولة القوية المدركة ؟ .

نعم : السبيل ميسرة ممهدة ، ولسنا نتكلف لذلك جهداً في البحث ، ولا مشقة في التفكير . وان كأس الشفاء على أفواهنا . لا ينقصنا الا أن نرتشفها هنيئاً .. نعم لا ينقصنا الا أن ننظر لكل شيء أمامنا نظرتين في نظرة طويلة واحدة . أما النظرة الأولى . فهي نظرة العين الباصرة ، وهي التي لا ترى من الشيء الا صفحته الخارجية الصماء ، وأما الثانية ، فهي نظرة العين الباطنة التي تنظر الى الشيء على أنه فعل فاعل فتظل تبحث عن القائم عليه ، والمدبر لشأنه ، حتى تفضي الى الله سبحانه وتعالى ... هما نظرتان في نظرة ، وما عليك حين تنظر ، الا أن تنبه عينك الباطنة الغافلة ، وتوقظ كيانك الداخلي الراقد ، فاذا نبهتها وأيقظته ، ووصلت الباطن بالظاهر ، والظاهر بالباطن . فقد وصلت نفسك بالوجود ، وسرت تيارات قلبك الى ملكوت الله الأعلى ، وهذا عين الحياة ، وكمال الرقي والتقدم .

أرأيت سهولة هذا العلاج ؟ .. انه علاج ناجع ، بقدر ما هو هين سهل .

اعتراض وجوابه

قد يبدو لسائل أن يسأل كيف تتهم الانسانية بالقصور والضعف والمرض ، وهي هي التي تطالع الدنيا كل يوم بجديد في العلم والصنعة والاختراع ؟ وهي هي التي فاقت في هذه النواحي كل ما سبقها من الأجيال والقرون ؟ .

Marfat.com

ونحب في دفع هذا الاعتراض أن نحتكم الى قضية مسلمة من الجميع ... فان الناس جميعاً يقولون : العلم نور .. وثمرة هـذا النور أن ينظر به صاحبه حقيقة ما يراه ، أليس كذلك ؟ .. ونحن لا نكلف هذا العلم أن يكشف لنا المخبوء . أو يأتينا بمعجزة .

بل نكلفه أن يمد صاحبه بنور .... لينظر حقيقة السماء التي فوقه . والأرض التي تحته ، وما حقيقة كل منهما ، بل حقيقة كل كائن فيه . الا أنه « خلق خالق وصنع صانع » ولكن الانسان لا يبصر من ذلك أكثر مما يبصر الحيوان الأعجم المطموس .

العلم نور حقاً ... نور للبصائر لا للأبصار ، فاذا حل هذا النور في بصـيرة ما أبصرت كمـا تبصر العيون ، وفوق ما تبصر العيون ، فخبرني بربك ، اذا كان علمهم هذا علماً صحيحاً كاملا ، فأين ثمرته ؟ وأين نوره ، اذا كانت بصائر أهله لا تبصر من البدهيات شيئاً : لا تبصر الفعل مسندا لفاعله ؟ ان قصارى هذا العلم ، أنه علم الرؤوس كيف تفكر في خدمة الأجسام : علمها كيف تعـد الطعام ، وكيف تدبر الأموال . وكيف تصرف التجـارات ، وكيف تصنع الآلات ... آلات الزراعة جرياً وراء الثمرة ، ومضاعفة الغلة ... وآلات القتال ليفتك القوي بكل من يحرز رغيفاً دونه ... وعلمهم السياسات كيف يبنونها في دهاء على جلب المنافع واغتنام المصالح ... وعلمهم الهندسة ، فوفرت لهم ماء الري وأصلحت الطرق ، وأقامت العمران ... وكشفت قوانين الحركة ، فدارت عليهـا الآلات ، وسددت بها القذائف الى الأهداف ؛ وعلمهم الطب ، فعالجوا بـه الأجساد . وقاوموا جراثيم الأمراض ، وأحاطوا البدن بأسباب الوقاية محافظة على سلامته ؛ ... واخترعوا التلغراف والتلفون ، استنجازاً لقضاء المصالح في أقرب وقت ... وأجروا القطار والسيارات تخفيفاً

Marfat.com

للغذاء عن الجسم ، ومبالغة في احاطته بأسباب الترف ... وجاءوا بالراديو والتلفزيون وأنواع المخترعات ... جاءهم العلم بهذا كله . فما زاد على أنه مسخر فيه لاملاء الجسم ، ورغبة المعدة . ووحي الترف ، وكل هذا ليس من النور في شيء . لأن الانسان لا يرى فيه أنه أثر صفات الخالق سبحانه وتعالى .

وعلم الله ما نبخس هذا العلم قدره . فانه ضروري لأداء مهمة أو ضرورة معينة ، هي عمارة الأرض بانواع الزرع . والبناء . والصناعة والآلات النافعة .. وهي مهمة جاءت بها نصوص الدين في الكتاب والسنة .

وانما الاعتراض أن تزعم لهذا العلم المحصور في هذه الحدود ، أنه مصدر الحياة والنور لمعاني الانسان العليا . فهو زعم خاطىء . يقع فيه أكثر الناس . فما كان لعلم مسخر لدواب البدن العمياء . أن يقوم بما ليس من وظيفته . ويمنح ما ليس في طبيعته ... فمن أين النور لعلم اذا نظر لشيء . لا ينظر الا الى ناحيته المادية . يقيسها ويزنها ويستكشف خفايا ذراتها ليصل من ذلك في النهاية . الى نتيجة يذهب نفعها الى الـكيان الحيواني . ولا يصل منها أثر يذكر الى الكيان المعنوي ؟ .. فاذا ترقت الانسانية بهذا العلم . فان ترقيها معترف برقي قشرتها الأرضية . وناحيتها المادية . لا في ناحية العبرة والحكمة التي تحيى بها حقيقة الإنسان .

فساد الحضارة الغربية

فحضارة الغرب اذاً وعلمها . وكل ما فيهـا . أعجز من أن تمد باطن الإنسان بما يحييه . ويصله بالوجود . وبعبارة أخرى . أعجز من أن تمد قلبه بنور يرى به لباب الوجود . وحقائق الحياة ... لقد خلت حضارة الغرب عملياً من كل سهاج ووسيلة لايقاظ الضمائر . وتنمية

Marfat.com

الحواس الباطنة ، لأنها لا تعترف بكيان الانسان الباطني • وما له من خصائص فياضة بالخير والكرامة ، وما له من ملكات تبصر الخلق مسنداً الى الخالق ، وتفترضه حيواناً مغلق الباطن كالآلة الصماء ••• فكيف تبلغ الانسانية رشدها وتنال حظها من النور والعلم الصحيح مادامت تجهل أن الرشد في القلوب ، لا في المعدات ، وأن النور في البصائر لا في الأبصار؟ • لقد قلنا : ان تقدم الانسانية الصحيح، مرهون بالانتقال من النظر الساذج ، الى النظر الفاحص ، الذي يفتح عين صاحبه وقلبه على جلال الآية التي ينظر اليها ، ويبث فيه الانفعال بما فيها من أسرار الله وحكمته •

قلنا هذا لأنه السبيل السهل الى تغذية الكائن الانساني المستكن في باطن الانسان ••• أو هو العصب القوي ، الذي يصل هذا الكائن بمصادر حياته السماوية ••• وخلو هذه الحضارة ، من كل منهاج عملي . أو عناية جدية تبعث الانسان على حسن التأمل في آيات الله ــ جعل هذا العصب ضامراً أو مبتوراً . وترك هذا الكائن النبيل الكريم ، يعاني في باطن صاحبه عزلة عن الحياة ، وحرماناً من النور والغذاء ••• وما نحسب هذا الكائن قد سعد يوماً ما ، بمثل ما سعد في الحقبة النورانية ، التي أتاحها له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الأبرار ، رضوان الله عليهم ، ولكنه ما كاد يهنأ بها ، حتى خلف من بعدهم خلْف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فأصابتهم نكسة ، ارتدوا بها أطفالا ؛ وكان الظن بهذه الحضارة العالمة ، أو حضارة النور كما ينعتونها ظلماً ، أن تلتفت الى مصدر الرشاد في الانسان ،ومنجم العبقرية فيه ، وأن تحسن الانتفاع به ، ولكنها ضلت على علم ، فلم تلتفت لغير الكائن الحيواني ، الذي يخرج من التراب ، ويعود للتراب ، ويتغذى من التراب •

وانا لا نستطيع أن نتصور داعياً عملياً . يدعو الناس الى الله . دون أن يلفتهم الى ما يحيط بهم من آثاره سبحانه وتعالى . فهي شواهده الدالة عليه . المتحدثة عنه بأوضح بيان . وأفصح لسان ... ولقد سردنا فيما سبق بعض المنازع العملية التي تنزع اليها العقلية الواقعية في دعوتها الى الله . وفي رأيي أن الالتفات الى آيات الله ونعمه . أقربها جميعاً الى الفطرة . وأيسرها سبيلا اليه سبحانه ...

فهذا الوجود الذي أمامك . هو كتاب الله المنشور .. وهذه الكائنات العجيبة التي تملؤه . هي سطور حية تقرأ فيها قدرته سبحانه . وعلمه . وحكمته . وكرمه . ووده . وبره . وعظمته .. فإذا وقع نظرك . أو سمعك . أو يدك على شيء ما . فقد وقع في الحقيقة على مستودع خطير لحكم الله وعبره .

ومن جميل تقديره سبحانه . أنه جعل مطالعة هذا الكتاب ميسورة للعالم والجاهل . والقارىء والأمي .. فما على امرء الا أن ينظر . أو يسمع . أو يلمس .. الخ . ثم يفكر فيما وقع عليه حسه في اطار نسبته الى الخالق تعالى . أي في اطار أنه صنع الله. فإن هذا التفكير يشهد في معالم الصنع ودلالاته الكثير من العبر والآثار الدالة على معاني صفاته جلّ شأنه . فيثير في القلب احساسات رقيقة . ووجدانات عانية كأنما تسربت روح العالم الكبير اليه . فإذا بلغ هذه الدرجة . فقد اتصل ما بينه وبين الله سبحانه . وانفتح له الملكوت الفياض بالسيالات الروحية . فيهتز القلب وتخشع النفس . وتفيض العين . ويستنير الطبع . فاذا بالانسان في هذه اللحظة . قد صار قبضة من نور الله عز وجل . قلبه نور . وعقله نور . ولحمه نور . وعظمه نور . وفوقه وتحته وخلفه وأمامه . كل ذلك نور على نور .

Marfat.com

فإذا أحس الانسان بقلبه يختلج ، وبدنه يرتجف ، ودمعه يفيض ، فليعلم أنه قد فهم سطراً من كتاب الوجود ، فان ثمرة التأمل أن تنفذ الى بعض آثار صفات الخالق ، وفي الآثار عبرة ، والعبرة اشعاع رقيق يسطع في القلب ، ليصله في رفق بالله سبحانه وتعالى .. فإذا أفضيتَ الى الله وخرّتْ مشاعرك ساجدة،خاشعة راجية محبة،بلغتَ من أسباب الفهم والمعرفـة . مالا يبلغـه الا الراسخون في العلم ولو كنت ممن لم يقرءوا كتاباً أو يجلسوا الى أستاذ في مدرسة أو جامعة .

الداء والدواء

فاحرص على هذا المنزع يا أخي ... واعلم أن القرآن الكريم تكفل لكل داعية ، فرسم له المنهاج ، وشرح له وسائل العلاج . بعد أن بين له : المرض ...

١ ــ فالمرض هو انطمـاس الكائن الباطني للانسان ، وفساد حواسه . بحيث لا يبصر ، ولا يسمع ، ولا يفقه شيئاً ، فيغدو به صاحبه في حكم الاموات وان أضافه فن الإحصاء ظلماً الى الحياة والأحياء ، « انك لا تسمع الموتى ولا تسمـع الصم الـدعاء اذا ولّوا مدبرين ؛ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم . ان تسمـع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

والمدار كله على أن يصح هذا الكائن الكريم ، وتسلم له حواسه ، أما حواس البدن فليس عليها معول كبير « فإنها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

فلكل شخص عينان : عين ظاهرة ، هي عين رأسه ، وعين باطنة ، هي عين نفسه . والعين الظاهرة لا ترى من الشيء الا صورته السطحية،

Marfat.com

وهي أمر تافه لا قيمـة له ، يتعلق باللون ، والحجـم . والشكل ، والمادة ، ونحوها .

أما العين الباطنة . فتدرك حقيقته ، وحقيقـة كل شيء هي أنه مخلوق لله ، هي العبرة التي تريك أصابع الله سبحانه وتعالى في تكوينه وتدبيره والقيام على حفظه ، وهنا يشف الشيء أمام هذه العين ، فتطلع منه على الله عز وجل ، فإذا وجـدت الله يا أخي وجدت كل شيء . وجدت الحياة ، ووجدت النور والعلم . ووجدت الثروة والغنى . ومن وجد كل هذا في قلبه لا يضيره ما فاته من الدنيا .. أما اذا حجب عنه . فلن يغنيه قليلا أو كثيراً . أن تكون عينه الظاهرة أقوى العيون ، وأذنه أسمع الآذان .. فليست المسألة صوتاً يسمع . أو شبحاً يرى . فذلك ما تراه الأنعام وتسمعه .. والى هذا تشير الآية الكريمة .. « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون » .

قال الإمام ابن كثير : « أي مثلهم فيما هم فيه من العمى والضلال والجهل كالدواب السارحة ، التي لا تفقه ما يقال لها . بل اذا نعق بها راعيها ، لا تفقه ما يقول . ولا تفهمه — لأنها تسمع صوته فقط » .. ويقول الامام الزمخشري : « ومثل داعيهـم الى الايمان ، في أنهـم لا يسمعون من الدعاء الا جرس النغمة . ودوي الصوت من غير القاء أذهان ولا استبصار . كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع الا دعاء الناعق ونداءه ، الذي هو تصويت بها وزجر لها . ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي ، كما يفهم العقلاء ويعون » .

فحقيقة المرض على هذا صمم يصيب الكائن الكامن في المرء ، وعمى وبكم يتركه في ظلمة ولا حركة به . وهو ما تجمله الآية الكريمة :

« والذين كفروا صم وبكم في الظلمات ، من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » •

٢ ـ أما ظواهر هذا المرض : فهي كما يصفه الكتاب العزيز ، الإعراض عن التأمل فيما تقع عليه الحواس ، والاكتفاء بالنظر العابر ، والسمع الظاهر ، فيرى الانسان الشيء وكأنه لا يراه •

تبدو له روائع الآيات والآثار . فلا تحركه روعتها ، ولا تثيره رؤيتها • لأنه لا يدرك بالعين المثيرة •• فيمضي كالراقد ، الذي يفتح عينه ، ويذهب ويجيء وهو نائم ، على نحو ما يصف الشاعر الحكيم :

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ومشاهداً للأمر غير مشاهد

والى هذا يشير قوله تعالى : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » وقوله سبحانه : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » •

٣ ـ أما العلاج الناجع لهذا العمى ، بل لهذا الموت ، فهو كما وصف القرآن أيضاً ، التأمل في آيات السموات والأرض ، وفي أنفسنا وما أسبغ علينا من نعم ظاهرة وباطنة ، على ما أشار اليه عز وجل بقوله : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون » •

نعم : فالتأمل هو الذي ينقل صور المشاهدات من الحس الظاهر ، الى الحس الباطن . فيتم التفهم والتأويل والموازنة والتعليل ، وهذا معنى حياة الباطن وسمعه ، وبصره ••

فإذا لم يكن تأمل لم يكن شيء من هذا ، فالتأمل هنا يقوم بمهمة عصب الإبصار في العين الظاهرة • فان رؤية الأشياء لاتتم بمجرد انعكاس

Marfat.com

صورها على شبكة العين ، بل لا بد من انتقال هذه الصورة ، بواسطة العصب البصري الى مركز الإدراك والوعي ، وهو المخ .. فإذا انقطع هذا العصب أو أدركه تلف لا تتم الرؤية ، ولا يصدر المخ حكمه على شيء .. وكذلك التأمل : فهو عصب الإبصار . الذي ينقل المشاهدات الى مركز الادراك الباطني . وهو القلب . حيث تتم المشاهدة . ويسري رحيق العبرة في البدن كله .. فإذا انقطع التأمل . بقي القلب مغلقاً . لا نافذة له يطل منها على عالم الحقائق . وكان شأن صاحبه . كشأن الحيوان الأعجم . في اقتصاره على رؤية الصورة الظاهرة للأشياء ..

منهاج العلاج

وحين يذكر القرآن أن في السماء والأرض والنفس آيات وشواهد للموقنين لا يكتفي بمجرد الإشارة . بل يذكر : ما هي هذه الآيات ... فينص عليها بالاسم أو الصفة أو الوظيفة . حتى يبلغ الكلام الى الأسماع والقلوب . ويكون السبيل الى العلاج خاليا من كل غموض ... وما نستطيع أن نورد كل آيات القرآن التي ورد النص فيها على هذه الشواهد الربانية ... بل نورد آية واحدة . على سبيل المثال . اعتماداً على أنك غني عن ايراد الكل بسطالعته في المصحف التمريف .. قال الله عز وجل : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم . ان في خلق (١) السموات (٢) والأرض (٣) واختلاف الليل والنهار (٤) والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس (٥) وما أنزل الله من السماء من ماء (٦) فأحيى به الأرض بعد موتها (٧) وبث فيها من كل دابة (٨) وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض » ان في ذلك كله « لآيات لقوم يعقلون » .

ولو أن القرآن الكريم اكتفى بهذا الإجمال لكان فيه غناء ، ولكنه

Marfat.com

أراد التمثيل والتفصيل فتناول كل آية من هذه الآيات بالبيان والتحليل ، حتى ليفتح البصر والبصيرة على مواطن العبرة فيها •

(١) فمن خلق السموات : الشمس والقمر ، والنجوم والكواكب ، وقد ذكر في آياته الكثيرة عجائب هـذه المخلوقات السماوية الجميلة الجليلة وهي في المصحف في متناول كل قارىء ، فلا نطيل بذكرها •

(٢) وتحدث عن الأرض وحدها بتفصيل كافٍ لاستخراج العبرة •

(٣) وتناول الليل والنهار بكلام خاص •

(٤) واختص الفلك والسفن بمثل هـذا ••• وأفرد كـلا من : (٥) المطر (٦) والزرع (٧) والدواب (٨) والسحاب • أفرد كل شيء من هذا بنصوص تكشف للمتأمل آثار رحمة الله ، وانا لنسوق بعض أمثلة لهذا التفصيل صدر سورة « الرعد » •

١ ــ يقول الله عز وجل في خلق السماء : « الذي رفع السموات بغير عمد ترونها •• ثم استوى على العرش •• وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى •• يدبر الأمر يفصل الآيات •• لعلكم بلقاء ربكم توقنون » •

٢ ــ ويقول عن الأرض : « وهو الذي مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً . ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين ••• يغشي الليل النهار •• ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » •

٣ ــ ويقول عن النبات : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب . وزرع . ونخيل . صنوان وغير صنوان يُسقى بماء واحد ، ونفضّل بعضها على بعض في الأكل ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » •

وفي صدر سورة النحل طائفة كبيرة من الآيات والنعم ختمها الله بقوله : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم » .

ويشرح له منهاج النظر الى نفسه وأخص الأشياء به بمثل قوله : « فلينظر الانسان ممّ خلق ؟ . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم » .

واني أترك لك أن تجرب بصيرتك وفكرك . فتأمل وحدك في هذا ...

النظر الى الكيف لا الكم

وحين يطلب الينا النظر في هذا وغيره لا يتركنا ننظر كما نشاء . نظر الغفلة والجمود . بل يرسم لنا منهاج النظر الحق . الذي ينشيء بيننا وبين الملأ الأعلى أوثق الصلات . في أقرب وقت . فيعلمنا أن ننظر الى الكيف لا الكم ... والكيف لباب وعبرة . والكم صور وأحجام.. والكيف يدرك بالقلب . والكم يدرك بالحواس الظاهرة .

انظر قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم . كيف بنيناها . وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها . وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة . وذكرى لكل عبد منيب » وقوله عز وجل : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ؟ والى السماء كيف رفعت ؟ والى الجبال كيف نصبت ؟ والى الأرض كيف سطحت ؟ فذكر انما أنت مذكر » .

ويزيد على هذا . فيذكر لنا أنواعاً من النظر الى الكيف . لنقيس عليها ، أو نفرّع منهـا ، فتارة يفترض لك الفرض ، ويجعلك تسرح

Marfat.com

فيه بقلبك ، وعقلك حتى تقع على لب العبرة من خلاله : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة •• من اله غير الله يأتيكم بضياء •• أفلا تسمعون •• قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة •• من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه •• أفلا تبصرون ؟ » •

وتارة يسائلك مساءلة تفتق الحجب ، وتقف بك وجهاً لوجه أمام عرش الله عز وجل : « أفرأيتم ما تُمنون ؟•• أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟•• أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟•• لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ــ تعجبون في ندم وأسف ــ أفرأيتم الماء الذي تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً ، فلولا تشكرون •• أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون •• ؟ » •

ثمرة العلاج

وأخيراً ، لا يقف الله عز شأنه بمدارك البشر المتأملين عند هذا الحد ، بل يسمو بهم الى قطف الثمرة النهائية •• يسمو بهم سمواً يبعثهم الى التفكير في معاني الجد والحكمة الحازمة التي تبدو لذوي البصائر في خلق السموات والأرض •• فما كان الله هازلا ــ سبحانه ــ حين خلق السموات وما فيها من آيات •• وما كان لاعباً ــ تعالى شأنه ــ حين أخرج الأرض الى هذا الوجود ، ان هو الا الأمر الخطير ، والجد الذي لا هزل فيه ، أبرمه الله ، وسلكه في نواميس حكمته •• « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ••• ما خلقناهما الا بالحق •• ولكن أكثرهم لا يعلمون » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين • لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا •• ان كنا فاعلين •• بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون »

Marfat.com

وهذه ذروة التفكير وقمة المنازل ، التي يحلق حولها الربانيون .. يسمو اليها الانسان ، حين يهبط بتفكيره الى قرارة نفسه ، وأعماق فطرته : « أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى.....وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ».

ومع كفاية هذا التعليم ، فان الله عز وجل ، قد ذكر لنا بعض ما يقواه أولو الألباب حين التأمل في آياته .. لنقيس عليه .. ولنطمئن اليه ، اذا وجدناه صورة لما في خواطرنا ، وترجمة مسايرة لمشاعرنا . « والذي خلق الأزواج كلها .. وجعل لكم من الفلك . والأنعام . ما تركبون . لتستووا على ظهوره . ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه .. وتقولوا : سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون » .

« ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . فقنا عذاب النار » .

هذا طرف من هدى القرآن . وطبه لأمراض الانسان . فهل رأيت بربك هدياً يقارب هذا الهدي .. وينهل من هذا الطب ؟.. انه رحيق الشفاء ، وسر الخير والسعادة . والنعمة التي بشر الله بها أولياءه وأمر بالحمد عليها قبل وقوعها . اشعاراً بجلالة قدرها ونفعها . « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون » « سنريهم آياتنا في الآفاق . وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » .

أما الضالون من أهل الشقوة . فهم بعيدون عن هذه النعمة . وقد أنذرهم الله حجاباً يصرفهم عن التأمل فيها . ويحرمهم حظ الدنيا والآخرة

Marfat.com

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق •• » الخ ••
أي يصرف قلوبهم عن التفكير في شأنه سبحانه ••

مثال تطبيقي

والله عز شأنه بعد تقرير هذا العلاج وبيان أثره في شفاء القلوب ، يضرب لنا مثلا واقعياً من واقع التاريخ ، ليشرح بأسلوب عملي ، أن الانسان اذا نظر فيما حواليه من الآيات والآلاء، نظر التأمل والاستهداء، زال عنه الحجاب . ورق قلبه ، وأشرقت بصيرته ، فأفضى الى الله الذي لا اله غيره •• ضرب لذلك مثلا واقعياً تمت به العظة ، وختمت العبرة أطيب الختام . ذلك قوله سبحانه : « وكذلك نُرى ابراهيمَ ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جَنّ عليه رأى كوكباً قال : هذا ربي . فلما أفل قال : لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي . فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونَنّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم اني بريء مما تشركونْ . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » •

توجيه ونماذج

ونحن نوصي كل داع الى الله ، أن يدخل هذا المنهاج في حسابه ، ويجعله من عدته وعتاده ، فقد رأى قوة أثره في القلوب ، ورأى أن الله سبحانه ، دعا به الناس اليه •• وما حثهم في القرآن على شيء ، أكثر مما حثهم على أن يجعلوا التأمل سبيلهم الى الحياة ، فعلى الداعية أن يأخذ بما رسم الله، وأن يفتن في بعث سامعيه على النظر والتفكير والاعتبار بحسب ما تهديه اليه قريحته وسليقته •

Marfat.com

نمـــاذج

ونحن نضع بين يديك ــ أيها الأخ ــ أمثلة مما وعظ به المهتدون، واحتالوا به لاثارة انتباه الناس . وتأملهم في عجائب الله .

١ ــ وعظ سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم . فبسط كفه . وتفل عليه . ووضع اصبعه بجانبها وقال : يقول الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم : أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هــذه . حتى اذا سويتــك وعدلتك . مشيت في بردين .وللأرض منك وئيد . فجمعتَ ومنعتَ ، حتى اذا بلغت التراقي . قلت : أتصــدق . وأنّى أوان الصدقــة ؟ وتأملت في هذا يغنيني عن شرحه والتعليق عليه .

٢ ــ وعظ الإمام أبو حنيفة . رضي الله عنه . يوما . وقد حضره قوم من غلاظ القلوب . وكانت عظة عملية موفقة ..

أظهر للناس أنه مفكر في أمر خطير . فلما سألوه عن شأنه قال : اني مفكر في أمر قد أخبرت عنه : ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة بأنواع المتاجر . وليس بها أحد يحرسها . ولا يسوقها . وهي مع ذلك . تذهب وتجيء . وتسير بنفسها .. وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها . وتدخل المرافىء وتخرج منها . وتسير حيث شاءت . فلا تتجه الا الى ما هو مطلوب من غير أن يسوقها أحد .. فقالوا له : هذا شــيء لا يصح أن تشغل به نفسك لأنه لا يقوله عاقل . ولا يصدقه احد .. فقال : أيها الناس . انكم أنتم الذين تقولون هذا الكلام.تقولونه بلسان الحال . ان لم يكن بلسان المقال .

فهذه سفينة الموجودات بما فيها من العوالم العلوية والسفلية وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة . فهلا تأملتم عجائبها وحكمة المصرف

Marfat.com

لها ، أم أنها تغدو وتروح بغير مدبر يصرفها ؟ فخشعت قلوب الناس لموعظته ، وأسلم منهم من كان على غير الاسلام .

٣ ــ ووعظ الإمام الشافعي رضي الله عنه فقال : هذا ورق التوت، لونه واحد ، وطعمه واحد ، يأكله الدود فيخرج منه الحرير ، ويأكله النحل فيخرج منه العسل .. وتأكله الشاة والبقر ، فتلقيه بعـراً أو روثاً .. وتأكله الظباء فيخرج منه المسك ، وهي شيء واحد ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

٤ ــ ووعظ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، فقال : هاهنا حصن حصين (وأشار الى شيء بجانبه عليه غطاء) حصن أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز .. فبينا هذا الحصن كـذلك ، اذ تصدّع جـداره فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن ، وصوت مليح ، فلما أثار الامام أشواق الناس وبعثهم على التطلع .. كشف الغطاء فاذا بيضة مشقوقة ، وبجانبها فرخها الصغير ، الذي خرج منها حديثاً الى هذه الدنيا .. فسبحان من يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي وهو على كل شيء قدير .

هذه يا أخي أمثلة فتقت لك من جوانب الموضوع ، وقدمت لك ألواناً مختلفة من التفكير ، وسيسهل عليك بعدها ان شـاء الله : أن تحذو حذوها ، وتستقي من معينها ، ونختم هذه الأمثلة بمثال وضعه أحد الاخوان ، قال : كان أحد العلماء يجلس ذات ليلة بين مريديه ، وهو من أهل البصيرة ، فأراد أن يبعث أبناءه وتابعيه على التأمل العميق الذي يسبحون به أو يغوصون في بحار الحقيقة ، فيستخرجون لآلىء المواعظ والعبر .. فأمر باطفاء الأنوار فبدا المكان مظلماً صامتاً موحشاً يلفه الليل بسكونه وهدوئه ، ثم قال : يا أبنائي : في هذا الظلام الساكن، نستطيع أن نستنزل من السماء رزقاً لأرواحنا ، وحياة لقلوبنا ، فلا

Marfat.com

تفوتنكم هذه الفرصة ، فليذكر كل منكم في نفسه . ماذا كان قبل أن يخلق ؟ وماذا حصل حين أراد الله أن يجيء به الى هذه الدنيا ؟ ومن أي شيء خلقه الله .. وليتتبع الأطوار التي تنقل فيها ، حتى صار رجلا عاقلا ، مدبراً قوياً ، وليتابع رحلته الى الموت ، حتى يبلغ الجنة أو النار .

قال الأخ : فسكت المريدون .. وأخذوا يتأملون ، ويسبحون ويتنقلون في سلسلة المواعظ والحكم .. وأراد الشيخ أن يعرف أحوالهم في تفكيرهم فأخذ يسألهم من آن لآخر : أين أنت الآن يا فلان؟ فقال أحدهم : أنا الآن نطفة ، ثم قال آخر حين سئل بعد قليل : أنا الآن في القبر .. وقال ثالث حين سئل بعد صاحبيه بفترة : أنا الآن على الصراط . وكان الأخ يجري على لسان كل مريد وصفاً تحليلياً لمشاعر المتأمل في النطفة .. ولمن هو في القبر ولمن هو واقف على الصراط .. وليس يعنينا أن ننقل لك ما قال صاحب القبر ولا ما قال صاحب الصراط ، فاننا نحن بصدد التأمل في آيات الله الظاهرة لنا ، فننقل لك ما أجراه الأخ على لسان صاحب النطفة ، سأله شيخه : أين أنت الآن يا فلان ؟ قال : أنا الآن ياسيدي نطفة كريهة الرائحة والمنظر ، قطرة من ماء مهين . أتأمل فيها وفي مهانتها ، وضعفها ، ثم أنقل التأمل الى نفسي ، وأنا رجل قادر عاقل ، فيروعني الفرق الهائل بيني وبينها . بيني وأنا ماء . وبيني وأنا رجل . ولا أكاد أصدق أني كنت هذه النطفة يوماً من الأيام ! انها يا سيدي قطرة ، لو تركت بغير عناية ، لضربها الهواء ، وفسدت . وأنتنت ، فسبحان من حفظني ، حين كنت لا أستطيع أن أحفظ نفسي .... انها الآن أمامي . لا تسمع . ولا تعقل . فيا عجباً من سيهب لها العقل لتصير رجلا مفكراً . ينصب المكائد والحيل . أو ينفع الناس بعلمه وثمار عقله ؟ .. ومن سيهب لها السمع ؟ ويركب لها البصر ؟ وكيف يتم هذا كله ؟ ... ومن خلال هذا التساؤل انشق لي نور فوله

Marfat.com

تعالى : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » .

وان التأمل ليمتـــد بي ، حتى يلقيني في تساؤل آخر : ترى لو أمسك الله عن هذه النطفة ، فلم يهب لها العقل . فهل تهبه لنفسها ؟ واذا أمسك فلم يمنحها السمع والبصر .. فمن يستطيع أن يبث فيها حقيقة السمع والبصر ؟... وهي أسئلة تشرق على قلبي فتتلو علي قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم ، من اله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » .

ولقد أخذت أتصور الناس جميعاً ، عالمهـم وجاهلهم ، قويهـم وضعيفهم . جاءوا فوقفوا حول هذه النطفة ، وأخـذ بعضهم يستعين ببعض ، لعلهم ان يركبوا لها أقل عظم من عظامها . أو أرق عصب من أعصابها . أو شعرة واحدة من شعرها ، فباءوا بالعجز والفشل ، وكأن الآفاق من حولهم تشيعهم بقول الله سبحانه : « يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له . ان الذين تدعون من دون الله ، لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وان يسلبهم الذباب شيـئاً ، لا يستنقذوه منـه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

واسترسل بي التأمل فتساءلت اذا كان هذا سر الله ، وصنعه في قطرة واحدة من ماء مهين ، فكيف سره وصنعه في أقطار السموات والارض ؟.. انها لجج لا يحيط بكنهها الا من وسع كرسيه السموات والارض . وهو العلي العظيم ... وهنا قاطع الشيخ تلميذه وقال : أمسك يا بني ، حسبي هذا منك ، فقد هُديت الى المنهج القويم ، والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...

وبعد : فقد ذكرنا لك يا أخي بعض الاتجاهات التي تتجه اليهـا العقلية الواقعية في تفكيرها وتعبيرها ، وهي عقلية ضرورية للداعية كما

Marfat.com

ذكرنا في مواطن كثيرة ، فاذا كنت تتمتع بهذا النوع من التفكير . فاحمد الله عليه ، واسأله المزيد من فضله ، واذا كانت الأخرى ، فقد بينا لك بعض المنازع ، وما عليك الا أن تترسمها ، وتنهج نهجها ، وتقيس على مثالها ، وتتدرب عليها ، حتى تكسب لنفسك بعض خصائصها النافعة .
والله لا يضيع أجر العاملين .

★ ★ ★

Marfat.com

الفصل الثاني

الروحانية الاجتماعية

تمهيد

أيها الأخ الكريم : لا تحسبن هذا العنوان يسلمك لأوهام غامضة ، أو ظنون تهوي بك الى أودية مجهولة ؛ فقد ألف القراء أن يجدوا صعوبة فيما يقرءون عن الروح والروحانية ؛ وسأماً يصرفهم عن قراءة ما لا يفهمون . واستقر في أذهان الكثيرين أن الكلام في هذه المباحث ، محفوف بالمخاطر والزلل ؛ لأن كاتبها يطوّح بنفسه في آفاق من الظنون والفروض ليس فيها معالم للاهتداء ، ألم يقل الله تبارك وتعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

مادة وروح

أقول : لا تحسبن هذا العنوان يطالعك بشيء من هذا ، فانا قد أردنا به كلاماً هيّناً سهلا ، ومعاني في غاية الوضوح ، فالانسان مؤلف من مادة وروح ، وللمادة نظامها ، وعالمها الذي تقوم به ، وللروح خصائصها ، وعالمها الذي تحيى فيه ، والانسان ــ وقد خلقه الله في أحسن تقويم ــ مطالبَ أن يكون له حياتان : حياة مادية يؤدي بها ما

لبدنه من الحقوق في حكمة ونظام ، وحياة روحانية يحياها وراء عالم المادة ، يؤدي بها ما لروحه من الحقوق .. فاذا أقبل الرجل على نفسه فقام بحق بدنه وحق روحه . فقد أنصف انسانيته ، وساير سنة الله وعاش في سلام الدنيا والآخرة .

واذا جنح الى احدى الناحيتين وانصرف عن الأخرى فقد ظلم نفسه وعرض صفحته لسنة الله . ومن عرض صفحته للحق هلك . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فالرجل الذي يعيش عيشة أهل هذا العصر . مقبلا على المال . منافساً على المادة ، مستغرقاً في مطالب البدن . مشغوفاً بالجاه الفارغ ، والمظاهر الخادعة ، مسخراً ادراكه الحسي والقلبي لهذا المتاع الباطل . رجل مفتون عن حقيقة نفسه . محجوب عن رؤية لب الحياة . آرادت له سنة الله أن ترقى بانسانيته الى أفق أعلى ، فانسلخ من تلك الكرامة . وآخلد الى الأرض .

والرجل الذي يقبل على مطالب روحه فيقضي نهاره صائماً ، وليله قائما . معرضاً عن طيبات الحياة الدنيا ، فلا يلبس الا الخشن ، ولا يأكل الا اليابس الجاف ، لتضعف قواه الحيوانية . وتعظم على حسابها قواه الروحية ، رجل جاهل أيضا بحقائق الحياة ، غافل عن سنة الله ، مضيع لحقوق بدنه ؛ أو مضيع لاحدى ناحيتيه ، وكفى بذلك خسارة وتعطيلا لأمر الله فيه .. وقد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانت امرأته تلطف رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال:كيف أنت يا أم عبد الله؟قالت:كيف أكون؟وعبدالله بن عمرو رجل قد تخلّى عن الدنيا! قال لها:كيف ذلك؟قالت : حرم فلا ينام . ولا يفطر ، ولا يطعم اللحم ، ولا يؤدي الى أهله حقهم . قال : فأين هو ؟ قالت : خرج ويوشك أن يرجع الساعة ، قال : فاذا رجع فاحبسيه

علي .. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء عبد الله ، وأوشك رسول الله في الرجعة ، فقال : يا عبد الله بن عمرو : ما هذا الذي بلغني عنك ؟ أنك لا تنام ! قال : أردت بذلك الأمن من الفزع الأكبر ، قال : وبلغني أنك لا تفطر ! قال : أردت بذلك ما هو خير منه في الجنة . قال : وبلغني أنك لا تؤدي الى أهلك حقهم ! قال : أردت بذلك نساء خيراً منهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله بن عمرو : ان لك في رسول الله أسوة حسنة . فرسول الله يصلي — متهجداً — وينام ، ويصوم ويفطر . ويأكل اللحم . ويؤدي الى أهله حقوقهم ؛ يا عبد الله ابن عمرو : ان لله عليك حقاً وان لبدنك عليك حقاً ، وان لأهلك عليك حقاً ..

وبهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منهاج الحياة السليم الصحيح . وبين أن الإفراط مذموم ، ولو كان في اقبال العبد على حياته الروحية ، فان الله لا يقبل من عبده أن يعطل سننه ، ثم يزعم أنه يعجل الى مرضاته ...

كياننا الحقيقي

فالمرء على هذا مقسم بين واجبين ، مطالب أن يعيش في عالمين ، مكلف أن يربي في نفسه شخصيتين . ونحن بهذه الكلمة لا نريد أن نحض على حقوق البدن ، فالناس قد جنّوا بها وعموا فيها ؛ وانما نريد أن ننبه الى حقوق الحياة الأخرى ، فكثير من الناس يعيش ما يعيش ، وحياته دائرة في محيط المادة ، لا يسرق نفسه لحظة ليعيش بها في عالمه الآخر ، ثم يموت دون أن يؤدي لانسانيته حقاً من الحقوق ... لقد قلنا ان للانسان رسالتين ، رسالة يقوم بها على تربية شخصه الحيواني ، وأخرى يقوم بها على مطالب كائنه الروحي المستكن في هيكله ، وأشرف هاتين الرسالتين بلا مراء — رسالة الكائن الروحي ؛ فالكائن الحيواني ناحية مشتركة بين الانسان وكل ما خلق الله من حيوان .

Marfat.com

أما هذا الكائن العالي، فهو السر الذي امتن الله به على بني آدم حين قال: « ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ».

فرسالة الانسان الجديرة به، هي واجبه نحو كائنه المعنوي وعالمه الروحاني، وبمنطق هذه القضية. نستطيع أن نحصي أعمار الناس بما قضوا في هذا العالم العالي من لحظات، ونقيس أقدارهم بالنظر الى جسامة شخصهم القدسي العالي لا شخصهم الذي يجري عليه ما يجري على بهيمة الأنعام.

وكثيراً ما نقرأ أن فلاناً أنعم عليه برتبة الباشوية(١). بمناسبة اعتزاله الخدمة اعترافاً بفضل رسالته التي أداها في القضاء أو غير القضاء من مناصب الدولة. فهل أدى هؤلاء — حقاً — رسالة بليغة للحياة؟ كم يحال الى المعاش ويعفى من الخدمة أناس ليسوا من كبار الموظفين فلا ينعم عليهم بشيء. ولا تكتب الصحف عن رسالتهم شيئاً. فهل الرسالة في عرف هؤلاء أن يتدرج الانسان في مناصب الدولة حتى يبلغ أعلاها. فاذا لم يبلغها فهو مخفق لا يستحق الالتفات؟ الواقع أن هذه أوهام باطلة ومقاييس فاسدة. فرسالة الانسان هي رسالته نحو معانيه الانسانية، فاذا أداها فقد خدم أمته وخدم الانسانية كلها. ولو لم ينل من المناصب شيئاً، واذا أهملها فلا رسالة له. ولو بلغ رياسة الدولة، وقد يجتاز الواحد من هؤلاء الستين من عمره وشخصه الحقيقي ابن شهر واحد أو ابن يوم واحد وقد تراه فيملأ نظرك. ولو كشف القناع عن قلبك لرأيت انسانه الباطن ضعيفاً مهزولا. أو لم تجد شيئاً يقام له وزن.

---

(١) كتبنا هذا قبل إلغاء الألقاب.

Marfat.com

والآن فما معنى أن يعيش الانسان في عالمين ؟ وأن يربي في كيانه شخصيتين . ان المعيشة في هذا العالم المادي معروفة ، وتربية الكائن الحيواني غير مجهولة ، فهي تعهده بالطعام والشراب والرياضة والوقاية من الأمراض . فما معنى أن نحيى في عالم آخر ونربي شخصية أخرى ، لا تراهـا العيون ؟ كيف نربيها ؟ وكيف نغذيها ؟ ومن أين يأتيها هذا الغذاء ؟

كيف يخطىء المرء في حق نفسه

وهذا تساؤل يفرض علينا أن نقف على النقطة التي يبدأ منها خطأ الناس حين ينظرون الى الحياة ، أو يذهبون في مذاهبها ، فاذا عرفنا وجه الخطأ وحقيقة الصواب انكشف لنا ما نسأل عنه .

فغذاء الجسم ، طعام وشراب يخرج من هذه الأرض ، ووسيلة تحصيله اليد والرجل ، والعين ، والأذن ، واللسان ، وما وراء ذلك من ملكات البدن وجوارحه .. وغذاء الكائن الروحي عبر ومعارف من ملكوت السموات والأرض ، ونفحات تهبط على القلب من رياض أنسه سبحانه وتعالى ، ووسيلة تحصيله من أفاقه العلا هي التفكر في آيات الخلق وتبين آثار صفات الصانع تعالى ...

والانسان بخير ما ظلت قواه البدنية تسعى في الأرض ، وما بقيت مواهب فكره — أي قلبه — دائرة حول معالم الآيات وآثار الصفات، فاذا هو قسر القلب على غير ما يسر له ، وحول أشواقه عن أرزاق العالم الأعلى ، الى متاع العالم الأرضي الادنى ، فقد قطع عن كائنه الروحي مدد حياته الاصيل ، وسامه أن يتجرع ما ليس من طبيعته ، يتجرع ما يخنقه من أهواء باطلة وشهوات حسية ضارة . فيذبل ويضمر ، ويظل في هذا المحيط الخانق ، وصاحبه سارح غافل عنه ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ..

فوجه الخطأ هو قسر القلب على غير ما يسر له ، هو أن نقطع عنه وارد زاده من عبر الآيات ، والتفكر في آثار صفات الخالق عز وجل ، ونبدله من ذلك أهواء الدنيا وزينتها الباطلة ، فيضطرب تنافس الناس في الخارج ، ويختل الكيان الباطني للشخص .

ولقد قلنا : ان الله زود البدن بجوارحه وملكاته لتسعى له في تحصيل زاده من الأرض ، فلو كانت هذه الجوارح غير كافية لذلك لما قصّر الله سبحانه عن أن يهب له ما يفي بحاجته ، فهل هناك شخص واحد يدّعي أن اليد والرجل وسائر الجوارح ومن ورائهـا ملكات العقل غير كافية ؟.. اذاً فما محل هذه القوى القلبية ، وكيف ننزلها من سمواتها العلا لتعمل مع الجوارح جنباً الى جنب !.. وهب جدلا يا أخي أن قوى القلب خلقت لتعمل مع الجوارح في خدمة البدن ، فأين ما زودنا الله به لخدمة الجانب الروحي الباطني ؟... أين هو ؟ . . هل حابى الله احدى الناحيتين ــ حاشاه ــ وظلم الأخرى ؟ .. هل ذكر الكائن الحيواني فزوده بكل القوى ، ونسي ــ سبحانه ــ أن يزود الكائن الروحي بشيء ؟..

نريد للانسانية أن تستقبل أمرها على بصيرة ، فما ظلمنا الله شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، ونريد للانسان أن يقدر نفسه بالميزان الصحيح الذي يقدره الله به ..

هل نظلم البدن اذا أعطينـــاه كفايته من الدنيا ، وأطلقنا مشاعر القلب لتسعى في مطالب الكائن الآخـــر ؟... مـــن الانصاف لأنفسنا وللحقيقة أن نقول : لا ظلم في هذا ... ولكن من الانصاف أيضا أن نعترف بأن الموازين التي تقرر كفاية البدن غير معلومة . وأن الخطوط أو الحواجز الفاصلة بين قوى البدن والقلب غير ظاهرة . فما هي كفاية البدن ؟ وكيف نصرف قوى القلب الى رسالتها الخاصة ؟

والذي أراه أن هذه المشكلة يسيرة الحل ، اذا نحن رجعنا الى طبيعة الأشياء واستفتينا فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ فهل كفاية البدن شيء غير اسعافه بضروراته التي يقوم بها كيانه ؟ طعام يسد الجوع . ولباس يستر الجسم . هل يفرض المنطق غير هذا ؟ وهل يطلب العقل شيئاً آخر ؟.. يقول فقيه الوجود صلى الله عليه وسلم ، لرجل سأله عما يكفيه من الدنيا : « يكفيك ما سد جوعتك ، ووارى عورتك ، وان كان لك بيت يظلك ، فذاك ، وان كان لك دابة فبخ بخ !! » أما أنه لو تكلمت أعضاؤه لضرعت الينا أن نكف عن اجهاد المعدة وحشو الامعاء وارهاق الاعضاء بما هو فوق الحاجة ، فإن سلامتها مكفولة بالضروري. أما مازاد على الضروري فهو نذير العلة القريبة أو البعيدة..

ويقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنطق الفطري بقوله الحكيم المشرق : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ؛ بِحَسْب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه ، فإن غلبت الآدمي نفسه ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه » .

هذه كفاية البدن من دنياه ، فكيف نفصل قوى القلب حتى تنصرف الى رسالتها الخاصة في عالمها الخاص ، ويزول خطأ البشر في نظرهم الى الحياة... ؟

نستطيع أن نجيب عن هذا اذا نحن عرفنا حقيقة الدافع الذي يدفع الانسان الى الاستكثار من الطعام والشراب واللباس ؛ ان المرء لو خلي الى طبيعته لوقف عند مطالبها ، فماذا يخرجه عن هذا الموقف الطبيعي ؟ لو أنه يأكل ليؤدي للبدن ما يقوم به أوده وكفى ، لاستقامت حالته الصحية . والاجتماعية والروحية ، ولكنه يأكل أيضاً لتحصيل لذة الطعام والشراب ! ويلبس لاليستر جسمه فقط ، بل ليحصل أيضا لذة الاختيال بزينته بين الناس ، فالرغبة في الاستمتاع عامل ثان يحرك

Marfat.com

الانسان الى هذه المطالب .... والرغبة احدى قوى القلب القوية فإذا دخلت عاملا ثانيا طغت بقواها الهائلة على العامل الأول ، فلا يكون الانسان في هذه الحالات خاضعا لقانون طبيعته ، بل خاضعاً لسلطان هذه الشهوة التي لا منطق لها ، فلا يقف عند القدر الذي يقوم به أود البدن ، بل يذهب مع نداء اللذة حتى يعجزه الذهاب .

ومعنى هذا أن الرغبة في الاستمتاع بالدنيا . هي الدافع الاكبر الذي يحرك الانسان الى متاعها الأدنى . مع تعطيل حواس العقل — أي القلب — أن تجول في ملكوت الآيات والآثار .

ان الدنيا في منطق الفطرة دار بلاغ . ولكن تعليق الهمة بها جعلها في نظر أكثر الناس دار متاع ، والفرق شاسع بين البلاغ والمتاع . فمن اتخذها بلاغاً فقد جعلها وسيلة يبلغ عليها ما يريد من ربه لحياة قلبه . ومن اتخذها متاعا فقد جعلها غاية يدور حولها برغبات قلبه . وهمة نفسه وأهواء غرائزه ؛ أي أنه يحشد قواه كلها لدنياه . ويجرد حياته الأخرى من كل قوة تسعى في عمارتها . فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ...

والخط الفاصل بين البلاغ والمتاع . هو الحد الفاصل بين الرشد والهوى ؛ هو الحد الذي يجب أن تقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحياة الروح . ليسعى البدن في محيطه آمنا كل تدخل يغير عليه نظام بلاغه وكفايته ؛ ويسعى القلب في رياض آياته محلقاً بمشاعره في ملكوت السموات والارض ، مفيضاً على كيانه الحقيقي غذاء من النور والمعرفة. وشرابا من ماء الحياة الطهور ..

يجب أن يحال بين القلب وبين الهوى

حقاً ان القلب خلق ذواقاً للجمال . ويجب دائماً أن تدق فيه أفراح

Marfat.com

السعادة ، والقلب الحي هـو أكثر القلوب اهتزازاً بنشوة الغبطة ، وأشدها شوقاً واستشرافا لترادف نفحات النعيم ؛ ... والقلب الميت ، هو القلب الراكد الجامد ، الذي لا حركة به ولا عاطفة ... هذا كله حق وما تلك المشاعر والأحاسيس فيه الا ليذوق بها حلاوة ما يفاض عليه من جمال ... ولكن من أي أفق يصيب هذا الجمال ؟ أمن الأفق الأدنى الذي يرتع فيه الجسم مع سائر الدواب ؟ أم من الأفق الاعلى الذي يستمد نعيمه وجماله من حسن معرفة الله سبحانه أي مما في آيات الخلق ومحاسن الصنع من عبر وحكمة ؟

يجب أن يكون للجسم عالمه ، وللقلب[1] عالمه ، فيسعى الانسان سعيه البدني في حياته الظاهرة ، ويسعى سعيه القلبي في حياته الباطنة .

تدارك الخطأ بالزهد

فإذا أردنا أن نسمي هذا الفاصل الحكيم ، الذي يقيم المرء بين حياتيه على صراط مستقيم ، فليس لدينا له الا ما سماه به أهل المعرفة ، وهو « الزهد » فمن كان يظن الزهد غير هذا فليراجع نفسه ، فليس الزهد روحانية تكفك عن السعي في الدنيا وتعزلك عن الناس ، وتجعل نصيبك الحرمان من طيبات الحياة .. انما الزهد ما تقرر فيما مضى . قيل للزهري : ما الزهد ؟ قال : أما انه ليس تشعيث اللمة ، ولا قشف الهيئة، ولكنه صرف النفس عن الشهوة.. وسئل الامام أحمد بن حنبل: هل يكون المرء زاهداً ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم ، قيل : وما آية ذلك ؟ قال : آيته أنه اذا زادت لا يفرح ، واذا نقصت لا يحزن ، وقال ابن السماك : الزاهد هو الذي اذا أصاب الدنيا لم يفرح ، واذا أصابته لم يحزن ؛ يضحك في الملا ، ويبكي في الخلا » أي يكون مع الناس في مؤانسة وبشاشة ، فإذا خلا بنفسه ذكر الله ففاضت عيناه ...

---

(١) القلب قد يطلق على العقل

Marfat.com

وسئل سيد العارفين مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال : « أما انه ما هو بتحريم الحلال ، ولا اضاعة المال ، ولكن الزهــد في الدنيا : أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك » والزهد ما رسم الله في القرآن الكريم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ؛ الزهــد حالة نفسية تنشأ في الضمير حين ينال المرء حظه من معرفة الله بالتفكر في الآيات ، فإذا به سعيد بتلك المعرفة ، مبتهج عزيز ، غني ، وتستفيض تلك الحالة حتى تعم ذهنه ووعيه كله ، فلا يحس نحو الدنيا الا احساس الممتلىء الراغب فيما هو خير منها عند الله .

هذا هو الفاصل الذي كنا نتساءل عنه منذ قليل ، لنتبين عنده معالم الحياتين ؛ فالزهــد هو أن تعرف أن الله أراد لك أن تحيى في حياتين ، وأن تثبت وجودك المادي في حياة المادة ، ووجودك الروحي فيما وراء المــادة ، عاملا في الأولى بقوة بدنك وملكاته ، وعامــلا في الأخرى بقوى قلبك وملكاته ، محاذراً أن تنصرف عواطفك عما في يد الله ، الى متاع الدنيا .

فيجب أن تأكل من الطيبات . فما خلقها الله وهو يكره أن تنال منها ؛ بل انه دعا اليها المرسلين والمؤمنين . فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » . ولكن على أن تؤدي بذلك حق البدن . فتأكل للوفاء بهذا الحق ، لا للذة والشهوة والمتعة الحيوانية ، فإن « الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام . والنار مثوى لهم » .. للجسم زاده ، وللقلب زاده . « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب » .

ويجب أن نلبس وأن نتجمل بالجميل والنظيف من الثياب . فإن

الله جميل يحب الجمال ، ونظيف يحب النظافة ، ولهذا يدعونا عز شأنه « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ولكن لستر الجسم ووقايته . لا لشهوة الظهور والاختيال أمام الناس ••• وتأمل يا أخي قول الله تعالى : « عند كل مسجد » فإن الذي يتزين للمساجد غير الذي يتزين للأندية والمجالس . والذي يتزين لله ، غير الذي يتزين للناس . والدافع الرباني الذي يحفز الى التجمل عند العبادة ، هو دافع سام جليل . لا يدع في القلب مجالا لرغبات الرياء والظهور ؛ فيجب أن يكون الشأن في اللباس كالشأن في الاغتسال والنظافة ؛ فالرجل يغتسل وينظف بدنه . دون أن يخطر على قلبه أن هذا مما يختال به الانسان . ويلفت به أنظار الناس اليه . بل يفعله ليؤدي حقا لجسمه وكرامته ••• سأل رجل عبد الله بن عمر : ما ألبسه من اللباس ؟ قال : « ما لا يزدريك فيه السفهاء . ولا يعيبك به الحكماء » •••

البس ما طاب لك . على أن لا تتكلف له . ولا يلتفت اليه قلبك . واذكر دائما أن لباس الروح خير وأسعد من كل لباس خلقه الله للبدن « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم . وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » •••

والحياة تقتضيك أن تتزوج وأن تتناسل . والله عز شأنه شرع لنا هذا . وجعله من سنة الانبياء : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية » ••• والعقل الحر ، يحكم بأن غريزة الجنس في الذكر والأنثى . انما هي نوع من التكليف الإلهي . تؤدى به مهمة الى الحياة . وليست وسيلة لتحصيل شهوة من الشهوات ؛ فلنتزوج لننجب ما يريد اللـه من النسل وكفى ، لا لقضاء اللذة والمآرب من النساء والبنين . وهذا ما يقرره الله تعالى بقوله : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » قال الإمام البيضاوي : في تفسير قوله

Marfat.com

تعالى : « وابتغوا ما كتب الله لكم » : « واطلبوا ما قدره الله لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد ؛ والمعنى أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد. فانه الحكمة من خلق الشهوة، وشرع النكاح، لاقضاء الوطر »...

للزوجة فتنة ، وللبنين حلاوة ، وقد يسري شيء من هــذا الى القلب فيفسد على المرء ربانيته . وبعبارة أخرى يقضي عــلى وجوده الحقيقي وحياته التي يقاس بها عمره وقدره ؛ ولهذا يحذرنا الله عز وجل بقوله : « يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » ؛ ويشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ليس عدوك الذي ان قتلته كان لك نوراً ، وان قتلك دخلت الجنة . ولكن أعدى عدوك ، ولدك الذي خرج من صلبك . ثم أعدى عدوك مالك الذي ملكت يمينك » ...

واسع في الأرض . واضرب في مناكبها . وابتغ ما فيها من فضل الله . ورزقه وثمره ... على أن تظل ساعياً بقلبك في ملكوت الله . أي مفكراً في آيات الخلق. وفيما تتضمن الكائنات من آثار صفات الله.

اعمل في دنياك . واجمع المال . ولكن لا يلهينك شيء من هذا عن حياتك الأخرى ، لا يكن غرضك من جمع الحطام . أن تكنز الذهب والفضة . أو تكاثر به بين الناس ؛ فهذه همة السفهاء الفارغين . والفتنة التي تدخل على القلوب عبادة المال من دون الله « انما أموالكم وأولادكم فتنة . والله عنده أجر عظيم » . « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » . ليكن غرضك من جمع المال أن تنفقه في سبيل الله . وأن تجعله عدة لتأييد دينه .

بهذا يثبت الانسان وجوده في الحياتــين . ويؤدي رسالته في

Marfat.com

الناحيتين ، ويحقق معنى الزهد الذي تقاصرت عنه همم العاجزين من عباد الشهوات ، فعابوه ، وهو زينة الانسانية ، ونظامها الكامل •

صعوبة تحقيق الزهد

ومن الواجب أن نقرر هنا أن تحقيق هذا المنهاج ليس بالسهولة التي تبدو على الورق ، فنحن محاطون بزينة الدنيا ومغرياتها ، من المال ، والنساء ، والجاه ، والأبناء ، وغيرها ؛ وكل هذا فتن تتضافر على بسط سلطانها على القلب ، وجذب خطامه الى محيطها المعربد الصاخب ، وليس في طبيعة المرء أن ينجو من سحر فتنة واحدة منها، فكيف بهن مجتمعات؟ هذا الى أن الانسان منذ طفولته معبد للذائذ ، بحنان والديه ، وعطف ذوي رحمه وقرابته : يهدون اليه ، ويلطفونه ويعدونه ويمنونه ، فلا يكون ذلك الا بمضاحكة حواسه ، ومناغاة غرائزه وشهواته ، فيكبر وقلبه مطوع لزهرة الحياة الدنيا ، فماذا نرجو من سهولة تحقيق هاتين الحياتين ، وهو في طلاقة هذا المرج الضاحك الناضر الفاتن ؟••• ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعترف بهذا ويقرره في حكمة العلي الخبير « ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » •

وما دمنا ننظر الى حقائق الاشياء ، وواقع الامور ، كما يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجب أن نكون عمليين واقعيين أيضا في محاولة علاجها •

بين العقل والقلب

ما موقف القلب ، حيال هذه الدنيا التي يصفها رسول الله بأنها حلوة خضرة ؟••• لو أن الانسان ميكانيكي التركيب ، لجعل لبدنه زراً خاصاً يدير أعضاءه ••• ولقلبه زراً آخر يديره في جهة أخرى ،

Marfat.com

فيستريح ويريح ••• ولكن الانسان كائن حي مدرك ، والحياة سر مستفيض لا يضبط بقيود المادة وسدودها ، فما موقف القلب أمام زهرة الدنيا وشهواتها ؟ •••

أنتجاهل غرامه وأشواقه ، أم ننزل على حكم الأمر الواقع ؟•••

ونحب ازاء ما نلتزم من انصاف ، أن يكون الناس منصفين أيضاً ، فهل يريدون أن ينطلق الانسان في دنياه مع أهوائه بلا قيد ولا شرط ؟••• أم لابد من قيود وشروط وتنظيم ؟•••

لو أن القلب كان مركز المنطق وعدة التنظيم ، كما هو مركز الحياة ومعين القوى ، لنظم نفسه بنفسه ، فأخضع قواه الهائلة لمنطقه ، وسيرها في اتجاه المبادىء التي يستحسنها،ولكان للانسانية شأن غير هذا الشأن. ولكن الله قضى أن يكون مركز التنظيم بعيداً عن القلب ، متخذاً برج قيادته في قمة الجمجمة ، فالقلب مرجل البخار في قاطرة الانسان . والعقل المنطقي قائدها ••• فإذا كانت المبادىء التي آمن بها المنطق ، هي التي يسري رحيقها في القلب ، فاعلم أن السائق آخذ بزمام قاطرته ••• مهيمن على توجيه قواها الى ما يشاء ••• أما اذا آمن العقل بمبادىء ، وأشرب القلب مبادىء غيرها ، فاعلم أن قبضة السائق منحلة عن عجلة القيادة ، وأن القاطرة تمشي بلا عينين ، وأن صاحبها ينطلق مع هواه بلا قيد ولا شرط ، وهذا شأن الناس جميعا ، أو شأن أكثرهم في هذه الأيام •••

والعجيب من أمر الناس ، أنهم يعيشون منطقيين مع معدهم لأنهم أخضعوا المعدة للعقل ، فإذا أفتاها أن هذه الفاكهة الحلوة ضارة ، وأن هذه القثاء طيبة لا خوف منها ، نزلت على حكمه ، وسلمت بمنطقه ، وآثرت القثاء على الفاكهة، دون أن تفتنها حلاوتها عن سمومها. ولكنهم ليسوا منطقيين مع قلوبهم لأنهم لم يخضعوها لمشيئة العقل ،

فإذا قيل لها : هذا مبدأ في الأخلاق جميل ، رفضت أن تكون كالمعدة في الاستسلام لما يلقى عليها ... فياليت معدة الانسان تهضم المبادىء ، كما تهضم الطعام ، اذن لانتفع بالخيرين ، ولسرى فيه الغذاءان : غذاء البدن . وغذاء الروح ، ولكن للمبادىء معدة أخرى هي المعدة العصية والقلب الشموس ... الصدق فضيلة ، والكذب رذيلة ... خبرني بربك مَن من الناس ينكر هذه القضية ؟ أي عقل لا يؤمن بهذا المبدأ الجميل ؟... ولكن أي نفس لا تستثقل الصدق عند مايعترض المنفعة؟ وأي قلب لا يستحلي الكذب حينئذ ذاهباً مع الهوى كل مذهب ، منطلقاً بالقاطرة على غير ما يحب السائق ؟ والإنفاق في الخير فضيلة ، والشح رذيلة . مافي ذلك شك، ولكن القاطرة تمشي في غير هذا الاتجاه، فلماذا ؟ ألأن الانسان يسير في حياته منطقياً مع ما يؤمن به عقله من مبادىء . أم لأن عقله ومبادئه في واد ، وقلبه وأهواءه في آخر ؟

كنا نطلب الى الناس أن يكونوا منصفين . فهل يرضون للانسان أن يحيى هذه الحياة ؟ هل يحبون أن نقول له اذا ثقل عليك الصدق ، وحلا الكذب في نفسك ، فلا بأس ، مادمت تحصل منفعة شخصية ، فإن الدنيا حلوة خضرة ؟

هل يريدون . أن نذم له الصدق ونمدح له الشح ، لأن المال زينة الحياة الدنيا ، والانسان منذ طفولته معبد محب لها ؟

فإذا سأل سائل ما موقف القلب من الدنيـا الحلوة الخضرة ؟ رجوناه أن يضع أمام عينه ، وعقله ، وقلبه ، هذه المفارقة الهائلة ، التي تجعل عقل المرء ومبادئه في واد ، وقلبه وأهواءه في واد آخر ، لعل أن يروعه هذا الوضع البغيض،فيطلب أن يلائم بين هذين الشقين المتنافرين، قبل أن يحدد حق الحلواء والخضراء ...

Marfat.com

الواقع أننا لا نستطيع أن نضع للقلب نظامه ، ونحدد موقفه . الا ونحن مقيدون بعلاج هذا الوضع .

هذا أول شرط وأول قيد ، أما بلا قيد ولا شرط فلا ... ولكن كيف نعالج هذا الوضع ؟ ونزيل هذه المفارقة الواسعة ؟ أيكون ذلك بنقل العقل الى وادي القلب . وانزاله على حكم أهوائه ؟ أم يكون بنقل القلب الى الوادي الآخر ، والزامه ما للعقل من مبادىء قوية ؟

ان ما تقدم كله من تساؤل انْ هو الا خلط في خلط ناشيء من الجهل بمعنى العقل . وبمعنى القلب ؛ ولنعلم — في ايجاز شديد جداً — أن من طبيعة القلب أنه منبع الشوق والمشاعر ؛ فإذا خلا القلب مما يشغله الا من خواطر الحس : كالعرض الادنى . والجاه عند الناس . ولذة الغرائز والجوارح — تعلقت بها مشاعر القلب وأشواقه . وفرضت نفسها على ارادته . وألحت في تنفيذ مفهومهـا في ظاهر الحياة سلوكاً ومعاملات وسيرة تمثل الانانية في الحقد والتنافس على الدنيا ..

ولكن من فضل الله أنه جعل للعقل حاسة باطنة من وظيفتها أنها تدرك دلالة الكائنات على الله . أي تدرك آثار صفات الخالق تعالى في الخلق .. آثار قدرته . وآثار علمه وحكمته . وآثار رحمته وبره . وآثار كرمه ، واحسانه . ووده . وعدله . وما له سبحانه من صفات .. فاذا استطاع الانسان أن يتبين آثار هـذه الصفات القدسية انتقلت صورها فوراً الى القلب . وكانت هي حصيلة معرفة صاحبها بالله . لأن معرفة الله انما هي معرفة صفاته . وكانت هي — أيضاً — عقيدته . وايمانه بالله ... ولكن الذي يعنينا أن آثار صفات الله اذا انتقلت الى القلب واحتواها الضمير محقت ما به من خواطر الحس . وبدرت مشاعر القلب وأشواقه فتعلقت بها . وصار ضمير الانسان — أي قلبه — حافلا بوجدانات كريمة عليا تمثل معاني البر . والرحمة . والكرم .

Marfat.com

والود ، والاحسان ، والحكمة ، والعــدل وغيرهــا من صفاتــه جل شأنه ، فيتطهر ضميره ــ أي قلبه ــ من عقد الكراهية ، والشح والصفات الخبيثة ؛ وهيمنت الوجدانات الربانية على ارادته ، وأخذت تلح عليه أن يحقق مفهومهــا في ظاهر الحياة : براً ، ورحمة ، ووداً ، وسلوكاً حسنا ، ومعاملات فاضلة •

فالأمر كله يرجع الى « طبيعة الشيء » الذي يشغل فراغ القلب•• فإذا كان هذا الشيء هو وارد العبر والحكم التي تمثل معرفة الله عز وجل تعلقت المشاعر والأشواق بمعاني معرفة الله ، وصار القلب حافلا بأشرف القيم وأكرم المبادىء والغايات ••• واذا طرأ على الانسان غفلة ، أو عرض له ما يشغله عــن التبصر في آيــات الخلق ، فتعطلت حاسة الإبصار الباطنة عن ادراك آثار صفات الخالق في الكون ، فقد تعطل ورود واردات القيم العليا وصار القلب خاوياً من كل اثارة صالحة ، وسارعت خواطر الحس فشغلت الفراغ ، وتعلقت بها أشواق القلب ومشاعره •• وهكذادواليك •

فإذا عاد السائل الى تساؤله القديم : ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضرة ؟ رجوناه أن يضع أمام عينه ، وعقله ، وقلبه أمرين لازمــــين :

١ ــ المفارقة الشاسعة التي تقيم حياة المرء على وضع غير مرضٍ •

٢ ــ ضرورة علاج هذه المفارقة ، بعقد أواصر الألفة بين أهواء المرء ومبادئه الكريمة،أي جعل أهوائه من جنس هذه المبادىء الكريمة•

لا بد من التجرد

فاذا اتخذنا من هذين الأمرين قيداً ينظم لنا شأن القلب في هذه

Marfat.com

الحياة ، ألفينا أنفسنا أمام نهج واحد ، لا ثاني له ، ولا خير في غيره للسر ولا كرامة، « هو تجريد القلب من كل خاطرة تعارض المثل العليا ».

ولكن : ما هي هـذه الخواطر ؟ وكيف نجرد القلب منهـا ؟ . تساؤلان يخطران على قلوبنا وعقولنا ، عند ما نقف على أبواب هـذه المهمة الخطيرة لنشرع في انجازها . وما حسن أن نبلغ هذه المرحلة ، ثم نسكت عن مواصلة السعي لإتمامها قائلين لمن معنا : حسبك أن تجرد القلب من كل هوى وخاطرة تعارض المثل العليا .. اننا لا نستطيع أبداً أن نجرد القلب من شيء لا نعرفه . ولا يمكن أن نشرع في مهمة غير واضحة المعالم ، فما هي هذه الأهواء والخواطر ؟

هذه الأهواء ، هي مجموعة الخواطر والشهوات ، التي لا يمكن أن تورد على قلبك حركة ربانية ، أو نفحة سماوية نورانية ، لا يمكن أن تمنحك شيئاً من هـذا لأنه ليس من طبيعتهـا ... فهي شهوات الجوارح الحيوانية في الانسان ، وهي جوارح أرضية غير سماوية ... خلقت من الأرض ، ومنها غذاؤها ، وشرابها ونماؤها ، فهي لاتنفك ترنو وتهفو الى لذة المتاع الأرضي الحيواني ، ولا يمكن أن تدرك من أرزاق السماء ومغانمها، الا بمقدار ماتدركه جوارح أي حيوان آخر... فهي وجوارح الحيوان سيان ، مرعاهما واحد، والأرض مائدتهما جميعاً، أو مذودهما ان أردت منطق الفطرة الصحيح ... ولأمر ما ، يخاطبنا جل شأنه بقوله : « متاعاً لكم ولأنعامكم » بعد قوله : « والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ... » ويقول : « متاعاً لكم ولأنعامكم » بعـد أن يقول عن الأرض : « فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأباً ... » ويقول تعالى : « وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، ان في ذلك لآيات لأولي النهى » ... هي مائدة

Marfat.com

واحدة لجوارح الانسان والحيوان ، أو مذود واحد ، أو سمها ماشئت، بحيث لا تعدو الحقيقة ، فمن أغضبته هذه الحقيقة رجوناه أن لا يغضب علينا . وعرضنا عليه أن في السماء أرزاقاً غير أرزاق الأرض ، يفيضها الله على القلوب . لا على المعدات والجيوب ، قد أعدها سبحانه وتعالى للمتنازين من عباده بالإيمان ، لا للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، فعليه أن يرفع بصره من مذود الأرض الى مائدة السماء . اذا أراد أن يدّعي لنفسه امتيازاً على البقر والشاء ...

وأنت تقرأ قول الله تعالى : « يا أيها الناس ، كلوا مما في الأرض حلالا طيبا » وتقرأ بعده بقليل : « يا أيها الذين آمنوا ، كلوا من طيبات ما رزقناكم » ... فكم من فرق شاسع بين القولين ؟!...هناك فرق بين : « يا أيها الناس » و « يا أيها الذين آمنوا » ... وأمد بعيد بين : « كلوا مما في الأرض » و « كلوا من طيبات ما رزقناكم » اذ يسند هذا الرزق الى ذاته سبحانه ... وما أحكم التناسب حين يأمر الناس جميعاً أن يأكلوا مما في الأرض ، ثم يخص المؤمنين بالطيبات مما رزقهم من فضله .

فمجموعة الخواطر التي تخدم في الانسان ناحيته البهيمية فقط ؛ هي التي يجب أن نجرد القلب منها ونبدد ظلامها عنه ، حتى يظهر صقاله وصفاؤه ...

وهذه المجموعة يمكن تفصيلها في الفصائل الثلاث الآتية :

(١) خواطر تعلق القلب بمطالب البدن ورغبات الجوارح . تعلقاً يعبد المرء للطعام والشراب واللباس والنساء وأنواع الترف ومتع الحواس الظاهرة .

(٢) خواطر تعلق القلب بمطالب الجاه ، ورغبات العلو ، والسمعة

Marfat.com

في الناس ، تعلقاً يعبد المرء لشهوة المنصب والسلطان أو شهوة الغلبة على النظراء والأقران •

(٣) خواطر تعلق القلب بالمال ، وتجعل منه زينة للحياة الدنيا . وقد يطلب المال لتحقيق أحد الغرضين السابقين ، أو كليهما ، فيكون وسيلة لإشباع رغبات البدن ، أو عنصراً مؤازراً لشهوات الجاه والاستعلاء ••• وقد يبدو لهذا كأنه ليس فصيلة ثالثة من الأهواء ••• ولكن المال قد يحب في كثير من الأحيان لذاته ، كما يحب الرجل الخيل المسوّمة ، والأنعام والحرث — مثلا — بدون نظر الى متعة البدن . أو شهوة الجاه ، فهو على هذا الوجه فصيلة قائمة بذاتها . على مايصوره تعالى في قوله عن: « الذي جمع مالا وعدّده. يحسب أن ماله أخلده »•

هذا يا أخي هو الباطل الذي نريد أن نحرر قلوبنا وعقولنا من أوهامه ، ونجردها أو نخلصها من أثقاله وآثامه •••

فإذا نحن أفلحنا ، فقد خلصت لنا الحقائق في جوهرها الصريح . وسلمت لنا الحرية في لبابها الصحيح . ••• ولكن كيف نحرر قلوبنا ونخلصها مما هي فيه ؟

لقد تميزت لنا الخواطر الباطلة . فكيف نزيح هيمنتها على القلوب ؟ ••• هل نكتب الكتائب . ونحشد الجند . ونعبىء الجيش الكثيف ، ثم نشن على هذا العدو غارة حازمة قاصمة ؟ نعم لا بد من غارة ••• فما أشبه هذه الأهواء الثقيلة بالعدو الدخيل الثقيل . الذي يحتل ديار غيره فيقضي فيهم بأمره ونهيه . ويسومهم مالا يقبله الأحرار من فقر وذلة ! فإذا رأيت غاصباً محتلا جلا عن مستعمرة غنية بدون معركة ، فاعلم أن الأهواء الفاسدة المفسدة يمكن أن تجلو عن « مستعمرة القلب » بدون معركة ••• واذا رأيت أمة منكوبة بالاحتلال . ظفرت بحريتها وسيادتها بمجرد الأماني التي تطوف

Marfat.com

كالأحلام ، فاعلم أن الاماني السلبية والأحلام الفارغة ، كافية لتحرير القلب من محتله العنيد . أما اذا أقنعك الواقع بأن الأمر جدٌ لا هزل ، وأنه لا بد من معركة حامية ، تديرها الأمة المغلوبة ، وتحشد لها كل ما تملك من ارادة وقوة ، فذلك هو الحق ، وهو وحده عدة الجلاء ، وضريبة الحرية والاستقلال... اذا أقنعك واقع التاريخ القريب والبعيد بهذا ، فاعلم أيضاً أنه لا بد من مثل هذه المعركة لتحرير مستعمرة القلب الغالية . ولكن كيف ندير هذه المعركة ؟ كيف نعد لها العدد والعُدد ؟ ما جندها الذي يجب أن يعبأ ؟ وما سلاحها الذي يجب أن يهيأ ؟ .. الأمر على خطورته بسيط غاية البساطة ، والمؤونة يسيرة غاية اليسر ؟ فجند هذه المعركة في نفسه .. هم أبناء هذا القلب ، هم شعب هذه المستعمرة القلبية ! .. وهل للقلب أبناء غير عواطفه وخواطره ؟

ان الوطن اذا استعمره العدو فلا سبيل الى تحريره ، الا أن يقوم أبناؤه ، ويتجمع شعبه على ذلك . فإذا انصرف كل الى شأنه الخاص ، فقد تبددت قواهم وخمدت جمرتهم ، وتبعثرت ذراتهم في الفضاء ، وهيهات أن يتم مع هذا الشأن جلاء العدو ، الا أن يكون أمر من السماء ليس في الحسبان .

وكذا القلب اذا استعمره العدو ، لا سبيل الى تحريره ، الا أن يقوم أبناؤه ويتجمع شعبه على هذا المقصد .. فإذا انصرفت كل عاطفة الى شأنها ومضى كل خاطر الى سبيله ، تفرق الشمل ، وانحلت ارادات القلب ، وهيهات أن يتم مع هـذا خلاص المرء من ضلالات الباطل وأوهامه .. لا بد أن يتجمع جند القلب ، وأن تعبأ اراداته المختلفة .. لا بد من ارادات العواطف ، أو العواطف المريـدة (بضم الميم) ، فالعاطفة التي لا ارادة لها هي عاطفة منحلة ، وخاطر متميع لا يورث الا الحياة السلبية الراكدة .. العاطفة المريدة هي العاطفة الفاعلة ، التي

Marfat.com

تنشيء للمرء حياته الإيجابية في الظاهر والباطن : وما المرء في ميدان الانتاج الا عاطفته المريدة الفاعلة ، فإذا خلا من هـذه الارادة ، فهو شبح فارغ هائم عـلى وجهـه ، هو والسوائم سيان •• فإلى هؤلاء الفارغين نوجه النداء ، أن يعودوا الى نفوسهـم . ويجمعوا خواطر قلوبهم ، ويلموا شعث ارادتهم •• فاذا تركز وجود أحدهم في ارادته ، حق له أن يقول: ان الجندي قد تهيأ للمعركة، ولا ينقصه الا السلاح••

أيها الأخ : أول عدة المعركة أن تكون مريداً . وأن تحذر العيش بلا ارادة ، وما ذلك عليك بعزيز ، اذا أردت العيش الكريم ، فهل ترى ذلك يكلفك شيئاً ؟ هـل تراه يكلفك مالا ؟ أو تراه يكلفك جهـداً ومشقة •• انه لا يكلفك الا أن تجعـل عواطفك صلبة غير منحلة ، وخواطرك متماسكة غير متسيعة •• لا يكلفك الا أن تراقب رجولتك ، أو مقومات هذه الرجولة ••

أيها الأخ : كن مريداً •••

أما سلاح هذه الإرادات التي تجمعت في القلب . وتهيأت للمعركة. فماذا عساه أن يكون ؟ سيف ؟ بندقية ؟ مدفع ؟ نعم . ولكن سيف من الحق لا من الحديد ، وبندقية ترمي بشهب من الله ، لا بشهب من النار، ومدفع يقذف بالحق على الباطل ، لا بويلات الرصاص والقنابل • فالحق هو السلاح الذي يجب أن تتزود به هذه الجنود، فاذا زودت بسلاح آخر كانت حرباً عـلى المستعمرة القلبية لا لهـا .كانت حرباً عـلى وطنها مع الغاصب المحتل ، كانت كطوائف الخونة المجرمين . الذين يعملون ضد أوطانهم مع الطغاة المغيرين •• نعم ، فهذه الارادة أو هذه الإرادات ، ان لم يمسك الحق بقيادها ، سخرها الباطـل فيما يشاء من أغراضه •

Marfat.com

فلتتزود هذه الجنود بالحق ، فالحق عصمتها ، والحق سلاحها في الوقت نفسه ؛ فلتتزرد هذه الارادات بهذا النور ، وهذه النار .. ولكن كيف نزودها هذا الزاد ؟ ان كلمة الحق غامضة غير واضحة المسمى . فكيف نضع هذا السلاح في أيدي هؤلاء الجنود ؟

التجرد هو الرجوع إلى الفطرة

اعلم يا أخي : أن الحق مخبوء في مطاوي وعيك الباطن .. فلسنا نحيلك على علم العلماء . ولا فلسفة الفلاسفة ، ولا شيء مما يكد الذهن ، بل نحيلك الى فطرتك المستقرة في كيانك ، فالفطرة وعاء الحق ، وكنانة سهامه وشهبه . هي مستودع نورك ونارك ، فليأخذ كل جندي زاده من هذه الكنانة . ولنسلح كل ارادة بسهم من هذه السهام . فما الإرادة الا وتر مشدود ، اذا رمى بسهم من الحق ، فهي الرمية الحاسمة في المعركة الفاصلة .

ونريد بهذه الاستعارات، والمجازات، أن يرجع الانسان المريد... الانسان ذو الارادة المجتمعة .. الى فطرته . ليرى حقائق الحياة على ضوئها . نريد له أن ينظر الى كل شيء من خلال هذه الفطرة .. أننا نرى الأشياء ، فلا نرى كل حقائقها ، بل قد نراها أحياناً على غير حقائقها ، لأننا ننظر اليها بحدقة العين المجردة ، لا بحدقة البصيرة الكاشفة .. فإذا نظرنا الى كل شيء من خلال هذه الحدقة الاخيرة ، سطع الضوء على الحقائق كلها . وتبدد كل ما يغيم على القلب من وهم وباطل .

فالفطرة هي المنظار . أو عدسة المنظار التي تظهر من ورائها حقائق الأشياء في غير لبس ولا خفاء .. والنظرة الفطرية هي سهم نافذ من سهام الحق . يمزق بنصله المرهف . أغلفة الباطل التي ترين على ظواهر الأشياء أو ظواهر القلوب . فإذا هي سافرة الحقائق جلية المعادن

Marfat.com

والجواهر ، فكن مريداً مجتمع الارادة يا أخي . وكن فطرياً في نظرك الى حقائق الحياة .. اذا رأيت شيئاً فتماسك ولا تدع ظواهره تغلبك ، وتسوقك معها ، أو تسوقك أمامها ... بل استجمع له ارادتك ... واتئد ... وأحضر له فطرتك ، أو أحضر له منظارك الكاشف . وانظر من ورائه في رزانة . فإن المناظر الكاذبة تتبدد بأوهامها . وخواطرها . وتنكشف لك حقائق هذا الشيء ، لعقلك وقلبك .

كم من عيوب شائعة لا يظهر ما فيها من حطه . وكم من أوضاع فاسدة . لا يظهر فسادها ... وكم خدعتنا المظاهر فقبلنا خداعها .. وكم وجدنا الناس يقيسون بالمقاييس الخاطئة . فقسنا كما يقيسون .. وكم . وكم . مما لو نظرنا اليه بهذه العين الكاشفة . لبان لنا وجه الحق فيه . وزال عنه خداع الباطل وتسويهاته . والحياة مليئة بهذه الاكاذيب التي خضع الناس لتخييل باطلها . وأنت غني بشاهدتها عن التمثيل لها ، ولكني في هذا المقام أريد أن أتحدث عن أكذوبة ضخمة . بل عن باطلة الأباطيل . التي يتسلل منها كل ما يرين على القلوب والعقول من تخييل وتسويه وأهواء ! فقد ضرب الباطل على أقطار هذه الكرة الأرضية فقاعة هائلة من الوهم . فهي تغشي قلوب الناس وعقولهم جميعاً الا من عصم الله ، وقليل ماهم . فهم على بريقها يسيرون . وبوحي خداعها يعملون ... أوهمتهم أن الحياة طعام وشراب . وأيام تأتي بالمساءة والإحسان . وبالعطاء والحرمان ... فما على المرء الا أن يجد ويكد ، ويتسلح وينافس . فيحصل المال . ويجمع الحطام . وأن يفر جهده من الفقر . وأن يستمسك جهده بأسباب الغنى . وأن يجعل أيامه أيام سرور ان قدر ، وأن يدفع عن نفسه مالا يشتهي ان استطاع ... فرسالته تتلخص في وحي هذه الفقاعة ، أو هذه القبة الضخمة من الوهم ، في أنه جاء الى هذه الأرض ليأكل . ويشرب . ويتناسل . ثم يموت . بل ثم يختم الفناء الأصم قصته الى الابد ... هذه هي الفقاعة

Marfat.com

الضخمة التي ضربت أطنابها على الأرض فاغتر الناس ببريقها ، ومضوا في غفلة مع وهمها وسرابها ، يتبع اللاحق منهم السابق ، ويأتي الخلف على أثر السلف ، ويتصل بهم موكب الخليقة كالقطيع السارح التائه الى غير غاية ... لا يتساءلون : ما هذه الحياة ؟.. ولا لماذا نحن هنا؟.. وأين كنا ؟.. والى أين نصير ؟ .. لا يتساءلون ؛ بل هي أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وبطون بينهما لا تشبع .. وليس وراء هـذا حكمة ، ولا غاية .. هكذا تقول الفقاعة .. أفهو حق يا أخي ؟ أحق أن الله خلقنا لنأكل ، ونشرب ، ونتناسل ، ثم نموت ..أترى بعين عقلك أو بعين فطرتك : أن هذه الغاية التافهة ، والخاتمة الهازلة ، مما يعبأ به الله ، فيخلق من أجلها انساناً في أحسن تقويم ؟ .. ويحفل بها فيخلق لها عالماً رائع الجلال.محكم السنن والنظام،معجز الآيات والمشاهدات؟.. ألم يكن كافياً لأداء مهمة الأكل والشرب ، أن يخلقه في تقويم غير تقويم هذا المخلوق الشاعر ، المفكر . العابد القانت الخاشع ؟ ... أولم يكن كافياً لقضائها أن يخلق لها عالماً ضئيلا مهلهلا ، يتناسب مع ضآلتها، وتفاهتها ، غير هذا العالم الرائع المهيب؟ أسرف هذا من الله ؟ أم ماذا يقولون ؟ ... ثم لماذا خلقه ؟ ليأكل ويشرب ! ... هل ضاق ذرعاً بخيرات الأرض فخلق لها هذا المخلوق الأكول ليريحه منها ؟ ... أم به غرام — حاشاه — لأن يتلهى بمنظر هذا اللعب فدأب الدهر يصنع ويلهو ؟ .. انه لتساؤل يفزع السرائر ، وتبرأ من اثمه الضمائر . وتهيج الفطرة ، فتقذف عليه ما يبطله ، فسبحان الله عما يصف هؤلاء المبطلون؛ ان حكمته جل شأنه أجل من أن تتعلق بمثل هذه الغاية ، وأن تخلق من أجل هذا العبث ذبابة واحدة ، فضلا عن هذا العالم الرائع الجليل ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ؛ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق . ولكم الويل مما تصفون » .. فاذا أردت مثالا للنظر

Marfat.com

الفطري فهذا التساؤل من ألوانه ، وها أنت ذا قد رأيته سهلا لا تكلف فيه ، لأنه كان يفيض من قلبك وعقلك ، أو يفيض من منطق فطرتك الذي لا يخطىء ، واذا أردت مثالا لمعنى من معاني الحق ، فاعلم أن الحق سهل لا تحار الأفهام في ادراكه ... ، فهذا الشعور القوي الذي ثار بنفسك فأنكرت به وهم الفقاعة واسمها . هو الحق نفسه ، وليس الحق شيئاً غير ذلك .. ليس الحق نظريات تدرس في الكتب وينعسها المتعلمون في المدارس . والجامعات . فيمتاز بها قوم على آخرين .. انما هو شعور يفيض في القلب حين ينظر المرء من خلال فطرته لا من خلال معدته وشهوته .

وبعد : فهذا يا أخي بعض الحقائق الثابتة الأصيلة . التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هدانا اليها تجريد القلوب من أوهام الباطل ، وتعرضها لشموس الحقائق ، أو هدانا اليها الرجوع الى الفطرة السليمة ، فإذا حقق المرء لنفسه هذا التجرد القلبي . وعاش في ضحوة الحقائق السافرة فانه يقرأ سطور الحق في كل شيء . ويشعر كأن روحاً يهبط عليه من خلال كل كائن ، فإذا حياة جديدة ، واذا يقظة جديدة . واذا معارف جديدة ...

أمثلة واقعية لتجرد أهل الجاه والمال

واعلم يا أخي أن تجرد القلب من أهواء الجاه والملك والمال . ليس معناه الامتناع عن تحصيله بكل وسيلة مشروعة ... ولكن على النحو الذي بيناه في الزهد . فهذا نبي الله سليمان عليه السلام . سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده . فاستجاب له . ووهب له الملك الذي عرضنا بعض نواحيه في قصته السابقة . فهل طلبه شهوة فيه . وهل نفسه نزعت اليه ؟ وهل تصرف فيه تصرف المترفين من أهل الشهوات ؟ . كلا ...لم يطلبه لحاجة نفسه . وانما طلبه في حاجة ربه وتصرف فيه

على ما يحب الله ... فكان له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه لا بوحي شيطان الهوى ، وداعي الأنانية الخاصة .

وكانت له عيون من الطير تتحسس من أحوال الناس ، ولكنها عيون خير وهدى ، لم يسخرها للوقيعة بأحد ، بل سخرها بإذن الله في محاربة الزيغ والضلال ، وكان يراسل الملوك . لا باسمه الشخصي ، ولا في رغائبــه الخاصة . بل كان يراسلهم كما شهد الله له « انه من سليمان . وانه باسم اللــه الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا عــلي وائتوني مسلمــــين » .

وكانت له الجيوش التي لا يقوم لها جيش في الأرض ، فهل أطغته القوة فسخرها لإذلال الناس . أم سخرها لتأييد الحق والايمان بالله ؟ وهل سير الى سبأ جنوداً « لا قبل لهم بها » الا لأن موقفهم من دعوة الايمان كان يلتبس بسواقف المراوغين المساومين ؟

لهذا طلب سيدنا سليمان الملك ، أما رغبته ، وشوقه القلبي وما الى هذا من عواطف ومشاعر ، فكان كله ناظراً الى الله سبحانه ، متعلقاً بما عنده من مقامات عباده الصالحين ، وانك لتجد مصداق ما نقول في ضراعته الصادقة لله سبحانه : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

هذا مثال واقعي . ساقه الله عز شأنه ، يشرح به معنى الزهد ، وكيف يكون الانسان الصالح ، ملكاً محاطاً بالجاه وأسباب الترف والفتنة . ونفسه مع هذا ناظرة الى ما هو أرفع .. مسخرة كل ما تملك من جاه ومال وقوة في تأييد الحق ، وارضاء الله سبحانه ... فلسنا يا أخي ندعو الى خرافة ، وليس الدين دين تخلف عن حقائق الحياة ، فبعداً لكل غافل أضله هواه ، واستعبدته شهوته .

Marfat.com

اطلب المال ، واطلب الملك ، ولكن شتان ما طلب وطلب ... شتان ما طلب يبعث عليه باعث الشهوة والرغبة في التفاخر والتكاثر ... وطلب يبعث عليه باعث الرغبة في تطهير الارض من المنكر . واقامة معالم الحق .

ويوسف

وهذا سيدنا يوسف عليه السلام . يطلب المنصب الرفيع من ملك مصر . لا من الله كما فعل سليمان عليه السلام . وليس في هذا شبهة من نتص تعلق به عليه السلام . فلكل مقام مقال . ولكل ظرف أحكامه وخصوصياته ، وطبيعة الموقف هنا وملابساته تقتضيه أن يتوجه ببواعثه الربانية الى طلب المنصب من الملك تحقيقاً لما أراد الله لأهل مصر من اليسر والكرامة ... ويوسف عليه السلام يقول في ضراعته الى الله : « رب قد آتيتني من الملك . وعلمتني من تأويل الاحاديث » وهي لفتة تشعرك بحسن ادراكه عليه السلام للحقائق العليا . وأن طلب الملك من البشر في مثل هذه الظروف لا يقل مرتبة عن طلبه من الله . وقد كنا أوجبنا أن يطلب الانسان المال . والجاه ، والحكم متوسلا بكل مايمكن من الأسباب الطبيعية المشروعة ، على أن يكون الطلب صادراً عن رغبه في الله لا غير ، كما رأيت في هذين المثلين الكريمين ... وهذا يوسف عليه السلام يقول لملك مصر : « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » فهل تراه يطلب الإشراف على شؤون التموين . بالأسلوب الدنس الذي يلجأ اليه كل مستضعف مستعبد لشهوة الظهور والغرور ! . انك لا ترى الا العزة الكاملة في الطلب . عزة من يطلب لغيره لا لنفسه . بل عزة من يتقدم لأداء الواجب والإنقاذ من خطر يوشك أن ينزل . وان روح العـزة ليطالعك في صيغة الأمـر من قوله عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض » بينما يتأدب سليمان مع الله في الطلب

Marfat.com

« رب اغفرلي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » ولعل لنا في قصة يوسف عليه السلام درساً يعلمنا الدستور الذي تطلب به الوظائف والمناصب ، فهي تطلب بالعزة لا بالذلة ، وتطلب لأداء واجب ، وسداد ثغرة ، لا حشراً بدون موجب ، واسرافاً في المال العام ، وتطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء والوسيطات ...

ألا تراه عليه السلام يقول اثباتاً لكفاءته في غير زهو ــ طبعاً ــ « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » فهل يفهم هذا الدرس حكامنا وشبابنا ؟

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك ، فدفع الله به شدة عن الناس ، وكشف غماً وكروباً كثيرة ، فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها ، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة ... أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه ، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه ، وظلت بصيرته تهفو الى ما عنده من مقامات الاحسان ، فيناجي ربه بمعنى مناجاة سليمان « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث .. فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً ، وألحقني بالصالحين » .

ورسول الله

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تنصب بين يديه أموال الجزيرة العربية ، وتأتيه أخماس الغنائم ، وتؤول اليه فدك وغيرها فيئاً خالصاً له من دون المسلمين ، فما وقف قلبه على شيء من هذا ، بل كان يصرفه لفوره الى وجوه البر ، والمصالح العامة ، وربما ربط الحجر على بطنه يثبت به قلق معدته الجائعة ، فما كان جوعه عليه السلام من اقلال ، بل عن غنى زهدت فيه نفسه ، تقول عائشة رضي الله عنها : « ما شبع

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ، ولو شئنا لشبعنا ولكنه كان يؤثر على نفسه » .

ولقد رأى عليه السلام جبل أحد مرة . فعبر عن منهجه هذا بقوله : « ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً ، تمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار ، الا شيء لدين ، الا أن أقول في عباد الله هكذا . وهكذا . وهكذا » – أي يفرقه بيديه عن يمينه وعن شماله وعن خلفه – ثم سار وقال : « ان الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا وهكذا – أي يفرقه يميناً وشمالا ومن خلفه – وقليل ما هم ...

وبعد : فهذه مثل تاريخية واقعية عالية . تؤيد وتوضح ما عناه من أن تجريد القلب من أهواء المتاع الأدنى . ليس معناه أبداً الامتناع عن تحصيله . والسعي اليه بكل الوسائل والأسباب الشريفة ... ان تجريد القلب ينشيء في نفس صاحبه حاجات ومطالب لله . فيبعث بنداء هذه المطالب الى السعي والتحصيل . بهمة لا تقل عن همة سعير من أهل الشهوات .

وكذلك توضح لنا هذه المثل . مهمة المال وغيره من أعراض الدنيا ، فهي للانسان يأخذ منها كفاية بدنه لا غير . ثم يرصد ما زاد لأحد الأمرين أو لكليهما :

١ – تفريج كروب الناس . وتخفيف ما ينزل بهم . وتيسير مصالحهم .

٢ – لا بد للحق من قوة مادية تكون من أسباب حمايته ونصرته ... والقوة مال . وسلاح ، وجنود مدربون . فيرصد جزءاً من ماله ، لينفق في هذه الأغراض ، وليعمل على الاستكثار من هذا المال .

Marfat.com

واستخلاصه من أيدي أعوان الشر وجنوده ، بكل ما يسعه من علم وحيلة ووسيلة « فنعم المال الصالح في يد الرجل الصالح » فإذا جاز له أن يفرح بما جمع ، فليفرح لالنفسه ، بل لأنه استكثر للحق من أسباب العون والنصير .. وهذا من مهمة الأنبياء ، ومن صميم نظرهم الى حقائق الحياة وطبيعة الاشياء .

من صفات أهل الروحانية الاجتماعية

انما فصلنا هذا التفصيل رغبة في الشرح والإبانة ، وقد رأيت أن مجرد خلوصك من كل ما هو باطل ، يسلمك الى الحق الواضح ، فترى شمسه دائمة الإشعاع على قلبك ، فيقوى شعورك به على الأيام ، حتى لا يبقى فيك محل لغيره بل حتى كأنك لست من لحم ودم ، انما وحدة من الشعور القوي ، يستقل الحق وحده بحيزها ..

فإذا تحقق الانسان بهـذه المعاني ، فقد تحققت له الروحانيـة الاجتماعية ، التي يحيى بها حياتين ، ويعيش بها في عالمين : جسمه في الارض وحقيقته في السماء ... جوارحه آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدنيا ، ومواهبه الإلهية آخذة فيما يأخذ فيه العارفون ... يغـدو ويروح بين الناس ، وله من دون ذلك غدو ورواح في الملأ الأعلى ... ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وانه ليسعى مع هذا في أسواق الله بتجارة أخرى ... والعمل من أعماله في الحقل ، أو المصنع ، أو الشارع ، أو المسجد ، يشبه ما يعمله غيره ، ولكن شتان ما عمل في الارض يرتد الى الارض ، وعمل يبتغى به مرضاة الله يرفعه الله اليه ، وعليه من طيب القول ما هو أزكى من ريح المسك « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » .

Marfat.com

الروحانية وذكر الله

واعلم يا أخي أن ملاك الأمر أولا وأخيراً . هو ذكر الله عز وجل. على كل حال ، وفي كل آونة ، فهو للقلوب كالهواء للأبدان ••• فإذا ساغ لديك أن تحيى الاجسام بغير هواء ، فقد صح لك أن تجيز حياة القلوب بغير ذكر •••

قال الإمام ابن تيمية : « ذكر الله للانسان . كالماء للسمك . فانظر كيف يعيش السمك بعيدا عن الماء » ؟

هذا قول أهل الحقائق لا أهل المجاز والخيال :

الحياة سر ، ومظهرها في الجسم الحركة ••• ومظهرها في الروح ترادف واردات المعرفة الإلهية . واليقظة الدائمة ، والجسم لا يكف عن الحركة ما دامت الحياة تسري فيه ••• حتى انه اذا نام . لا تكف رئتاه ، وبعض أعضائه عن العمل والحركة ••• فإذا انقطعت الحركة . كان ذلك آية الموت •

وكذلك القلب . يجب أن لايكف عن يقظته الربانية ••• حتى انه اذا نام صاحبه ظل على يقظته وانتباهه . وهذا تفسير ما وصف به صلى الله عليه وسلم ، من أنه : تنام عيناه ، وقلبه لا ينام . وتفسير أن رؤيا القلب الصالح ، تأتي كفلق الصبح ، وهي جزء من ٤٤ جزءا من النبوة . فإن الله سبحانه يرسل المبشرات بأمر من نبيه فالقلب اليقظان يحس بها فيلتقطها ، كما تلتقط الاجهزة اللاسلكية السليمة مافي الأثير من اشارات ••• أقول : ان يقظة القلب مظهر سريان الحياة الروحية . فإذا كف عن يقظته ، وانطفأ نوره وأظلم ، كان ذلك آية الموت . على مثال ما تقرر في الجسم ••• فذكر الله على هذا لازم لنا في كل وقت وعلى كل حال ، حتى يستمر مدد الحياة واردا على قلوبنا •

Marfat.com

ومن حسن الحظ أنه ليس أسهل على الانسان ، ولا أحلى في قلبه من ذكر الله ... فإذا كان في الصلاة مشقة على بعض النفوس واذا كان في الوضوء ما يشبه الحرج لبرد أو نحوه ، واذا كانت الصدقة تثقل أحيانا . واذا كان الزهد ــ على ما بيناه ــ يشق على الانسان ، واذا كان عمل الجنة حزنا(١) بربوة كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلم أن ذكر الله على كل حال ، وفي كل وقت ، يدخل على النفوس من الأسرار والأنوار ما به تزول كل مشقة ، قال صلى الله عليه وسلم : « من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وجبن عن العدو أن يجاهده ، فليذكر الله عز وجل » .

بل ان هذه الأعمال اذا سهلت عليك ، لا تلبث أن تصير لدى نفسك من الضرورات التي تشتهيها ، والتي لا تطيق عنها صبراً ، فإنه يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا انتظر الصلاة هامت اليها أشواقه ، فيقول : « أرحنا بالصلاة يا بلال » على نحو ما يفعل عباد البطون ، حين يصيحون بخدمهم أو أهليهم أريحونا بالطعام يا هؤلاء ، ولله ولرسوله المثل الأعلى .

وعلى محمل هذه السهولة ، أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ان الجنة أقرب الى أحدكم من شراك نعله » وعليه ، فلا تضارب بين الحديثين ، فهو يقول للمقصّرين في ذكر الله : « ان عمل الجنة حزن بربوة » ويقول لمن ذاقوا حلاوته ، ووجدوا يسره وبركته : « ان الجنة أقرب الى أحدكم من شراك نعله » .

معنى الذكر على كل حال

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة الذاكرين، فاتخذه قدوتك،

---

(١) الحزن : بفتح فسكون ، الطريق ذو الحجارة والعقبات التي يصعب معها المسير .

Marfat.com

ترَ المثال العالي في تحقيق الذكر على كل حال . فقد كان عليه الصلاة والسلام يذكر الله اذا تناول الطعام ، ويذكره اذا قام عنه ، فإذا شرب أو انتهى من الشراب كان على ذكر ... فإذا خلع ثوبه أو لبسه ، واذا خرج من بيته أو دخله ، فله في الذكر صيغ مأثورة ، واذا أوى للنوم أو نهض منه كان أول ما يسبق الى لسانه ذكر الله . بل انه اذا تقلب من الليل ، لا يخطر بباله الا اسمه سبحانه ... واذا خرج الى سفر أو عاد منه ، واذا ركب دابة ، أو دخل قرية فكل هذا بذكر ، واذا لبس جديداً ، أو دخل سوقاً ، فالله حاضر في كل ذلك . واذا فزع من النوم أو أرق . واذا أراد جلب رزق ، أو حفظ نعمة أعجبته . واذا أراد دفع هم وضيق أو قضاء دين ... واذا زار المقابر ، واذا أمسكت السماء وأراد الاستسقاء ، واذا هاجت الريح أو أرعدت السماء ، أو نزل الغيث ، أو فاض المطر وزاد عن الحاجة . أو رأى هلالا جديداً ، لم يكن له صلى الله عليه وسلم من شأن في هذا كله ، الا تنبه قلبه لله سبحانه ، فيجري لسانه بما يشاء من صيغ الذكر .

طبيعة الذكر في نفس الرسول

ولا نستطيع أن نورد هنا أحواله كلها صلى الله عليه وسلم . فهي فوق الحصر ، وقد جمعت كتب السنة كل ما رواه الرواة منها . وأوردت ما كان له صلى الله عليه وسلم من صيغ الذكر في كل ... مما يريك حياته كلها مصورة في عمل وذكر .

كان عليه السلام شديد الإحساس بمعنى العبودية ... لا يغيب عنه أنه عبد الله ، يعمل في ملك سيده . فوق أرضه . وتحت سمائه . باسمه سبحانه لا باسم شيء آخر ... لا يعزب ذلك عن عقله وقلبه لحظة ، فهو عبد رباني يرى شرفه في العبودية . وحياته في ذكر مولاه ، ليس له في الملك مثقال ذرة ، قائم بحق ذلك كله حق القيام ، يرى

Marfat.com

الانحراف عنه ، أو التقصير فيه ، هو الهلاك المفزع ، فيبكي ويقول : « بعثني على مثل حد السيف ، ان زغت عنه هلكت » ويدعو : « اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك » .

الاقتداء بنهج الرسول

وليس في طوق أحد أن يسمو في الذكر الى أفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن في طوقه أن يجعل هذا الرسول العظيم قدوته ، فيقتفي أثره ، وينسج على منواله ، ولم يتكلف في هذا مجهوداً بدنياً يذكر ، أو مشقة نفسية تثقل عليه ، فما هو الا أن يكون راغباً في معية الله وأن يتمثل عبوديته له . ويستحضر له قلبه ، حتى يبدو له الكون ، حياً قوياً . منفعلا بسعالم الجلال والجمال فيه ، وحتى يرى نفسه عبداً ربانياً ، ليس له من الأمر شيء ؛ فالشربة يشربها ، تحدثه أنها فضل الله عليه . واللقمة يلقمها . تخاطبه أنه يأكل مالا حول له فيه ولا قوة ، والعاصفة يراها ، فتقول له : يا هذا ، انما تدفعني يد الله ... وهكذا يتأثر وجدانه بكل شيء ، ويؤثر كل شيء في وجدانه ، فيكون له في كل حال حديث خاص ، ومعنى رباني معين ... أو قل : يكون له في كل حال ، صيغة من الذكر خاصة ، يصوغها له دوام حضور الله في سريرته ... وخير صيغ الذكر ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قلبه خير القلوب الذاكرة ، وآيات الله وأنعمه ، تؤثر فيه أبين الآثار وتنطق فيه بأصدق صيغ الحمد والثناء عليه سبحانه ؛ وصدق هذه الصيغ . تلمحه في مطابقتها لمقتضى الحال تمام المطابقة ، فإذا لبس المرء جديداً ، وللجديد لذته أو فتنته وغروره ، فموقف العبد الرباني الكامل في هذا المقام ، أن يقول : « الحمد لله الذي كساني هذا بلا حول مني ولا قوة » ... واذا ودعت مسافراً . والمسافر قد أعد لنفسه عدتين : الزاد من الطعام أو النقود ، وعدة الرجاء الذي يرجو به نجح

Marfat.com

مسعاه ، فموقف المودع هنا ، أن يفيض قلبه الذاكر بما يقتضيه المقام : « زودك الله التقوى ، ووجّهك الى الخير أينما كنت » ... واذا لقيت قوماً تكرههم في الله ، أو دخلت على سلطان مخوف . فهل لك عدة غير الله أيها الذاكر ؟ اذاً فقل : « اللهم انا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم » ... واذا دخلت سوقا ــ والسوق هو الدنيا مصغرة مجموعة في مكان ... هو الدنيا بلهوها وغفلتها . وهو الدنيا بزينتها ومالها ، وهو الدنيا بأطماعها وتنافسها ومكائدها . وهو الدنيا بأرباحها وخسائرها ، ... وما ينسى الانسان نفسه وربه كما ينسى في هذا المكان ، فالذاكر المعتصم بالله ، يدخل السوق على ذكر يدفع عنه الغفلة، ويصونه أن يصبو الى المتاع الزائل فيستفتح رؤيته بقوله : « لا اله الا الله ، وحده لا شريك له . له الملك ، وله الحمد . يحيي ويميت . وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير » .

نحو الربانية

ولسنا بصدد استقصاء صيغ الذكر المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم ، فليطلبها في كتب السنة من أراد الخير لنفسه . فمن عز عليه أن يحفظ ، أو شق عليه أن يجد الكتب . فليستقبل أموره وأحواله كلها بهذا القلب الرقيق ، فإنه يرى نفسه وكأنه يقرأ في وجه كل أمر ، كلاماً ربانياً ، هو صيغة ذكره المناسبة للمقام ... وبهذا تطرد الحياة في القلب ، والحركة في الصدر . واليقظة في الملكات . فيكون الانسان حياً في الظاهر ، وحيا في الباطن ... تتصل الحياة الخارجية بحياته الروحية ، وتتصل حياته الروحية بالحياة الخارجية . ولكل منهما أثر في الأخرى ، وصدى يتردد في آفاقها ، فتلبس دنيا الشخص حلة من السماحة والبشاشة والسهولة ، وتمحى الكزازة وتعقيدات النفوس الشحيحة ، أو على حد تعبير أحد الاخوان : « يتطهر محيطه من جراثيم

Marfat.com

الفساد الاجتماعي . فكأن الربانية هي الطهور القاتل لهذه الجراثيم ، وكأن قلبه مضخة الهية تبث هذا « المطهر » في المجتمع فتطهره وتنقيه » وليس هناك معنى للربانية الاجتماعية غير هذا .

هذا واجبك أيها الداعية

والآن فإذا عجز الناس أن يحققوا لأنفسهم هذا المنهاج الفاضل ، فأنت أيها الداعية لابد أن تفعله ، وأنت المقصود قبل غيرك بهذه الكلمات ... لا نطلب اليك أن تكون مفطوراً على العصمة ، والعزوف عن المتاع الأدنى ، وانما أن تكون لك مجاهدة قوية ، دائمة غير منقطعة، تصل بها نفسك على قدر استطاعتك بروح المبادىء التي تدعو اليها ، حتى تكون ممتازاً ممن تدعوهم ، فليس سائغاً في العقول أن يكون الداعية كالمدعوين في احتياجه الى البر الذي يدعو اليه ، أو أشد منهم حاجة . ودعني أذكر لك بصراحة ، أن هذه الروحانية هي وحدها مصدر الهامك وفقهك لدعوتك ، هي ... الجهاز النابض الفعال في حياة الداعية الى الله . هي (الدينامو) المولد لقواه العاطفية ، والهامات مداركه الباطنية ، وما ملكاته البيانية ، والفكرية ، واتجاهاته العملية ، الا آلات تتحرك ، لتعبر عن هذه القوى السيالة ، تعبيراً بيانياً ، أو عملياً ، فإذا خلا الداعية من هذه الروحانية ، فقد خلت حياته من (الدينامو) وظل باطنه فارغاً خرباً ، ليس فيه ما يحرك أو يلهم ، فإن هو سلك نفسه مع هذا الحرمان في سلك الدعاة ، فهو شخص دخيل ، أناني ، لا يريد في الحقيقة أن يدعو الى الله ، وانما يريد أن يدعو الى نفسه ، فاحذر يا أخي أن تكون في هذه المنزلة ... ان الطريق الى هذه الروحانية أو هذا (الدينامو) سهل اذا جمعت همتك على المضي فيه ، هو تقوى الله تبارك وتعالى على النحو الذي بيناه سابقاً ، أو على نحو أفضل منه اذا استطعت ، والله لن يحرمك ثمرة خطوة واحدة تسيرها

في هـذا الطريق المبارك المأنوس ، فهـو الذي يقول . وهو أصدق القائلين : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » فهذا الفرقان هو الروح الملهمة التي شبهناها (بالدينامو) في عالم الآلات والحركات .

بعض معالم الطريق

ولا بأس هنا أن نضيف الى ما تقدم معالم توضح للانسان طريق هذه الحياة وتؤنسه فيها ، وتعينه على متاعبها .

أولا : أن يكثر مطالعة كلام الله عز وجل ، فهو جلاء البصائر الكليلة وشفاء الصدور العليلة ... فإذا لزم قراءته في تسهل ، وتروٍّ ، انفتحت أغلاق قلبه ، وسطعت أنوار القرآن وبشاشته في آفاق نفسه ، والى هذا يدعونا الله تبارك وتعالى : « أفلا يتدبرون القرآن . أم على قلوب أقفالها ! » ... وكان عليه السلام يديم قراءته ويسأل الله : « اللهم اني أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي » وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بأيدي أصحابه الى هذا المنهل العذب ، ويفتح أعينهم على أنواره وأسراره ، فقد روى أبو سعيد الخدري عنه عليه السلام: « أعطوا أعينكم حظها من العبادة » فقالوا : يا رسول اللـه ، وما حظهـا من العبادة ؟ قال : « النظر في المصحف ، والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه » ويقول عليه السلام : « ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحـديد » قيل : وما جلاؤها ؟ قال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقد قيل في تفسير قوله تعالى : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين

Marfat.com

عرضاً . الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ، وكانوا لا يستطيعون سمعا » أنهم هم الذين يعرضون عن القرآن والتأمل في معانيه ، والتدبر في آياته ... وليس هـذا بعزيز عليك يا أخي ، اذا أردت أن تأخذ بالأسباب وتدخل البيوت من أبوابها . وتدفع الثمن الذي يسلكك في أرباب القلوب من الدعاة . أما الاغتصاب بدون مقابل . فهيهات أن يغتصب أحد من الله موهبة من المواهب ... الاغتصاب شأن قطاع الطرق لا شأن الدعاة الى الله .

ثانياً : أن تكثر مصاحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته المطهرة مصاحبة وجدانية عميقة ، تجعلك في مجلسه عليـه السلام اذا جلس . وفي ركابه اذا ركب ، وفي معيته اذا سار ، وتسعك قوارع وعظه . وتسرب الى قلبك رقة مناجاته اذا ناجى ربه في جوف الليل . أو في خلوات النهار ... وتصل عواطفك بعواطفه صلوات الله عليه . حتى تكاد تشعر بخلجـات قلبه العظيم اذا غضب . وبشاشته وسماحته اذا تسهل لشيء وتهلل . ... وتسلكك في صفوف المؤمنين به . فأنت معهم حين يسامون العذاب . تألم كما يألمون ، وتهاجر كما يهاجرون . تهاجر معهم بوجدانك وخيالك وعواطفك ، الى الحبشة أو غيرها من بلاد الله .

فإذا شرع له الجهاد في المدينة ، فأنت تحت لوائه المظفر ، تشهده ممتطياً صهوة جواده ، وقد لبس لأمة الحرب ، وتقلد السيف ، وأخذ برمحه . فهو فارس الميدان ، وقائد الفرسان ، تزهر عيناه الشريفتان من تحت مغفره صلى الله عليه وسلم . فما يصعد شرفاً ولا يهبط وادياً ، ولا ينال من عـدو نيلا الا وأنت معه عليه السلام ، تكاد تضرب اذا ضرب . وتقدم اذا أمر ، وتفديه بما تملك ، وتحوطه بكل مافي سويداء قلبك من حب وعاطفة ...

Marfat.com

صاحبه عليه السلام هذه المصاحبة الكريمة . فإنها تدخلك في محيطه النبوي الكريم ، فيلين قلبك بتيارات روحه صلى الله عليه وسلم، ويصفو طبعك ، وتتهذب غرائزك ، ويستبين لك النهج الصالح . والغاية العليا من الحياة ، وكل هذا من الروحانية الاجتماعية التي ندعوك الى رعاية حقوقها .

ثالثاً : صحبة الأخيار والصالحين وأهل المعرفة بالله . اذا وجدت الى صحبتهم سبيلا . ومن علامتهم الاشتغال بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس . والتزام أمر الشرع ونهيه في صدق وطاعة . والقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوة وايمان . وما تحدثك به نضارة وجه أحدهم عن سعادة قلبه برزق السماء لا برزق الأرض . وفضل الله لا فضل العبيد . فلا يمد يده ولا عينه « الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » .

صحبة هؤلاء تلين القلوب . وتطهر من الذنوب . وهي بيئة طيبة يحيى فيها القلب حياة طيبة .

رابعاً : غض البصر . والعزوف عن مجالس المنكر . فنحن في عصر تقذفنا موجته المادية بالإباحة التي تكاد تكون مطلقة من كل قيد . فالمرأة متبرجة بزينتها مستعلنة بها في غير حياء ! وأهل المنكر يستعلنون برذائلهم تحت سمع الناس وأبصارهم . والعرف غدا لا يثور لها . بل قد يتلقى ذلك أحياناً بالقبول والاستزادة . ... والنظرة يا أخي بريد الشيطان الى القلب . وركون النفس الى مجالس المنكر يطفيء نورتها عليه . ويسلبها الشعور بكراهته ...

فغض البصر . ومقاطعة هذه المجالس يقيمان حولك سوراً منيعاً يحفظ قلبك من شرور هذه الإباحة وسمومها . ويرد عنك ضربات موجاتها المتتالية .

Marfat.com

لقد سأل أحد الإخوان : ما العمل والموجة المادية يتوالى سيلها حتى غمر قلوبنا وأفسدها ؟ فأجابه صاحبه : أقم حولك في الحال سوراً يحفظك مما ترميك به هذه الموجة ، ثم اشرع في رفع مافي داخل هـذا السور من آثارها وبقاياها ، واقذف به الى خارجه ، حتى يجف محيطك، ويفيق قلبك مما يغمره • ويتنفس من الهواء النقي الطهور ••• هذا السور هو غض البصر والعزوف عن مجالس المنكر ، ••• ورفع البقايا التي بداخله ، هي تخليص النفس مما دخلها من غريب العادات وفاسد الأخلاق ••• وهذا أيها الأخ جهد لن تجد في تكلفه مشقة ، اذا أردت أن تدعو الى الله بقلب سليم •

خامساً : وعليه بدراسة أحوال الروح ، وعالم ما وراء المادة ، في القرآن والحديث ، وأقوال الصحابة والتابعين والصالحين ، ودراستها في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء الصادقين ، ففي كل ذلك أوصاف نظرية ، أو حقائق عملية ، تكشف للانسان كثيراً من هذه الأسرار الجليـــلة •

والإسراء وعجائبه ، والنار التي صارت برداً وسلاماً على ابراهيم ، وغير هذا مما يطالعك في القرآن والحديث أنواره وأسراره ، ان هو الا عرض عملي لعجائب هذه العوالم العليا ، فعليك بهذا اللباب من حقائق الوجود ، وحذار يا أخي أن تحاول تعليل شيء من ذلك تعليلا علمياً طبعياً،أو تفسيره بمقتضى المنطق العادي،فهو من أمر ربي وأمر ربي فوق قوانين الطبيعة،ومنطق الأمور العادية الحسية « وماأوتيتم من العلم الا قليلا »••• ولا بأس أخيراً من قراءة ما كتبه المحدثون ولكن حذار الفتنة بما كتبوا ، فعليك أن تعرض كل ما تقرأ لهم على الكتاب والسنة، فما وافقهما فهو الحق ، وما خالفهما فهو الباطل ، وما سكتا عنه فاجعله تحت التجربة والاختبار •••

Marfat.com

دراسة ما وراء الطبيعة في القرآن والسنة الصحيحة تعود الانسان الإيمان بالروح ، وغيب الله الرهيب الخطير ، مما لا سبيل الى فهمه الا بالقلب ، فتنفسح آفاق نفسه ، وتنشط الحياة الروحية في كيانه الباطني •

سادساً : ولقد قدمنا الفكر والذكر ، ونقول الآن الصلاة والصيام ، وأنواع العبادة والقربات ••• ، والصلاة أيها الأخ هي : وقوفك أشرف موقف في هذه الحياة بين يدي الله العلي الكبير ، وان وقوفك هذا الموقف خمس مرات في اليوم ، لكفيل أن يصلك بالله ، ويجعلك منه في شيء كثير ، وليس مما يصعب عليك أن تجعل الصلاة صلة بينك وبين الله ، فإذا اتصلت به وأحسسته ينظر اليك ، ويطلع عليك ، ويملأ محرابك من حولك ، فوقفت خاشعاً مطرقاً وقوف العبد أمام سيده ، وأخذ قلبك يخفق بهيبة الموقف ، ورقة الخشوع ••• اذا اتصلت بالله عز وجل خمس مرات في اليوم هذا الاتصال أو بعضه ، كنت ذا قلب حي ، تفيض منه الربانية ، وكنت أهلا لأن تدعو اليه ، وتتحدث عنه ، حديث العارف ، الذي يجد في قلبه مادة الحديث ••• أما اذا لم تتصل ، فلم تك من المصلين ، أو صليت وكنت من الساهين ، فابحث عمن يدعوك الى الله ، قبل أن تسير في زمرة الداعين اليه •

ولا بد لك أيها الداعية من نوافل في شتى العبادات تتقرب بها اليه سبحانه ، فالله تبارك وتعالى يقول في الحديث القدسي المشهور : « ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به •• » الخ •• وأن تجعل أكثر ما تتقرب به من الصلاة والدعاء والفكر في جوف الليل ••• لابد من هذا ، فأنت داعية، والدعاة طراز فوق مستوى العامة ، والنوافل في حقهم ترتفع الى مرتبة الواجبات ، وقد عقد كثير من العلماء فصولا رائعة قوية ، بينوا فيها

Marfat.com

أن النوافل في حقه صلى الله عليه وسلم فرائض « ومن الليل فتجهد به نافلة لك » • ولهذا كان عليه السلام يقوم الليل ـ كما تقول عائشة ـ حتى تتفطر قدماه •

فهـذا الزاد من تقوى الله ، وقيام الليل ، عدة الداعية على أمر دعوته الثقيل ، فهل ترى يسير المرء بغير زاد أو عدة ؟

قد يقول بعضهم : وماله وكل هذا ؟ ونقول : ومالنا ومالك ، انك تريد أن تكون داعية ، فوصفنا لك بعض الاعباء ، فإن رأيتهـا فوق طاقتك فأت منها ما استطعت ، والا فإن الله قد عـذر أمثالك ، فالزم صفوف الضعفاء ، واتق الله في هذا الصف الخطير •

وبعد : فاعلم يا أخي: أن الليل مركب الصالحين الى الله، ونواشيء الاسحار أجنحة أهل الأشواق والوجد الإلهي ؛ (وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) (وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل) « ومن الليل فاسجـد له وسبحه ليلا طويلا » « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » •

الروحانية الاجتماعية والاعتزالية

ونريد أن ننبه هنا الى أمر دقيق هام ، سبقت الإشارة اليه هو أن هذه الروحانية الاجتماعية ، يجب أن تكون لصاحبهـا ولغيره ، أما الروحانية الاعتزالية التي تقبض صاحبهـا عن الناس ، فلا يتصل بهم ولا يتصلون به ، ولا يعلمهم ولا يتعلم منهم ، فهي روحانية الضعفاء والأنانيين ، روحانية الضعفاء الذين لم يستطيعوا التماسك أمام الشر والفساد ، ففروا الى العزلة ، واعتصموا بها ، وروحانية الأنانيين الذين يبغون السعادة لأنفسهم فقط ، وهي على ما فيها من جمال الوسيلة ، وسمو المقصد ، نوع من المرض •

Marfat.com

قد تضع الشاب الجلد القوي، في قصر جميل ، مؤثث بأثاث أنيق، تفد عليه الأرزاق كل يوم بأطيب الطعام ••• وتبيح له أن يقيم في هذا الترف ، ويستمتع بهذا النعيم ، ولكنك لا تبيح له أن يخرج من القصر للرياضة والمشي وتنشيط الجسم •

سيقيم الشاب في نعيم القصر ويأكل منه ، وسينمو جسمه بلا شك. ويسمن لحمه بلا مراء ، ولكن لا جدال في أنه لحم مترهل غير مكتنز ، وأنه عارض من عوارض المرض وليس سمة من سمات الصحة والقوة•••

فإذا أكل الشاب ثم خرج للرياضة والمشي ، والعمل ، وجعل حياته بين القصر والخارج والأكل والحركة استقام أمر الجسم واطرد نموه على قانون الصحة ••• فالأكل بلا حركة ، نذير المرض ، كالحركة بلا أكل سواء بسواء ، وكذلك الذي يعتزل الناس ويخلو للعبادة والتقوى ، زاعماً أنه يربي روحه بهذا الزاد المبارك ••• ستنفتح آفاق نفسه بلا شك ، وستنمو روحه وتتسع بلا مراء ، ولكن لا جدال في أنه نمو الترهل والمرض ، لا نمو الصحة والقوة ••• الروح تتغذى كما يتغذى الجسم وتترف كما يترف الجسم ، وتمرض كما يمرض ••• الجسم يتغذى بالأطعمة الأرضية ، والروح تتغذى بزاد السماء، والجسم يترف بطيب الطعام والركون الى لين المهاد ، والروح تترف بطيب زادها من العبادة وركونها الى مهاد العزلة المريء ، فإذا أفضى ترف الجسم الى مرض أفضى ترف الروح الى مرض يقابله •

قانون الحياة الطبيعية أنها تمنحك الطعام ، لتمنحها أنت العمل والحركة وتكون بين عناصرها عنصراً مثمراً نافعاً ، وفي هذا تقدمها وعمرانها ، كما أن فيه صحتك وسعادتك ••• فإذا منحتك الطعام ، ومنحتها الكسل والركود ، فقد خالفت القانون وعرضت نفسك لقواه النافذة الجارفة ، ومن عرض صفحته لسنن الله تهدم وانحطم •

Marfat.com

ومن قوانين الاستغراق في التجريدات الروحية ، أنه يمنح روحك الزاد ، لتمنحه أنت العمل والحركة ، وما العمل والحركة هنا الا أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو ازالة باطل ، أو ثورة على طاغوت جائر ، أو اقامة نظام عادل تستقر عليه الفضيلة وتتحقق به المساواة والمواساة ، فإذا منحك الزاد ومنحته العزلة والانقطاع ، أفسدت نفسك بالوقوف عن مسايرة سنن الله ، وعرضت نفسك لما ينجم عن هذا التخلف من سقم ومرض •

فالسلامة في مسايرة قوانـين الوجود ، والضعف والسقم ، بل الاضطراب والخلل في معارضتها والتخلف عنها •••

فعلى الداعية اذا أحس من نفسه هذا الانقباض الى العزلة . أن يقاومه وأن يتوجه بتيارات روحه الى الناس ، يعلمهم ويتعلم منهم وينير لهم الطريق ، ويفتح عقولهم وقلوبهم على حقائق الحياة ، يعرض عليهم نماذج من عباداته الصادقة ومواعظـه الحسنة ، ومعاملاته المستقيمة ، وتوجيهاته النافعة . وغير ذلك مما يتم به التأثر وتكمل القدوة •

انك داعية والداعية مسؤول عن رعيته ، فإذا غاب عنها فقد تخلى عن واجبه . وعرض أمته لعبث المبطلين ، وغواية الشياطين ، ولن يسوغ له هذه العاقبة بحال من الأحوال ، أنه حسن النية في الخلوة بربه ، وانا نقرأ في كتاب الله عز وجل ، أن عملا كهذا سبق من موسى عليه السلام ، فأوقفه الله به موقف الحساب والمؤاخذة ، لأن شعباً بأسره ضل بغيابه عنهم : « وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثري ، وعجلت اليك ربي لترضى ، قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ، فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً » •

وانا لنرى في سيرة سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم ، أنه لم يلجأ الى هذه العزلة مرة واحدة . مذ أمره الله سبحانه بالدعوة والتبليغ ،

Marfat.com

فقد ظل مع أصحابه وأتباعه لا يفارقهم ، فهو معهم في المسجد ، والسوق والحقل ، والبستان وسائر مجالسهم، وكان يصحبهم في حروبهم وموسم حجهم ، ويزورهم في بيوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ، ويجاملهم ويواسيهم ، ويشاطرهم ما ينزل بهم من خير وشر ، وهو في كل ذلك مصدر رشاد وهداية ، وزاد لقلوبهم وأرواحهم ونور يستون به الى الله عز وجل ... نعم انه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان. ولكن أين كان يعتكف ؟ انه كان يعتكف في مسجده الشريف في وسط المدينة ... والمسجد كما كان دار عبادتهم ، كان دار ندوتهم . ومجلس شوراهم ، وما كان ينقطع دخول الناس فيه ليلا ولا نهاراً . فهو اعتكاف أشبه بمخالطة ، ومخالطة أشبه بعزلة ، وهو على أي حال ، اعتكاف لا يعزله عن الناس ، ولا يعزل الناس عنه ، ولا يدع الرعية للسمري بدون راع ...

شكا أحد الاخوان فقال : كان لي من العبادة كذا وكذا قبل انتظامي في جماعة الاخوان المسلمين . وكان لي من سهر الليل كيت وكيت ، وكان لي من الخلوات والعزلة مالا أزال أذكر حلاوته وهناءته ... واني لأحن الى تلك الأيام . وأتمنى العودة اليها . ترى هل جنت علينا الدعوة ، فأضعفت عزائمنا عن العبادة وصرفتنا عنه ؟ فقال له صاحبه : لا يا أخي ، ان أيامك هذه خير من السابقة . فقد كنت معتقلا فيما مضى . فأصبحت الآن حراً طليقاً . كانت روحك محبوسة عن العمل ، فأصبحت الآن تعمل . والعمل قانون السلامة وشارة الصحة .. كانت روحك في معتقلها تأكل وتستمرىء البطالة والكسل . أما الآن فهي في ميدانها الطليق تأكل . وتسنح الحياة ثمن ما تأكله .. قد تقول : ان زادها في معتقلها كان كثيراً . واليوم أصبح قليلا .. ونقول : لا بأس ، فالزاد القليل اذا أثمر عملا مباركاً ، خير من الزاد الكثير اذا لم يثمر شيئاً مذكورا « والأكل بلا عمل نذير الهلاك. كالعمل

Marfat.com

بلا أكل سواء بسواء » فلا تتمن أيامك الأولى يا أخي ، واحمد الله على أن فتح لك ميدان هذه الدعوة الكريمة ، وكل ما أرجوه لك ، وأنصحك به . أن تضاعف العمل لتشتد حاجة روحك الى القوت ، فيعظم اقبالك على العبادة ...

وبعد : فهـذا فهمنا للروحانية الاجتماعية ، وهذه حملتنا عـلى الروحانية الاعتزالية . فلا تغتر يا أخي بأهل العزلة ــ ان وجدوا في هذه الأيام ــ وبما يظهر لهم من الخوارق والكرامات ، فكفاهم اثماً أنهم يعطلون فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكفاهم اثماً أنهم يعطلون فريضة الجهاد . في وقت أصبح الجهاد فيه فرض عين على كل من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ... كان عبد الله بن المبارك يرابط في سبيل الله بثغر من ثغور المسلمين ، وكان صديقه الفضيل بن عياض منقطعاً لعبادة الله في المسجد الحرام بمكة ، فكتب اليه عبد الله يقول له :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد كتب ابن المبارك هذا الكلام لصديقه في وقت لم يكن فيه الجهاد فرض عين ، ومع هذا وصف عبادته بأنها لعب ، وهي عبادة تقع في أشرف بقعة على هذه الأرض ... ترى ماذا كان يقول ابن المبارك لصديقه . لو أن الجهاد يومئذ كان فرض عين ؟.. وماذا كان يقول عن العبادة لو أنها كانت في غير المسجد الحرام ؟

لا يصح للداعية أن يطاوع نفسه في العزلة مهما تزين له المقاصد والأسباب فصومعة الداعية ميدان دعوته ؛ ومحرابه الذي يستنزل فيه من الله الهدى والمعونة هو العمل لخير الناس . وان الله يتجلى على العاملين في ميادينهم بأفضل مما يتجلى على العابدين في محاريبهم . وما أبعد الفرق — يا أخي — بين من ينهض الى الله يوم القيامة ومعه أمة . ومن ينهض اليه وليس معه أحد .

أثر هذه الروحانية في الدعوة والداعية

ونريد أخيراً أن نجمل نفع هذه الروحانية للداعية فيما يأتي :

أولا : ان الداعية — كما ذكرنا — طبيب يعالج الانسانية من علتها الكبرى التي تتسلل منها سائر الامراض .. ومعلوم أن دواء هذه العلة ليس مما ينبت في حقل أو يخرج من منجم. أو يركب في صيدلية. انما هو روح الهي في ضمير العبد المؤمن . يشيع الربانية . فإذا هي للناس شفاء ورحمة . ونور وقوة. ورضى وبهجة . واستقامة وعمل... فهذا القلب الحي الكبير . هو « الصيدلية الإلهية » وكل كلمة تصدر عنه هي : « علبة دواء » أو « حُق » فيه شفاء .. فما لم تكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه الروحاني . منبعثة من حياته التي يحياها وراء المادة . — كانت أقوالا غير مغموسة بالنور . لا تمس القلوب بشيء من أسرار الشفاء ... نعم قد ينمق المتكلم كلامه . ويوشي عبارته ، فيثير العواطف . ويحظى بالاستحسان . ولكنه استحسان الزيف والتهريج .أترى المريض يشفيه أن تقدم له علبة فارغة » « وحُقاً ليس فيه شيء » وحسبه أنها علبة موشاة بالذهب و « حُق مطعم بالعاج والصدف » مثلا ؟

فهذه الربانية هي الدواء . فإذا خلت أقوال الداعية وأعماله منها فلا بركة فيها .

Marfat.com

ثانياً : ان الداعية لا يبلغ هذه الروحانية الا بعد تجارب ، جرب بها مرارة الحرمان ••• ومشقة المجاهدة ••• والصبر على تنفيذ أمر الله ونهيه ••• وطبق مفردات المنهاج الإلهي على نفسه في حياته الخاصة تطبيقا عملياً لا هوادة فيه . وجرى ذلك كله في عصبه ، وانصهرت به نفسه . فإذا دعا الى فضيلة بعد هذا ، أو نهى عن رذيلة ، أو وصف لذة من لذائذ النفس العليا ، تكلم عن معرفة ويقين ، وتجربة ومشاهدة ، فلا يتكلم الا بالحق المجرب ؛ هذا الى أنه يجد مادة الكلام حاضرة في قلبه وعصبه دون رجوع الى كتاب ، فهو نفسه كتاب هـذا الحق ، وصحيفة تجاربه العملية ، وفوق هذا فإن النفس التي صهرتها التجربة ومرارة التنفيذ ، تطل رائعة من خلال عينيه ، وعضلات وجهه ، وخطوط أساريره ، واشارات يده ، ونور طلعته ، فتتحدث الى الناس بأفصح مما تتحدث به عبارته • بل ان نبرة الصوت ، ولهجة الحديث ــ تبلغ من القلوب مالا يبلغه الحديث نفسه ؛ بربك هل نظرت الى وجه « حسن البنا » وهو يتحدث أو يخطب ؟ هل نظرت الى عينيه ، وعضلات وجهه ، وحنان صوته ، وخشوع لهجته ، واشارة يده ؟ ان هذا المرشد الكريم ــ رحمه الله ــ يتكلم فما يأتي بجديد لأنه يتكلم بكلام الله القديم ، ولكن الوجه جديد ، والصوت جديد ، واللهجة جديدة، والعين جديدة، وكل هذه ألسنة صدق تتكلم معــه ، فتجعل الكلام القديم جديدا ، لأنها تتكلم بقوة التجارب ، وخبرة التنفيذ ، وشدة المجاهدة والحرمان ، وكل هذه أسرار شهدتها جدران بيت هذا الرجل العظيم وهو يجري تجاربها في حياته الخاصة ، ويطبقها على نفسه وذويه ــ ومالي أستشهد لك بالمرشد فالحسّاد كثير ، والمتنطعون أكثر ، وما بنا من حاجة أن نقدم لهؤلاء أو هؤلاء سبباً للتقوّل علينا بأننا نعبد الأشخاص ، أو نبالغ في الثناء على الرجال فدعني أستشهد لك على غرضي بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان يتحدث الى من لايعرفونه ، فيقولون:

« والله ما هذا بوجه كذاب ، ولا صوت كذاب » ومعنى هذا : أنهم تأثروا بالصوت والوجه ، أكثر مما تأثروا باللفظ والعبارة . وليس لهذا من تفسير الا ما ذكرناه سابقاً .

فهل لك يا أخي في هذه الفرقة من الخطباء تخطب معك ؟ وهل لك في هذه الطائفة من الألسنة الصادقة تتحدث بحديثك . وتؤيدك . وتصدقك ؟ . لاينطق هذه الألسنة . ولا ينهض هؤلاء الخطباء الا قوة النفس التي صبرت ، وجاهدت وذاقت . وجربت الحلو والمر ...

قالوا : تكليف ثقيل ! وخطة شاقة ! وثمن مرهق باهظ ! فقال لهم صاحبهم : لابد من ذلك فالرسالة أثقل . والمهمة أخطر . والبضاعة أربح . والمنزلة سامية ورضوان الله سبحانه أسمى وأكبر ... ألم أقل لكم : انكم دعاة ، ومهمة الدعاة هي مهمة الأنبياء ؟ فكيف تبغون هذه المنازل ، دون أن تتسنموا اليها مشقة الصعود ؟

ثالثاً : انه قائد والقائد اذا لم يقد بقوة روحه وهيمنة نفسه ، فهو قائد ضعيف التأثير . ولن يغنيه في جمع القلوب من حوله قانون مفروض أو أمر من أوامر ذوي السلطان وانما يجمعها لك ، ويهوي بها اليك كيانك المعنوي وانسانك الباطني . الذي يترعرع في رياض هذه الروحانية .

رابعاً : أنها تمده بزاد من العلم الفطري . ونور من المعرفة يتبين به حقائق الحياة ، ويصحح له خطأه في فهمها والنظر اليها ، ويهتدي على ضوئه الى الصواب في معضلات الأمور. « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

نعم فإن جوانب النفس فسيحة . وآفاقها متعددة . ولكن أكثر الناس يعيشون في جانب واحد منها . جانب ضيق . يحصر صاحبه في

Marfat.com

أوهام المادة ، وظاهر الحياة الدنيا ، فيقع في تخييلات الباطل ، ويغتر بزينة الفقاقيع ، ويغدو فهمه للحياة ، وادراكه للحقائق والمعارف ، متأثراً بهذه الأوهام فيكثر الخطأ في أحكامه ، ويقع الزلل في مقاييسه وموازينه ... فإذا أشرقت الربانية ، وطلعت شمسها الوهاجة في قلب أحدهم ، استنارت نفسه وامتد النور الواضح الى سائر جوانبها ، فإذا الأفق آفاق ، واذا الجانب الضيق آماد شاسعات ، واذا معارف جديدة ، ومشاعر جديدة ، وحقائق جديدة ، تظهر لنا فيما كان مخبوءاً عنا ، واذا بنا نرى الأشياء بفهم جديد ، ونقيسها بمقياس جديد .

قال بعض الاخوان : ان فلاناً تلميذك القديم يقول : ان ماركوني خير من الغزالي : ماركوني كشف للانسانية واخترع ، أما الغزالي فماذا أفاد منه الناس ؟ فقال صاحبه : ان هذا التلميذ القديم ، محجوب عن حقيقة نفسه ، فهو لا يدرك مما حواليه الا المادة ، ولا يرى الناس خلقوا الا للهو واللعب ، والعيش في لذة هذا الحطام وكفى . ولو أنه أحس لنفسه بكرامة لتمرّد على هذا المعنى وراح يلتمس وضعاً آخر في حياة أخرى ، تلائم ما يشعر به من سمو الهمة ، وترضى ما ينطوي عليه من معان انسانية ، ولكان هذا الاحساس الكريم مصدر نوره والهامه ، الذي يكشف له حقيقة نفسه ، ويريه مقعده في دار الكرامة ، بين أحياء الدنيا والآخرة ... هذا التلميذ القديم ، وقع فيما خدع به أكثر الناس، من زخارف الحضارة المادية وزينتها ، فهم يفرحون بكل ما يسدهم بأسباب اللهو واللعب ، ووسائل الترف والنعيم ، وألوان الطعام والشراب ويشبع جوارحهم وحواسهم بأكثر ما يمكن من هذه الشهوات الحسية .. وتقدم الانسانية ليس من هذا في شيء ، كما هو مقرر في فطر الناس جميعا ... تقدم الانسانية ، في سمو عواطفها ، وتهذيب غرائزها ، وكمال حقائقها المعنوية واشتغال ملكاتها القلبية بالله وما عنده من نعيم مقيم ... ان الرجل ليغضب ويثور ، اذا قال له آخر :

Marfat.com

يا حيوان ، فلماذا يغضب اذا قيل له هذا ، ولا يغضب على نفسه أنه يعيش عيشة الحيوان ؟

لا يظن الانسان أنه امتاز من الحيوان . لأنه أكل الشعير مخبوزا . وظل الآخر يأكله غير مخبوز ••• ولأنه أكل الفول مطبوخا ، وبقي صاحبه يأكله غير مطبوخ ، ولأنه استتر بالثياب . ونام على الفراش . وبقي زميله القديم على ما خلقه الله !! ••• لماذا يغالط الانسان نفسه — اذاً — كل هذه المغالطة ؟ • ولماذا يعتبر الترقي في خدمة البدن ترقيا ؟ ••• لماذا يعتبر نفسه أنه تقدم لأنه أكل « الجاتو » بعد أن كان يأكل الرغيف فقط ؟ وأكل اللحم أصنافاً مختلفة ما سمعنا بها . بعد أن كان يأكله مسلوقاً أو مشوياً فحسب ؟ وأكل بالشوكة بعـد أن كان يأكل بأصابعه ؟ وركب السيارة بعد أن كان يركب الناقة ؟ . وأرسل الرسالة بالبرق بعد أن كان يرسلها مع رسول ؟ . وسمع من بعيـد بالراديو والتليفون ، بعد أن كان لا يسمع الا من قريب ؟ الخ الخ اذا كان يغضب أن يوصف بأنه حيوان، واذا كان لايمتاز منه اذا ترقى في ألوان الطعام، فلماذا يعتبر المبالغة في خدمة الجسم وترف جوارحه تقدماً ؟

هذه الغضبة المباركة . يجب أن تسمو بهمته أن تنحسر في مطالب الحيوان ، يجب أن تجعل له شأناً غير هذا الشأن . ومستوى فوق هذا المستوى ، ويجب أن تريه الفارق الهائل بين ناحيته الحيوانية وناحيته الانسانية ••• ، ويجب لهـذا أن يقيس رقيه عن الحيوان . بمقدار ما يسمو بعواطفه الى المعنويات . لا بمقدار ما يخترع بجوارحه البدنية من أسباب المتاع •••

فكل جهد يبذله أو يبذله غيره في محيط التقدم الظاهري . دون أن يكون له امتداد ونشاط في المحيط الآخر ، هو جهد يزيد للناس متاعهم الأدنى ، ويقف بهم في محيط حيوانيتهم العادية ، بل قد يرتد

بهم الى ماهو شر منها••• وكل جهد يبذله أو يبذله غيره لإحياء القلوب واسعاد الملكات بالنفحات السماوية ، هو جهد مبارك ، يخفف من انفعال الجوارح المسعورة ، ويعين الناس على الخروج من عيشة الحيوان وغفلته ، الى أفق السعادة الإلهية ، حيث تنمو انسانية الانسان ، ويصل الى ما قدر له من كمال ؟ ••• فهذا شفاء ورحمة ، وهدى للناس ، وكل من له سهم في هذه الغاية ، فهو صديق الانسانية حقاً ، فانظر يا أخي : أين مكان ماركوني من خدمة الانسانية ، وأين مكان الغزالي ؟

هذا عالم ، وهذا عالم ؛ فأي العالمين أجدى بعلمه وعمله على الانسانية ؟

ان الغزالي كان يمسي ويصبح وهو ينهل من وحي قلبه ؛ فهو في ذكر ، وفكر وصلاة اذا خلا، فإذا خرج للناس، جلس للوعظ والتدريس يحذر ويذكر ، ويخاطب القلوب ، ويلين النفوس ، ويبث المشاعر الطيبة في سامعيه ، ويسمو بذلك كله الى الله عز وجل ؛ فإذا انتهى من وعظه وتدريسه ، انصرف يكتب ويؤلف ، ويحلل أمراض النفوس ، ويذكر أحوال القلوب ، ويصف رحيق الدواء ، ويبين حقائق الايمان ، وينير للناس طريقهم الى الله سبحانه وتعالى ولا تزال كتاباته مصدر حياة وتهذيب للغرائز والطباع الى اليوم ، ••• أما ماركوني فماذا أغنى في هذا الأفق الانساني ؟ انه لم يزد على أن كشف قانوناً أو أكثر من قوانين الطبيعة ، قوانين كانت موجودة ، فكشفها وعثر بها وهذا كل فضله ••• ونحن نستخدم الآن مخترعات ما ركوني ، فماذا هذبت لنا من غرائز ، وكم شبراً قربتنا الى الله ؟؟؟

قال الأخ : وكم شبراً قربتنا الى الله آثار الغزالي ؟ •••

فقال صاحبه : انها لم تقربنا شيئاً ؛ ولكن أتدري لماذا ؟ لأننا لم نستعملها •• لقد استعملنا آثار ماركوني ، ولم نستعمل آثار الغزالي ،

Marfat.com

فلك أن تتصور أي كرامة تفاض على الانسانية ، وأي فضل تسمو اليه العواطف والأرواح ، لو أننا أقبلنا على آثاره اقبالنا على آثار ماركوني .

قال الأخ : أتنهى أن يكون من الناس مخترعون ؟

فقال صاحبه : لم أقل هـذا ولكن أريد أن تقاس أقدار الناس بمقياس الإيمان بالله ، وأن توزن أعمالهم بما أجدوا على الانسانية في لباب معانيها ، لا في قشور ظاهرها فقط . وان ليلة من ليالي الغزالي ، لأرجح في ميزان الحق من عمر ماركوني كله . وان صفحة واحدة من كتاب الاحياء للغزالي – مثلا – لأرجح في هذا الميزان من كل ما اخترع ماركوني ، واني لأعني ما أقول ... فإنك اذا خيرت ضمير الانسانية الراقي : أن تمحى مخترعات ماركوني كلهـا ، أو تمحى المثـل العليا ، والمبادىء الفاضلة ، والروح الرباني الذي في صفحة واحدة من الإحياء – يمحى ذلك كله ، فلا يبقى له في الوجود أثر ... لو أنك خيرت ضمير الانسانية بين هذا وهذا لهلع لهول الخسارة ، ولثار يدفع عن نفسه غبن هذه الصفقة ...

فمتى نفقه هذا الفقه ؟ ...

كم من أفكار فاسدة ، وآراء خاطئة ، تصححها الربانية ، وتجلو لنا وجوه الحق فيها !!.

خامساً : يلين بها قلب الداعية ، فيصير يقظـاً مرهف الحس ، ينتفض بتيارات الروح القرآني ، فيستخرج من دقائق اشاراته ، وخفي عباراته ، مالا يلتفت اليه غيره ، وهذا ضروري جداً للداعية الذي يجعل القرآن الكريم أهم موارده وأمداده .

نعم : فالعقل العادي لا يستقل بفهم القرآن الكريم ، فالقرآن روح من الله ، لا معان وألفاظ فحسب ، فإن استطاعت العقول – وهي

لن تستطيع ـ أن تفهم الألفاظ ، وتستخرج منها كل المعاني ، فليس من طبيعتها أن تحس الروح الإلهي فيه ، فذلك شأن القلوب لا شأن العقول ••• وهذا الحس . هو الذي يكشف ما وراء العبارات ، ويفتق لك أكمام الألفاظ . عن أسرار واشارات . لا يدركها الا الموهوبون•••

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقدم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . ويعرف له فضله ومكانه من فقه الكتاب العزيز ، على حداثة سنه . وكان يدخله مع أشياخ بدر . وهم من هم في السابقة والفضل . فأحس عمر رضي الله عنه كأن بعضهم وجد في نفسه . فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ قال ابن عباس : فدعاني ذات يوم ، فأدخلني معهم. فما رأيت انه دعاني يومئذ الا ليريهم••• فقال:ماتقولون في قول الله تعالى « اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » فسكت بعضهم ولم يقل شيئاً . وقال بعضهم : أمرنا أن نحمده ونستغفره ، اذا نصرنا وفتح علينا ••• وأنت ترى يا أخي أنه تفسير مستقيم جداً مع ظاهر الآية . ولكن عمر الذي جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، كان يرى خلال السطور اشارة غير ظاهرة . فالتفت الى ابن عباس فقال له : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ قال : فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه الله اياه وأخبره به ، فقال : اذا جاء نصر الله والفتح ••• ، وذلك علامـة أجلك . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا . فقال عمر رضي الله عنه : ما أعلم منهـا الا ما تقول ! خبرني بربك أي عقل يلتفت الى هـذه الاشارة الدقيقة بين السطور ؟ انه سر القلب الحي الذي يحسن أن يفهم عن الله سبحانه وتعالى ••• ولعلك تسأل : من أين لنا أن هذا التأويل هو الصواب ؟ وبأي مرجح ترجحه على قول الصحابة ؟ ونجيب بأن المرجح هو عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ••• ففي صحيح مسلم : كان

رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، يكثر أن يقول قبـل أن يموت : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب اليك » فقالت عائشة : قلت : يا رسول الله . ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتهـا ؟ قال : « جعلت لي علامة في أمتي. اذا رأيتها قلتها » « اذا جاء نصر الله والفتح الى آخر السورة » ...

وقد يكون معنى بعض الآيات واضحاً . ولكن العقول لا تنتبه اليه فيقف الفقيه . ويظهره ويفيض عليه من حسن التوجيه والتأويل ما يجلو اشراقه وروعته . شكا بعضهم عاصم بن زياد الى علي كرم الله وجهه ، لأنه لبس الخشن من الثياب وترك الطيب منها . وغم أهله وأحزن ولده . فقال : ائتوني به . فلما رآه عبس في وجهه . وقال : ويلك يا عاصم . أترى الله أباح لك النعم . وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك . أما سمعته يقول : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ... حتى قال:« يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » ؟ والله ان اظهار نعمة الله أمام الناس بكثرة الاستعمال والفعال . أحب من اظهارها بكثرة الحديث والمقال . وقد سمعته يقول : وأما بنعمة ربك فحدث ... (١) وهـذا التنات جميـل ولكن . لا يلتفتـه الا الأيقاظ ، أرأيت كم مرة قرأنا : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فلم نقف على شيء فيها حتى وقف أبو الحسن رضوان الله عليه يؤول ويوجه . ويقول : أرأيت أن الله خلق هذه النعم وأباحها لك . وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ! ؟

ومثله وأجمل منه . لمحته الملهمة ، التي التفتت بذهنه هذا الالتفات الخاطف . من سورة الرحمن الى سورة الضحى . فربطت له في سرعة فائقة . بين قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وقوله : « وأما

---

(١) تصرفنا في عبارة علي كرم الله وجهه ، بعض التصرف .

Marfat.com

بنعمة ربك فحدث » ربطاً لا يرد على بال الفقيه العادي • ليستنبط هذا الحكم الموفق الطريف •• ان اظهار فضل الله عملياً باستعمال نعمه ، أحب اليه من اظهاره بالتحدث عنه فقط •••

لقد كان الناس يعجبون لهذا العلم الثمين ، فظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خص أهله بشيء من العلم ، فقال بعضهم : يا أبا الحسن « نشدتك الله : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من العلم دوننا ؟ » فقال رضي الله عنه : « لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، اللهم الا فقهاً في كتاب الله ، يؤتيه عبداً من عباده » •

وقد يكون المعنى واضحاً ، ولكن تقاصر الهمم والركون الى زينة الحياة الدنيا والإصغاء الى وسوسة الشيطان يجعل المرء ينظر الى الآية فلا يرى فيها الا ما يوافق هواه ، وهذا كثير جداً بين الناس ، نكتفي منه بالأمثلة الآتية :

أ ــ قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم،لايضركم من ضل اذا اهتديتم » فإن أكثر الناس لا يرى فيها الا أن يشتغل كل انسان بنفسه ، ولا شأن له بضلال غيره ، فان هذا الضلال لا يضر الا صاحبه•

وهذا التفسير من وسوسة الشيطان ، وتقاصر الهمم كما قلنا ، فإنه يناقض ما ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مناقضة صريحة ، والقرآن لا يناقض بعضه بعضا « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » •

وقولهم ان الضلال لا يضر الا صاحبه ، يناقض قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » •

ويمكن في هذا المقام ايراد الاحاديث التي تهدم هذا التفسير ، ولكنا نكتفي بإيراد هذه المناقضة وبتفسير الآية تفسيراً يستخرج المعنى

Marfat.com

من لفظها بدون تعسف ، فالآية من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه ، فالأمر هنا(١) هو عليكم أنفسكم — بالإصلاح — ... والجواب المترتب على هذا الامر هو : لا يضركم من ضل ، فنحن أمام مقدمة ونتيجة لا محالة ... والمقدمة أن نصلح أنفسنا بكل مافي وسعنا من أسباب الإصلاح . والنتيجة أن هذا الاصلاح حصن لنا من كيد الأعداء ، فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضرراً ما ... نأخذ هذا من قوله تعالى : « لا يضركم من ضل » ... فمن أين جاءهم هذا الذي يهرفون به ؟ اقرأ الآية يا أخي مرة أخرى . فإنك لا ترى لها الا معنى واضحا لا تحتمل غيره ... فالله تعالى يأمر المؤمنين أن يعنوا بأنفسهم وأن لا يهملوها ... وأن يقبلوا عليها بكل ما يصلح شأنها ويقوي أمرها ، وأن لا يفرطوا في شيء من هذا... فإذا استجابوا لأمره ، قصرت يد العدو عنهم . وعجز عن أن ينال منهم نيلا .

والآية الكريمة ، تخاطب جماعة المؤمنين ، أو تخاطب المؤمنين كجماعة وأمة : « عليكم أنفسكم » ... ولا تخاطبهم أفراداً متفرقين : عليك نفسك ... والفرق بين الخطابين كالفرق بين أن تقول : يجب على الأمة أن تفعل كذا ، وعلى الفرد كذا ... فهي اذاً تقتضيهم أن يقدموا لأمتهم أداة النجاة . ويقيموا لها حصن الأمان . وتترك لهم تقدير ما يلزم من وسائل الاصلاح والحماية على حسب ما يلائم روح العصر والبيئة ، وهي على كل حال لا تخرج في كل عصر عن الأسس الآتية : اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . والتزام سائر قواعد الاسلام الخمس . فقوة الروح ضرورية قبل كل قوة ، ويأتي بعدها العلم وقوة الذخيرة والسلاح . تنفيذا لأمره تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... ولا بد لإتمام العدة من تدريب كل قادر على الرماية وسائر فنون

(١) عليكم أنفسكم ، هو اسم فعل أمر ، ولكنا تجوزنا فقلنا إنه أمر .

Marfat.com

القتال ... فلو أن جماعة المؤمنين عنوا بأنفسهم هذه العناية وأقبلوا عليها بهذا الاصلاح ، فإن أعدى أعدائهم لا يستطيع أن يضرهم بشيء ... فأين هذا يا أخي من المعنى الذي يفرق الأمة أفرادا متخاذلين ، لا يهتم أحدهم الا بشأن نفسه ؟ . ألا قاتل الله الهمم القاصرة .

(ب) قابل أحد الاخوان صديقاً له ، يعمل معه في عمله الرسمي ، فقال له : اني أعتب عليك انك لا تعمل معنا في الدعوة الى الله وأنت رجل آتاك الله علماً ورزقا حسناً وشباباً وصحة . فقال الصديق : ان عملنا الرسمي ما هو في الحقيقة الا دعوة الى الله . فإذا أحسناه ، وأعاننا الله عليه . فهو حسبنا وفيه الكفاية . فقال الأخ: ان هذا العمل الرسمي نؤديه بقيود رسمية ، داخل الغرف والجدران والأسوار فلا يستفيد الناس شيئاً منه . ونحن نريد الصوت الحر ، الذي يقف بين الناس لا بين الجدران . ويعمل بتكليف من الله لوجه الله . فقال الصديق : « كفاية كده » . ان الله يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » فقال الأخ : هذه حجة عليك وليست لك . فليس معناها اتقوا الله على « أد الحال » وليس معناها « اتقوا الله كلشن كان » وانما معناها ، ابذلوا في تقوى الله كل مافي استطاعتكم من جهد ، ووقت ، وعلم ومال . ولا تدخروا من ذلك شيئاً ... فإذا بقي في الاستطاعة فضل لم يبذل ، فهو تقصير عن أمره سبحانه . وتفريط في تقواه ... ولماذا يا أخي تذكر : « فاتقوا الله ما استطعتم » وتنسى قوله : « اتقوا اللــه حق تقاته » ؟ فابتسم الصديق ومشى . وهذا التفسير الخاطىء ، يقع فيه كثير من الناس ، ومثله تماماً : نظرهم الى قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » فوسوسة الشيطان وتقاصر الهمم عن أمر الله جعلهـم يستشهـدون بهاتين الآيتين الكريمتين على أن الله « يدلل عباده » ويقبل منهم جهد الكسالى المتراخين .

Marfat.com

(حـ) وكثيرا ما نكون بصدد التحذير من فتنة المال والاولاد ، ليظل القلب سليماً لله تعالى ، فينبري لك أحدهم محتجا عليك بقوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، متوهماً أن في هــذه الآية الكريمة حجة تفحمك وتسكتك . مع أنها حجة عليه لا له . فلو أن عزيمته ناهضة بأمر الله حقا . لوضعت له الى جنب هذه الآية . قوله تعالى : « ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » وقوله تعالى : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » ••• ولكن انحــلال عروته الدينية ، وقف به على هذه الآية فقط . وجعله يرى في ظلها مهاداً لينا يركن اليه في دعة واستسلام ••• ومع هذا فالآية على حدتها لا تفيد الثناء على المال والبنين ، وليس فيها ما يحض على الحرص عليهما . بل فيها ما يشبه التزهيد . ان لم يكن هو التزهيد الصريح فهما زينة الحياة الدنيا . وليسا زينة الحياة العليا ، وما أبعد الفرق بين الزينتين •••

وان روحاً قوية مباركة . تطالعك من خــلال هذه الآية . تندد بأولئك الذين رضوا لأنفسهم وقلوبهم أن تكون مقفرة من زينتها الفاضلة خالية من بواعث الهمة الى الجمال الأعلى • واكتفوا بهذه الزينة السطحية الفارغة . التي لا تعرض أصحابها الا في سوق الأطفال ••• وهيهات أن يرغب في هذه الدمى الكبيرة أحمق المساومين ••• وبعد . فلو أننا قرأنا الآية كلها ، لوجدنا أن آخرها يحكم عــلى أولها ••• كان أحد الاخوان في موقف من هذه المواقف . فاعترض عليه معترض بهذه الآية. فأجابه الأخ على الفور : اقرأ يا أخي بعد هذا : والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا . وخير أملا . فانقطع من الإفحام وسكت •••

ومثل هذا ما يلقاك به بعضهم في احتجاج وانكار قائلا : «ولا تنس نصيبك من الدنيا » فلك أن تفحمه على الفور بما قال الله أول هذه الآية : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة »••• ولك أن تأخذ بيده

Marfat.com

الى الصواب ، فتقارن له بين أول الآية وآخرها وتريه الفرق بين قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله » وبين قوله : « ولا تنس نصيبك » ••• فنحن أمام أمر بالإقبال على شيء ، ونهي عن نسيان شيء آخر ••• فالآية الكريمة تفترض فيمن تخاطبهم حسن تقديرهم لمعالي الأمور ، وقوة اقبالهم على أمر الله ، في استغراق ينسيهم حظوظهم الأخرى ، فنبهت الى هذه الحظوظ ، تنبيهاً يسيراً يلائم قدرها اليسير ، فقالت : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » •••

وبعد فإن المجال يطول بنا لو ذهبنا الى استقصاء أوهام الضعفاء في تأويل كلام الله ، وهي أوهام لا عدة لتبديدها الا يقظة القلب ونور الربانية فيه ، وهي عدة لازمة للداعية كما رأيت •

سادساً : الداعية المجدد المنشىء ••• أو الموجه المكمل . لابد أن يستلهم هذه الروحانية الاجتماعية لأنها من أمر الله •

ونعني بالمجدد ، الذي يجدد ما تداعى من كيان أمته الاجتماعي ، والاقتصادي والدولي ••• وبالمنشىء الذي ينشىء دولة جديدة ، على غير مثال سبق ، على نحو ما فعل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ••• وبالموجه المكمل الذي يجد نفسه بصدد أمة تحتل بين الأمم مكاناً طيبا ، ولكن طموحه الى الكمال يبعث بهمته الى غاية أبعد وأسمى ؛ هؤلاء الدعاة ، لا بد لهم من روحانية اجتماعية يستلهمونها الحق الذي لا يضل ؛ وبدونها يكون الداعية رجلا مشغوفا بالمجد ، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث •

الانسان المؤمن خليفة الله في هذه الأرض ، وجنديه المختار لتطهيرها من الشر ، وهذه المهمة ، تقتضيه أن يواجه الشر ، ويعرف أوكاره ، ويستقصي مآسيه ، فما لم يكن ذا وجدان نقي ، وقلب يقظ ، فإنه لا يستطيع أن يشعر بحسن الحسن ، وقبح القبيح ، ولا يتنبه الى

مواطن الضعف ، وما يلزمها من ضرورات العلاج •• فالمسألة مسألة شعور ووجدان ، ومسألة تنبه وادراك عاطفي ، قبل أن تكون مسألة العقل المنظم الذي يرسم خطوات التنفيذ •• ومهما أوتي الشعور من صفاء طبعي ، فلا بد له من الاتصال بالله لا محالة ، ولا غنى له عن ذلك بحال من الأحوال ، والا كانت الجهالة والفتنة والفوضى •

على هذا الجندي أن يتصل دائماً بقائده الأعلى ــ ولله المثل الأعلى ــ عليه أن يبسط صفحة قلبه لله ، وأن يطيل بها التسمع الى ما في الكون العالي من اشارات وخطرات ، فإن صفحة قلبه تغدو رقيقة رفافة . تهتز وتختلج لما يهبط عليها من أمر الله سبحانه وتعالى ، وهنا يمشي الجندي في محيطه • وهو مزود « بآلة الإحساس » التي تنتفض كلما رأت أثراً من آثار الفساد والشقاء ، وتهش وترتاح كلما رأت مظهراً من مظاهر الخير والنظام •• ولن يكون لذلك أثر في نفسك الا الرغبة الشديدة في أن تعمل لعلاج الفساد ، وبناء المجتمع على أسس الخير . وتغدو وكأن هاتفاً في أعماق نفسك يهتف بك في كل موطن ، يجب أن تتجه اليه من مطالب وأعمال •

ولقد ذكرنا في المقدمة : أن الداعية سياسي ــ في بيئته ــ وقائد ــ في محيطه ــ وزعيم لفكرته ومن يتبعه ــ في ناحيته ــ ومعنى هذا ، أن أفق الداعية ، قد يتسع فيكون قائد الأمة كلها وزعيم فكرتها . وقد يضيق ، فيكون قائدا اقليمياً ، أو قرويا ، عاملا في محيطه الصغير . على ضوء فكرته ، والهام صلته بالزعيم الكبير •• نقول هذا حتى لا يظن أحد ، أن رسالة الاصلاح مقصورة على الزعماء الكبار ، ذوي الآفاق الواسعة •

وبعد • فإن خطورة هذه الناحية العملية ، تقنع الداعية بضرورة الإقبال على الله سبحانه ، وتنظيم حياته الروحية على قدر استطاعته •

Marfat.com

سابعا : ان هذه الروحانية ، تسمو بفضائله النفسية ، وقواه العاطفية ، الى ذروة رفيعة من الفضل ، فاذا به ينظر الى الناس ، كأنما ينظر اليهم من قمة جبل شامخ ، فيراهم وقد زالت جسامة أجسامهم كأنما صبوا في قوالب الأقزام القصار •• وامحى بهاء ما لبعضهم من مظهر ورواء ، فاستووا في تقديره على منظر هين متشابه يسلك الجميع في منزلة واحدة ••• ويترتب على هذا أمران :

الأول : أنهم جميعا أمامه هياكل ضعيفة ، لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئاً • فهو لذلك لا يرهب ، ولا يرغب ، ولا يخاف ، ولا يخشى مهما استعلن الأقوياء بما لهم من جاه وسلطان ، فهيهات أن يغتر بهذه الأوهام الضعيفة صاحب الأفق العالي ••• فهو شجاع غاية الشجاعة . قوي بالله غاية القوة ، غني بما يجد في قلبه من رزق الله . واثق بنفسه وربه كل الثقة••• وذلك منألزم الصفات للداعيةالاصيل•

الثاني : أنه يقبل على الناس وهو في ذروته العالية وأفقه العاطفي الفسيح . فيعطف على عيوبهم كما يعطف الرجل الكريم على عيوب الأطفال . ويعالجهم بروح الرفق والتسامح ، وبالحكمة والموعظة الحسنة . لا يضيق بهم ولا يحقد على جهلهم ، بل هو الصبر ، والملاينة، والتماس المعاذير ، ومسايرة الأمل في هداهم فإذا بقي منهم أحد على علته . رثى لحاله . وحزن وتألم ، كما يألم الرجل الرحيم ، لبقاء العلة في مريضه العزيز ، ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن على قومه ، ويحرص على هداهم ، حتى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات •

هذه الصفة الكريمة ، هي التي تجعل الداعية جديراً بشرف الدعوة الى الله ، فهو عالمي العاطفة رباني النفس ، تتسع نظرته لأتباعه ومخالفيه ، وتشمل الناس جميعاً بحبها ، غير أن حبه لأتباعه يتخذ سمة

Marfat.com

المودة والبشاشة ، وحبه لمخالفيه يتخذ سمة الرثاء والإشفاق ، والحرص على اسعادهم ، وعلاجهم بمختلف الوسائل .. بل ان عواطفه لتتسع الى ما وراء الانسانية ، حتى تشمل الحيوان والجماد . فيرحم هذا ويوصي به خيراً ؛ ويفي للجماد ، ويحن لما له من عهود وذكريات . على نحو ما ترى في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تلك يا أخي هي الروحانية الاجتماعية – لا الاعتزالية – فخذ نفسك بها ، وزن ما ترى من حالك بميزانها . حتى تعرف أين أنت منها ، وأين هي منك ، وأسأل الله لي ولك أن يرحم ضعفنا ويكمل نقصنا ، ويجعلنا أهلا للفضل والحكمة انه ولي التوفيق . وهو ذو الفضل العظيم .

★ ★ ★

Marfat.com

الفصل الثالث

الطبيعة التنفيذية

تمهيد :

الروحانية تصل المرء بالله ، وتلهمه روح رسالته ، وغايتها وبواعثها •

والطبيعة التنفيذية ، تصله بالحياة ، ليصوغ تعاليم الرسالة أعمالا نافعة ، وأوضاعا عمرانية صالحة •

وهذان هما طرفا الايمان ، ولا بد من اجتماعهما في قلب المرء المؤمن ••• فإذا ادعى لنفسه الروحانية ، ولم يكن له عمل ، فهو ايمان ناقص ، بل ايمان زائف مضطرب ••• واذا رأيت له عملا ، ولم يكن له حياة روحية سليمة تصله بالله ، فهو امرؤ يفقد سداد الغاية وهداية الضمير •

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشرح لنا هذا بقوله : « ليس الايمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب ، وصدقه العمل » •

بعض خصائص الايمان

والإيمان الكامل الصحيح ، الذي يستقر في القلب فيبعث صاحبه على العمل ، له سمات عديدة ، وخصائص كثيرة من أهمها :

Marfat.com

١ ـ فهم الرسالة .

٢ ـ حب تعاليمها ، وتعلق القلب بجمالها .

٣ ـ الغيرة على حرمتها .

١ ـ الفهم

ولسنا نعني بالفهم ، أن يحيط الداعية بعناصر الرسالة،وتوجيهاتها وآمرها ونهيها ، وحلالها وحرامها ، فذلك فهم المدارك العادية ، وشأن التلقين لا اليقين ... انما نعني بالفهم . الفهم العاطفي . والتصديق القلبي وهذا التصديق ، شعور يحل في كيان المرء . واحساس يستولي على وجدانه ، فيدرك به من حقائق الرسالة ، مالا يستطيع العقل العادي أن يدركه .. وأوضح مظاهر هذا الفهم أو هذا الشعور . أن يدرك أن الرسالة حق ، وأن ما عداها باطل ... ويميز الفرق بين الحق والباطل . كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام ، التي تتراءى لنا في أضغاث الأحلام . وبين ما نراه في عالم اليقظة والمشاهدة ، فإذا أدرك أحدنا الحق والباطل ، هذا الادراك ، وميز بينهما هذا التمييز ، فقد بلغ رشده القلبي وتم فهمه العاطفي . وصح أن يكون مع المؤمنين .. واذا لم يفهم هذا الفهم ، فليعلم أنه لم يبلغ رشده بعد ، وان بلغ من العمر ستين أو سبعين سنة ، ونال من الاجازات العلمية ما نال .

والعلامة الظاهرة التي تدل على أن المرء فهم هذا الفهم ، أن يرى متجافياً عن دار الغرور لأنها باطل ، منيباً الى دار الخلود لأنها حق . مستعداً للموت قبل لقاء الموت ... وعلامة عدم الفهم أن يعرض عن حقائق الآخرة ، ويغتر بأوهام الدنيا يظنها شيئاً ، فيكون مثله كمثل الأبله المعتوه ، الذي زعموا أنه رأى في المنام كأنه يصرف جنيهاً من رجل آخر ، فقال له الرجل : أعطيك فيه تسعة وتسعين قرشاً ، فقال :

Marfat.com

لا • بل لابد من مائة قرش ، وأصر كل منهما على قوله ، وهنا استيقظ صاحبنا من حلمه ، فلم يجد في كفه شيئاً ، فما كان منه ، الا أن أغمض عينه ، ومد يده لعالم الأحلام ، يقول للرجل الوهمي : لقد رضيت بما تريد ، فهات التسعة والتسعين •• ولو كشف عنا الغطاء ، وأصبحنا من أهل الإيمان والفهم ، والنظر الى حقائق الوجود لرأينا أكثر الناس في اقبالهم عـلى متاع الغرور ، كهـذا الأبله الذي يستمنح الأوهام قروشه المزعومة •

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا ، وارزقنا اجتنابه « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » •

٢ ـ حب التعاليم

الفهم على ما قررناه يجعلنا نقدر الحق قدره ، ونعرف قيمته ••• ولكن القوة الايجابية ، التي تشغف المرء بالرسالة غير واضحة فيه ؛ فأودع الله القلوب سر الحب وجعله من خصائص الايمان ••• وفي الرسالة جمال لايدرك الا بالحب•كما أن فيها نفاسة لاتدرك الا بالفهم•

ومقتضى هـذا الحب ، أن يكره الانسان الطاغوت ، ويبغض الباطل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينص على خصوصية الحب في الايمان بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه مع ما جئت به » • وينص على خصوصية بغض الطاغوت بقوله : « ثلاث من كن فيه وجد في قلبه حلاوة الإيمان : أ ••• ب ••• جـ • وأن يكره أن يعود الى الكفر ، كما يكره أن يلقى في النار » ويجمع الله عز وجل • المعنيين في قوله ممتناً على عباده: « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فيقلوبكم، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة » •

Marfat.com

ومن دلائل هذا الحب الظاهرة ، أن يرى صاحبه ناهضاً منبعثاً الى الدعوة لرسالته ، في همة وجد ، مطبقاً تعاليمها على نفسه وآل بيته في غير هوادة ولا رياء ، والا فكيف يكون محباً وهو لا يجد في نفسه الا الكسل في التنفيذ والكراهة للتكاليف ؟؟

٣ ـ الغيرة

والغـيرة من لوازم الحب . وكلما كان الشيء محبوباً . لاصقاً بخاصة نفس المرء ، عظمت حرمته لديه ، وقامت الغيرة تحرس حماه ، وتصون محارمه أن تستباح .

والغيرة على الحق من صفات الله عز وجل . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان اللـه يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه » .

ومن علامات غـيرة المؤمن . الغضب اذا انتهكت محارم الله . والثورة لإبطال ما يرى من منكر .. قالت عائشة رضي الله عنهـا : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، وقد سترت سهوة(١) لي بقرام(٢) فيه تماثيل . فلما رآه . رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هتكه(٣) وتلون وجهه ، وقال : « يا عائشة . أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، الذين يضاهون بخلق الله » ... ومن علامات الغيرة كذلك أن لا يطيق أن يرى رسالته معطلة . أو خاضعة لسلطان رسالة أخرى . ومن هنا نرى المؤمن الحق ، والداعية المفطور . يلح في أن يجمع لرسالته كل سلطان روحي ومادي يكفل لها الهيمنة على ما سواها .

---

(١) السهوة : ما يشبه النافذة ..

(٢) القرام : ستار

(٣) هتكه : مزقه .

معنى الطبيعة التنفيذية

ونحب أن نستخلص من هذا : أن الإيمان ليس معنى روحياً سلبياً يصل الانسان بالله فقط ، انما هو الى ذلك قوة ايجابية تبعث على التنفيذ ، وتنهض الى العمل ، أو هو سر الهي مشبوب في قلب الداعية وعصبه ، موكل بإنفاذ رسالته الى الحياة العملية ••• فلا يهدأ القلب ولا العصب حتى يكون كل شيء في الحياة يجري على مناهج الدعوة وتعاليمها •• والا فهو العمل الصادق ، والجهاد القوي حتى يقر الله عينه بما يحب ، أو يقضي له شيئاً آخر •

وأنت ترى في هذا السر الإلهي المشبوب خصوصيتين واضحتين :

الأولى : أنه جذوة متقدة يستمد منها الداعية القوة على العمل ، والغيرة على الدعوة •

الثانية : أنه قوة منهضة ، يشعر بها الداعي كأنه ضرورة ملحة تضطره الى التنفيذ ، أو أن حافزاً نفسانياً ينهض أعضاءه الى العمل فيشعر براحة عظيمة ، ولذة عميقة ، اذا هو استجاب له ؛ أو بضيق ثقيل خانق ، اذا هو لم يعمل ولم ينفذ ولم يطبق •• وهذا ما نسميه الطبيعة التنفيذية •

وبدون هذا السر ، يكون الداعية رجلا كسائر الذين تمتليء رؤوسهم بأوهام الاصلاح ، وكل ما ينفعون به الأمة ، مقالة يكتبونها أو محاضرة يلقونها ، وحسب الواحد منهم بعد هذا ، أن يقبل عليه القراء أو المستمعون « فيهنئونه » بما كتب أو بما خطب ، فيشيع السرور في نفسه ، ويعمد الى تصنع التواضع المغرور •• واني أعد هذه التهنئة كارثة تقتضي الحزن لا السرور ••• فلو أن داعية مطبوعاً كان كل حظه أن يثني الناس على ما كتب أو خطب ، لانفلقت كبده من الغيظ

Marfat.com

والحسرة . فإنه لا يريد شيئاً من هذا .. لا يريد ثناء لنفسه ، ولايطيق أن يرى هؤلاء البله ينصرفون من قراءته أو سماعه في غير مبالاة ، الى حيث يغطون ويتثاءبون في حياتهم الراكدة الخاملة .

بدون هذا السر يكون الداعية واحداً من هؤلاء المرائين الفارغين المرتزقين ، ومن الارتزاق ما يكون لكسب الثناء ، كما أن منه ما يكون لكسب الغذاء..على أن هذا امتياز فطري للداعية المطبوع...ولا نريد أن نقول ان الداعية يجب أن يكون هكذا والا فليرح نفسه ، ولا يكلفها ما ليس من طبيعتها ؛ ... لا .. ان كل مهمتنا هنا أن ننظر الى الدعاة العظام ، الذين بعثهم الله للبناء والإنشاء ، ونرصد ما يمكن أن ندركه من صفاتهم وامتيازهم ، ثم نضعه مثلا أعلى يحتذيه الدعاة الراغبون في الإصلاح.. وما أقصد بهؤلاء البنائين المنشئين غير رسل الله صلوات الله عليهم ، بل غير مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففيه اجتمعت كل صفاتهم الفاضلة ، وثمار تجاربهم النفسية والعملية .. فإذا نظرنا اليه واتخذناه قدوتنا في الدعوة ، فإن الكثير مما حرمناه من الصفات الفطرية ، يتأتى لنا حظ منه بالتجربة والممارسة والمران .

كيف نكسب الطبيعة التنفيذية

فما على الراغب في الخير والدعوة اليه ، الا أن يستوعب سيرته صلى الله عليه وسلم ، في الدعوة ، وأن يلم بروح رسالته في القرآن .. ومن حسن الحظ أن الله سبحانه وتعالى ، قد جمع لنا هذه الرسالة في قواعد كلية واضحة .. ولم يكتف بذلك ، بل أجرى هذه القواعد . في صور من الأمر والنهي تضع القارىء على أبواب التنفيذ ، وتقفه على رأس طريقه الى العمل فما عليه الا أن يسير ، وينفذ ما يريد الله سبحانه وتعالى أمراً ونهيا ؛ لا بروح التابع المقتدي فقط ، بل بروح الداعية المكلف بالدعوة كذلك .. فانه بعد أمد قريب أو بعيد يحس أن شعاعا

Marfat.com

من هذه الطبيعة التنفيذية ، وقبساً من جذوتها المقدسة ، قد سرى بإذن الله في أعماق نفسه •

نبرأ من البعد عن الله

ونريد أن ننص هنا على أن هذا السر التنفيذي المشبوب ، يجب أن يكون متصلا بروحانية الداعية كل الصلة ، عاملا بإلهامها آخذاً من معينها •• وانا نبرأ والانسانية العالمية الكريمة – لا انسانية الماديين المحصورين في قوميتهم ووطنيتهم – نبرأ وتبرأ معنا هذه الانسانية الكريمة . من كل رجل منفعل المزاج . ينطلق على غير هدى من الله ، الى اقامة نظام اجتماعي ، أو سلطان عملي يدعو به الناس الى ما يزين له مزاجه المختــل •• ولقــد قلنا في الروحانية الاجتماعية ان الدعاة المجددين المنشئين . لابد لهم من هذه الروحانية ، يستلهمونها الحق الذي لا يضل ، وبدونها يكون الداعية رجلا مشغوفاً بالمجد الوهمي ، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث •

هذا الصنف المختل المخبول ، نبرأ منه ونحذر الشباب ، وغــير الشباب . أن يغتروا بشأنه . فهو بعيد عن الله ، ضال عن الحق ، وهو بلاء على نفسه ، وعلى الناس • وانا لنهيب بشبابنا ودعاتنا ، أن يصلوا نفوسهم بالله ، أولا وقبل كل شيء ، وألا يظنوا أن قوى الشباب فيهم، وأشواقهم المشبوبة الى المجد ، هي الكفيلة بتحقيق ما يصبون اليه •• لا يا شباب ويا دعاة . لا بد من النور الذي تسيرون على ضوئه وتعملون بوحيه . والا فكم من عشواء جمحت بين النخيل ، حتى أوردها الصدام موارد الهلاك •

على الداعية أن يعرف غايته أولا

والآن فماذا يراد من الداعية ؟ أو ماذا عليه أن يعمل ؟

Marfat.com

يراد منه أن لا يحبس مبادىء رسالته وتعاليمها في صدره وفكره. بل يصوغها أوضاعاً اجتماعية ، وصوراً عملية حيوية ، وأنظمة عمرانية ، يستقيم بها شأن الناس في معاشهم ومعادهم .

وهذا كلام غامض لا يشفي علة ، ولا ينقع غلة كما يقولون ... فكيف يصوغ رسالته هذه الصياغة ، وعلى أي أساس يفعل هذا ؟ .. أما الداعية المفطور ، فله من وعي قلبه ووحي ربه ما ينير له الطريق ، ولا يحوجه الى هذا التساؤل . أما الداعية الذي نحن بصدده . فمن حقه أن يلتمس معنا من نور الحق ما تقر به نفسه .

الغاية الله

على الداعية في ميدان التنفيذ والعمل ، أن يعرف غايته أولا . وأن يفهمها حق الفهم ، فإذا تأتى له هذا ، استطاع بفطرته أن يدرك الوسائل التي تحقق له هذه الغاية ! وتصل به اليها .. وغاية الداعية ، هي غاية كل انسان في هذه الحياة الدنيا ، مسلماً كان أو غير مسلم ، في مشارق الأرض ومغاربها . هو الله سبحانه وتعالى .. فعلى الداعية وعلى كل انسان ، أن يعلم أنه خلق لله أولا ، وأنه خلق لله آخراً . وأنه لم يخلق لغير الله على أي اعتبار من الاعتبارات . .. وأنا أدرك أن هذا الكلام غير براق لا سحر له ولا خلابة ، فالشباب المتحمسون والكهول الذين فتنوا بزينة الحضارة المادية . وأحداث العصر الجارية ، انما يفتنهم المجد للشخص في عالم المال ، والصناعة ، والحرب ، والسياسة .. ويفتنهم المجد للدولة بعلو سلطانها ، وكثرة مستعمراتها .. فمجد الشخص ومجد الأمة هما قبلة أنظارهم ومطمح عزائمهم . وكل كلام يستحث هممهم اليه فهو الكلام الساحر البراق . الذي يحلو في قلوبهم المخدوعة .

Marfat.com

لا أيها الناس ، انما خلقنا لله ، لا لهذه الاوهام ، والمجد — كل المجد — أن ينجح الانسان في سبيل هذه الغاية العليا ، فإذا لم يكن لهذا الكلام بريق لامع ، فإن اه من منطق الفطرة ، ما تخشع له القلوب، وتعنو لقهره الطباع . فنحن مخلوقون لله ، رضينا أم لم نرض ، راجعون اليه لا محالة ، أطعنا أم لم نطع . ولخير للانسان أن يمضي الى ما لابد منه في كرامة ، من أن يكره على المضي اليه في هوان وذلة ، ولقد عنت السموات والأرض لقهر الله وسلطانه ، حين استوى الى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض : « ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » فمن ركبه شيطان الغرور ، فسوف يرد الى ربه لا محالة ، وهناك تنكشف له الحقيقة التي طالما تجاهلها ، فيقطعه الندم ولات ساعة مندم ، ويزيد من فجيعته ونقمته على نفسه ، أنه لم يبصر ما أبصره العمي ولم يفهم مافهمه الجماد ، يوم قالت السموات والأرض « أتينا طائعين » كل ذلك وواعظ الله يهتف به في موقف حسرته « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون » .

فإذا عرف الداعية غايته ، فقد عرف واجبه ، وأدرك أن عليه أن يركز همته ويحصر كل ما له من جهد فكري ، وعاطفي وبدني في بلوغها وقطع مراحل الطريق اليها .

وهذا يا أخي هو المحور الذي دارت حوله رسالات الله وما نزل من وحي وعلم على أنبيائه ورسله وأوليائه ، فمن أراد أن يرى هذه الرسالات مجموعة في كلمة واحدة ، أو موعظة واحدة ، فلينظر الى هذه الحقيقة ، فإنه يرى كل ذلك يتجه اليها ، ويتجمع عندها ... وما نقوله افتراء على الله سبحانه ، واجتراء على رسالته ، فهو أمره عز

Marfat.com

شأنه ، وقوله لرسوله : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ... ثم تتفكروا » فالغاية الله تبارك وتعالى ، أي نقصد بكل فعل وقول لنا طلب رضوانه تعالى .. والواجب أن نفكر ونعمل لبلوغ الغاية من رضاه سبحانه ، وأن يكون طريقنا الى الله سهلا هادئاً مأمونا . وهو واجب الداعية نحو نفسه ، ونحو الناس ، وهو الذي نكل تنفيذه الى الطبيعة التنفيذية .

احياء القلب

والآن فما معنى أن نجعل الطريق الى الله سهلا هادئاً مأمونا !

نحن على رأس رحلة الى الله سبحانه وتعالى . فإذا اجتزنا مراحلها على ما يرضيه . فعند الصباح يحمد القوم السرى . ويحطون رحالهم في دار المقامة من فضله « وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وهي بعد رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة . وانما تقطع بالقلب . والقلب فيها هو كل شيء ... فبه يبصر الانسان غايته ، أو يبصر الله تبارك وتعالى كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وغايتنا لا تدرك بالأبصار ، ولكن تدرك بالقلوب التي في الصدور . ومالم يبصر الانسان غايته ، لم يعرف اليها سبيلا ، ولم يدرك لها جمالا .

وبه يستبين الطريق اليها . فلا تلتبس المعالم على ذوي القلوب الحية « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وما المعالم هنا الا الطيب والخبيث والحسن والقبيح والنافع والضار والحلال والحرام .

وهو الذي يضاعف أشواق المرء الى غايته . ويستحث همته اليها . فتهون عليه المراحل والعقبات ، وكلما أدركه كلال أو ملل . لاحت له

Marfat.com

بوارق من دار السلام فيتجدد عزمه، ويحيا رجاؤه على حد قول الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعـام وتلهيها عن الزاد
اذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

فالقلب يا أخي هو كل شيء في هذه الرحلة الأزلية ، هو كل شيء في حياتك وما الجسم الا مطية له ، أو ظرف يصونه . ولقد تقدم في غير موضن . أن الانسان ما هو الا قلبه ، وسيأتي في باب مصادر الداعية أن القرآن الكريم يجب أن يقرأ على أن الغرض الأول والأخير منه هو احياء القلب والمحافظة عليه سليماً مطمئنا بذكر الله ، وأن السنة النبوية كلها ترمي الى هذا المعنى من قريب أو بعيد ، مباشرة أو بطريق غـير مباشر ، ولقد قلنا منذ قريب : ان مثل هذا الكلام لا بريق له ولا سحر، فهـل يظن أولئك المخدوعون . أن القرآن الكريم نزل لتنظيم خدمة الجسم ، أو أن السنة المطهرة تعلمنا كيف نجمع لهذه المطية زادها ؟... واذا لم يكن الانسان هو قلبه الفياض بمعاني النبـل والكرامـة ، وعواطف المواساة والايثار ، وطمأنينة الذكر والتقوى ، أفيظنون أنه هو جسمه الطاعم الكاسي ، وشهواته الجائعة المنهومة ؟ .

اذاً يا أخي فواجب الداعية ــ بعد معرفة الغاية ــ ينحصر في احياء القلب . وجعـل طريقه الى اللـه سهلا ، هادئاً مأمونا ، لايعتريه فيه ما يطفئه . أو يخمده ، وهذا فيما يبدو لي يتحقق بالأمرين الآتيين :

الوسيلة الأولى التذكير بالله

أولا : دوام التذكير بالغاية . بما يجعل الانسان مشغولا بها مفكراً فيها . مقبلا بكليته عليها وليس للقلب من زاد يحيا به الا معرفة هذه

Marfat.com

الغاية وتعلقه بها وتفكره فيها ، ••• ولقد يؤنسنا في هذا المعنى قوله تعالى : « ثم تتفكروا » •

أما كيف يتأتى للداعية دوام التذكير . فإن الله سبحانه وتعالى قد فرض علينا الصلاة وجعلها دروساً عملية في مناجاته سبحانه والثناء عليه . والتفكر في يوم الدين ، والتماس الصراط المستقيم ••• و••• وترك للداعية أن يقيم المسجد ليكون مدرسة ربانية يزاول طلابها فيها هذه الدروس بإرشاده وامامته ••• « خمس حصص كل يوم » •

وهذا توجيه الهي، ومثال عملي ينصبه الله سبحانه وتعالى للداعية. لينسج على منواله ، ويسير على هداه في تقرير الغاية والتذكير بها ••• فعلى داعيتنا أن يحمل الناس على اقامة الصلاة . ويرد للمساجد أنسها وروحانيتها ••• وأن يضع برامج التعليم في مدارس البنين والبنات لتكون مذكرة بالغاية الأساسيه ، موجهة اليها . غارسة لها في قلوب الصغار والكبار ••• وأن ينتفع بوسائل الثقافة الأخرى كالمسرح والسينما والصحف والمجلات وما استجد من أساليب الدعاية .••• ولا يسوغ بحال من الأحوال أن تجند كل هذه الوسائل الفعالة . لتقرير الأقوال الزائفة ، واذاعة المبادىء الفاسدة ، والتوجيه الى حياة اللهو والباطل ؛ ويقف دعاة الحق كأنهم لا يرون ولا يسعون ولا يعيشون مع أحياء هذا العصر •

الثانية وقاية القلب من المؤثرات المختلفه

ثانياً : واذا تقرر أن القلب هو كل شيء في عوامل الرحلة . أو هو أهم شيء فيها فهو الذي يبصر الغاية . وينير الطريق . ويجدد العزائم ، ويستحث الأشواق ، وجب أن تتيح له من الهدوء وفراغ البال . مايجعله يستمر على ذكره وفكره . واقباله على الله سبحانه في

Marfat.com

طمأنينة وسكينة ... وفي رأيي أن القلب اذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة،فقد مضى الى غايته على هدى وصراط مستقيم... ويمكن الداعية أن يجمل هذه المؤثرات فيما يأتي :

(أ) مؤثرات اقتصادية

نعم فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوي علـى القلب ... كالفقــر والتعطل عن العمل لمرض أو شيخوخة أو سبب آخر ، وثقل الدين والغرم ، ونزول الآفات والحرائق واليتم والترمل اذا مات رب الأسرة ولم يترك شيئاً ، وما يشبه ذلك مما تضيق به النفس ، ويغـدو به المرء موزعـاً في أودية من الهموم والأفكار والذلة والحيرة...فهل يتأتى للقلب أن يظل في هدوئه وسكينته، وهذه الهموم تتقسمه وتتوزعه ؟ .

على الداعية أن يدرك هذا وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه ، والمحافظة على بقائه في روض سلامه ، ونعيم ذكره وفكره ... ونحب أن نذكر هنـا مرة أخرى ، أن سلام القلب ليس من الأمـور الكمالية التي قد يتهاون المرء في العناية بها ، وليس هذا النعيم من قبيل التدليل والتزيد في مطالب الترف ... لا ...انه الضرورة الأولى ... انه الحياة التي ليس بدونها حياة ... وانه النجاة ، وليس بدونه الا الهلاك ، ولا يدرك هذا الا من فقه وأيقن أنه خلق لأخراه لا لدنياه ... فإذا عنينا بالنص على هذه المؤثرات المتصلة بمعيشة الناس ، فاننا ننص على قيام سبب من أسباب الهلاك ، وليس للانسان اذا هلك ، من فرصة أخرى يصلح فيها شأنه ، انها الجنة أبداً ، أو النار أبدا ... واذا كانت الحكومات تسارع الى مكافحـة الأوبئة لسلامة الأبدان ، فأحرى ثم أحرى أن تكافح ما يفد على القلب من الهموم والأزمات ، ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اني أعوذ بك من الهم

Marfat.com

والحزن...وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » ويقول : « اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر » ... وليس في البشر كافة من هو أسمى همة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل تراه فزع الى الله واستعاذ به ، الا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر ، من مهلكات القلب كالذنوب والشهوات سواء بسواء ؟ أم تراه فزع منها لأنها تصد نفسه عن الطعام ، وتقعد بهمته عن السعي في الأرض لجلب الحطام ؟ . قد يجوز لأي باحث اجتماعي نفساني ، أن يستخرج من هذا الكلام ما يشاء من تأثير الهموم على همة المرء وعزيمته ، وما لذلك من أثر اقتصادي وعمراني في الحياة المادية ، وهو حسن ... ولكن ما نعلم من سمو همته صلى الله عليه وسلم ، وصفاء ادراكه للحقائق العليا ، يجعلنا نجزم بأنه يقصد قبل كل شيء سلامة قلبه الذي هو مستودع الحياة في الدنيا والآخرة .

فإذا نحن عنينا بتقرير هذه العوامل الاقتصادية ، وأثرها على حالة المرء النفسية ، فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة التي تسد جوعه ، وتستر عريه ، كما يقف كثير من المهتمين بعلاج مشكلات الفقر والبطالة .... بل نرمي الى ما وراء هذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب ، وصفاء الأفق من حوله ، وعودة الطمأنينة اليه ، ليواصل سيره الى غايته ... فإذا أمكن أن نصل الى هذه الغاية ، مع بقاء أسباب الجوع ، فتلك مرتبة لا يدركها الا المشمرون ... ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجوع فلا يذله الجوع ، ويخلو بيته من القوت فلا يتضعضع لأحد لينال من فضله شيئاً ، ولا يهمه ذلك أو يغمه ، بل يربط الحجر على بطنه ، ويقول لمن حضر من أصحابه : « ألا رب نفس طاعمة كاسية في الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » ولكن أنى لنا بهمة

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظمته الشامخة المترفعة على ما يذل الناس من قيود وضرورات ...

لقد ذكرنا ما ذكرنا لنبين أن مرادنا من الإسعاف بالمال والطعام واللباس ، غير مراد أصحاب العقول المحصورة ، والنفوس الضيقة ... ولذا نرى دائماً أن يقترن هذا الإسعاف المادي ، بإسعاف روحي يربط على القلب ، ويمسح عنه بحنانه ما مسه من هجير الحاجة ، ويساؤه رضا بما قسمه الله له .. وهذا يا أخي فرق ما بين مناهجنا ، ومناهج أعظم المصلحين المعاصرين ... فقد بشر الإنجليز — وحرب السنوات الست قائمة — بمشروع بفردج،واعتبروه واعتبره الناس في المشارق والمغارب، حدثاً جديداً بتقدم الانسانية ، فهل لنا في غير زهو أن نفاخر بمناهجنا ونبشر به ، بل هل لنا قبل ذلك أن نثق بأنفسنا ، ونعتز بما عندنا من ايمان ويقين ؟ .

ونعود الى ما نحن بصدده من تقرير اضطراب الحالة النفسية بالعوامل الاقتصادية المتصلة بمعيشة الناس ليرى الداعية أن علاج هذه الطوارىء مما لا يحتمل الهوادة أو التراخي ؛ فليس يصبر على هلاك الناس الا جاحد القلب ، غليظ العاطفة ، وليس هذا من الدعاة في شيء ... وليرى كذلك أن ضرورة الموقف تقتضيه فرض التكافل والتعاون بين جماعته ؛ تقتضيه أن يجعل هذا التكافل نظاماً مفروضاً على الجميع ... ولقد فرض الاسلام الحنيف الزكاة ولم يجعلها تطوعاً متروكا الى اختيار المرء ورغبته ؛ ففتح بهذه الفريضة العملية الايجابية ، الباب على مصراعيه أمام الداعية ، ولم يتركه الى حدسه وتخمينه ، وأمره أن يأخذ كل القادرين بأدائها ، وأن ينزلهم بالسيف على حكمها ، اذا هم قعدوا عنها وبخلوا بها ... وليس على الداعية بعد هذا الا التنفيذ ، واقامة الأنظمة وسن القوانين التي تحقق هذا التكافل بين الجماعة ، وتجعله حقيقة عملية واقعة .

Marfat.com

وننبه هنا أخيراً الى ما ألمعنا اليه سابقاً من أن مهمة الداعية لاتنتهي بإقامة هذا التكافل(١) ، بل لا بد من أن يجعله نظاماً سائغاً في قلوب الكافلين والمكفولين ، يرضون عنه ، ويغتبطون به ، ويرونه في صالحهم على السواء ؛ فإن المتبادر الى الذهن أنه في صالح من قعدت بهم الحاجة فقط . وهذا خطأ ... فان عضة الفقر على القلب ، تعدل عضة الحرص وحب المال ؛ وتفسير هذا ميسور لمن يدرك أن حياة القلب في الاشتغال بالله سبحانه وتعالى وحده ، وليست في شيء آخـر ، وأن هلاكه في انصرافه عنه ، واشتغاله بغيره ، وهذا الانصراف يتحقق بشواغل الفقر ، كما يتحقق بشواغل الغنى والمال ؛ والعبرة بالنتائج لا بالمقدمات ... فإذا وقف الداعية عند اقامة التكافل ، وتيسير سبله ووسائله الظاهرة ، فقد أقام نظاماً آلياً ؛ قد يحلو في قلوب الفقراء دون الأغنياء .. واذا صح هذا في منطق المصلحين المحجوبين ، فلن يصح في منطق المصلح الاسلامي ، الذي يرى بنور الله ، ويتخذ القرآن دستوره وامامه ... والله تبارك وتعالى يقول : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » ... أما الوقوف عند الفرض بالقوة والسيف ، فإنه يقيم الناس على ترقب الفرص المناسبة للانتقاض والعصيان والوثوب على النظام .

ومن حق الدعوة عليك ، ومن حق الناس كذلك أن تطيل النظر في قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » فإنه قول جامع لكل ما يمكن أن يقال أو يعمل في هذا الباب فقد قال الله تعالى :

---

(١) التكافل في الاسلام نظام فطري ضروري ، قوامه أن المال لله ، وهو منه تعالى للجماعة يتواسون به فيما بينهم ، وقد بسطنا القـول في ذلك بكتابنا « الثروة في ظل الاسلام » .

Marfat.com

١ ــ « خذ من أموالهم صدقة » وهذا حق الفقير ، وهو أمر القانون ، وحكم السيف لا محالة •

٢ ــ « تطهرهم وتزكيهم بها » ــ والتطهير مرتبة ، والتزكية مرتبة (١) أخرى فوقها وكلتاهما في غنى عن الشرح والبيان ؛ وها هنا حق القلب ، ولا يصل هذا الحق الى القلب بمجرد أخذ الصدقة ، بل بالأسلوب الذي تؤخذ به ، وصرفها في المصارف التي سنت لها ! وهو أسلوب الوعظ الرقيق ، الذي يجعلها عبادة وقربة الى الله سبحانه ، ووسيلة الى الدار الآخرة ••• وأسلوب النظام الذي يشعره أن الدولة راعية له ، مسؤولة عنه ، في يسره وعسره ، وأن أبناءه في كفالة الامام ، اذا هو مات عنهم ولم يترك لهم شيئاً ، وانها لكفالة رحيمة لا قسوة معها . عزيزة لا ذلة فيها ، كفالة ترقب الله في الجميع ، ولاتبغي لنفسها شيئاً من جاه أو منفعة مادية ••• أسلوب العدالة والمساواة في الحقوق الانسانية ، بحيث يأمن الظلم ويشعر أن خير الدولة للجميع ، لا لطائفة دون طائفة ••• أسلوب السماحة في البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وتيسير المصالح ، وهو أسلوب تسنه الدولة ، لتجري عليه معاملتها مع الناس ، ويجري عليه معاملات الناس بعضهم مع بعض فلا طمع ولا استغلال ، ولا ربا ، ولا غرر ،ولا شيء مما تؤكل به أموال الناس بالباطل ••• وانما هي السماحة العامة ، التي تخرج الانسان من حدود بدنه الضيقة ، ودنياه المستعرة بجحيم المطامع والأزمات ، الى آفاق قلبه ونعيم الحياة الآخرة •

بهذا الأسلوب تلين القلوب ، وتنحل عنها أقفالها وتؤتي الصدقة ثمارها الاجتماعية والروحية •

---

(١) التطهير:التنقية من الآثام والصفات والعوامل النفسية الفاسدة الضارة• والتزكية : هي تنمية النفس ــ بعد تطهيرها ــ بالخبرات ونفائس المعرفة •

٣ — « وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » وادع لهم بخير وأفض عليهم من نور قلبك وحنان نفسك . فإنه سكن لهم من الفتن والأحقاد والانتفاض على النظام .

ويلاحظ من ظاهر الآية الكريمة ، أن الضمائر فيها عائدة على أرباب الأموال والقادرين ، وهذا معناه أن خير الصدقة مردود على المتصدقين ، ونفعها عائد عليهم وحدهم ... ويعضد هذا قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » فهم الذين نالهم التطهير وهم الذين أصابوا التزكية ، وصدقاتهم قد تقبلها الله سبحانه بيمينه ، وهو يربيها لهم حتى تكون كل منها مثل الجبل على ما ورد في الحديث الشريف... أما الفقراء فماذا نالهم من هذا ؟ رغيف ؟ ثوب ؟ درهم ؟ هل تطهر الفقير بالرغيف والثوب والدرهم ؟ ومتى كان المسكين قد تدنس حتى تطهره الصدقة ؟ ان الذي تدنس حقاً هو الذي دخل حب المال قلبه . فأفسد عليه طمأنينته ونظام تقواه .. أما الفقير فكل شأنه أن عقبه وقفت في طريقه . أعناه على اجتيازها ، وأزلنا عنه ما كان يشغله بها .

ومن زعم أن أكل الرغيف ، أو لبس الثوب . أو أخذ الدرهم طهارة لآكله ولابسه فليزعم الى زعمه هذا ، أن الأغنياء أكثر الناس طهارة لكثرة ما يأكلون ويلبسون وينفقون . ! ؟

ان آخذ الصدقة في الحقيقة هو الله تعالى ، وهو سبحانه القائل ذلك بنفسه : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده . ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم » !

فهذا كما ترى توجيه في فهم الآية يتفق تمام الاتفاق مع ظاهرها الذي لا لبس فيه وهو بهذا يسبغ رداء الكرامة على الفقراء ، ولا يجعل لأحد من المتصدقين فضلا عليهم فصدقاتهم دائرة بينهم وبين ربهم

Marfat.com

يطهرهم بها ويربيها لهم ، ويضاعف أجرهم عليها •• وهو من المدركات العالية في كتاب الله سبحانه •

وقد يرى بعضهم أن يرجع الضمائر في قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » الى الأغنياء والفقراء جميعاً ، ويستأنس لرأيه ، بأن المال مال الله ، كما ورد في القرآن الكريم ، والجميع خلقه سبحانه ، فهم شركاء في ماله لكل منهم حق معلوم ، ونصيب مقرر ، كما ورد في كتابه أيضاً •• فالصدقة على هذا التوجيه تطهر الأغنياء من الشح وحب المال ، ومن رذائل اجتماعية خلقية كثيرة•• وتطهر الفقراء لا من الفقر ولكن من الذلة وعبادة أرباب المال •• وكلا الفهمين يستند الى كلام الله ، وفي كل خير وبركة ، والعبرة بالعمل ، وفقنا الله سبحانه وتعالى اليه •

هذه خواطر رأينا تقييدها ونحن نتكلم عن المؤثرات التي تتصل بمعيشة الناس فتبلبل أفكارهم وتعوقهم عن المضي الى غايتهم الربانية •• وقد رأى الداعية أن الاسلام قد رسم له كل ما هو أساسي وضروري ، فما عليه الا أن ينفذ ، أو الا أن يكون مشبوب الرغبة في التنفيذ ، منبعثاً اليه فعلا بقوة الواجب ، وخطورة المسؤولية •

(ب) مؤثرات نفسية

وهي عوامل ترجع الى غرائز الانسان الحيوانية ، وأهمها كلها هنا ، غريزتا الجنس وحب المال ، وكل منهما اذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله ، وفرقت همة قلبه ، لتعبث به كالريشة في مهب الريح •• ولا بد لانتظام سير الانسان أو لانتظام سير قلبه الى الله ، من معالجة جموح هذه الغرائز ، وتلطيف حدتها وثورتها •• وليس معنى هذا ، محاربتها واستئصالها بل الغض من عنفها واصطراخ شياطينها

Marfat.com

في القلب ، حتى تغدو مهذبة نبيلة .. ولا يكون هذا الا بعلاج طبيعي قبل كل شيء ، علاج يمس طبيعة البدن ، ويؤثر في مزاجه الحيواني .. وهذا بعض الأغراض الحكيمة التي شرع الله من أجلها فريضة الصيام ، ففيها مدهدة لعنف غرائز البدن . وكفكفة لقواها الثائرة،ولقد ترى من هذا شيئاً في قوله عليه السلام « يا معشر الشباب. من وجد الباءة منكم فليتزوج . فانه أغض للبصر . وأحصن للفرج . فمن لم يستطع ، فعليه بالصوم فإنه له وجاء(١) » .

وداعيتنا لا هيمنة له على سرائر الناس فيعرف من صام ومن لم يصم فالصوم سر بين العبد وربه ، ولا سبيل لأحد أن يعرف شأن غيره الا اذا رآه يستعلن بالإفطار .. ومعنى هذا أن كثيرا من الأفراد قد يتحللون من هذه الفريضة الكريمة وتبقى غرائزهم على ما هي عليه من العنف والتنزي. تهدد هذا في ماله، أو ذاك في عرضه . وقد أعد الاسلام لهذا الاحتمال عقوبة صارمة حازمة تقمع لفورها شياطين الفتنة وتريح القلب من اصطراخها وبلبلتها . فللسارق قطع يده وللزاني جلده أو رجمه حتى يموت .

وما على الداعية ازاء هذا النظام العملي لعلاج الغرائز الا أن يكون حازما في تنفيذه ،لا تأخذه شفقة في دين الله بمجرم أو مجرمة . حتى يستقر أمن الناس على أعراضهم وأموالهم وحتى تنقمع شياطين الغرائز في قماقمها فيصفو الأفق حول القلب وينصرف الى دار سلامه ومعين حياته .

(ج) مؤثرات اجتماعية

وهي عوامل ترجع الى العادة والعرف في تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة ، وأبرز ما في هذا الباب . تبرج النساء . واستعلان

(١) مأخوذة من وجأه إذا ضربه في عنقه .

Marfat.com

الناس بما يأتون من منكر ، وليس من قصدنا هنا أن نحدثك بما يجري في الشوارع أو يدور في حلقــات الرقص ، ومجالس الخمر وتنشره الصحف والمجلات على أنه من آيات الرقي وسمات التحضر ، وانما نريد أن نذكر أن هذه العوامل مما يقطع على القلب طريقه ، ويفسد عليه هدوءه وطمأنينته ••• والنظرة سهم مسموم وهي بريد الشيطان الى القلب ، والمرأة اذا خرجت استشرفها الشيطان ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده فتنة أضر على الرجال من النساء • وهــذا ما نحذر منه دائماً ، لأنه الهلاك ، كما تقرر في غير موطن • ومطلوب الى الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل ، على تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب وقد فتح له الاسلام الباب، فنهى عن التبرج، وشرع لشارب الخمر عقوبة ، ثم ترك له أن يتم تطهير البيئة بما يحضره من سلطان روحي . أو نحو ذلك مما استحدث في العصر الحديث ••• وعندنا غير التبرج صحافة خليعة وملاه لإثارة أحط الغرائز ، وصور تلصق على جدران الشوارع ، للفتنة والاغراء فليعلم الداعية أنها من أعدى أعدائه ، وأن القضاء عليها من أهم واجباته •

وقد وفدت علينا من الغرب ، سخافة رقيعة ، تدعي أن المرء حر في حياته الخاصة ، يفعــل بها ما يشاء ، وليس للناس الا أن ينقــدوا أخطاءه في صلته بالجمهور ، وخدماته العامــة ••• وقد قبل أهــل الشهوات والمفتونون منا هذه السخافة، وتبعهم عليها كثير من الجماهير، فإذا عبت على فلان أنه يشرب الخمر أو يلعب القمار ، أو يراقص النساء ، أو ••• أو ••• قيل لك : هذه أمور شخصية لا يصح لك أن تتكلم فيها ، فإذا أردت أن تتكلم ، فانقد مشاريعه ، وتصرفاته العامة ، وآراءه في السياسة أو الأدب أو الاقتصاد أو نحو هذا •• فليدخل الداعية هذه السخافة في حسابه ، فالمرء كله وحدة متماسكة ، بحياته الخاصة والعامة ، ولا صلاح لإحداهما بفساد الأخرى ، ومن الجحود للفضيلة ،

أن نزدريها ونخذلها بقبول هذه الرذيلة السمجة ... ولسنا مكلفين مناقشة هذه الحماقة ، واقناع ذويها بالبرهان ، فليس بعد أمر الله ونهيه مجال للتردد والجدل ، فقد أمر وكفى ، وليس في المقام الا انزال العقوبة الصارمة التي تردع السادر ، وتوقظ الغافل ، وتقيم الجميع على شرع الله ، في جد واعتدال .

* * *

والآن . أين نحن من فصلنا هذا ؟ لقد تقرر أن واجب الداعية – بعد معرفة الغاية – ينحصر في احياء القلب ، وجعل طريقة الى الله سهلا هادئاً مأمونا ، لا يعتريه فيه ما يطفئه أو يخمده .. وذكرنا أن هذا يتحقق بأمرين .

١ – دوام التذكير .

٢ – احاطة المرء ببيئة ذات أوضاع فاضلة ، تقيه هموم الأزمات الاقتصادية ، وتهذب غرائزه الحيوانية ، ويقوم العرف فيها على استهجان الرذيلة ورعاية حقوق الفضيلة .

أما التذكير فغير مستطاع في البيئات الفاسدة ، أو قل على الأصح انه لا جدوى له ، فالمجتمع اذا فسد ، تبلبلت فيه الآراء ومضى أفراده يعجب كل منهم برأيه ، يعبد هواه ، ويذهب مع ما يسمونه الحرية الشخصية الى أبعد مدى مستطاع ، فماذا ينفع التذكير في هذا المحيط ؟ البيئة الفاسدة تدعو الى الإباحة والانطلاق ، فما لم يكن في يد المذكر سلطان يأخذ به الجامحين ، فإن أمره يكون أقرب الى العبث منه الى أي شيء آخر ... ومن هنا يجب العمل أولا على ايجاد البيئة الفاضلة ذات الأوضاع الصالحة .

Marfat.com

ولقد ذكرنا ما جاء به الاسلام من قواعد هذه البيئة فما على الداعية المصلح الا أن يشرع فيما يريد • عليه :

١ ــ أن يدخل في بيئته ما يريد من المبادىء الخلقية والأوضاع العملية •

٢ ــ وأن يعدل ويصلح مالا يعجبه منها •

٣ ــ وأن يزيل ويستأصل كل فكرة أو وضع يعارض الحق الذي ينشده ، هذا هو الترتيب الطبيعي ، والا فإن وعظ الواعظين وخطب المذكرين . لا تسكت مع الناس . الا ريثما يخرجون من معابدهم ، حيث يطغى على العقول والقلوب سيل مما يصنع الشيطان وجنوده في الحياة •

وجوب معالجة العقبات بالرفق

قال أحد الاخوان : هذا كلام معقول ، ولكن تحقيقه من الصعوبة بمكان اذ كيف يتأتى للداعية ، أن يتصرف في أوضاع بيئته هذا التصرف ؟ ••• ان العقبات أمامه كثيرة : فهناك العرف الذي استمرأ ما هو عليه ، وهناك ثقافة مغرورة مفتونة لا تعترف بدعوتك . •• وهناك قوانين لها معك حساب عسير اذا قمت تتحداها • وهناك من لهم مآرب خاصة في حماية الاوضاع الفاسدة ، فلن يدعوك لتحرمهم حظوظهم منها •• فكيف السبيل الى ما تدعو اليه ؟ •

فقال له صاحبه : نعم ، السبيل واضحة جلية ، وان كانت شاقة بعيدة المدى ••• السبيل أن تدعو الناس الى ما تريد ، وتحذرهم ما هم فيه ، وتبين لهم خطأ ما هم عليه •• ثم تنظر الى العقبات ، فتسوس كل عقبة بما يفتيك به قلبك وبما يحضرك من أمر الله •• لا تنتظر يا أخي

Marfat.com

أن أرسم لك خطة ، فليس الداعية آلة تنفذ ما يراد لها ، انما هو قلب حي ، وفكر يقظ ، جاءه الرسول بالمنهاج الكامل ، وأمره أن يستهدي فطرته في تفاصيل التنفيذ ، ويستفتي قلبه فيما يعن لـه . وان أفتاه الناس ، وأفتوه .. واعلم أنك بالغ بأمر الله ما تحب ، مالم يعجلك شيء عن أناتك وحلمك ...

مثال لنجاح الأسلوب اللين

واعلم أن مثل الداعية القوي المؤمن . كمثل السيل المنحدر من شواهق الجبال .. فيــه منه قوة الاندفاع ، وفيــه منه للنــاس سر الانتفاع ، ولكن السيل لا يعجل الى العقبات . أو الهضاب فيمزقها بل يدور . حولها ويحيط بأطرافها ، ويمضي الى ما خلفها . ويتركها معزولة عما عداها ثم يعلو ماؤه ويغزر فيضه . فيرتفع على جوانبها بالتدريج ، حتى يغطي قممها ، ويخضع لسلطانه رؤوسها الشامخة ... فإذا كنت لم تفهم هذا المثل، فرسالتك قد نزلت من السماء لا من الجبل. وسر اندفاعها وانتفاعها في قلبك أنت لا في جهة أخرى ... وأنت الذي يجب أن تسبح بدعوتك في كل مكان فإذا صادفتك عقبة من قانون عتيد . أو شخصية طاغية . فلا تعرض لها بغير ما يعرض لها السيل : أدعها بالحكمة والموعظة الحسنة . ولا تقف عندها . فذلك خرق وجهل. بل افعل ما يفعل السيل : در حولها . وامض في سبيلك الى ما وراءها . وادع الناس الى جانبك . حتى تغدو منعزلة عما عداها . ويقنعها الواقع بقوة أمر الله أو يغيبها أمر الله عن الانظار ..

وسر ذلك ــ قطعا ــ الى الطبيعة التنفيذية الموفقة ... ولانستطيع تحليل هذا السر . ولكنا نستطيع أن نشير الى مظاهر نجاحه وتوفيقه في محيط الدعوة الخارجي ، ونشير كذلك الى بعض الخصائص النفسية التي تلازمه ولا تنفك عنه .

Marfat.com

دعائم النجاح في المحيط الخارجي

١ ـ الحركة

ولقد قلنا ان الطبيعة التنفيذية سر مشبوب لا مدى لقواه الهائلة ... ومن شأن هذا أن يجعل صاحبه حركة دائبة لا يكف عن الدعوة ، ولا يخمد عن العمل : يزور هذا ويدعو ذاك ، ويتحدث الى آخر ، ويدور على الأندية والمجالس، ويقيم الولائم ويدعو الى الحفلات، ويتحدث الى كل من يقابله .. فاذا وفدت وفود الناس في المواسم أو غيرها ، فهي فرصة حسنة متاحة ، للقائهم وعرض دعوته عليهم ... وهو لا يقر في مكان ، بل لابد له من التنقل في المدن والقرى ، والمغايرة بين البدو والحضر ، لا يخلد الى راحة ، ولا يركن الى دعة ، فراحته في تعبه ، وسعادته في دعوته .

أفتظن هذا يا أخي يكون بغير تلك العاطفة القوية ، أو بغير هذا السر الإلهي المشبوب ؟

لا يقل أحد اني لا أملك هذه العاطفة . فإن كل راغب في الخير يمكنه أن ينهض ، وأن يتحرك ، وأن يذهب ويجيء ، حتى ينقدح زنده، ويمور باطنه ، والحركة تلد الحركة ، والهمة تدفع الهمة بإذن الله ... أما دعاة المجالس الراكدة ، والكراسي الجامدة ، والكلمات التي لا تكلفهم الا حركة اللسان ، فنسأل الله لهم حسن التوجيه ، وأن يخرجهم من اثم ما هم فيه .

٢ ـ الايغال بالدعوة في صميم حياة الناس

ومن أول هذا النجاح أن يمعن الداعية بدعوته الى صميم حياة الناس ، اذ ليس كل من تكلم داعية ، وليس كل من غدا وراح ، وذهب وجاء ناجحا في دعوته ؛ ان النجاح كل النجاح أن تدخل دعوتك في

Marfat.com

صميم حياة الناس ، وأن تسكبها في قلوبهم وأعصابهم ، أما أن تبقى على هامش الحياة فلا ؛ ان نجاحك أيها الأخ ، أن تجعل دعوتك مسألة حيوية حارة ، يتحدث بها الناس في مجالسهم ومنازلهم ، مع أصدقائهم وأهليهم ••• تأمل هذا جيدا فليس النجاح حفلة تقام أو خطبة تقال ، أو رحلة تشق فيها كثيرا من القرى والأمصار ••• النجاح أن تكون الدعوة هي مسألة الساعة في حياة الناس : يلقى الرجل أخاه فلا يحدثه الا عنها ، ويزور الصديق صديقه ، فتكون أقرب المسائل الى حديثهما ، ويسمر السامرون فيدور جدلهم حولها كما هو شأن الناس فيما يشغلهم من المسائل العامة كل وقت •

هذا معنى اشتغال العقول والقلوب بالدعوة . وليس ضروريا أن يتناولها الجميع في استحسان واعجاب وتأييد ، وانما المهم أن يتحدثوا عنها في اهتمام وكفى ؛ فإذا رأيت منهم الخصوم والموالين ، هؤلاء يعارضون ويحتدون في معارضتهم ، والآخرون يؤيدون ويتحمسون في تأييدهم ، فذلك من صميم النجاح ••• وقد آمنت القلة من أهل مكة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفرت الكثرة العظمى ؛ ولكن الدعوة كانت هي المسألة الحاضرة في المجتمع المكي كله ، تشغل أذهان المؤمنين وغير المؤمنين على السواء ؛ وكان الداعية الأكبر صلوات الله عليه لا يكف عن الدعوة ساعة من نهار . وكان المتحدثون لا يكفون عن الخوض في حديثها ساخطين أو راضين ؛ وكان الاذى لا يفتأ ينصب على المؤمنين ، أذى اللسان ، واليد ، والسوط ، والنار ، والحراب . وكان الإغراء يبذل بسخاء لمن يرتد منهم عن دينه : اغراء بالمال ، و السلطان أو زواج الجميلات الشريفات أو غير ذلك . وكان الآباء والأمهات يستعطفون أبناءهم ، ويتوسلون اليهم بكل وسيلة ليرجعوا عن شأنهم الجديد ، وكان الجدال والشقاق والخصام يدخل البيوت . فيفرق بين القلوب ويباعد بين الأحبة ••• كان ذلك كله وكان هو

Marfat.com

النجاح بعينه ، لقد جد الداعية صلوات الله عليه وعمل ونصب حتى أدخل دعوته في صميم الحياة ، ولم يبقها خافتة على الهامش الخامل ، وحسب دعوة الحق نجاحا أن تنفذ الى « لب حياة الناس » حياتهم العاطفية والعقلية ، نفوذ عداء أو نفوذ ولاء ••• ولا تقول هذا ، لتقف من الآن للناس موقف العداء ، لتحملهم على معارضتك فيكون هذا آية نجاحك . فلا بد من الحكمة والموعظة الحسنة ••• لا تجعل أحدا يخاصمك لعيب في أسلوبك الخاص ، وطريقة معاملتك ، بل دع الذين يخاصمونك يخاصمونك في جوهر الدعوة نفسها ، فإنهم حينئذ لا يخاصمون الا الحق . والحق لا يبغي أكثر من الدخول في قلوب أوليائه وأعدائه . فإن هؤلاء الأعداء لا يعادونه الا بعد أن يعرفوه • ولا يرفضونه الا لأنه يحرمهم جاها أو متعة استباحوها ، أو لنحو ذلك من الأهواء والاعتبارات الطارئة على الناس ••• لا يرفضونه الا لداع وقتي . فإذا تغيرت الظروف وزالت هذه الدواعي الوقتية ، لم يبق في القلب الا شيء واحد . هو الحق الساكن في منزلة العداء ، فيتحول حينئذ في غير كلفة الى منزلة الولاء •

أما الجهد الذي يقف بدعوته على الهامش ، فهو جهد الأموات الهازلين أو المرائين ، ممن لا ايمان لهم بأنفسهم ودعوتهم ، وليس من المعقول أن يشتغل الناس بدعوة لا تشغل صاحبها •

أيها الاخ اجعل مثلك الذي تقتدي به في التبليغ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اهتم بدعوتك ، وانصب لها نفسك في محيطك ، في قريتك أو مدينتك أو أمتك ، واقتحم بها الى كل مجلس وناد ، وتحين لها كل فرصة سانحة ، وتخير لأحاديثها ما يلقى الناس من كوارث الطاغوت وآلامه ، ولا تجعل كلامك مقصورا على الجنة والنار ، والبعث والحساب والقلب والبدن . بل بث ذلك بثاً في ثنايا حديثك عن شذوذ

Marfat.com

الأوضاع ، وبلايا المطامع ، وفساد الأخلاق وضحايا الطغيان والطاغوت، ولا تكف عن الكتابة والخطابة والحديث والسعي حتى تحيا دعوتك في قلوب من يفزعهم أمرك أو يرضيهم ، ويشتغل بك الجميع في حضورك وغيابك .

وهذا سر من أسرار الطبيعة التنفيذية ، يكون به الداعية جادا غير لاعب ، شجاعاً غير خائف ، عملياً غير خيالي ، ممتزجا بآلام الناس وآمالهم ، مغنياً لهم بالنغم الذي يفزع ويطرب ، ويرضي ويغضب ، ويقيم ويقعد !!. والا فما معنى أنه سر موكل بإنفاذ الرسالة الى الحياة ، اذا هو لم ينفذ بها الى قلوب الناس وصميم شؤونهم .

٣ ـ التجميع

وهناك أمر ثالث ، تلتفت اليه الطبيعة التنفيذية الناضجة ، ألا وهو « التجميع » أي تجميع من يقبلون على الدعوة بالولاء والتأييد.. ولا يكون هذا نتيجة تفكير عقلي أو اجتهاد نظري ، انما هو شعور من القلق ، لا يطمئن معه الداعية على هؤلاء المؤيدين أن يتفرقوا بلا نظام في بيداء الحياة .

وليس من قصدنا أن نذهب الى التحليل النظري لعناصر هذا الشعور الذي يحفز الداعية الى « التجميع » ... وليس من قصدنا كذلك أن نتحدث عن مزايا الجماعة اذا تجانست عقائدها ، وتلاقت ميونها على خدمة مبدأ معين ، ولا أن نسوق لك ما سن الاسلام لتجميع أفراد المسلمين من صنوف كثيرة من العبادات ، ولكنا نريد أن نذكر أن كل جهد يبذل في الدعاية دون أن يقترن بالرغبة في التجميع أو دون أن يعقبه التجميع فعلا ، فهو جهد نظري لا يلبث أن يزول أثره بعد حين قريب أو بعيد .

Marfat.com

وهذا معنى نلمحه فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه •• الى أن يقول له : « واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاثة خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم الى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين•••الخ»•

فأنت ترى أن الرسول عليه السلام يهتم بأن يدعو من يسلم الى أن يتحول الى دار المهاجرين « المدينة المنورة » فلماذا ؟

عليك أن تفكر وأن تستخرج المزايا العملية لهذا « التجميع » الذي يجمع المؤمنين ويركزهم حول قطب الدعوة الأعظم صلوات الله عليه•

ولا نريد أن يكلف الداعية في العصر الحديث أنصار دعوته أن يتحولوا عن قراهم ومدنهم ليقيسوا من حوله ، وانما نريد أن نثبت الأفكار حول مرامي هذا التجميع الذي كان يبغيه عليه الصلاة والسلام، فإن رأى الداعية وأنصاره من أنفسهم الرغبة في تحقيقه ، فليجتمعوا فانه طريق النبي عليه السلام •• والا فان سهولة المواصلات البريدية ، والبرقية ، والجوية ، والبرية ونحوها ، مما يحقق للدعوة هذا التجميع بانتقال الداعيــة الى أعوانه حيث يقيمون ، انتقاله بشخصه أو بآرائه وتوجيهاته ، على أن يكون له في كل مكان جماعة تمثل نفوذه وتعمل صادعة بأمره •

وكان الرسول عليه السلام ، يعــذر من لم يستطع الهجرة اليه والتجمع حوله .فكان يرسل اليهــم ، من يقوم فيهم بالدعوة مقامــه ، ويجمعهم على أمر الله •

Marfat.com

ولقد قامت منذ قريب دعوة اصلاحية دينية ، وكانت قوية بقوة من نادوا بها ودعوا اليها ، فأين هي الآن وأين آثارها ؟ •

ان عهدنا بها قريب ، ولا زال الجيل الحاضر يذكر رجالها بالثناء والتعظيم ، ويحلهم محل الإمامة والأستاذية والصدارة . فماذا أثمرت هذه الدعوة ، ان رجال هذه الدعوة لم يعوزهم العلم ، ولا الجاه . فقد كانوا في الذروة من هذين ، ولكنهم لم يفطنوا الى سر « التجميع » فلم يهتموا أن يقيسوا لهـم جماعات(١) تشلهم ، وترعى دعوتهم في المدن والقرى •

حقاً لقد اجتمع حول هؤلاء كثير من رجال القضاء والمحاماة . وكبار الموظفين ، والكتاب والأعيان ، والأغنياء ، وبعض رجال الحكم ! ولكنه كان اجتماعاً لا تجميعاً ، وكان فوق هذا اجتماعاً يسوده معنى اعجاب التلاميذ بعبقرية أستاذهم ، لا معنى الجندية في الجنود الناهضين بطاعة قائدهم ••• كان هؤلاء الانصار ما بـين مأخوذ بعلم الأستاذ وذكائه ، أو واقع تحت تأثير شخصيته القوية ، أو راغب في مزايا الجاه الذي يتمتع به الامام ، وقليل منهم من كان راغباً في الاصلاح حقا •

كان الدعاة مقتصرين على الجهر برغبات الاصلاح ، ولم يعنوا على تنظيم آثار هذه المجاهرة في البلاد •

ولو كنت بصدد ذكر الأسباب المختلفة لعدم بلوغ هؤلاء الرجال العظماء الى أكثر مما بلغوا بدعوتهم ، لقلت انهم عـلى فضلهم وقوة اعتصامهم بالله ، ذهبوا في الدعـوة مذهباً عقلياً لا وجدانياً . فكانوا يعولون كثيرا على ثمار العقـول لا القلوب ، ويعنون بتنبيه الاذهان

(١) المعروف أنهم حاولوا ذلك التجميع ، ولكنهم قعدوا عنه لما اعترضهم من عوامل وعقبات •

Marfat.com

بالدروس العلمية ، والمقالات العصرية ، لا بإثارة خصائص الايمان ، وكانوا يحسنون الظن بالنهضة العصرية فصرفتهم عن ايقاظ الحقائق الروحية ••• وبالجملة كانت البلاد جسماً هامداً ، فدبت الحياة على أيديهم في رأسه ، فاستيقظ الذهن ، وهتف اللسان ، أما القلب فلم ينبض . وأما البدن فلم ينهض ؛ ولو شئنا لقلنا : انهم لم يذهبو الى كل مكان في البلاد ، ولم يدخلوا بدعوتهم في صميم شؤون الناس على النحو الذي قررناه سابقاً ، فلم يهبطوا الى قرارة المحيط ، طلباً لما رسب فيه من معادن القوى الشعبية ، وظلوا فوق اليم ، يجمعون ما يطفو لهم من جيد ورديء •

ولو شئنا لقلنا غير هذا ، ولكنا لسنا بصدد شيء منه ، وانما نحن نقرر أن التجميع أمر لا بد منه ، فهو الخطوة العملية التي تضع في يدك ثمر ما بذلت من جهود في الدعوة ، فإن لم يكن تجميع ، كنت كالصياد الذي ألقى شبكته في الماء ، ثم رمى خلفها بحبالها . وخلاها في اللجة يتسرب الصيد من خلالها ؛ كنا نقرر هذا ونستشهد له بما ورد في السنة المطهرة ، وبما تعرضت له دعوة هؤلاء الأئمة الأعزة ، بسبب انصرافهم عنه ، ففاتهم الصيد المرموق ، وظلوا قادة بلا جند ، وظل الشعب جنداً بلا قادة •

اصول التجميع

وما دمنا بصدد التجميع ، فلا بد أن نذكر أن الدعوة انما تنتصر بقلوب من يؤمنون بها لا بأموالهم ، ولا جاههم ، ولا قواهم البدنية ، فإذا أقبل عليك انسان فلا عليك أن يكون غنياً أو فقيراً ، سيداً أو سوقة ، فحسبك أن ظفرت منه بقلب ، فالدعوة بذرة مباركة ، لا تينع الا في تربة القلوب المؤمنة ، وحذار أن تخدعنا المظاهر أو الالقاب العلمية

Marfat.com

وغير العلمية ، وحذار أن تفرط في شخص ما ، مهما يبد لنا أنه تافه الرأي ، فإن لكل شخص مزية ، وان الله سبحانه أعدل من أن يخلق شخصاً ما ، دون أن يسلحه بسواهب جليلة ، والعبرة بحسن الاهتداء الى هذه المزايا واستخراجها والانتفاع بها ، وقد يكون لأحد هؤلاء من المواقف مالا يبلي فيه غيره بلاءه ، فأشغل كل واحد ممن حولك بعمل . وأعط كلا ما تميل اليه نفسه ليشعر أنها دعوته وأنه منها وهي منه ، واستغل كل قوة وموهبة ... وأخرى أريد أن أنص عليها : اقبل في جماعتك كل من يعطيك من ظاهر أمره الاستعداد للعمل معك والاستقامة على أمر الله ، وليس لك أن ترده بحال من الاحوال . اجتهاداً منك في أنه مقيم على المعصية . فإنك لم تشق عن قلبه . ولا تحتج عليه بماضيه . فعسى أن يكون قد أحدث توبة بينه وبين الله. وكل ماعليك أن تتعهدهم من آن لآخر بالنصيحة والموعظة . وأن تأخذهم بتنفيذ تعاليم الرسالة وتطبيقها على أنفسهم في غير هوادة .

على أن تلاحظ في تجميع هذه القوى والمواهب . أو في تأليف هذه الجماعات أن يسودها معنيان أساسيان .

الأول : النظام

فلا بد من الرجوع الى قانون وأمير .. أما أن يركب كل شخص رأسه فيعمل كل ما يخطر بباله . ويدخل فيما لا يعنيه ويتصرف فيما ليس من اختصاصه ، فتلك هي الفوضى التي تنذر كل جمع بالشقاق والانحلال .. وخير مظهر للنظام الطاعة الدقيقة . التي لا تردد معها . ولا حرج في تقبلها ... وليس من همنا هنا أن نتكلم عن مزايا الطاعة . وآثارها في نظام كل جماعة ، ولا أن نورد كل ما ورد عنها في الكتاب والسنة ، ولكننا نحب أن ننوه أن الطاعة لا تجرح العزة ، ولا تهدر الكرامة بحال من الاحوال . فليحذر الناس هذا ، وليعلموا أنه من

Marfat.com

مداخل الشيطان لهدم الجماعات ، وتفريق كل شمل ملتئم • اننا نعمل لله . والله لا ينظر في تقدير الاعمال الى مناصب أصحابها ، ولكن الى صدق النية في ابتغاء وجهه سبحانه •• وقد يتقبل الله من أهل الصف الأخير . مالا يتقبل من أهل الصدارة والإمارة ، وانما شرع الله الطاعة لتكون نظاما ينعقد به الجمع،وتتوجه به الأعمال،فما تحقق لنا هذا المعنى، فهي الإمارة الرشيدة،ولو وليها عبد حبشي،وما لم يتحقق فهو الهدف الذي يجب أن تسعى الجماعة لتحقيقه•• أقول هذا لا لنستحسنه نظرياً وعقلياً ، بل نستحسنه عاطفياً قبل كل شيء ، ونجعل أعمالنا مصدقة له محققة لثمرته المباركة •• ولنذكر دائماً : أن القليل المتجمع ، خير من الكثير المتفرق •• وأن الاجتماع والائتلاف على بعض الخير أو بعض الحق ، خير من الجمع الذي يتفرق أعضاؤه وكل منهم يرى أنه وحده على الحق •• فيجب أن نحقق ثمر الطاعة أولا ، ثم ننظر بعد هذا في شأن الإمرة فإذا كنا ننقم منها أنها لاتتمتع بحسب أو نسب أو جاه أو نحوه، استعذنا بالله ، وطرحنا هذه الأهواء جانباً ، واذا كنا ننقم عدم الخبرة ، وسوء التصرف ، والاضطراب في العمل أو الذهاب مع الأهواء الذاتية ••• عالجنا الأمر بالحكمة ، والحكمة هنا هي الحرص التام على سلامة الجماعة ، فاذا أنذر العلاج بالتصدع كان من الجريمة الاستمرار فيه •

الثاني : الاخاء الفاضل

فيجب أن يسود هذه الجماعات ما يسود الأخوة الموفقين •• وأهم عناصر الإخاء : الحب •• والمساواة •• والتعاون على الخير في السراء والضراء •

Marfat.com

فإذا رأيت اخوة غير متحابين ، فقد دخل عليهم أمر أفسد ما بينهم، واذا رأيتهم يفاخر بعضهم بعضاً بجاهه ، ويكاثر بماله . ويتعالى عليه بمنصبه ، فهو شذوذ لا يجري عليه أمر الأخوة . واذا رأيتهم يتثاقل بعضهم عن بعض في المعونة ، فاعلم أن أواصر القلوب متقطعة .

ونوصي هنا بخصلتين كريمتين كبيرتين :

الأولى : خفض الجناح

وأعني به انكسار الأخ في هذه الدعوة الربانية لأخيه . مسايرة للقول الطيب المأثور: اذا عز أخوك فهن ... ونحن اذ نوصي بهذا نرجو أن تتخذه كل جماعة دستوراً عملياً لها .. عملياً لا نظرياً .. فان الآفة هي انصراف النفس عن اساغة مثل هذه المبادىء الكريمة ... فلو أننا رضنا أنفسنا على اساغتها وتجرعها ، فقد انتصرنا نصراً عظيماً . وأذللنا شيطاناً مريدا كان ينفخ في الأوداج بما يسميه العزة والكرامة والانتصار للنفس .. ولأمر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما من جرعة أحب الى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد . ما كظمها عبد لله . الا ملأ الله جوفه ايماناً يجد حلاوته في صدره » .

فاذا أخذنا أنفسنا فيما بيننا بسياسة الذل لإخواننا . ولو في حالة البغي ، رجونا أن يكون ذلك ماحقاً لأسباب الفرقة والتقاطع .

وبدهي أن هذا الذل الذي نوصي به ، ليس ذل الضعيف للقوي . ولا ذل الفقير للغني ، ولا ذل المتخلفين في نسبهم . لذوي النسب والجاه ، ولا ذل الرجل لعدوه حين ينزله حكم القهر على الاستكانة .. ليس الذي نوصي به شيئاً من هذا ، فهذا كله من الرجس الذي نبرأ الى الله تعالى منه ومن الآخذين به ... وانما هو ذل المؤمن للمؤمن والأخ لأخيه ، ومن تنتظمهم دعوة الاصلاح الالهي في رباط المساواة .

Marfat.com

هؤلاء هم الذين يجب عليهم أن يتعاطوا هذا الذل فيما بينهم فان لم يتعاطوه ، فهم آثمون ، عاملون بيد الشيطان في هدم دينهم ، وان زين لهم الشيطان أنهم على الجادة الواضحة المستقيمة •• فإن فساد ذات البين هي الحالقـة التي تحلق الدين ، وتذهب بمعالمه ••• فإذا كان لابد لأحد أن يرى حظه من العزة ، فلينظر الى ممثلي البغي والعدوان والطاغوت : أي موقع يقعون من نفسه ، فإذا وجد بغضاً ينهضه الى الوقوف في وجوههم ، فذلك هو العزة الصحيحة ••• واذا وجد غير ذلك فليعلم أنه ذليل . ولو انحنت أمامه رقاب وهامات •• وهذا هو المعنى الصريح لقول الله تعالى : « أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين » فهو ذل الرحمة والرغبة في استبقاء الأخ الى جانبك ، وهو كذلك ذل يحمل معنى الاستعلاء ، ولأمر ما ، عدّاه الله بأداة العلو فقال : « أذلة على المؤمنين » ومضى الى الغاية فقال : « أعزة على الكافرين » ••• أما حين ينقلب الأمر الى عكس هذا ، فقد انقلب الى حال من الشذوذ لا يرجى معها صلاح •

كبراً علينـا وجبناً عن عدوكم • لبئست الخلتان الكبر والجبن

ولايظن أحد أن انكسار المرء لأخيه قد يغري المعتدي بالاسترسال في بغيه أو حدته ، فليس هذا من القوانين المطردة ، وقد قرأنا أن أبا ذر رضي الله عنه هفا مرة فعير بلالا بسواد أمه ، فسكت عنه بلال ، فندم أبو ذر ، وألقى بنفسه على الارض وأقسم لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه ، ولم يرفع رأسه حتى فعل بلال ما أقسم عليه صاحبه •

أيها الناس : اعلموا أن الرسول عليه السلام يقول : « المؤمن كالجمل الذلول » فمن أراد منكم أن يكون رجلا عزيزاً ، فليتعلم أن يكون جملا ذلولا، وليضع مثال أبي ذر وبلال بين عينيه ••• أما الهوس

Marfat.com

والعنف ، وأما الشدة والحدة ، وأما المسارعة بالرد الغليظ . والكلام الجافي ، فهو لا محالة شأن الحمقى الفارغين الذين لا تقوم بهم رسالة ولا يناط بهم أمل ، قد خلت رؤوسهم من التمييز والنظر في عواقب الأمور .

الثانية : ترك المراء

وليس من قصدي أن أسترسل في بيان المراحل التي يمضي فيها الجدل ، حتى ينتهي الى حقد وبغضاء . وتدابر وتقاطع . وانما ندل الأخ على ربح قيم مضمون .. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اني زعيم ـ أي كفيل ـ ببيت في وسط الجنة لمن ترك المراء وهو محق. وببيت في أرباضها لمن تركه وهو مبطل » فإذا كنت ترى أن الحق معك أو عليك فاعلم أن الرسول عليه السلام يمد يده « بهذه الضمانة » يقول لك : « ان هذا البيت خير لك من استمرارك في الجدل » فلينظر المرء هل يرفض يد رسول الله ويرد عليه كفالته ؟ ان قال : نعم . فلماذا يبقى مع السائرين تحت لواء هذا الرسول ؟ ... وان قال : لا ... فليقذف بالمراء وأسبابه في وجه الشيطان . وليغنم ما تقدم له يد الرسول صلوات الله عليه .

المراء روح خبيث شرير ، شديد الأثر في محق المحبة . وهدم الجماعة ، والجماعة من لب الدين . والفرقة من صميم الشرك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول شيء نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان ، المراء » وليس مما يشق على نفس الانسان . أن يترك المراء ولو كان محقاً .... قد يقول قائل : انه الرأي . وانه الحق تجب المناضلة عنه حتى يظهر ... ونقول : لكل رأيه . فليعمل به لخاصة نفسه ان رآه حقاً ... وان رأيك يا أخي ليس أغلى ولا أعز من الجماعة . فإن الله تبارك وتعالى يقول : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت

بين قلوبهم » ، فانظر المقابل الذي ستخسره الجماعة بتحقيق رأيك واظهاره •• وأحب أن أقول أخرى : ان الحق الذي يختلف فيه ، هو حق قليل الضوء خافت النور لكثرة ما يلابسه من أخلاط الباطل ولاضرر من ارجاء البحث فيه ، أو العدول عنه اكتفاء بالحق الذي لا خلاف عليه، ولا جدال فيه •••، واشتغال الناس بما ظهر لهم من الحق ، أكفل لسعادتهم وأهدى الى سبيل ربهم •

تلك هي دعائم نجاح الداعية، ومظاهر توفيقه في المحيط الخارجي، أما الخصائص النفسية التي قلنا فيما مضى ، انها تلازم سر الطبيعة التنفيذية ولا تنفك عنه فهي :

الصبر

فقد ابتلي رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه بعقبات ، وأوذوا وهددوا بالقتل والنفي . وغيرهما من ألوان العذاب ، فكان العلاج الأكبر الذي عالجوا به أمرهم هو الصبر •

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا،ولامبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين »•

وما نرى الله عز شأنه ، أوصى رسله بشيء أكثر مما أوصاهم بالصبر ، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة، والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير في معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الابرياء ، وانما الصبر هنا معناه :

١ ــ أن يهضم الداعية ما يلقى من اعراض وعناد ، وتحد ، وأذى ••• بحيث لا يشعر أن هذه العقبات غصة يشرق بها حلقه « لقمة في الزور » فإن ذلك يضايقه ، ويعجله عن حسن علاجها ، بل

Marfat.com

عليه أن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله ، أما «النرفزة» من كل حادث لا يعجبه ، فهي بمثابة وقوف « اللقمة في الزور » وهو مالا يستقيم عليه أمر الدعوة والداعية ، فعليه بحسن الاحتمال واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم ، وحمد الله على كل حال ، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه ، فإنهم لا يعلمون .

٢ — أن يرتقب ما يأتي به الزمن فللزمن مفاجآته وفرصه التي تجيء بغير ماينتظر، وقد يجري الله في غضونه من الاحداث والتصرفات ما يهون به شأن هذه العقبات أو يزيلها ، وما على الداعية الا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن ، بل عليه أن يتخذ مما هضمت أعصابه مدداً لثورته الباطنة وقواه الكامنة ، فلا تزيده الأيام الا قوة على أمره .

٣ — أن يتخذ سبيله في غير طريق هذه العقبات ، عليه أن يدور حولها ويمضي الى ما خلفها ... عليه أن يمضي في دعوته ، يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ويتألف قلوب الجماهير بما يبذل لهم من شتى الخدمات والمنافع والمساعدات ، أمامه مفاسد لا يحميها القانون ، ولا منفعة لأحد في استمرارها فعليه بعلاجها وابعاد الناس عنها .

وهناك مبادىء ، لا حرج عليه ولا على أتباعه اذا هم نفذوها وطبقوها في حياتهم الخاصة ، وكانوا مثلا عملية لها ، تجلو للناس فضائلها ، وتدعوهم الى التحلي بها ... وأنت بهذا انما تقيم « بينات » لدعوتك وتنشىء « حقول تجارب » لبعض تعاليم رسالتك ، ولا يخفى ما في هذا من قوة التوجيه ، والانتفاع بما يبدو من خطأ .

عليه بهذا وبما يشبهه ، فكل جهد يبذله في دعوة الحق ، انما هو مدد يزيد به رصيد النصر الذي ينتظره ... فإذا قعد وكف عن العمل ، معتذراً بأن ليس من يسمع نداءه، أو بأن العقبات والظروف غير مساعدة،

Marfat.com

فقد كف عن مدد مؤكد للنصر ••• وما تقول هذا ذهاباً مع عاطفة نظرية ، أو تزييناً للكلام بشيء من الاستعارة والمجاز ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه وهو الأمر الواقع والله تبارك وتعالى يقول : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكـر أو أنثى » « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم » ••• وقد نعود لبيان هذا المعنى بعد قريب ، وكل ما نوصي به هنا عدم الكف عن العمل في الميادين التي لا حرج من العمل فيها ، فإنك يا أخي بهذا ، انما تصنع بيديك جنود نصرك •

هذه بعض معاني صبر الداعية في باب سياسة العقبات •

وقد قص الله عز وجل على رسوله مثلا فيه الكثير من التوجيه الحسن في هذه السياسة : فإن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى ، راعتـه مظاهر الظلم التي ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلي ••• وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة ، فهو ذو نفس حساسة ، تكره الظلم ، وتثور على مظاهره ، فدخل المدينة مرة على حين غفلة من أهلها « فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ، قال : رب اني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم ، قال : رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، وأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : انك لغوي مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ان تريد الا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » •

Marfat.com

ان الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع ؛ وموسى انما كانت رسالته تخليص بني اسرائيل مما كان يقع بهم ؛ فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلا سديداً في علاج هذا الفساد ؟

ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصري المعتدي ؟ هل استؤصل الظلم وامتنع الأذى ؟ .

ان المصري قد يكون له بعض العذر في ضرب الاسرائيلي وظلمه لأنه انما يجري في ذلك على عادة شائعة موروثة . وسنة مرعية . يرعاها فرعون مصر الأكبر ... فإذا أردنا العلاج الصحيح . فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية . وانما بتغيير العادة الشائعة. وابطال السنة أو القانون الذي يرعاه فرعون ... أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام . فهو عمل لا يقرب من الاصلاح خطوة واحدة . وقد نعته موسى بأنه من عمل الشيطان .

على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية . كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون . ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة في استمراره على ما هو عليه . وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين في غير نفع يعود على الرسالة .

لا نشير بالجبن . ولا بالاستكانة . ولكنا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلي والنفسي . فيعالج مبعث العلة . وأصلها بالحكمة والروية وحسن النظر في مبادىء الأمور ونهاياتها . فذلك هو السبيل الطبيعي للعلاج . أما الوثوب على الحوادث الفردية . ومظاهر الفساد المتفرقة . فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيد بالنظر في عواقب الأمور . وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل ...

Marfat.com

هذا الخطأ يقع فيه الكثير بحسن نية كما وقع موسى وهو شاب يميد به عنف الشباب ، فكانت العاقبة الحتمية أن تنبه الملأ من قوم فرعون الى خطر هذا الشاب فائتمروا به ليقتلوه ، ولكن الله بالغ أمره ، وقد أعد موسى ليقوم في الوقت المناسب برسالته الاصلاحية الخطيرة ...

ورأى عز شأنه ، أن هذا الشاب قد نضج شبابه ، وقويت حرارة ايمانه ، ولكن تجاربه لم تكتمل بعد ، ورأى أن أخطاءه ستكثر كلما رأى مظهراً من مظاهر الأذى المألوفة ، ورأى سبحانه أن هذا من شأنه أن يقطع الطريق على المصلح بالقبض عليه ، أو بقتله ، فكان من تدبيره جلت حكمته أن أراد له أن ينضج على مهل ، في بادية بعيدة ، في رعاية رجل صالح ... فقيض له من نصحه بالخروج من المدينة ، لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، فخرج منها خائفاً يترقب . هذا المثل يقصه الله عز شأنه ليتدبره كل داعية ، فهو بعيد الغور عميق العبرة قيم التوجيه .. فلما تم نضجه عليه السلام وبلغ سن النبوة عاد الى رأس الفساد يعالجه بالقول اللين والبرهان المبين ، دون أن يلتفت الى مظاهر الفساد التي كانت من قبل تخف به الى الخطأ ...

وما على الداعية في علاج هذه العقبة الكبرى .. الا أن يستمسك بعزته ويعتصم بربه ، ولا يفرط في رسالته ، عليه أن لا يفتر عن الدعوة اليها ، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة كما أغرق الله فرعون في نهاية أمره .

ونحن نلاحظ في سيرة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد ثبت فؤاده بهذا القصص ، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردي بل قد كان يصلي في الكعبة في جوف الليل . والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة فلم يرفع اليها يداً ، ولم يحرك نحوها ساكنا ، ولو مد اليها يداً لما رآه أحد ، ولكن ماذا كانت تكون العاقبة ؟ تعود

Marfat.com

الأصنام لما كانت ، بل الى أحسن مما كانت ، ويعاجل رسول الله بالأذى ولكنه صلى الله عليه وسلم علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا ، هو الصبر والاستمرار على الدعوة ، وتجميع الأنصار وتعبئة القوى ، وتقرير العقيدة السليمة والاحتكام الى معايير العقل ، فلما أن أتى الله باليوم الموعود ، كان عليه السلام يشير الى الصنم بقضيب في يده قائلا : جاء الحق وزهق الباطل : فينكفىء الى وجهه الى حيث لا رجعة ، وانا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين ، كانوا كثيراً ما يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثوروا الى أسلحتهم وأن يهبوا في وجوه أعدائهم . فكان عليه السلام يسكن ثورتهم ، ويطلب اليهم أن ينتظروا ... لقد كانوا يعلمون وهم في مكة قبل أن يشرع الجهاد ، أنهم موعودون بيوم يحملون فيه السلاح ، كانوا يقرأون في القرآن المكي ، قوله تعالى : « علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » فتهفو نفوسهم الى هذا اليوم ، ولكنه عليه السلام لم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب . ولم يخف لخفتهم ، بل كان يطلب اليهم أن يكفوا أيديهم عن هذا الآن . ويكتفوا بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، حتى تكتمل القوى ، وتنضج الثمرة ، وتطلع الأقدار بأيام الله .

ونحن نأثم أشد الإثم اذا نصحنا للداعية في علاج العقبات بغير المنهج الذي سنه الله لرسوله ، والتزمه صلى الله عليه وسلم في حكمة وأناة وقوة .

★ ★ ★

فإذا انتهى الداعية من علاج عقباته ، وخلا له الجو ، وصار سيد أمره شرع في اقامة النظام الذي تريده دعوته . واستقبل مرحلة لا تقل

Marfat.com

خطورة ومسؤولية عن مرحلة العقبـات وما لابسهـا من مشقات ؛ ان لم تتضاعف فيها المسؤولية وتكثر التكاليف •

والداعية في هذه المرحلة ، يبني أمة ويؤسس دولة ، يبنيها على تقوى من الله ورضوان . فهو مقيد في مهمته بأصول الرسالة ، منبعث الى انفاذها بوحي طبيعته التنفيذية ••• ولقد ذكرنا فيما سبق شيئاً من قواعد النظام المنشود . ولم يبق الا أن يعلم الداعية مرة أخرى أن الله عز شأنه قد ساق تكاليف الرسالة مساقاً واضحاً سهلا . لا غموض فيه ولا لبس . ساقـه في صور من الأمر والنهي . وبدهي أن انساناً ما ، لا يمكن أن يضل مهمتـه بين الأمر والنهي . زاعمـاً أنه لا يميز بين الأمر والنهي •

★ ★ ★

وقد تقرر فيما مضى أن هذه الطبيعة التنفيذية هبة الهية للأفذاذ المسعودين . ولكن الانسان يستطيع أن يحصل لنفسه حظاً كسبياً منها اذا هو أخذ بالتجارب الآتية . أو بما هو خير منها ان وجدها •

أولا : الاطلاع على تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ••• واستخلاص سيرته كداعية ••• ثم تقسيم هذه السيرة الى مراحل في الدعوة منظمة ••• ثم الوقوف عند كل مرحلة لدراستها وتفهم ما كان له عليه السلام فيها من أسلوب خاص في معالجة ظروفها •

وما أظن أن المقام يقتضيني أن أعرض لبيان أقسام هذه السيرة الجليلة على أننا سنذكر ــ ان شاء الله ــ في باب مصادر الداعية ، في فصل قراءة القرآن شيئاً عن جهاده عليه السلام •

ثانياً : جمع ما ورد في القرآن الكريم عن الأوامر الإلهية التي خوطب بها الرسول كداعية ، وتصنيفها وتبويبها ، ليخرج منها دستور عملي للداعية. اذا سار عليه فقد أدرك من غبار النبيين ما لم يدرك غيره•

Marfat.com

ثالثاً : جمع مأأخذ الله على رسله وعاتبهم عليه . كالذي سجله القرآن على موسى وابراهيم عليهما السلام . واحصاء ما أثنى به عليهم . والانتفاع بكل ذلك في حرص ورغبة .

رابعاً : العمل . والتنفيذ . والتطبيق . والتمرين . والحركة . فإن ذلك كله يقدح زنده ويثير رواكد نفسه .

خامساً : الأخذ بما أوصينا به في الروحانية الاجتماعية ... وهو مبسوط في مكانه سابقاً .

سادساً : وصل نفسه بالدعوة . وكثرة التفكير في مشكلاتها ومسائلها . وما يحيط بها من ظروف . وما يعترضها من عقبات . والاجتهاد في تذليلها . فإن هذا بمثابة عملية المزج التي تخلط الدعوة بقلبه . وتخلط قلبه بالدعوة . ويغدو هذا القلب ميداناً موقوفاً على هواتفها . تتصايح فيه وتتصاول . ولا مجال فيه لغيرها من شواغل الحياة الرخيصة ... واذا بلغ الداعية هذه المنزلة . فقد أدرك حظاً كبيراً مما نريد له . اذ تصبح خواطره كلها ربانية مطهرة .

* * *

من بركات الطبيعة التنفيذية

وقد مضى في تضاعيف هذا الفصل بعض بركات الطبيعة التنفيذية. ولا بأس بالإشارة الى بعض آخر . لعل الرغبة في تحصيل ثماره تثير الهمة الى أن تكون من أهل العمل والتنفيذ .

١ ــ اتساع فقهه في الدعوة . ورسوخه فيها . وازدياد خبرته بالحياة وطبائع الناس ... ذلك أن الطبيعة التنفيذية تنقل الداعية من حيز الى حيز . تنقله من حيز القواعد المتصورة الى حيز القواعد المطبقة

المنفذة ، وهو الذي يطبقها بنفسه ، أو بإرشاده وتوجيهه ويرى أثرها في الحياة ... هذا الى أن مهمته ليست تطبيق القواعد فحسب . بل مواجهة مطالب المجتمع ـ وهي كثيرة متشعبة ـ بما لا يخرج عن روح رسالته ... وهنا يجد كأن أصول الرسالة قد أثبتت في ذهنه فروعاً لها . وكأن القواعد الكلية قد ظهرت لها تنوءات بمثابة الجزئيات ، وهكذا تصبح الرسالة مرنة في ذهنه ، وذهنه مرناً للرسالة ولمطالب الجماعة . فيتسع أفقه الفقهي والعملي ، ويعظم تعمقه في فهم أسرار الدعوة ، وملابسته لطبائع الناس وما يصلحهم . وهـذا باب واسع نكتفي فيه بهذا القدر . ولا شك أن الناس يدركون الفرق الهائل بين الفقه الذي محصته المسؤولية وتجارب الحياة ، وبين الفقـه الذي لم يكن من حظـه الا أن ينقل من سطور الكتاب ، الى رؤوس النظريين الكسالى .

★ ★ ★

٢ ـ مقاساة الداعية لمشقات التنفيذ وتطبيق القواعد والجزئيات على نفسه يلين أعصابه ، ويطهر نفسه ، ويثير الحرارة في قلبه ... ومعنى هذا أنه يصير ذا وجدان يقظ ، ووعي باطني متنبه ، يتأثر بما يعرض عليه ، ويتلفت لكل ما يمر به ... وأهم ما يهمنا هنا أن الداعية بهذه الحالة يصبح أقدر من غيره على الاتصال بروح القرآن الكريم . على ما سيأتي في باب مصادر الداعية ان شاء الله ، وتغدو أعصابه بهـذه الليونة كأنها « موصل جيد » لكهربائية الكتاب العزيز وأسراره .

٣ ـ أكبر مظاهر الطبيعة التنفيذية،انهاض الداعية الى العمل... والعمل قانون الله في هذه الأرض ، وهو رسالة الانسان فيها ، وقانون العمل ارتباطه بالأجر والشر ، وهو قانون لا يتخلف في الدنيا ولا في الآخرة ، « فمن يعمـل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمـل مثقال ذرة شرا يره » .

Marfat.com

وبدهي أننا نقصد عمل الخير العام لوجه الله ، لا العمل الذي تبعث اليه الاهواء ويؤدي شره الى مخالب الأنانية .

حقاً ان هــذا القانون لا يتخلف ، حتى في العمل لهــذه المآرب الذاتية « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منهــا » ولكنا نتكلم عن العمــل الأصيل والرسالة العليا للانسان فليس العمل مالا وعقاراً ، وليس الاجر تسنم الذروة في المناصب أو الشهرة ، وانما الأجر أن تبني لنفسك ولغيرك في عالم الحقائق أعمالا من الباقيات الصالحات ... كنت أعود مريضا شيخا ، في مرضه الأخير ، وكانت العلة قد برحت به . وكان قد أسرف على نفسه طول حياته ، في شبابه وشيخوخته ، وارتكب أكثر ما يرتكب آثم مــن ذنوب ، وكانت شخصيته محبوبة مهيبــة معا في الناس ... وحضرته نوبة من تباريح العلة وأنا عنده ، فلما فرغ منها أو فرغت منه ، قال لي وهو يتنفس : اني أنظر الآن الى عمري الذي مضى أنظر الى الستين سنة ، فأجدها قد انضرت كلها في يوم واحد . بل لو انضرت في يوم واحد لهان علي الأمر ... اني أنظر فلا أجد الا كلاماً فارغاً ، وأعمالا كلها لهو ولعب وأياماً كالاوهام الهائمة . وأنا فيها انسان عابث تافه لا قيمة له ... لقد طالما اغتررت بنفسي . وطالما غرني الناس فاحترموني ، وأقبلوا علي وأحبوني ولكني الآن أنظر الى نفسي، والى أيامي فلا أجد شيئاً . فلو كان لي أن أنصح الناس لنصحتهم بالعمل الباقي ، الذي يبقى في صحفهم وموازينهم ، يوم ينظرون الى أنفسهم وصحفهم بمنظار الحقيقة لا بمنظار الأوهام ... ثم بكى وقال : يا ليت لي يوماً واحداً أرد فيه الى عافيتي . لأعمل شيئاً بل لأبني فيــه نفسي ؛ وألقى الله وأنا ابن يوم واحد ، لأني ان لقيته الآن لقيته وليس لي شيء يوضع في ميزان، الا العمر الطويل، الذي قضيته في لا شيء ....

Marfat.com

واستمر حديث الرجل في كثير من هذا المعنى ، ولكني أقتصر على ايراد هذا القدر ، فهو يبين أن الحياة ليست مالا ولا منفعة ذاتية ، وأنها ليست متعة يقضي منها الانسان مأربه ، وأنها ليست طعاماً وشراباً ولباساً • وأنها ليست كسلا ودعة وراحة ، وانما هي العمل الباقي الذي تعمله لمؤازرة الحق والفضيلة والخير العام ، ترجو به وجه الله ، لا وجه نفسك والناس ، فهذا وحده هو الذي يتراءى لعينيك في أواخر أيامك ، حين تنظر بمنظار هذا الرجل النادم •

تمثل معي يا أخي مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الأخير ، وهو يجر وراءه عمره جراً •• ماذا كان يرى عليه السلام في هذا العمر ؟ انه كان يرى أياماً بل ساعات بل دقائق ، تكدست فيها الحقائق وأعمال الجهاد الشاق الطويل • لا يرى فيها دقيقة فارغة بلهو أو لعب •• حتى أيام جاهليته عصمها الله من الشرك والأوزار ، وكانت كلها تنفح بريح النفس الزكية الطيبة ، اذ كان يقري الضيف ، ويحمل الكل ، ويصدق الحديث ، ويعين على نوائب الحق ، فهو عمر بأعمار ، وحياة لو وزنت بأجيال البشرية كلها لرجحتها •

فانظر — يا رعاك الله — الى فضل الطبيعة التنفيذية حين تبعث صاحبها الى العمل ليبني نفسه — ومن جاهد فإنما يجاهد في الحقيقة لنفسه — فيلقى ربه حين يلقاه بأيام حافلة ، وأعمال ضخمة ، وهيكل انساني ، أثقل في ميزان الله من جبال الدنيا ، فتعساً لأولئك السخفاء التافهين ، الذين يلقى أحدهم ربه ، وهو هامة فارغة ، تتزايل كالأوهام حين ينظر اليها في عالم الحقائق •

ان كلامنا انما يكتب تاريخه بنفسه ، وما الأعمال التي نعملها الا سطور هذا التاريخ •• فجلسات المقاهي ، والأندية الفارغة ، والأحاديث التافهة ، والايام اللاهية ، والحركات الغافلة • كل هـذا نقش على الماء

أو نقر في الهواء ويبقي بعد ذلك مسؤوليتك الخطيرة ، عن عمرك فيما قضيته ، وشبابك فيما أبليته !؟.

لا أدري متى يصحو الناس . ومتى يفيقون من هذه الغفلة الغليظة الكثيفة ! .

ان قانون الله العمل .. فمن أخذ به . فقد وضع الله في يده مفاتيح الدنيا وسر ادارتها . ومن تركه وعاش في بطنه وشهوته وغروره . فهو خارج عن سنة الله . وهو أشبه بالطفيليات والحشرات المؤذية التي تضايق الأجسام الحية والبيوت العامرة .

وان قانون العمل الثمر، وليس الثمر كما قلنا مالا ولا عقاراً. وانما هو ازدهار للفضيلة وقوة للحق . وتمكين لمعاني المساواة والايثار والبر العام ، فهذا هو الثمر الحق . يثمره العمل الحق . ولا عمل بلا ثمر . بل ان العمل ليحمل في تضاعيفه سر الثمر الذي لا ريب فيه . فمن غابت عن عينه ثمار عمله . فليعلم أن لحصد الزرع وقتاً لا يعلمه الا الله . وهو على كل حال لن يخرج من هذه الدنيا الا بعد أن يكشف له الله عما عمل ويريه ثمر ما عمل .

فأولئك الذين يطمعون في الأجر بلا عمل . قوم عجيب شأنهم . فهم انما يأملون نتيجة بلا مقدمة . ويبغون أن يبنوا نفوسهم بلا لبنات . ويكتبوا تاريخهم بلا كلمات . وهذا لا يجوز الا في دنيا من الأوهام . لا في حياة من الحقائق . نحاسب على دقائقها وجلائلها . لا يفلت ميزانها ذرة من ذراتها .

كثير من الناس يريدون النجاح ، ويحبون أن ينتصر الحق . ولكن السبل تعمى على أحدهم . فيجد نفسه مفكراً ماذا أعمل ؟ .. فليعلم هؤلاء أن كل كلمة عمل . وكل خطوة عمل . وكل حركة عمل . وكل

Marfat.com

اشارة عمل ، والحركة تلد الحركة ، والعمل يفجر آفاق العمل ، فما عليه الا أن ينهض وأن يتحرك، وأن يغدو ، وأن يروح ، وأن يهتم ، وأن لا يركن الى سابق كسله ومجالسه التافهة •• قانون الله العمل ، وهذا يصدق على أصغر كلمة ، وأقل حركة « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه آجراً عظيماً » والعبرة أن يكون كل ذلك مقصوداً به وجه الله ، مراداً به خدمة الحق ، ولن تظل سبل العمل معماة أبداً ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وان الله لمع المحسنين » •

وأخيراً أيها الدعاة ان الذي تنهضه طبيعته التنفيذية الى العمل ، انما تضع في يده باسم الله مفاتيح الدنيا ، وسر ادارتها، مفاتيح كنوزها، وقصورها وخزائنها وممالكها ، فلينظر أحدكم أي أمانة ألقيت بين يديه ، بهذه المفاتيح — مفاتيح العمل — ملك الداعية الاكبر صلوات الله عليه ، ما ملك ، وملك الدعاة من بعده ما ملكوا ، فانظروا ماذا تأخذون من هذه المفاتيح وماذا تدعون •• وماذا تفتحون من هـذه الدنيا وماذا تهملون •• ألا ما أزهد الناس في الخير الذي بين أيديهم ، وأبعدهم عن النصر وهو قريب منهم ، وأجهلهم بحقائق أنفسهم وهي سافرة لهم•• العمل •• — أيها الناس — سر النصر ، وقانون العزة ، وسبيل السعادة والسيادة •• ألا ليت الناس يفهمون !

⋆ ⋆ ⋆

٤ — نور من البشاشة يسطع في آفاق الداعية ، فلا يشعر معه بيأس أو خيبة رجاء •

قل ان هذا البشر هو الثقة أو هو الأمل المتجدد ، أو هو حقيقة الرجاء ، ولكنه على كل حال من أسرار الطبيعة التنفيذية وهباتها الكريمة الغالية •

Marfat.com

ولا أحب أن أدخل بك في معنى الأمل ، أو بيان حقيقة الرجاء ، ولكني أريد أن أقول : ان الطبيعة التنفيذية تملأ قلب الداعية بشعور هنيء سعيد ، كله يقين بأنه في الميدان المخصب لا محالة .. شعور الزارع المطمئن الى جودة بذوره وسلامتها . والى خصوبة أرضه وقوتها ، والى ملاءمة الجو وطبيعة الهواء .

فانظر ماذا تسمي شعور هذا الزارع ؟

هل تسميه أملا ؟ انه شيء فوق الأمل ، لأن الامل قد لا يتحقق . ولأن الامل فيه شيء من خداع الاماني . وشطط الخيال . ولأن الامل يفترض حسن الظن بالظروف وسوء الظن بها . ولأن الامل يرمي بأنظار صاحبه الى توقع الثمر في المستقبل فقط ، ولكنه لا يتوقع ذلك في الحال .

أما شعور هذا الزارع فهو في الحقيقة يقين لا يتطرق اليه شك . فالبذرة سليمة ، والتربة جيدة ، وطبيعة الجو ملائمة مأمونة الآفات لا محالة . هذا الزارع هو الداعية الحق . وهذه البذور هي الدعوة التي يلقيها في الناس . وهذه التربة هي فطرة الله في الناس اذا بلغت البذرة أعماقها حضنتها ، وتفاعلت بالخير معها . وملاءمة الجو . هي رعاية الله سبحانه ، وكفى بالله راعياً وكفيلا .

لقد قلنا في صدر هذا الفصل : « ان أوضح مظاهر فقه الداعية أن يدرك أن الرسالة حق ، وأن ما عداها باطل ... ويميز الفرق بين الحق والباطل ، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التي تتراءى لنا في أضغاث الأحلام ، وبين ما نراه في عالم اليقظة والمشاهدة » .

فالداعية في ميدان الدعوة ، يثق ويوقن ايقاناً عميقاً . بأن ما معه هو الشيء الوحيد المثمر ، وأن ما عداه لا ثمر له لأنه وهم لا وجود له ... ولك أن توازن بين شعور زارع يبذر بذوراً سليمة ، وآخر

Marfat.com

يبذر بذوراً عفنة وهو يدرك أنها عفنة ••• بل لك أن توازن بين هذين: وأحدهما يبذر البذور السليمة ، والآخر ليس في يده شيء ، الا أنه يقبض قبضته ثم يبسطها في الجو ، لينثر على الارض لا شيء ، محاكياً فعل الرجل الاول ••• فأي العملين حق ، وأيهما باطل •

لا تظن يا أخي أننا نفترض فروضاً جدلية أو وهمية ، بل اننا نجلي لك وجه الحقيقة ، ونحن ندرك مع هذا ، أننا لم نبلغ من التعبير كل ما نريد ، لأن هذا فوق طاقتنا •

فالداعية يرى أن ما معه حق لا محالة ، وأن ما عداه فهو صور الأوهام التي تتراءى للناس في أضغاث الأحلام ••• وأن هذا الذي معه هو البذر ••• لا أقول هو البذر الذي سيثمر لا محالة ، بل أقول هو البذر وهو الثمر في الوقت نفسه ، أي هو البذر ذو الثمر الحاضر ، ولا نحب أن ندخل بالناس فيما قد لا يفهم فنكتفي بإحالة القارىء العزيز الى ما يحكيه الله عن سحرة فرعون فإنهم ما كادوا يرون الحق الذي ألقاه موسى : حتى وقعوا ساجدين مؤمنين ••• فهل تراهم تقبلوا الحق ثم حضنوا بذره في فطرتهم ، ثم أخذت البذور تخضر ، وتكبر وتطول حتى أثمرت سجوداً وايماناً ؟ أم أن الثمرة كانت حاضرة في البذرة على ما يقصه الله تعالى : « فألقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون »(١) « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ••• وألقي السحرة ساجدين • قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون »(٢) هذا المعنى العالي هو الذي نعنيه ، وهذا الفقه العميق ، هو الذي نسميه شعوراً متمكناً من قلب الداعية ، لا يحس معه بيأس ولا خيبة

---

(١) سورة الشعراء •
(٢) سورة الأعراف •

Marfat.com

رجاء ، بل هو نور اليقين الذي يرى من ثسر البذور مالا يراه أقوى المبصرين ...

كنت أركب سيارة من سيارات الأوتوبيس الريفية مع الداعية المشار اليه بالبنان رضي الله عنه ... ووقفت بنا السيارة عند احدى نقط المرور ، وأخذ الجندي يعد الراكبين ، ويؤدي واجبه المعتاد نحو كل سيارة . واذا برجل كان يجلس مع الجندي، يقبل على فضيلته ويسلم عليه ويقبل يده ، ويدور بينهما الحديث القصير الآتي :

ــ مش فضيلتك فلان ؟

ــ نعم وأنت من ؟

قال : أنا فلان من مواليد هذه القرية ، وأهلي بها .

قال فضيلته : ومن أين تعرفني ؟

قال : رأيتك في شعبة الإخوان المسلمين بامبابة تخطب ... وأنا عامل أطلب العيش هناك . وأتردد أحياناً على الشعبة . وأنا هنا الآن في زيارة قصيرة لأهلي .

وهنا كان جندي المرور قد أتم اجراءاته العادية واستأنفت السيارة سيرها فالتفت الي فضيلته وقال :

« لقد تألفت في هذه القرية شعبة » ... فعجبت وقلت : هل أفضى لك هذا الرجل بشيء لم أسمعه عن هذه الشعبة ؟

قال : لا ... ولكن هذا كلام في الله . لن يضيعه ... سيجلس الرجل مع من كان معهم الآن . فيقولون له : من هذا الذي سلمت عليه؟ فيقول لهم : انه فلان . فيقولون له : وما شأن فلان هذا ؟ فيقول : انه يدعو الى كذا وكذا ويقول في دعوته كيت وكيت .

Marfat.com

قال فضيلته : « وهذا كلام حق ، أو بذرة طيبة صالحة ألقيت في أرض طيبة صالحة . عودنا الله أن تؤتي أكلها طيباً صالحاً •• » واني أدعك أيها الأخ تتأمل هذا الحديث القصير ، وتتأمل كيف استخرج منه هذا الداعية الفقيه ، حقائقه الصحيحة الجميلة ••• ثم أسألك بعد هذا • أي شعور كان يملأ قلب هذا الداعية حين رأى في تلك الكلمة القصيرة ، كل هذه المعاني الجليلة ؟

انه شعور الثقة بالأجر المعجل ، والثمر الحاضر ، شعور اليقين الذي يدرك حقيقة الحق ، وأثره في هذه الحياة ، واذا كان هذا شعوره تلقاء كلمة صغيرة . من كلمات الحق ، فكيف يكون شعوره تلقاء كلام عظيم كثير ؟

لا تقل ان شعوره تبعاً لذلك يقوى ويعظم ، لأن الحق هو الحق ، لا يقوى ولا يضعف بكثرة الكلام أو قلته ، فالحق في الكلمة الواحدة ، لا يقل جلالة عن الحق في الكلام المتوارد الكثير •

ومن هنا ترى الداعية الحق ، يفطن لقيمة كل كلمة يلقيها في دعوته ، كما يفطن لجلال كل كلمة تمر به من كلمات الحق ، فتراه يطرب لما لا يطرب اليه غيره ، ويستبشر به ، ويتسهل له ، ويرى فيه من الخير مالا يراه الحاضرون •• لا تقل انه الأمل فهو أمر فوق الأمل وغير الامل وسمه ما شئت ، ان كنت لا ترضى أن تنعته بأنه نور اليقين والثقة • وشعور الاطمئنان والبشاشة بالثمر الحاضر والأجر المعجل •

أترى هؤلاء يتطرق اليهم يأس ، أو قنوط ، أو سأم ؟ أم هو الفرح المتجدد بفضل الله ، والهمة التي يرد عليها كل آن من قوة الحق مدد وأمداد ؟

واعلم أن ثقة الداعية في الناس وحسن استعداد فطرتهم ، لاتقل عن ثقته فيما لديه من الرسالة ••• ولهذا تراه يدعو الصغير والكبير ، والغني والفقير ، والسوقة والأمير ، يدعوهم وهو يرجو الخير في فطر الجميع ، ولا يتوقع الإعراض والصدود أبداً عند أحد •

هل يسيء الزارع ظنه بأرضه الخصبة التي قامت كل الشواهد على سلامتها وقوتها ؟

اذاً فكيف يسوء ظن الداعية بفطر الناس التي فطرهم الله عليها ؟ ان الفطرة حق ، وهي من أمر الله ، فإذا أعرض بعض الناس عن الحق ! فان الفطرة لم تعرض ، ولكن أهواء من الباطل وأغطية من الشهوات حالت بين الدعوة والفطرة ، ألا تسمع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ! وهل أرسل الله موسى وهارون الى فرعون ، الا وهو يعلم أن هذا الجبار العنيد ، يحمل في أطواء نفسه ، فطرة مستعدة للخير ، ولهذا قال سبحانه : « لعله يذكر أو يخشى » ؟

فالداعية الفقيه ، يستقبل الناس جميعا ، وهم لديه في حسن الاستعداد سواء وكله رجاء بل يقين في أن يجد من الجميع أعواناً له على الخير الذي يدعو اليه فإذا أعرض عنه انسان ، أو رده بسوء ، فانه لا يتوقع الشر من الآخرين أبدا ، اذ هو يدرك أنهم ينطوون على فطرة الحق ، والحق مبعث الأمل والرجاء بل مبعث الثقة واليقين ••• ولهذا تراه يستقبل الآخرين برجاء جديد ويقين جديد ، كأن له في كل فطرة وفي كل وجه هاتفاً يهتف به : هنا النصير ، فلا يفوتنك هذا النصير • ولعل من خير ما نوضح به هذا المعنى ، ما كان منه عليه السلام في العام الحادي عشر لبعثته •

Marfat.com

خرج عليه السلام هذا العام ، الى وفود العرب وقد حضرت الى مكة في موسم الحج ... خرج الى الوفود ، والقبائل ، والبطون ، والعشائر وهم شيء كثير . قد ضربوا خيامهم ، فوق الآكام ، أو انتشروا بها على وجوه القيعان .

خرج اليهم عليه السلام في العام الحادي عشر يدعوهم الى الله . وقد جاوز الحادية والخمسين من عمره . فأخذ يجول خلال الديار ، ويمشي بين الخيام ويتنقل بين المضارب ، يوماً وآخر طيلة أيام الموسم يقضي نهاره سائراً فوق رمال الصحراء الثقيلة ، أو حزونها وحجارتها المتعبة ؛ يغشى مجالس القوم . ويرتاد منتدياتهم . ويعرض نفسه على شتى القبائل ومختلف العشائر . يأخذ منهم ويعطيهم ويناقشهم ويناقشونه ، ثم يردونه أخيراً رداً جميلا أو غير جميل . ويعود في آخر يومه ويده صفر .

وها هو ذا الموسم أوشك أن ينفض جمعه ، وأن يرحل أهله . ولم يظفر رسول الله منه بشيء ... وها نحن أولاء في أحد أيامه الأخيرة . وقد أخذ الجميع يستعدون للرحيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل على شأنه . لا يثنيه اعراض الناس ، ولا يؤيسه انقضاء الموسم بلا نتيجة . بل يستقبل كل يوم ببشر جديد . ويستقبل كل وجه بشعور جديد ... في هذا اليوم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من طوافه بين مضارب الخيام ومجالس العشائر . وقد أنهكه تعب الأيام السابقة . وهو رجل قد نيف على الخمسين . وأثقلته السنون ... وبينما هو عائد رأى من البعد نفراً ستة من أهل يثرب لم تبلغهم دعوته بعد .

لو أن أحدنا في هذا المقام لسخط على يومه ، ونفض يده من الناس . ولهتفت به هواتف الضعف ، تؤيسه من هؤلاء الستة . كما يئس من جماهير الموسم وجموعه .

Marfat.com

ولو أن أحدنا في هـذا المقام ، وهو يجر جسمه الثقيل في سن الخمسين ، عقب طواف نهار طويل . للوى وجهه عن هؤلاء الستة ليسرع الى بيته ، حيث يريح هذا الجسم المهدود المكدود .

لقد كان هؤلاء الستة يصلحون من شأنهم ، ويحلقون رؤوسهم ، فلو أن أحدنا في هذا المقام لانطلق في اعراضه قائلا : وماذا أجد عند هؤلاء الذين يحلقون رؤوسهم من الإنصات لكلامي ؟.. انه لم ينصت اليه التارغون ، فهل ينصت الذين يحلقون ؟ ... بل لو أن أحدنا في هذا المقام لاستنكف أن يغشى بدعوته مجالس الحلاقين أو ما يشبه الحلاقـين .

أيها الأخ قف ، فقد وقف مولانا سيد الدعاة . لقد يمم وجهه نحو هؤلاء النفر الستة ، ها هو ذا يخطو في وقار السن . وجلال النبوة. وبشر اليقين ، حتى يقف على النفر الستة .

تبارك الله رب العالمين ، لقد كان هؤلاء النفر هم أهل العقبة الأولى . ونواة الأنصار بالمدينة ! ومفتاح العهد الجديد . الذي استقبله الإسلام . بعد الهجرة الكبرى .

ولا يسعني الا أن أترك لك أن تتأمل هذا المثل . وبعد مراميه وعمق معانيه ولا تحسبن العبرة في هذا المثل . أن رسول الله وجد من هؤلاء النفر مطاوعـة لأمره . بل الشاهد هنا . هو هذا الشعور القوي ، الذي يلازم صاحبه حين تبعثه النهضة الى العمل ، وحين يظن به اليأس والملل ... وليس ضرورياً بعد هذا أن يكون قد آمن به نفر أو أقل . أو لم يؤمن به أحد ...

ان هذا الشعور صادق حق لا محالة . آمن الناس بالداعية أو لم يؤمنوا .. فإن استجابة الناس شيء . وصدقه في نفس صاحبه شيء آخر. فليس ايمانهم دليل صدقه، كما أن اعراضهم ليس دليلا على كذبه.

Marfat.com

ولقد عرضنا حديث الداعية المشار اليه بالبنان ، والشعبة التي تحدث عنها لم تؤلف بعد • أفتظن هذا يغير من حقيقة ما قيل مثقال ذرة؟ أو ينال من صدق هذا الشعور شيئاً ؟

ان معك قرشاً ، فإن شئت جعلت هذا القرش رغيفاً فاشتريت به رغيفا ، ، وان شئت جعلته ثوباً ، وان شئت جعلته سلاحاً ، أي أن هذا القرش ، يحمل من قوة الشراء ما يصيره في يدك ، رغيفاً ، أو ثوباً ، أو سلاحاً ، فإذا لم تجد في السوق رغيفاً أو سلاحاً ، فالقرش محتفظ بقيمته . حتى يظهر الرغيف أو الثوب أو السلاح •

وكذلك شأن الحق فهو « عملة » هذا الوجود التي تقوم عليها سننه وينتظم بها أمره . وكل من يقتني هذه « العملة » فهو غني قادر ، يلازمه شعور الأغنياء القادرين ••• وكل من يقتني « عملة » غيرها ، فهو مفلس مزيف ، يلازمه شعور المفلسين المزيفين ، وهذا الشعور الذي يبث اليقين والثقة في نفس صاحبه بأن حياته مليئة بالجد ، والحق، والكرامة . هو الذي يعنينا من هذا كله ، لأنه يشعر صاحبه بمعنيين عظيمين •

الأول : أنه لا يعمل عملا الا وهو يدرك أن ثمره حاضر حضور الرغيف في جوف القرش ، وهذا يجعل حياة المرء حافلة بجلائل الأعمال، أو حافلة بأنواع الثروة والغنى ، فلا يتصور معه قعود عن عمل ، أو زهد في قول ، أو اعراض عن حركة ، أو خطوة متى كانت في الحق ، لا يتصور هذا أبداً ، الا اذا تصورت رجلا يلازمه الشعور بحب المال وعدم حبه في الوقت نفسه ••• ان الشعور بقيمة الحق ، كالشعور بقيمة النقد ، ولكن الساعي في الحق ، ليس كالساعي في المال ، لأن صاحب المال قد ينجح سعيه وقد لا ينجح ، أما صاحب الحق فنجاحه منوط بصدق نيته . فإذا صدق النية ، كان عمله هو نفس النجاح لأنه

Marfat.com

هو نفس الثروة ••• ان القلب هو الدار التي تضرب فيها هذه الثروة ، فكل كلمة منها ، وكل عمل عليه طابع القلب ، فهو « عملة » حق وثروة صدق لا قيمة لغيرها في هذا الوجود •

والداعية الممتاز هو الـذي يشعر بقيمـة الحق ، ويشعر بشدة افتقاره اليه ، بل بشدة افتقار الناس جميعاً اليه ، فهو يعمل لتحصينه ، ويعمل لتأييده وتثبيته ، وهو في أثنـاء عمله ، يلازمه الشعور بتدفق الثروة بين يديه •• فانظر يا أخي هل ييأس مثل هذا ، أم هو العزيمة السعيدة المجددة ؟

الثاني : أنه يسمو بمعنوية صاحبه وبكرامته ومقومات رجولته ، ولا نقول كما يسمو القرش بمعنويـة حامله ، لأن النسبة بين طرفي التشبيه شاسعة الآماد وان كان كل منهما يماثل الآخر في الاستمداد من العملة التي يحملها • واذا كان الحق يصنـع الرجال ، ويصوغ الأبطال ، فهذا السمو بمعنوياتهم ، هو سر الصناعة وجوهر الصيغة ، وما ظنك برجال ينظرون الى الناس وهم يتعاطون الباطل ويتعاملون به فيما بينهم ؟•• انهم ينظرون اليهم كما ينظر أحدنا الى أطفاله . وهم يصطنعون فيما بينهم عملة من الصفيح أو الخزف أو الورق الملون •• وما أظن موقفاً يبرز للرجل حقيقة نضجه. وامتياز رجولته. كهذا الموقف الذي يقفه على هؤلاء الأطفال •

★ ★ ★

٥ ــ ان الطبيعة التنفيذية اذا دفعت بالداعية الى ميدان الدعوة وغمرته في محيطها ، نشأت بينه وبـين مختلف الطوائف ، معاملات متباينة . وصلات متعددة ، منها ما هو سار . ومنها ما هو غير ذلك •

فالناس منهم المؤيدون ، ومنهم المخالفون ، ثم منهم المعارضون المعاندون • ثم منهم المعادون الذين ينحرفون في عدائهم الى الأذى والاعتداء ••• وهو مضطر حيال ذلك الى أن يسلك مع كل طائفة سياسة خاصة.الى جانب مايعانيه من مشقات الجهاد وسياسة العقبات••• وكثيراً ما يبيت الداعية ليله مهموماً مفكراً يسيد قلبه بتفاعلات ما حدث له . بل كثيراً ما يسبب ذلك أزمات تثقل كاهله . وتسحق همته ، وتتركه أعجز ما يكون . يسيء الظنون بحوله وقوته . فليس في الوجود ما هو أعجز منه . ولا أضعف منه . ولا أفقر منه الى حول الله العلي القدير •

هذه الأزمات القاسية التي تجرد الداعية من حوله وقوته الذاتية ، وتسحق فيه كل شعور بمزية شخصية . وتدعه حطاماً لا سر فيه . الا أن يتداركه الله بفضله . هي أزمات مباركة . تصهر قلب الداعية بحرارتها المباركة . فإذا انصهر تخلص مما فيه من شوائب الغفلة والسهو وصار صاحبه أشد ما يكون احساساً بضعفه وعجزه وأصدق ما يكون افتقاراً الى عون الله وقوته . وأقوى ما يكون انبعاثاً وفراراً الى حمى الله عز وجل . فإذا دعا الله حينئذ كانت دعوته من الأعماق . تهتف بها معه كل جوارحه . وينطق بها واياه كل كيانه . فتصعد ناصعة قوية ، تتنحى لها الحجب حتى تخر أمام عرش الله عاجزة ساجدة . تسأله الغوث والمعونة والنصر ••• وان الله سبحانه لأشد ما يكون استجابة ، حين يكون عبده منصهراً في هذه البوتقة المباركة . يخاطبه بلسان العجز المحض . وشعور الهوان المصفى •

هذه الحالة . مباركة الجوانب . كثيرة النفع والخير ، فهي تنفي عن صاحبها ما عساه أن يكون قد دخله أثناء غفلته أو سهوته ، من أنه مجاهد ذو عمل وأثر . أو ذو موهبة وبلاء ، أو ذو حول وطول ••• فإن بذور الطغيان اذا نبت في النفس وشاعت معانيها في القلب ، أثمرت

Marfat.com

اكتفاء المرء بنفسه عن الله سبحانه ، وهذا مركب الطغيان ؛ وهو من معاني التصوف العالي ، المأخوذة من قول الله سبحانه : « كلا ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » أي أن الانسان اذا رأى نفسه استغنى بعلم أو موهبة ، أو جاه أو منصب ، أو مال وقوة ، أو نحو ذلك ، ركبه الطغيان . أو ركب الطغيان الى ما شاء له شيطانه ؛ ومن هنا كان عليه السلام يبرأ الى الله من حوله وقوته ويقول : « اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك » هذه الحالة العالية المطهرة ، لا بد منها لترحض(١) عن الداعية ما قد يلحقه من الأذى ، ولترده دائماً الى معرفة حقيقة نفسه ، وهوان قدره . ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، ومن بركاتها أن الانسان حين يدعو الله من بوتقة الضعف . ويخاطبه بشعور العاجز المقهور ، يقبل الله عليه . بما لا يدور في حسبانه من النصر .. اقرأ معي ما يحكيه الله عن نوح عليه السلام في احدى هذه الأزمات الوجدانية المنصهرة « فدعا ربه أني مغلوب فانتصر » فأنت ترى في قوله عليه السلام : « اني مغلوب » شعور الرجل المنهار ، الذي فرغت نفسه من كل حول وقوة . فنزع الى الله سبحانه في صدق . أن ينتصر له من أعدائه المكابرين .. فتكون الإجابة بما ليس في الحسبان « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » .

أيها الداعية ان دعوة الضعيف . الذي يقبل على الله بشعور القهر والغلبة تفتح أبواب السماء . وتفجر ينابيع الأرض ، بأسباب النصر وجنده . فهل نتعلم كيف ندعو الله ، وهل نتعلم كيف نسخر جنود السموات والأرض بإذن الله لنصر الله ! وهل ندرك سر قوله صلى الله عليه وسلم : « انما تنصرون بضعفائكم » .

---

(١) لترحض : تغسل .

Marfat.com

وهذا رسول الله ، يظله عام الحزن بفقد نصيريه الكبيرين في الدعوة : زوجه خديجة وعمه أبي طالب ويشعر بوحشة لفقدهما ، وخلو ظهره من سندهما ، فيخرج الى الطائف ، وهي بعيدة عن مكة ، لعله يجد من أهلها ظهيراً لدعوته فيردونه أشنع رد ، ويغرون به سفهاءهم ، فيبكي قلبه ، ويحس بوحشة الانقطاع ويحضره شعور الضعف والانكسار والهوان أقوى ما يكون ، فينبض قلبه وينطق لسانه ويرسلها الى الله أنفاساً حارة« اللهم أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكلني ؟ الى قريب يتجهمني ؟ أو عدو ملكته أمري ، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي » .

ولست بصدد أن أقف بك على قوله عليه السلام : « أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس » ولا قوله : « أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي » ولكني أترك لك أن تقف وأن تتأمل عمق العاطفة ، وصريح اليقين ، حين تمحضه الأزمات ، وترى بأي شعور يجب أن نقبل على الله ، أترك اليك هذا لأمضي فيما أنا بسبيله فأقول : ان الله استجاب لأنات هذا القلب ، بما لا يدور في حسبان أحد ، فقد جلس عليه السلام من جوف هذا الليل ، جلسة أشرف سكان الملأ الأعلى على روعتها ، وأنصت لها الجن من سكان هذه الأرض ، وهو يرتل القرآن بأعذب صوت ردد هذا اللحن القدسي الخالد ؛ وكانت ترانيم أنغامه عليه السلام تحمل الى جنبات الوجود ، وأعماق الكون خشوع العبودية ، وسر الألوهية ، مجتمعين في نغمات أطهر قلب عرف الله في هذه الارض ، واذا بالجن تلبي النداء ، ويأتيه النصر من حيث لا يحتسب ، وتنزل البشرى بقوله سبحانه : « واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا ، فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى،

Marfat.com

مصدقاً لما بين يديه ، يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعي الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم » .

ونحن نوصي الداعية ، أن يغمر نفسه في محيط الدعوة . ويكثر من أسباب هذه الأزمات ، استصفاء لقلبه ، ولصوقاً بربه ، فإن الله سبحانه لا يسمع الا لمن يدعوه من خلال هذه القلوب .

٦ ــ وهذه سادسة من أمر الله سبحانه ، فأرجو أن يشرح لها صدرك ، وأن يؤنس بها فقهك ، وأن يقبل بك على تشمير أسرارها .. يقول أحدنا في حياته اليومية لعمل من الأعمال : هذا عمل ميت لا روح فيه ، ويقول لعمل آخر : هذا عمل قوي حي ، وهو بهذا يقصد أن العمل الأول منبعث عن قلب راكد لا حياة فيه ولا ايمان . ولولا ذلك لبعث في هذا العمل قوة ، ولنفخ فيه من روحه ، ونسمع في محيط أهل الورع والتقى مثل قولهم : هذه صلاة ميتة أو ولدت ميتة . أما اذا استحضر لها قلبه ، فأتم خشوعها ، وأقام ركوعها وسجودها . وأودع كلماتها من نبضات قلبه . فهي صلاة حية ، تصعد الى الله تعالى . وعليها حلل القبول .

وهذا كلام حق لا مجاز فيه ولا كناية ، وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هي الا ذكرى للبشر ، والروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا .

فمن الأعمال ما هو حي لأن الروح تسكنه . ومنها ما هو ميت لأنه ولد بلا روح .

واذا كنا لا نشاهد هذه الاعمال الحية أو الميتة ، فهو ليس حجة على أنها غير موجودة ... فإن في هذا الكون من الكائنات والعجائب

Marfat.com

مالا نستطيع رؤيتــه أو لمسه ، أو سماعه ، أو شمه ، لأن اللــه خلق حواسنا قاصرة عن ادراك هذه الأمور الروحية المعنوية ، أو قل انه خلقها لإدراك الامور المادية فقط . أما ما وراء المادة ، فلا سبيل لها اليه ، الا أن يجيزها الله بأسرار ليست عادية •

ونحن انما نحصل علومنا ومعارفنـا عن طريق هـذه الحواس القاصرة . فما جاءتنا به من علم أفتينا به ، ووقفنا عنده ••• أما ما يأتينا من أنباء الكائنات الأخرى ، مما ليس من معارفنا . فليس لنا أن ننكره ونجحده . وعلينا أن نصدق فيه كل من قامت الشواهد الصادقة عـلى رجحان عقله . ونفوذ بصيرته ، وصدق قوله •

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه أبو هريرة في أحوال من يوضع في قبره : « فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه • وكانت الزكاة عن شماله . وكان فعل الخيرات من الصدقة. والصلات، والمعروف ، والإحسان الى الناس عند رجليه »•

وحكمة قيام هذه الاعمال من حول صاحبها • أنها تبغي رد كل مزعجة عنه حتى سؤال الملكين ، فإنها لا تسمح لهما بالخلوص اليه ، الا بعد أن تعرف أنهما رسولا الخير اليه• واستمع معي الى تتمة الحديث السابق: « فيؤتى ـــ أي الميت ـــ من قبل رأسه ، فتقول الصلاة: ماقبلي مدخل . ثم يؤتى عن يمينه . فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره . فتقول الزكاة : ماقبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه ، فيقول فعـل الخيرات من الصدقة والصلات والمعروف والاحسان الى الناس : ما قبلي مدخل » •

ولا يجوز لنا أن نتأول في كلامه عليه الصلاة والسلام ، زاعمين أن هذه أمور تمثيلية ، يقرب بها الينا رسول الله ما يدور في العالم الآخر ••• لا يجوز لنا أن نزعم هذا ، فهو اجتراء على مقام الرسول ،

وصرف لكلامه عن ظاهر معناه بلا دليل ولا سند ••• ولقد قلنا ان جهلنا بحقائق هذه الكائنات، لايصح أن يكون حجة لردها••• فإذا قال الرسول عليه السلام ، ان الصلاة تقف على رأس الميت وتقول كيت وكيت فهو الكلام الحق ، وليس لنا ـ بل ليس من كرامتنا العقلية . أن تتخذ جهلنا حجـة لتأويل كلام غيرنا . بل ليس مما يصلح عقولنا ونفوسنا ، أن يظل أحدنا في مستوى قصوره العادي . وكلما رأى كلاما من أفق رفيع ، جذبه وأدناه اليه ، وظل يمسخه ويشوهه . حتى يلائم بينه وبين مستواه القاصر••• ليس هذا مما يصلح عقولنا ونفوسنا. انما يصلحها ، أن نسمو ونتسلق الى المستوى الذي يرفعنا اليه كلام هؤلاء الأفذاذ ••• فإذا قال عليه السلام . ان الصلاة تقف . وتقول . وتفعل كذا وكذا ، فليس لهذا من معنى الا أنها تقف ، وتقول وتفعل ما أخبر به عليه السلام ••• أما أنها كيف تقف ؟ وهل لها رجلان ؟ وكيف تتكلم ؟ وهل لها لسان ؟ وكيف تفعل ؟ وهل لها يدان ؟ فهـذا مالا شأن لنا به ، فليكن الكيف ما يكون ، وكل الذي علينا أن نسلم به ، ان الصلاة ستقف ، وستتكلم على ما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله عليه ••• والا فما قول هؤلاء المتأولين . في قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » ؟ كيف تؤدي الرجل شهادتها . وكيف تؤديها اليد ؟ هذا مالا شأن لنا به . فليكن الكيف ما يكون ! أما الذي لا شك فيه ، أن الشهادة ستؤدى لامحالة « وقالوا لجلودهم: لمَ شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون » •

فالأعمـال الصالحـة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، ومعروف . واحسان ، ونحوه هي كائنات حية ، مؤلفة من : ظاهر وباطن . أو : غلاف وسر ، فالظاهر هو صورة العمـل . والسر هو الروح الـذي يسكنه ••• وصورة العمل هي فعل الانسان . وأما الروح فمن أمر

Marfat.com

ربي : وعملية المزج بين الروح وصورة العمل ، تتم في داخل القلب ، فكل عمل طيب يخرج من القلب المؤمن ، فهو عمل حي ، تسكنه روح طيبة • وكل عمل يتم من وراء القلب ، فهو عمل ميت لا روح فيه •• والذي نريد أن نجلوه في هذا الكلام للداعية ، ولغير الداعية ، أن هذه الاعمال الحية بأرواحها الطيبة ، تلزم صاحبها في حياته ، وفي مماته ، حتى يلقى بها الله يوم القيامة ••• وهي اذ تلازمه ، لا تكون معطلة عن النفع ، مكفوفة عن العمل ، بل هي في خدمة صاحبها ، في حياته ومماته ، ترد عنه كل مزعجة ، وتسوق له كل خير مستطاع ••• ولقد أوردنا حديث أبي هريرة فيما سبق ، وهو يبين لنا هذا المعنى ويؤكده ، ومع هذا ، فإنا نورد حديثا من كلام سيد المرسلين ، يقطع الشك ويقرر اليقين . قال صلى الله عليه وسلم ، في حديث طويل نكتفي بايراد بعضه : « رأيت البارحة عجباً ، ورؤيا الانبياء حق ، لأنها وحي ••• ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه ، ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشاً ، كلما دنا من حوض منع وطرد ، فجاء صيام شهر رمضان سقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتي ، ورأيت النبيين جلوسا حلقا حلقاً ، كلما دنا الى حلقة طرد ، فجاء غسله من الجنابة ، فأخذ بيده ، فأقعده الى جنبي ••• ورأيت رجلا من أمتي ، يتقي بيده وهج النار وشررها ، فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار ، وظللت على رأسه ••• ورأيت رجلا من أمتي ، قد احتوشته الزبانية ، فجاء أمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتي جاثياً على ركبتيه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب ، فجاء حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ••• ورأيت رجلا من أمتي ، قائماً على الصراط ، يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف ، فجاء حسن ظنه بالله عز وجل ، فسكن رعدته ومضى ؛ ورأيت رجلا من أمتي انتهى الى

Marfat.com

أبواب الجنة ، فغلقت الابواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا اله الا الله ، ففتحت له الابواب وأدخلته الجنة » .

وكل هذا صريح في أن للأعمال الحية ، قدرة على التصرفات . بما أودع الله فيها من طاقات وحقائق ، ونحب أن نذكر أن تصرفات الأعمال ، أو أرواح الاعمال ، ليست مقصورة على نفع صاحبها في الآخرة ، بل في الدنيا كذلك ، فقد قال عليه السلام : « من قال في يوم مائة مرة : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسي » وقد أورد الترمذي في نحو هذا عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال اذا خرج من بيته بسم الله . توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله يقال له : كفيت . وهديت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي وكفي . ووقي ؟ » بل ان لها من عون صاحبها في الامور المادية ما يكاد يكون من العجب . فقد روى البخاري أن فاطمة رضي الله عنها . شكت الى أبيها شدة ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة . وطلبت اليه أن يعطيها خادماً . فما كان منه عليه السلام . الا أن علمها هي وزوجها أن يسبحا كل ليلة اذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين . ويحمدا ثلاثاً وثلاثين ، ويكبرا أربعاً وثلاثين . وقال : انه خير لكما من خادم .

وكان حبيب بن مسلمة يستحب اذا ناهض حصناً أو لقي عدواً أن يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله » وقالوا انه ناهض يوماً حصناً من حصون الروم فقالها ، وقالها المسلمون معه وكبروا ، فانهدم الحصن وانهزم العدو ... ولعل حبيب بن مسلمة رضي الله عنه . كان يستأنس في فعله هذا بما ورد في بعض الآثار أن الملائكة لما أمروا بحمل العرش ، قالوا : يا ربنا كيف نحمل عرشك ، وعليه عظمتك وجلالك ؟ فقال : قولوا : لا حول ولا قوة الا بالله ، فقالوها ، فحملوه .

Marfat.com

ولقد قلنا ان عملية مزج الروح بالقول أو بالعمل ، محلها القلب فليس كل قول نافعا ، وليس كل عمل مساعدا ••• فليعلم الداعية هذا وليدرك قيمة القلب الذي جعله له الله في صدره ، فبهذا القلب يستطيع أن يصنع بنفسه جنود نصره على ما أشرنا اليه سابقاً ، وليختر لنفسه : أيزهد في هؤلاء الجند المباركين أم هو سيفتح آفاق القلب ، ليستخرج منه هذا الخلق الكثيف من جند الله ؟ ان هؤلاء الجند ، تربطهم بك رابطة فوق رابطة الجند بقائدهم • انهم خرجوا من سويداء قلبك ، فهم منك وأنت منهم ، يعطفهم عليك ما يعطف الأبناء البررة على أبيهم ، ولك أن تقول : انهم ذرية أنجبهم قلبك ، الى جانب الذرية التي ينجبها صلبك . غير أنهم أصدق وفاء وأطول بقاء ، وأقدر على العون والمؤازرة ••• لك أن تقول هذا ، وتستأنس لما تقول بقوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » ففيه مقارنة خفية بين ضربين من البنين ، لم يكشف الله عنهما الغطاء ، حتى لا يدخل على الناس ما يبلبل أفكارهم ، وترك لذوي البصائر أن يستشفوا هذا المراد وهم راسخون •

ولعل مما يسندنا في هذا الاستئناس ، قوله تعالى : « ان شانئك هو الأبتر » رداً على الذين كانوا يشمتون به عليه السلام ، لموت أبنائه الذكور ، ويقولون : انه أبتر ، لا ذرية له تبقى من بعده وتحمل ذكره ، فقرر بهذا سبحانه أن الذي لا عقب له ولا ذرية ، هو في الحقيقة الذي فسد قلبه ببغض الرسول ، فليس له من ذرية القلوب والاعمال ، ما يبقى بعده مذكوراً في ضمير الاجيال ، أما ذرية الصلب ، فلا خير فيهم لأبيهم، اذا كان رجل سوء مقطوعا من أعمال البر والتقوى •

وبعد فاعلم يا أخي أنك في جهادك أحوج ما تكون الى هذه الذرية، فأكثر من العمل والنية ، يكثر من حولك هؤلاء الابناء في عالم الخفاء•••

Marfat.com

ولن يكونوا كلا على أبيهم ، بل سيعملون معه دون أن يراهم ؛ بل قد يكون في مخدعه نهاراً أو ليلا ، قد أضناه العياء ، فلا يقرون حول مضجعه ، بل ينسيحون في مختلف الأماكن يتلمسون عملا يساعدون به أباهم أو صاحبهم . ويارب قوم جلسوا يذكرون جهادك ، فتنبري هذه الذرية الخفية المباركة ، تبث العواطف في القلوب بإذن الله ، وتثير خواطر الخير في أذهان القوم ، فإذا بالحديث يسترسل بالثناء عليك . وتأييدك ووجوب مناصرتك ، واذا بهذه الارواح الخفية ، تفعل مالا تفعل المقالات والخطب ... وقد تستقبل في غدك واحداً من هؤلاء أو أكثر يبايعك على دعوتك ويطلب اليك أن تشركه في تأسيس هيئة في قريته .

أيها الاخ هذه هي الذرية ، فاحرص عليها في جهادك . جهادك القولي والعملي . وجهادك السلمي والحربي ، واعلم أن المجاهد الذي ينزل الى الميدان بدون جمع من هذه الذرية . لهو أضعف نصيراً من المجاهد الذي ينزل ميدانه بغير سلاح . واعلم كذلك أن هذه الذرية تعمل لأبيها ، وبيد أبيها ، من ألوان الكفاح ما يثير الدهشة ، ويدعو الى العجب ، وفي مثل هذا يقول ، ابن القيم : « ان العسكر كانوا يشاهدون من قوة الإمام ابن تيمية في الحرب أمراً عظيماً » . ألا هل بلغت .. اللهم فاشهد .

★ ★ ★

Marfat.com

Marfat.com

الباب الثالث

مصادر الداعية وموارده

لا نريد بهذه المصادر أنها مدد خطابته وموارد بلاغته ، ومناهل المعاني التي يتدفق بها حديثه ... انما نريد قبل كل هذا : مصادر النمو لملكاته ، والوحي لروحه ، والإلهام لمشاعره النفسية ، والتوجيه العملي لسير رسالته ، ومواد البناء للمجتمع الفاضل الذي ينشده ؛ ونحن نذكر من هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر :

(١) القرآن الكريم . (٢) السنة المطهرة . (٣) تاريخ الأمم والشعوب وسير الرجال والأبطال . (٤) واقع الحياة الجارية .

ولا بأس من ذكر كلمة توجيهية عن كل مصدر منها .

* * *

Marfat.com

١ ـ القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » •

كثير من الناس ، بل كثير من أهل العلم والبحث ، اذا تكلموا عن القرآن الكريم . قالوا: انه ذو ناحيتين : ناحية المعاني ، وناحية الألفاظ ؛ ثم يتشعبون شعباً ويتفرقون فرقاً بعد هذا •

فأهل الادب ينظرون في جمال المعاني، وجودة العبارات والأساليب، ثم يجهدون أنفسهم في تعرف وجوه اعجازه •

هل هو معجز بألفاظه وتراكيبه، أم هو معجز بمعانيه • أو معجز بكليهما ؟ وأهل الفقه والقانون ينظرون في الألفاظ والمعاني، ليستخرجوا منهما الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات ونحوها •

وأهل الجدل ينظرون في الألفاظ والمعاني ليستخرجوا أصول العقائد وكيفية حفظها والدفاع عنها •

والاجتماعيون ينظرون ليستخرجوا جامع حقوق الانسان في المساواة ونحوها ، ومقومات الاسرة وعوامل ترابطها ووثاقة بنائها • الى قواعد المعاملات التي تنتظم الجماعة في نطاق التعاون والشورى •• الى قوانين الاخلاق التي تتزكى بها ضمائر الافراد ، وتعلو آثارهم ووجهاتهم في الحياة •

Marfat.com

والسياسيون والاقتصاديون ينظرون ليستخرجوا مالا يخفى ، على أن هؤلاء وسابقيهم لا يذهبون ــ مع الأسف ــ فيما يتصدون له مذهباً جدياً فيه غناء .

هــذه الطوائف وغيرها لا ترى في القرآن غير ناحيتي الألفاظ والمعاني . وقد أوردنا هذه الآية الكريمة على رأس هذا الكلام ليعرف القارىء أن القرآن « روح » وليس الفاظاً ومعاني فقط .

ولست أبيح لنفسي أن أفاضل بـين الروح والمعاني والألفاظ . فكله من اللــه سبحانه . وهو بكل شيء عليم . ولكني اقول : ان الاهتمام بناحية الروح في القرآن يجب أن يأخذ مكانه في قلوبنا وعقولنا . وليس حسناً أن نهتم بالروح في أجسام الحيوان والانسان ،ولا نهتم بها في كلام الله سبحانه وتعالى . فكلاهما من أمر الله عز وجل . فهو يقول هنا عن الروح في كتابه : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » ويقول في موطن آخر عن الروح في الأجسام : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فعلى الذين يبحثون في اعجاز القرآن وغير اعجازه . أن يلتمسوا هذا الروح قبل كل شيء، ثم يطلبوا مافي الألفاظ والمعاني من قوة وجمال وموعظة وأحكام ، فإن الباحث في اعجاز الألفاظ . لا يعدم مكابراً يدعي أنه لا يشعر باعجاز ، ويدعي أن لديه من الآثار الأدبية ما هو أروع منه . أما الروح الإلهي فإن اعجازه قائم ، لا شك فيه ، وافحامه مسلم به من الجميع . فلم يحدث أحد نفسه بمعارضة آثاره في كلام الله سبحانه . كما أنه لن يفكر في معارضة آثاره في أجسام الكائنات . وقـد أشار القرآن الى كلا الإعجازين فقال : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » وقال : « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض

ظهيرا » لأن المسألة ليست صورة بدنية أو كلامية فهذا ما يستطيع كل مكابر أن يدعي القدرة على صنعه وانشائه ، ولكن الإعجاز أظهر ما يكون ، في بث الروح الذي تحيا به الأبدان ، وينهض به شأن الكلام .

ولست هنا بستكلم عن اعجاز القرآن فأسترسل في بيان آثار الروح الإلهي فيه ، وانما أتحدث باعتباره أعظم مصادر الوحي والنمو لملكات الداعية ومشاعره فيجب على الداعية بل كل انسان :

أولا : أن يقرأ القرآن على أنه روح ... وللروح آثاره ومن آثاره الحياة . والنمو والقوة ... والسمع والبصر ، ولا نريد أن نطيل بذكر الآيات التي تدل على أن القرآن حياة للقلوب والملكات ، وأنها تنمو به وتقوى ، وتسمع وتبصر ، ولكنا نطلب الى الداعية أن يلتمس هذا الروح . وأن يحتال لإيجاد الصلة بينه وبين قلبه ، حتى تسري تياراته واشراقاته في كيانه كله .. وليس ضرورياً لانتقال هذا الروح القرآني الى قلب الانسان ، أن يقرأ القرآن كله — بل الضروري أن يزيل الفوارق والحجب التي تفصل بين قلبه وبين القرآن ، فإذا زالت . وصار القلب أمام القرآن وجهاً لوجه ، أحس بالحياة والقوة والنور والخشية والحنان تملأ وجوده ... وآية واحدة من كتاب الله كفيلة بهذا لو أحسنا الاتصال بها . وأنا أعني ما أقول ، فإن التحقق بمعنى آية واحدة سلباً وايجاباً . وعملا واعتقاداً والتزاماً بتكاليفها في غير تهاون ولا رخاوة ، مع مخالطة روحها لخفايا القلب . يحيي الانسان ظاهراً وباطناً . ويجدده وينيره .. كالذي يلمس السلك الكهربائي ، اذا لمسه من أي طرفيه ، أو من أي نقطة فيه ، سرى سر الكهرباء فيه واضطرب وانتفض ، دون أن يتوقف ذلك على لمس أجزائه كلها مرة واحدة في وقت واحد ... القرآن حبل الله المتين ،

Marfat.com

كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طرفه بيد الله ، وطرفه الآخر بيد الناس ، فأي جزء أخذنا منه بجد وقوة ، سرى سره الى القلوب . فارتجفت به وحيت « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

ولعلك تقول : وما فائدة القرآن كله ـــ اذاً ـــ ما دامت آية واحدة منه ، كافية لإحياء القلوب ؟ ولماذا لم يكتف الله سبحانه بآية أو بضع آيات ؟ وهذا سؤال حق . واعتراض له وجاهته ولكن الاعتراض يزول، اذا علمنا أن مهمة القرآن ليست حياة القلب فحسب . انما هي وضع مناهج العمل الذي تنتظم به الحياة الى ما تقدم . حتى لا يضل امرء عملا واعتقاداً ، أثناء سيره الى الله . ويقول بعض العارفـــين : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق » والتصوف هنا حياة القلب . والتفقه معرفة أحكام الله وحدوده التي سميناها مناهج العمل . والزندقة ضلال عن سبيل الله . ألا ترى يا أخي أن الله عز وجل . حين أحيا الانسان بما بثه فيه من أسرار الروح ، لم يتركه سدى . بل خلق له العقل الذي ينظم له هذه الحياة ويدبر له أمره . بما يدرك من أصناف الضرر والنفع!

كذلك روح القرآن . به تحيا القلوب . وعقل هذه الحياة الذي يوجهها الى الله على بصيرة . هو الأحكام الشرعية . ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقيه واحد . أشد على الشيطان من ألف عابد » وهذه الحياة ـــ كما ذكرنا ـــ تحدث بآية واحدة . بل بكلمة واحدة ، لأنها روح لا دخل لها بالأحجام والمساحات . ولا بطول الكلام وقصره . أما الاحكام . فإن الله عز وجل . يعلم من طبيعة تكويننا . أن عقولنا لا تتفقهها ، الا وهي مفصلة . في مواضع شتى ... ولو كانت طبيعة العقول كطبيعة القلوب . في تقبلها للحقائق جملة واحدة في لحظة

Marfat.com

واحدة ، كلمح البصر أو هو أقرب ، لساق لنا الاحكام في آية واحدة ، أو لكان للأحكام شأن لا نعرفه ، غير هذا الشأن الذي نعرفه • ولكن الله سبحانه ، يجري كل شيء علـى سنته التي فطره عليهـا • والله عليم حكيم • فليس المعول عليه في احيـاء القلوب مقدار ما نقرأ من القرآن . انما هو كيف نقرأ القرآن • ونوصي هنا :

١ ـ بالتأمل والتدبر والوقوف على كل عبرة ومعنى ••• ويجب أن تكون القراءة في خلوة هادئة ولا سيما خلوات الليل حيث يشف القلب . وتنكشف أغطية النفس •

٢ ـ سل نفسك قبل قراءة القرآن • هل هواك مع الله أو مع الدنيا ؟

واعلم يا أخي أن كل هوى من الأهواء الدنيوية • انما هو حجاب كثيف بينك وبين الله • وبين قلبك وبين القرآن فحب المال حجاب وحب البنين حجاب واشتغال القلب بشواغل الدنيا حجاب أو حجب• واعجاب المرء بعلمه أو ذكائه أو صلاحه أو قوته أو جاهه ، من الموانع الكثيفة الثقيلة . وميل الطبع الى شيء مما حرم الله ، وبغضه الخير لمنافسيه ، وحسده وحقده ، ورغبته في نزول الأذى والمصيبة بمن يكره ، هذا ونحوه . أكنة يبتلى بها القلب ، فتحول دون وصول الروح القرآني اليه.

فعليك ياأخي أن تعرف في صراحة ـ بينك وبين نفسك ـ هل بينك وبين القرآن حجاب من هذه الحجب أم لا ؟ والمقياس أمامك ، فأنت وشأنك « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا مـن حي عن بينة » « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا » •

يا أخي حياة القلب هي كل شيء ، وأنت طالب حياة فلا تبخل بأي جهد يجعلك من الاحياء • مهما شق عليك ، ونحن في رسالة لا ينهض بحقها الا القلب الحي • وفي رحلة الى الدار الآخرة ، لا ينفع فيها مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ، فجرد قلبك من هذه الاهواء على ما بيناه في الروحانية الاجتماعية ليكون قلبك سافراً غير محجب ، فإنك حينئذ تدرك وتحس وتحب وتكره وتبكي وتخشع وأنت في روضة من رياض الجنة •

٣ ــ ويجب أن تستحضر عبوديتك لله . استحضرها حقيقة لا مجازاً ، استحضرها شعورا قويا ، يريك انقياد العبد لسيّده الكبير العظيم . ونحن جد خبيرين بحالة الاضطراب والذبذبة التي تعتري المرء بين يدي رئيسه القوي الجبار . ونعرف أن كيان هذا المرؤوس يتركز كله في أذنيه . يسمع بها ما سيقال له . ويتركز في قلبه ليتلقف ما يلقى عليه . فإذا عينه وملامح وجهه وحركات رأسه ، تؤذن كلها بالطاعة . وتلقى مايقال لها أو تؤمر به، بمزيد القبول والارتياح ••كل هذا ليشعر المرؤوس رئيسه ، أنه يتحرى مواضع رضاه ، وان لا ارادة له الا فيما يريد رئيسه العتيد •

هذه الحالة التي يدخل فيها عبد لعبد مثله . هي التي نريد أن يدخل فيها العبد لمولاه ذي الجلال والإكرام ؛ فلو وفق الى مثلها ؛ لتطايرت من فوقه الحجب ولرأى نفسه أمام عظمة عرش الله عز وجل . وكأنها لا شيء ؛ فإذا به في سلطان الله ؛ يفر منه اليه . ويتركز وجوده في أذنه وقلبه . فيغدو لأمر الله ونهيه وقع في قرارة نفسه لا يدانيه وقع كلام آخر ••• وتلك حالة يمكن كسبها بالممارسة والمران ، وهي بلا شك موصل جيد لروح القرآن الى قلب الانسان •

Marfat.com

٤ ــ واستحضار تلك العبودية ، بصفة جدية حقيقية ، يورث الانسان نهضة الى أمر مولاه ، ومسارعة الى انفاذ ما كلفه به وألقاه عليه في القرآن ، وهذا يعنينا من ناحيتين :

الأولى : ان تنفيذ الامر ، ان هو الا تفسير عملي له يكشف خفاياه ويجلو غوامضه ، ويكسب صاحبه فقهاً في كتاب الله ، لا يناله النظريون الواقفون عند حدود التلاوة النظرية •

والثانية : ان تنفيذ الأمر ان هو الا تنفيذ لتكاليف شاقة ، كم تقاصرت دونها الهمم ، فاذا راض المرء نفسه على التنفيذ وتحمل مشقة الرياضة والمجاهدة ونهض بهذه التكاليف بغير هوادة ولا رخاوة . فقد أحدث موراناً في قلبه وعصبه ، وتنبهاً في وعيه ، ويقظة في ملكات نفسه، وهذا مما يزيد في تفهمنا لكتاب الله والوقوف على كثير من أسراره ومعانيه ••• وبدون التنفيذ الحار تكون الأعصاب بليدة فاترة ، وملكات النفس غافلة راكدة ، فلا يصلح شيء منها لمطالعة روح القرآن •

٥ ــ والقرآن يا أخي كلام الله ، وقد تفرد الله بكل صفات الكمال والجلال ، ومن شأن كل كلام ــ حتى كلام البشر ــ أنه يدل على أسرار صاحبه ، وصفات ذاته . فإذا أراد أحدنا أن يدرس شخصاً ما ، اتخذ كلامه مادة من مواد الدراسة التي تعينه على مراده ••• فأولى بنا ثم أولى أن نلتمس أسرار الله في كلامه سبحانه وتعالى ، ومطالعة معاني صفات كماله وجلاله فيه ، قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه : « لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون » •

ولكي نبصر تجليات الله في كلامه ، أرى أن نستحضر ماله سبحانه وتعالى من صفات الجلال والجمال كالقدرة والهيمنة ، والبر والرحمة

Marfat.com

وغيرها مما لا طاقة لنا بالاحاطة به ، نستحضر من ذلك ما نستطيع في هيبة وخشوع ... فإذا أقبل أحدنا على القرآن ، وفي قلبه شعور بهيبة هذه الصفات ، وفي نفسه شوق لمطالعتها واستجلائها فإن آيات القرآن ستتشف له باذن الله عنها .

ان أحدنا قبل أن يقرأ المقالة ، يقرأ اسم صاحبها ، فاذا كان من كبار الكتاب استحضرنا له في الحال ما نعرف من صفات بلاغته وقوة معانيه ، وسداد آرائه ، بل وملامح نفسه ، فيعيننا هذا على تعرف مافي المقال ، وحسن الالتفات الى اشاراته ومراميه ... وكثيراً ما نقرأ المقال بدون امضاء ، فنراه عادياً ، فإذا قيل لنا انه لفلان من كبار الكتاب . أعدنا قراءته بعد أن نستحضر ما لهذا الكاتب من صفات القوة والامتياز، فإذا بنا نجد في المقال ما لم نجده أولا ، واذا بروح الكاتب تطالعنا من خلال سطوره ، بعد أن كانت وراء الحجاب غير منظورة ، ولله المثل الأعلى ، ولعلك يا أخي أدركت ما نريد .

٦ ــ وأخيراً يجب أن نقرأ القرآن ، كأنما نسمعه من الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر يكاد يكون من البدهيات التي نغفل عنها ، فالقرآن كلام الله ، خاطبنا به ، ووجهه الينا ، وأبسط مقتضيات هذا ، أن نصغي الى هذا المتكلم العظيم ، ونحسن الاستماع اليه « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » .

والانصات الى الله لا يكون بالأذن ، بل بالقلب وبوعيك كله . وهي منزلة تقتضي الانسان مراناً ورياضة وتدرجاً في مقاماتها الرفيعة... قال بعض السلف : كنت أقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه . ثم رفعت الى مقام فوقه . فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه

Marfat.com

السلام . يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى . فأنا الآن أسمعه من المتكلم به ؛ فعندها وجدت لذة ونعيماً لا صبر لي عنهما .

وهو من مقامات الشهود ، التي لا قبل بوصفها الا بذكر آثارها ، فقد رووا عن بعض آل البيت . أن حالة لحقته في الصلاة ، فخر مغشيا عليه . فلما سُري عنه قيل له في ذلك ، فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي ، حتى سمعتها من المتكلم بها نفسه ، فلم يثبت جسمي لمعاينة مقامه سبحانه وتعالى » .

هذا يا أخي بعض ما يصلك بروح القرآن . فإذا اتصلت نمت الحياة في نفسك ، واهتز قلبك وترعرع ، وأنبت من كل زوج بهيج ، وكان مالك بن دينار يقول : « ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن ؟ ان القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الارض » .

ثانياً : في القرآن الكريم قصة كاملة ، لأروع مظاهر الجهاد ، وأصدق حقائقه ، وأشرف مقاصده ، لواء القيادة فيها معقود لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن خلفه صحابته رضوان الله عليهم .

ونحن نوجب على كل انسان أو كل داعية على الأقل ، أن يطالع أنباء هذه القصة في أجزاء القرآن الكريم ، ويدرس طبيعة الجهاد في الميدان المكي ، وطبيعته في الميدان المدني ، مطالعة دراسة وتفهم ، لا مطالعة تلاوة وتسلية .

وتيسيراً لعبء الدراسة ، نذكر أن الجهاد المكي ، كان صراعاً هائلا بين عقليتين متغايرتين تمام التغاير :

Marfat.com

١ ــ عقلية تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتنظر الى حقائق الوجود ، والى الغاية من الحياة على ضوء هذا الايمان.

٢ ــ وعقلية مادية جاهلة ، لا تفقــه من حقائق الايمان شيئاً ، وتنظر الى الوجود على أنه هو هذا الظاهر الحسي الدنيوي المحدود . الذي يبدأ من المهد الى اللحد .

فالتوحيد مسلم به من العقلية الاولى . ولكنه عجب لدى الأخرى « أجعل الآلهة الهاً واحداً ؟ ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . ان هذا الا اختلاق » .

وهكذا تفكير العقلية الحسية المطموسة . فقس عليه كل ما يدور حول التوحيد من جدل ونقاش .

والايمان بالرسل لا غرابة فيه لدى العقلية المؤمنة . ولكن العقول المادية تنكر هــذا أشد الإنكار « أبعث الله بشراً رسولا ؟ » وقالوا ــ متهكمين ساخرين ــ : « مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ؟ » واتخذوا من فقر الرسول حجة تدعم رأيهم . فلو جاز في زعمهم أن يختار الله رسلا من البشر لاختارهم من ذوي المكانة والجاه والمال « أأنزل عليه الذكر من بيننا » « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ؟

وملائكة جهنم تسعة عشر . فلا يتصور هؤلاء الماديون . الا أن الملائكة مثلهم ، فيتهكمون ويتندرون بهذه النار التي يعذب فيها من لا يحصى من البشر ، وليس يحرسها الا تسعة عشر . فينزل فيهم قوله تعالى : « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة

Marfat.com

للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هي الا ذكرى للبشر » .

أما البعث ، فأبعد هذه العقائد كلها عن عقولهم « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق ، انكم لفي خلق جديد ؟ »

هذه أمهات العقائد التي دار عليها الجدل بين هاتين العقليتين ، وترى القرآن المكي يسجل الكثير منه ، فهو يقرر العقيدة ويذكر وقعها لديهم . ويورد جدلهم حولها ، وما لهم فيها من شبهات وشكوك ، ويرد على ذلك كله بالبرهان القوي ، والمنطق الفطري الواضح ، مما يبين لك خصائص العقلية المادية ، ويعطيك صورة واضحة لهذه الحرب الجدلية التي اضطرمت نارها في مكة ثلاثة عشر عاماً .

وكما كان الصراع بين عقليتين ، كان كذلك بين قوتين ، قوة الإيمان العزلاء ، وقوة الطاغوت الغاشمة المتغطرسة ، وقوة الإيمان لا تبغي لنفسها شيئاً ، وقوة الطاغوت أخوف ما تخافه أن يضيع سلطانها وتفقد ما تحصل عليه من منافع على حساب الضعفاء ، فهي تصب غضبها وآذاها على المؤمنين ، لا تعرف في ذلك الاً ولا ذمة ... وقوة الايمان لا تقابل هذا الطغيان بالاستكانة والذلة ، بل بدرع الإيمان والاعتصام بالثقة بالله وبرسوله .

والقرآن المكي يصور هذا كله ويورد أمثلته وحوادثه .

Marfat.com

فإذا قرأت أنباء هذين اللونين من ألوان الصراع في تؤدة وتمهل ، وتتبعت وقائعها في القرآن المكي وحده وتنقلت من سورة الى سورة على حسب ترتيب النزول وهو مبين في مصحف حفني ناصف وزملائه ، فإنك لاتلبث أن تدخل بعواطفك في هذا الصراع وتدب حرارته وحماسته في قلبك ، وتكون بهذا أقدر على فهم القرآن ، وتسل حقائقه ، ومعانيه ، وأجدر أن تنتفع بأنباء هذا الجهاد العملي في معترك جهادك ، وميدان رسالتك ، فما أشبه الليلة بالبارحة . والمعول على الفطنة التي تحسن العرض والاستشهاد .

* * *

أما الميدان المدني فكانت قوة المؤمنين تنازل فيه ثلاث جبهات مختلفة : اليهود ، والمنافقين ، ومشركي العرب جميعا ، لا مشركي مكة وحدهم ، مع ملاحظة : أن قوة المؤمنين هنا ، أكثر عدداً وعدة مما كانت في مكة ، فهي قوة مسلحة خطيرة .

١ ــ أما اليهود فهم أهل علم وكتاب سماوي، ورثوه منذ قرون. ولكنهم ورثوا نصوصه ، ولم يرثوا روحه . فاستقرت نصوصه في أدمغتهم ، وأقفرت نفوسهم من روحه ومثله العليا . وطال بهم الأمد فقست قلوبهم وفسق أكثرهم عن أمر ربه . ودخلهم حب الدنيا وتعاملوا بالرشوة وأخذوا الربا وقد نهوا عنه ، فهم يأخذون عرض هذا الادنى باطلا وسحتا ويقولون : سيغفر لنا ، وان يأتهم عرض مثله يأخذوه في غير تورع ولا استحياء لأنهم أبناء الله وأحباؤه . فلن تمسهم النار الا أياماً معدودة ... وهكذا أخضعوا دينهم لدنياهم . واشتروا بكتابهم ثمناً قليلا .. ذلك موجز أمرهم وأمر آبائهم من قبل .

Marfat.com

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، حدد علاقته بهم بمحالفة مرضية ، تكفل لهم الأمن والنظام والحرية ، والعيش الحسن ، لو أرادوا . لكنهم لما رأوا قوته تزداد ، وسلطانه يعظم ، ودينه يهيمن ، وزمام الأمور الاقتصادية والسياسية ينتقل اليه ، أكلت قلوبهم الغيرة ، وزاد بهم الحقد والغيظ « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين » .

فهاتان صفتان خبيثتان : بيعهم الدين بالدنيا ، وهو داؤهم القديم ... والغيرة الحاقدة ، وهي داؤهم الجديد ... مع دهاء ومكر ودس وغدر . وقد سجل القرآن صفقتهم الخاسرة ببيعهم الدين بالدنيا في مثل قوله تعالى : « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون » .

ويدور كثير من آيات القرآن المدني ، حول تسجيل هذا المعنى واستهجانه . أما حرصهم على الدنيا ، وتشبثهم بها ، فإنك تراه في مثل قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا... يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » وتنكير كلمة « حياة » وخلوها من « أل » يدل على أنهم يريدون حياة وكفى ، دون أن يهمهم نوع الحياة ، فأي نوع وقع لهم فهو حسبهم ، فسواء لديهم الحياة الوضيعة والرفيعة، أو الدنيئة والشريفة ، أو الذليلة والعزيزة . فليس المهم عندهم النوع . وانما المهم « حياة » من أي نوع كان .

وسجل غيرتهم وحقدهم ، في قوله تعالى : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء » وقوله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب

Marfat.com

لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » « واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ • قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور » •

وهل تنتظر يا أخي من هؤلاء الذين حرصوا على الحياة الدنيا في ذلة ، وباعوا بها دين الله ، أن يكونوا صرحاء كالمشركين في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لقد كان المشركون يشنون عليه حربهم العدوانية بالجدل والأذى . في صراحة وجرأة • أما هؤلاء الأذلة فلن تنتظر منهم الا حرب الجبناء الدساسين ، وهي حرب يحرصون فيها على حياتهم وسلامتهم قبل كل شيء • ولن يهمهم بعد ذلك أن يتخذوا ما شاء لهم الجبن الذليل ، من الأساليب الدنيئة في غير تورع ولا كرامة . واذا كان هؤلاء باعوا دينهم بدنياهم . واشتروا بكتابهم ثمناً قليلا ; فهل تظنهم يتورعون أن يحرفوا هذا الكتاب اذا اقتضت أساليب الحرب الدنيئة أن يحرفوه ؟ وهل يكلفهم هذا قطرة دم واحدة ؟ أو يعرض حياتهم وسلامتهم لأي نوع من الأذى ؟

لقد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم . وعلموا أن القرآن يقول : « انه جاء بمثل شريعة موسى والأنبياء من قبله»: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » ويستشهد على هذا بالمماثلة الواضحة بين تشريع التوراة . وتشريع القرآن ، ويسوق من أمثلة هذه المماثلة قوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالانف والأذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص » •

هذه دعوى النبي الجديد ودعوى قرآنه الذي جاء به وقد استشهد بهم وبكتابهم ، فإن قالوا : نعم . فقد أمكنوا عدوهم من أنفسهم ; وان

Marfat.com

قالوا : لا ـ أبطلوا حجة الخصم ، وشفوا أنفسهم من غيظهـا ••• أفتظنهم يتورعون ••• ؟ وذكر القرآن أيضاً أن التوراة بشرت بهذا النبي ، وذكرت بعض صفاته ـ فقال : « انهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ••• » الآية •

أفيتركون هذا الاسم مكتوبا عندهم في التوراة ؟ وهل يعترفون أن كتابهم بشر حقا بهذا النبي الأمي ؟ أم أن هذه فرصة أخرى لتحريف الكتاب واخفاء الاسم الكريم ؟

هل يتورع الجبان النذل ، أن يشفي غيظه بهذا التحريف ؟

هذا يا أخي هو القطب الذي دارت عليه أساليب الحرب اليهودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ••• فإذا استحضرناه في أذهاننا ، كانت معاني القرآن التي سجلته أكثر وضوحاً في قلوبنا ومداركنا ، وذلك مثل قوله تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » « ومن الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه ، وان لم تؤتوه فاحذروا •• ومن يرد الله فتنته ، فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » • « وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله،وماهو من عند الله،ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون؟» •••« ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » وقالوا في ابطال نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله أخـذ علينا عهداً في التوراة أن لا نؤمن لرسول الا اذا جاءنا بقربان تنزل عليه النار من السماء فتأكله ، ولا نراك جئت به ، فنحن معذورون اذا لم

Marfat.com

تؤمن بك ، لأن هذا عهد الله ، ومن يدرس هذه الحجة الواهية . يجد فيها ضعف الجبناء الأذلاء ، الذين لا يرون مواجهة خصمهم في شجاعة.

ولو كان ما يقولون حقاً لآمنوا قديماً بالرسل التي جاءتهم بهذه القرابين ، فإنهم كفروا بهؤلاء الرسل وقتلوهم .. وقد ألم بهذا المعنى كثير من آيات القرآن الكريم « الذين قالوا ان الله عهد الينا أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم — وبالقربان الذي قلتم — فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » « أفكلما جاءكم رسول بمالا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون ؟ » .

لم يكن هذا هو السلاح الوحيد الذي حاربوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن التحريف وكتمان الحق ، أقل مظاهر الحقد والغيظ ، ولا يشفي هذه القلوب الا عمل ايجابي يتصدع به بناء هذا الدين الذي يعظم شأنه . وتتوالى أنباء نصره فتحرق أكبادهم « ان تصبكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » .

ولكن هذا العمل الايجابي . يجب أن يكون عمل الجبناء الأذلاء ، الذين يحرصون على حياتهم وسلامتهم قبل كل شيء . فماذا عسى أن يكون هذا العمل ؟ هو الدس بين أنصاره .. ومحاولة تشكيكهم بحركات شيطانية .. ومن أمثلة الدس ، أنهم رأوا جمعاً من الأوس والخزرج يجلسون اخواناً بعضهم مع بعض في مجلس واحد . يتجاذبون أطراف الحديث في ألفة ومودة . فغاظهم هذا . وأرسلوا من اندس بينهم ليذكر شيئاً من الحروب التي كانت بين القبيلتين قديماً قبل مجيء النبي أي قبل ظهور الاسلام . فذكر شيئاً من مفاخر الحرب يوم بعاث ، وأنشد أشعارا في أمجاد الفريق المنتصر . فتهلل لهذا أحد الفريقين . وثار

الفريق الآخر ، وما لبثوا أن قاموا يضرب بعضهم وجوه بعض ، فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسرع اليهم ، وكف بعضهم عن بعض ، وكشف لهم عن مراد اليهودي الدساس ، فندموا وأقبل كل فريق على الآخر . يصافحه ويعتذر اليه . وفي هذا ينزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا . ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » ... ومن أمثلة التشكيك الشيطانية . أنهم كانوا يبعثون فريقا منهم فيؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيفرح بهم المسلمون . ويشيع خبرهم في المدينة ، ثم يعود هؤلاء الذين آمنوا فيتظاهرون بأنهم درسوا حال الرسول عن قرب ، ودرسوا طبيعة دينه ، فلم يجدوه هو الرسول الذي تذكره التوراة . ولم يجدوا قرآنه على شيء .. وبعد تمثيل هـذا الدور الخسيس . يعلنون في أسف أنهم مضطرون الى أن يعودوا الى دينهم القديم . مادام النبي المنتظر لم يبعث بعد .. وبهذا يصدون عن سبيل الله من آمن ، أو من يريد الايمان ، ويتركون كثيرين في شك وحيرة .. « يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ؟ تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون ؟ » « وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار . واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

ولجأوا أيضاً الى الاستهزاء والسخرية بشعائر الدين وبما ينزل الله من آيات القرآن . ليوهموا البسطاء أنه ليس بشيء ... لما نزل قوله تعالى : « من ذا الـذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفـه له » سخر بعض اليهود وضحك ، وقال : ان رب محمد فقير ، ويطلب أن نقرضه . وأخذ يعلق على هذا المعنى ويسترسل فيه ، ليلقي في روع الناس ، أن الرب الذي يحتاج الى القرض ، لا يصح الايمان به ، وغضب أبو بكر . وضرب ذلك المتجني الأثيم . فارتفع الرجل الى رسول الله يشكو . فقص عليه أبو بكر ما حدث ، فأنكر الرجل وتبرأ على عادة

الأذلاء الأدنياء ، فأنزل الله سبحانه وتعالى في هذا قوله : « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الانبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق » .

وهزئوا كذلك بالأذان ، وتغيير القبلة ، ونحوهما من شعائر الدين « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » « سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » « وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم » ومثل هذا كثير في القرآن الكريم .

على هذا دار شأن اليهود مع الدين الجديد :

(١) تحريف للكتاب وانكار لما فيه وكتمان له (٢) ودس بين أنصاره وأتباعه وتشكيك لهم (٣) واستهزاء بشعائره وآياته . منبعثين بذلة الجبان الدنيء وغيظ المحنق الحاقد . وبه نقرب كثيراً من فهم القرآن الكريم فهماً عاطفيا ، لا فهماً منطقياً فقط .

أما موقف النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فنورد منه ما يأتي :

١ — الجدال بالتي هي أحسن « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » والنفس القوية المؤمنة لا يعقل أبداً أن تنازل الادنياء بسلاحهم .. ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا على ما ذكرنا من أمرهم أخذا بالتي هي أحسن . ولو شاء لانتقم منهم لدين الله ، وفي يده من السلطان والقوة المسلحة ما يعينه على هذا لكنه ترك أمرهم لله ، وظل على جدالهم بالحسنى والمنطق القوي .

حقاً لقد أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم عن المدينة ، وقتل الآخرين، ولكن لم يكن هذا انتقاما لما حرفوا في الكتاب أو نحوه. انما كان لأنهم نقضوا محالفتهم معه ، وحاول بنو النضير أن يقتلوه

Marfat.com

غدراً في احدى زياراته لهم ، وهموا ــ فعلا ــ بما حفظ الله منه نبيه ، وذكر قصتهم في سورة الحشر •• وغدر بنو قريظة في غزوة الخندق ، ودبروا من الخيانة ما لو تم أمره لما بقي مسلم واحد على ظهر الارض ، ولتغير مجرى التاريخ ، وكانت الدنيا على غير ما نراه الآن • وقصتهم مفصلة في كتب السيرة، وقد أورد القرآن طرفاً منها في سورة الاحزاب•

فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كان يأخذهم في جدالهم الا بالتي هي أحسن ، والصفح عما يأتون من جرائم الذلة والدس والحسد « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، ان الله على كل شيء قدير » •

ب ــ دعوتهم الى الإيمان بالرسل جميعاً ، وبالكتب المنزلة كلها ، لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب والرسل ، ومادام الجميع يدعون الى الله ، وغايتهم واحدة ، وكتبهم متفقة في القواعد والاصول ، فالإيمان بهم جميعاً واجب ، ونصرة من يجيء من هؤلاء الأنبياء واجبة ، لأنها نصرة لله سبحانه « واذ أخذ الله ميثاق النبيين ، لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » •

وهذه دعوة خالصة ، اذا وجهت الى من يدعو الى الله فرح بها ، ولا يضيق بأهلها ، فالدعاة الى الله مجاهدون لغاية واحدة ، يفرح بعضهم ببعض وينتصر بعضهم بنصر بعض ، وكلما نزلت الى الميدان طائفة جديدة ، تعمل بعملنا وتدعو بدعوتنا ، ولها شاهد في كتبنا ، وجب أن نفرح بها ، لأنها تعزيز لقوتنا ••• أما مناوأتها والتفرغ لخذلانها ، فهو شأن من يعمل لنفسه لا لله ••• ولهذا رأينا اليهود يضيقون ذرعاً برسول

الله صلى الله عليه وسلم ••• لقد دعاهم الى الايمان بالكتب كلها لا بكتابه فقط، فأي حرج في هذا؟«قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل ؟ » « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم » لقد ضاقوا بهذه الدعوة السمحة ، ولم يحضرهم الا كزازة النفس ، ولؤم الطبع الأناني:« وقالوا كونوا هوداً ــ فقط ــ أو نصارى ــ فقط ــ تهتدوا» « قل : بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، قولوا : آمنا بالله . وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى . وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

واستمر الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الدعوة العامة يقررها ، ويثبتها في انسانية سمحة فسيحة ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ••• وهو موقف لا تعلق به ذرة من غبار ، موقف القوي بإيمانه ، الواثق من وعد ربه .

حـ ــ تذكيرهم نعم الله عليهم . وما خصهم به من فضل : « يا بني اسرائيل : اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم . وأني فضلتكم على العالمين ••• واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب . يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذا فرقنا بكم البحر . فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ••• وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى » الخ وهو أسلوب اذا تقربت به لأعدى أعدائك ، لان وأسلس ، ولكن الاناني الحاقد الذليل ، لا يرضيه الا أن يخلو له وحده وجه الارض .

وكان لا بد من الحملة عليهم . وتعقب مخازيهم . وهتك أستارهم وأسرارهم ولكنها حملة هي غاية في العدل . فلم تتجاوز تقرير الحقائق ،

Marfat.com

وبيان ما ارتكبوا من جرائم التحريف والتغيير ، وذكر ما لأسلافهم في الماضي من مواقف مع الأنبياء ، ابتداء من موسى الى عيسى عليهم صلوات الله وسلامه ، وما كان لهم من خلاف وتعنت وجحود بآيات الله . وقتل لبعض هؤلاء الانبياء وتكذيب لبعض ••• يسرد ذلك كله حتى لا يخدع الناس بهم • ويعرفوا أن موقفهم اليوم من القرآن . ان هو الا حلقة من سلسلة ماضيهم الطويل . وعادة يجرون فيها مع ميراث قديم • وهو في كل هذا لا يتجاوز ما هو مكتوب عندهم في التوراة •

وانك لتتبين عدالة هذه الحملة . حين ترى الاسلام في تقريره للوقائع يذكر مالهم وما عليهم ؛ فيقول عن أصولهم وأجدادهم « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » ويقول فيهم : « ولقد اصطفيناهم على علم على العالمين » ولكنه مع هذا يقرر أنه مسخ بعض هؤلاء القدامى ، فجعل منهم القردة والخنازير ، بما فسقوا عن أمره ••• ويعدل معهم في حاضرهم ، فيقول : « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات . وأولئك من الصالحين » « منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » •

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلوك هذه الخطة العادلة . يطمع أن يؤمن هؤلاء به ، فقطع الله له كل طمع فيهم ، وقال له : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » •

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » •

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ؟ » •

Marfat.com

وبعد : فيمكن تتبع أخبار الجبهة التي نازل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود في سور القرآن المدني ، ولا سيما البقرة وآل عمران والمائدة ، ولعل ما مضى يرسم لنا خطوطاً أولية ، لسير هذه المعركة ، تساعدنا على قوة فهم ما جاء عنها في القرآن الكريم ، لا فهم الباحث فقط ، بل فهم الداعية ، الذي يريد أن يصل عواطفه بنبض الحوادث في كتاب الله كذلك . وأشير دائماً أن يكون تفسير ابن كثير بجانبك ، فإنه بعد معرفة هذه الخطوط الاولية . يساعدك على أن تعيش في جو هذه المعركة، كأنك تراها أو تسمعها . ولهذا أثره العظيم في ابلاغ روح القرآن الى قلب قارئه . وفي أن يشهد الداعية ألواناً من المنازلة والمصاولة ينتفع بها في دعوته .

جبهة المنافقين

لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة . كان أهلها على أهبة المناداة بعبد الله بن أبي ملكاً عليهم . فتغير مجرى الحوادث على غير ما يهوى هذا الرجل . فأقام مدة وحوله جماعة من أنصاره وأصدقائه يقلبون الأمور ويبتغون الفتن لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن الله أعز جنده . وأيد دينه . فأقبل بعضهم على بعض منذ يوم بدر ، وقالوا : هذا أمر قد توجّه ... ورأوا الناس يدخلون في دين الله . ويقبلون على رسوله بالسمع والطاعة والمحبة . فكرهوا أن يظلوا وحدهم . فدخلوا في الاسلام ظاهراً . وبقيت قلوبهم على جحودها وغيظها .. فكانوا يقومون بمهمة « الطابور الخامس » لليهود ولغير اليهود من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأعلم الله رسوله بنبأ هؤلاء المنافقين ، بصفة عامة لا خاصة . ليأخذ حذره. فقال: « وممن حولكم من الأعراب منافقون . ومن أهل المدينة مردوا على النفاق . لا تعلمهم نحن نعلمهم » ثم زاده معرفة بهم فقال : « أم حسب الذين

Marfat.com

في قلوبهم مرض أن لن يخرج ـ يظهر ـ الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » .

وقد عرفنا موقف المشركين بمكة ، واليهود بالمدينة ، ثم موقف هؤلاء ـ ولا شك أنهم أحقر الثلاثة ، وأخسهم نفساً وألأمهم طبعاً ؛ فليس كالنفاق آفة تحلق المروءة والرجولة ، ولهذا يقول الله تعالى : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » ؛ وتتلخص أساليب هذه الحرب السرية في الأنواع الآتية :

(أ) اضعاف شأن المسلمين في الحروب ، وهؤلاء المنافقون أقدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة ، فقد دخلوا في الاسلام ، وأظهروا الاخلاص لنبيه ، وأتقنوا دورهم ، حتى أن عمر نفسه لم يكن يعرف عن أكثرهم الا الصلاح والورع . فكان هؤلاء « الصلحاء الأكابر » يقعدون عن الخروج للقتال . أو يستأذنون في القعود . فإذا رآهم من هو أقل منهم من العامة ، اقتدى بهم وأدركه شيء من الفتور والتثاقل . وكانوا كذلك يشيرون على غيرهم بالقعود معهم ، فيقعد من يقعد ، ويخرج الى القتال من يخرج مخالفاً مشورتهم . فإذا قتل . قالوا : « لو أطاعونا ماقتلوا. قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين» .

وكان بعض هؤلاء المنافقين يخرج ولكنه يعود من الطريق . ويقول: والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ فإذا رجع ـ رجع معه طائفة كبيرة من الجيش . كما حصل يوم أحد ... فإذا خرجوا ولم يرجعوا من الطريق سعوا بالفتنة . وبثوا روح التخاذل في الجيش ؛ كما حصل في غزوة تبوك ، اذ قال بعضهم : يظن هذا (يعني رسول الله) أنه يفتح قصور الروم وحصونها ، هيهات هيهات . ويقول آخر : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً

Marfat.com

مقرنين في الحبال ، وصدق الله العظيم : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم (مشوا بالفساد) يبغونكم الفتنة » •

(ب) كانوا ينتهزون كل فرصة سانحة للوقيعة بين المسلمين واثارة الفتن في صفوفهم •

في غزوة بني المصطلق تدافع غلامان على الماء أحدهما لرجل من المهاجرين والآخر لرجل من الأنصار ••• فصاح المهاجري : يا للمهاجرين وصاح الأنصاري : يا للأنصار ••• وسمعها عبد الله بن أبي رأس المنافقين فلم يتركها تمر دون أن يستغلها في الوقيعة التي يريد ، فقال : قد ثاورونا في بلادنا ، والله مامثلنا وجلابيب قريش هذه ، الا كما قال القائل : (سمن كلبك يأكلك) ••• ثم أقبل على من في مجلسه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم — أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم الى غيرها ••• والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ••••••

وأرادها الرجل فتنة بين المهاجرين والانصار ، ولكن الله أحبط كيده وحفظ جنده من التفرقة بتصرف حكيم بارع لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصلته كتب السيرة •

(ح) محاولة الغض من جلال الرسالة بالاستهزاء برجالها ، واختراع الأراجيف في حقهم ، فهذا عبد الله بن أبي يخترع حديث الإفك ويتولى كبره ، وهو ضربة موجهة للاسلام بطريق غير مباشر ••• فإن شك الناس في عرض عائشة وعرض أبيها وأسرته ، وشكهم في النبي الذي كان في زعمهم معاشراً امرأة زانية — هذا الشك من شأنه أن يضعف الحماسة لرسول الله وزعماء الاسلام ، وقد تفاقم خطب هذا الحديث وأفاض فيه كثير من المسلمين وكاد يتحول الى كارثة اسلامية ، بتنازع الأوس والخزرج ، لولا حكمة رسول الله الذي أسرع فحسم

Marfat.com

الشر ... وقد تولت كتب السيرة بيـان ذلك وحكمـة رسول الله صلى الله عليه وسلم في علاجه .

وكانوا يتنقصون أتقياء المؤمنين في سخرية وتهكم ؛ قال رجل منهم في جماعة من صلحـاء القراء : ما أرى قراءنا هؤلاء الا أرغبنا بطونا . وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهـذا . غضب وجاء الرجـل يعتذر ويقول : انما كنا نخوض ونلعب .

وقالوا عن النبي : انه أذن، كلما قال له أحد شيئاً صدقه. فإذا قيل له ضده صدقه أيضاً .

وكانوا يهزءون بالمطوعين من المؤمنين في الصدقات . فمن أعطى جزيلا رموه بالرياء ؛ ومن أعطى قليلا لأنه لا يجد الا جهده ، سخروا منه ... كل هذا وهم معدودون من المسلمين ، لا يستطيع أحـد أن ينكر عليهم اسلامهم ، لأنهم يقولون بألسنتهم لا اله الا الله محمد رسول الله . وتحت ستار هذه الشهادة يأتون ما يأتون من الجرائم ، فإذا سئلوا اعتذروا ، أو أنكروا وأقسموا .

(د) تدبير الاتصالات السرية باليهود . والمشركين ، والنصارى للايقاع برسول الله والمسلمين ، وأنباء هذه الاتصالات ، مذكورة في كتب السير والتفاسير . ونذكر منها على سبيل المثال ما كان من منافقي رهط أبي عامر الراهب ، فقد سافر هذا الرجل الى ملك الروم ، يستنصره على النبي . فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب الى جماعته من أهـل النفاق . يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويغلبه ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلا منعزلا ، ليستقبلوا فيه رسله وكتبه ، وليكون مرصداً له اذا قدم عليهم بعد ذلك ، فبنوا لهذا الغرض مسجداً سمي فيما بعد مسجد

Marfat.com

الضرار • وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين • وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن ان أردنا الا الحسنى • والله يشهد انهم لكاذبون » •

أما موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الفئة فهو موقف لا يقفه غيره عليه السلام •

(١) كان يترك الى الله سرائرهم ، ويعاملهم بما يبدو من ظواهرهم • جاءه منافق ليتوب من نفاقه ، فقال : يا رسول الله . الايمان على لساني ، والنفاق في قلبي ولا أذكر الله الا قليلا . فقال عليه السلام : « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً . وقلبا شاكراً . وارزقه حبي وحب من يحبني . وصير أمره الى خير » فقال الرجل : يا رسول الله انه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ فقال عليه السلام : « من أتانا استغفرنا له . ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد ستراً » •

(ب) كان يشفق عليهم من اثم ما يجرمون . فإذا أنبأه الله من أمرهم شيئاً استدعى أحد أصحابه وقال له : أدرك القوم فانهم قد احترقوا ، فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا ، فقل : بلى • قلتم كذا وكذا . كما حدث في غزوة تبوك لما حاولوا ارهاب المسلمين من الروم •

(حـ) كان يشعرهم أن اغضاءه عنهم ــ هو اغضاء الكريم الذكي. الفطن لا اغضاء الغفلة والبلادة ، فكان أحياناً يغمزهم بما يكاد يكشف أمرهم ••• فكلامهم غير كلام المؤمنين الصرحاء « فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » وأحوالهم غير أحوال المؤمنين المطيعين . « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » ولكنهم لم يعدوا شيئا كما أعد غيرهم ، فكان من علامة المنافقين عدم اهتمامهم بالاستعداد للقتال . اكتفاء بعذر كاذب ، يعتذرون به للرسول صلى الله عليه وسلم •••

Marfat.com

بل كان الاعتذار نفسه من جملة صفاتهم المميزة لهم « انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وارتابت قلوبهم » الآية •

(د) وصف ماهم عليه من الجبن ، وتفاهة القدر « واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » أي النساء « فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ، فأولى لهم طاعة وقول معروف » • « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » •

وكل منصف يرى أن اكتفاء القرآن بوصف حقيقتهم هو أعدل المواقف ولك أن تقدر ما كان يحل بهؤلاء الخونة المستترين ، لو أنهم كانوا في دعوة من الدعوات الحديثة ، لترى السماحة التي قوبلت بها جرائم هؤلاء •

فطبيعة الموقف في هذه الجبهة • أن المنافقين كانوا يجهدون لإضعاف الروح المعنوية في الجيش الاسلامي ، ويعملون لشق جماعتهم ويحاولون الغض من جلال الرسالة ليهون شأنها في قلوب الناس ، ويتصلون سراً بأعداء الاسلام في الداخل والخارج للقضاء عليه ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم (١) فكان يقبل منهم ظاهر أمرهم ويترك الى الله سرهم (٢) ويشفق عليهم من اثم ما هم فيه ، (٣) ويكتفي بأن يشعرهم بفطنته التي لا يروج لديها نفاقهم (٤) ولا يوقع بهم من الأذى أكثر من وصف مجموعتهم بالجبن وتفاهة القدر ، دون أن يعرض لأشخاصهم بشيء •

ولعل في هذا التلخيص ، ما يعين الداعية على فهم ما ورد في القرآن الكريم خاصاً بهذه الناحية ، وهو ـ طبعاً ـ في السور المدنية ،

Marfat.com

ولا سيما في صدر سورة البقرة ، وسور : النساء ، والتوبة ، ومحمد والمنافقين ...

جبهة المشركين :

وهي هنا جلاد بالسيف ، ومعارك تراق فيها الدماء ... غير أن القرآن لا ينحو في تسجيلها نحو المؤرخين ، ولا يسرد أنباءها سرد المراسلين الحربيين في ميادين القتال ، انما هو نمط عجيب يعرض عليك من حوادث الجند وأخبار المعارك وكلمات الرجال ، ما هو جدير بالاعتبار والتسجيل .. نمط يبث في ثنايا الحوادث والمقالات . قوانين الحرب وأحكام القتال ، وآداب الجهاد ... فتقرأ حين تقرأ عجائب من النصر تحير اللب على غير ما يحتسب خبراء الحروب . وهمساً نازعة الى أشرف البيع طموحا الى منازل العز عند مليك مقتدر .. والعجب المحير هو الصورة التي تحقق بها وعد القانون ، وان الهمة النازعة هي المقدار الذي تتنزل به عجائب الثمار ، فهي بطولة مؤسسة على القانون . وقانون يعرض نفسه عليك في أنباء البطولة ، فان قلت : ان سر القانون ليس القوم فكانوا أبطالا ، فأنت صادق . وان قلت : ان القوم صاغوا بأعمالهم صوراً حية لهذه القوانين ، فأنت كذلك صادق . والقرآن الكريم ، انما يرمي الى كلا المعنيين — يشيد بفضل القوانين ، ليبعث بالهمم اليها ، ويشيد بأعمال المؤمنين ، لتكون منوالا لمن ينسج عليها .

ولسنا بصدد ايراد كل ماجاء في القرآن عن قوانين الحرب وآداب القتال ، وانما بصدد تحليل لون من ألوان جهاده صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، والمقام يقتضينا الاقتصار على ما يبين لنا طبيعة الموقف في هذه الجبهة الثالثة من جبهات جهاده صلى الله عليه وسلم .

١ — والمادة الاولى من هذا القانون . توجب أن يكون القتال في سبيل الله ، وقد قرأ المسلمون هذه المادة وفهموها . ورعوها حق

Marfat.com

رعايتها ، لأن قلوبهم استوعبتها ، وآمنت بها حق الايمان ؛ ونحن نكتفي بأنواع ثلاثة من أغراض القتال في سبيل الله •

الأول : لنشر العقيدة الاسلامية ، اذ يقول الله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » •

الثاني : لتحرير الاوطان . وتخليص أهلها المستضعفين ، من ذل السيطرة الاجنبية والله تعالى يقول : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون ربنا. أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » •

الثالث : تأديب الغادرين الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم ، وهـذا قول الله سبحانه : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة » وقد نزل هذا القرآن الكريم في مشركي قريش لما نقضوا عهدهم بالحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم •

٢ ــ والمادة الثانية من هذا القانون المبارك ، توجب على المقاتل أن لاينتظر أجرا على قتاله الا من الله سبحانه ، وذاك قوله تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أما الذين يشرون الحياة الآخرة بالدنيا فليسوا من أهل هذا القانون •

وجزاء الله مكفول لا محالة في الدنيا لمن كتب لهم النصر والغلبة ، وفي الآخرة لجميع المقاتلين « ومن يقاتل في سبيل الله ، فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » «قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين؟».

والحسنيان هنا هما : النصر في الدنيا ، أي نصر الحق . وأجر الشهادة اذا كان القتل•••وأحب بهذه المناسبة أن أنبه الى خطأ يقع فيه

Marfat.com

بعضهم بحسن نية ، ذلك أنه يجعل احدى الحسنيين مغانم القتال عند النصر ، والاخرى أجر الشهادة...ووجه الخطأ أن المقاتل المسلم انما يبغي احقاق الحق لا وجه عرض من الدنيا ، وهذا المقصد السامي الجليل. يرجح في ميزان الايمان كل عرض أدنى ولو كان ملء الارض ذهبا ...

هذا الى أن جعل مغانم القتال احدى الحسنيين . في مقابل أجر الشهادة في الآخرة مما لا يسيغه أهل الفقه المستنير . فأين هذه المغانم اليسيرة مما أعد الله للشهداء من جزاء لا يحيط به وصف الواصفين . والله تبارك وتعالى يقول : « قل متاع الدنيا قليل » . فانظر ماذا تقع هذه المغانم من متاع الدنيا القليل ، ثم انظر ماذا يقع هذا القليل من أجر الشهادة الضخم الجزيل ... وسل نفسك بعد هذا . هل تطمئن الى أن تكون هـذه المغانم في ميزان الله احـدى الحسنيين . مقابل أجر الشهداء ؟

ان الذي يطمئن اليه ضمير المؤمن . أن تكون عزة النصر وعلو ارادة الحق هي احدى هاتين الحسنيين . وهو الذي يساير قول الله تعالى : « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ... فهل يسمي الله مغانم الحرب أجراً عظيماً وهو الذي يقول عن متاع الدنيا كلهـا انه قليل ؟ وبعد فما كان المؤمنون عبيد درهم ودينار ، وهم يحملون سيوفهم بأيديهم ، وقلوبهم في صدورهم لا تهتف الا بالله ولا تنظر الا لثوابه .. فاذا وقع أخيراً بين أيديهم شيء من الأسلاب والغنائم ، فهو مال الله قد زال عنه ملك أعدائه . فهم أحق به وهو حل لهم .

٣ ــ والمادة الثالثة من جريدة هذه الآداب تنص على أن مصدر التأييد والعون الذي يلقاه المسلمون في قتالهم ، هو الله سبحانه وتعالى . فليس لمخلوق قوة ذاتية .. الا أن تكون مستمدة منه جل شأنه ...

Marfat.com

وقد وصف الله ذاته ، بأنه قوي ، وبأنه القوي ، وأنه ذو القوة المتين وأنه القاهر فوق عباده ؛ ولكن الجامع لقوته سبحانه ، المانع أن يكون لغيره قوة ، هو قوله تعالى : « لا قوة الا بالله » .

فإذا حرك المؤمن يده ليضرب بها ، فانما يحركها بقوة الله ، لا بقوته هو « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » .

... وكم صرع المسلمون الرجال ، وجندلوا الابطال، فنزل القول الحكيم ، يقرر الحق فيما فعلوا « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

... ولقد جاء الرجل فقال : يا رسول الله ، ان القوم قد جمعوا لك عددهم ، وعدتهم ، وأرى أن تستقبل أمرك بشيء من الحذر والخشية ، فنظر الرسول الى عرش الله ، فاذا قوة ساحقة ماحقة ، لو توجهت الى كل من في الارض ومافي الارض جميعاً لجعلته لا شيء ، فزاد ايمانه صلى الله عليه وسلم بالله ، وقال : (حسبنا الله) « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .. وليس هذا بغريب ممن أدبه الله بمثل هذا الادب في قوله : « أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ، ان الكافرون الا في غرور » .

ولقد كان بعض المسلمين يدخل عليهم أحياناً — من باب السهو — شيء من الإعجاب بكثرتهم ، فيحيق بهم في الحال ما يردهم الى حقيقة قانون الله « ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

٤ — والمادة الرابعة من هذا الدستور الحربي الكريم ان نصر الله ،ليس هبة توهب ، ولا منحة تمنح بدون مقابل ، وانما شرطه أن ينبعث المرء فعلا الى الجهاد في سبيل الله « ان تنصروا الله ينصركم

ويثبت أقدامكم » .. فمن تمنى على الله الأماني ، وقعد في بيته ينتظر أن ينصره الله ، فقد دل من نفسه على غفلة خائبة ، وأضاع عمره في غير جدوى .

ونظام العمل في هذه المادة ، أن ننهض نهضة قوية شاملة ، وأن نأخذ بكل الأسباب الممكنة ، وأن نعذر الى الله باستفراغ كل مافي الطاقة من جهد ، ولو كان جهد المقل . فهذا وحده مفتاح نصر الله ، وهو وحده السر الذي تحرك به جنود الله في السماء والارض .

واعلم أن هناك كثيراً من آيات القرآن تدور حول هذه القوانين ، وتتصل بها ، من قريب أو بعيد ، فتشرحها شرحا مستفيضاً .. فإذا كان هناك من يظن أني ألممت بالشرح الوافي لكل مادة ، فليحذر هذا .. فإنما هي موجزات مضغوطة ، لو أردنا أن نسرد كل الآيات التي تشير اليها لامتد بنا القول ... فتنبه لهذا والله معك .

وأعود أخيراً فأقرر أن القرآن الكريم في هذه الناحية لا يسرد أخبار الجيوش وحركات الجند ، وانما يقرر هذه القوانين ونحوها ، ويذكر من أقوال المجاهدين وأعمالهم ، ما هو تطبيق لها ، وتفسير عملي لأسرارها ، وتجريب واقعي لصحة موعودها ... فلا بد من استحضار هذا كله في الذهن ، عندما نقرأ أنباء هذا اللون الدامي من ألوان الجهاد في سبيل الله ، فإن الآية حينئذ تفصح لنا عن مكنونها ، بأكثر مما كانت تفصح من قبل ...

واقرأ على هذا من الآن غزوات : بدر ، وبني النضير ، وأحد ، والخندق ، وبني قريظة ، والحديبية ، وتبوك ، في سور آل عمران ، والأنفال ، والتوبة ، والأحزاب ، والفتح ، والحشر ، وكلها مدنية ، فإنك واجد ان شاء الله ما حدثناك به ، على أن تجعله مصباحاً تهتدي به في رسالتك وجهادك ...

Marfat.com

أسس المجتمع في القرآن :

ثالثاً : يجب أن نقرأ القرآن على أنه يرمي الى بناء مجتمع فاضل ، أو مجتمع نموذجي كامل ، وعلينا أن نلتمس مواد هذا البناء في آياته البينات على النحو الآتي :

١ ــ ما هي التعاليم التي سنها القرآن للفرد ليجعله عضواً سليماً نافعاً في هذا المجتمع ؟

٢ ــ ما هي المبادىء الاجتماعية ، والاعتبارات العاطفية ، التي قررها للجماعات ليكونوا متعاونين على البر والتقوى ؟

٣ ــ ما هي القواعد التي شرعها لنظام الدولة العام ليتربى في ظلالها خير أمة أخرجت للناس ؟

ولتسهيل البحث . نذكر أن كل ماجاء عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفضائل النفس الذاتية ، انما هو خاص بإعداد الفرد . فعليك بتسريح طرفك فيه ، طرفك القلبي لا العادي وحده. فسترى أن القرآن جاء بالممتع المشبع، الذي يبني كيان الشخص ــ كيانه الباطن ــ أفضل البناء وأقواه ، وسترى أنه أفاض في هذا الباب وأحاط بكل جزئياته وتفاصيله ، بما لا يرد على البال ، وحبذا لو جمعت لنفسك طائفة مختارة من هذا الباب ، تكون مرتبة حاضرة على لسانك عند الاستشهاد .

وفي دستور الجماعات المتعاونة ، جاء نظام الطبقات واقرار الفروق المادية ، وكفالة الحقوق الانسانية في ظل الإخاء العام ، الإخاء الحقيقي لا النظري ، جاء حق الفقير في مال الغني ، والنص على أن المال مال الله سبحانه وتعالى ، ونحو هذا مما تتيسر به الأزمات المادية والنفسية ، ويسهل به امتزاج العواطف ، وتوافر الحب بين الجماعة ،

فعليك باستقصاء هذا النوع من المبادىء في القرآن ، مع الاهتمام التام بمعرفة موقع كل مبدأ في بناء الجماعة على الحب والإخاء .

وفي نظام الدولة : قرر واجب الرئيس الأعلى في أصلين كبيرين (١) العدل في الحكم (٢) رعاية ما ائتمن عليه من حقوق الناس المختلفة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وقرر واجب الأفراد في أصلين كبيرين أيضاً (١) الطاعة المطلقة لولي الأمر الا في معصية الله (٢) الارتفاع اليه بمنازعاتهم التي يعجزون عن حلها بالوسائل السلمية « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول ، وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

هذا الى التشريعات الخاصة بحماية النفس،والعرض والملكيات... وتقرير قواعد المعاملات في البيع والشراء ، والدين والرهن ، والإجارة ، والميراث ونحوها ، والنص على أصول السياسة الخارجية للدولة ، من حيث الحرب والسلم والمعاهدات ، والتصريح بأسباب ضعف الدولة ، وقوتها ، بما ليس وراءه زيادة لمستزيد .

فإذا نحن قرأنا القرآن ، وليس في أذهاننا هذا الاعتبار ، بدا لنا كأنه مصمت مغلق ، كأننا نسير في مدينة غريبة مجهولة التخطيط ... ولكننا اذا راعينا هذا الاعتبار بدقة ويقظة ، انكشف لأبصارنا وبصائرنا حقائق جميلة ، ماكانت تخطر بالبال .

★ ★ ★

Marfat.com

رابعاً : وعلينا أن نقرأه على أنه جامع القوانين التي يدار بها هذا الوجود ـ فإن كل شيء عنده سبحانه بمقدار ، وكل أمر يجري على سنة وقانون فمن هدي الى هذه السنن والقوانين ، وصدقها وآمن بها ، وأحسن توجيهها والانتفاع بها ، فقد انحازت اليه مفاتيح هذا الوجود ، فلينظر كيف يتصرف فيه •

واليك بعض هذه القوانين على سبيل التمثيل :

١ ـ الاستغفار ، مفتاح أرزاق السماء ؛ ولا تحسبن أنا نقصد الأرزاق المعنوية القلبية فحسب ، بل هو قانون الأرزاق المادية أيضا ••• ولا نحب أن نتركك الى حدسك وتخمينك ، فاقرأ معنا قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم ، انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » •

وقد ابتلينا في العصر الحديث بالغفلة والشك ، وذهبنا نظن أن هذا الكلام ومثله ، انما أريد به مجرد الترغيب والترهيب ، لا أنه حقيقة واقعة ، وقانون صادق ؛ ابتلينا بهذا فخسرنا كل شيء ••• وقد كان سلفنا الصالح يفطنون اليها ، ويوقنون بخيرها ، ويستفتحون أبواب السماء بسرها ، فيسعفهم الله بما يريدون •

رووا ، أن السماء أمسكت ، والأرض أجدبت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فخرج مع الناس ، ليستسقي لهم ، أي يدعو الله أن يمطرهم كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الشدائد ، فاستغفر عمر ربه هنيهة ، ثم عاد بالناس ، فقالوا له :

ـ ما نراك استسقيت لنا ؟!•

ـ قال : لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء •

ـ قالوا : وما مجاديح السماء ؟

ـ قال : الاستغفار .

وكأنهم حاروا في أمرهم : أيقول هذا من عنده ، أم هو شيء في كتاب الله ؟ فقال لهم : حيث يقول الله سبحانه : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا » وها قد استغفرت لكم ، وسيرسل الله السماء عليكم بما يشاء . ... قالوا : فما أتم عمر كلامه ، حتى اهتز الأفق ، وبدأت الرياح تثور . وأقبلت السحب تترى ، حتى انعقد في سماء المدينة ظلة من الغمام وأنجز الله موعوده . « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا » .

٢ ـ حصن النعم ، أن تقول: « ماشاء الله، لاقوة الا بالله »... وهو قانون كريم ، وتعليم صادق حكيم ، أجراه الله في سورة الكهف ، على لسان الرجل المؤمن ، حين قال لصاحبه وهو يحاوره : « ولولا اذ دخلت جنتك قلت : ماشاء الله ، لا قوة الا بالله » ... وكم قرأنا نحن هذا القول ، دون أن نلتفت الى ما فيه من الخير ، حتى أوقفنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد ، فيقول : ما شاء الله لا قوة الا بالله ، فيرى فيه آفة ، دون الموت » ...

ولهذا كان بعض السلف يقول : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده ، فليقل : « ما شاء الله لا قوة الا بالله » ... وهو قول مأخوذ من الآية الكريمة ، ويستند الى الحديث الشريف .

٣ ـ كل عمل السوء يرتد على صاحبه ، فيوبقه : هذا قانون ، لا يتخلف من قوانين الله ... فنية الشر ، تلد في كل عمل روحا شريرا ، تكمن فيه كالوحش ، ترتقب الوقت المناسب لتثب فيه على صاحبها ...

Marfat.com

واقرأ معي قول الله تعالى : « يأيها الناس : انما بغيكم على أنفسكم » وقوله سبحانه : « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » وقوله : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » .. قال محمد بن كعب القرظي : « ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزلن به : المكر ، والبغي ، والنكث » وتصديقها في كتاب الله تعالى : « ولا يحيق المكر ... » الخ الخ .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصور لنا شدة الحاح الشر في طلب صاحبه بقوله : « اياك ومكر السيىء ، فإنه لا يحيق المكر السيىء الا بأهله ، ولهم من الله طالب » بل ان الله عز شأنه يبين لنا بصريح العبارة أن هذا قانون من قوانينه، فيقول عز شأنه : « ولايحيق المكر السيىء الا بأهله، فهل ينظرون الا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

٤ ـ ان كل هدف يسعى اليه المرء باسم الله ، فهو مدركه لا محالة ... ومن السهل على الانسان أن يصدق هذا بعقله ، ولكن ليس من السهل أن يحيط به قلبه ، لأنه من حقائق اليقين ، التي لا يلم بها الا ذوو القلوب .

ولقد قلنا في غير موضع ان شأن القلوب فيما تفقه ، هو التسليم المطلق بما فقهت ، تسليما غير مقيد بعلة أو برهان .

أما شأن العقول ، فإنها لا تقبل شيئاً الا بميزان المنطق القائم على الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات والأقيسة والمفهومات ، وما الى هذا من قوانين الادراك العادي .

فاذا انبعث المرء بحقائق فكره ، انبعث وهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ... واذا انبعث بحقائق قلبه ، مضى على قانون التسليم المطلق ـ كان ما انبعث اليه حقيقة واقعة .

Marfat.com

وليس من قصدنا هنا أن نشرح حقيقة الفهم العقلي والقلبي ، وان كنا نحس أن هذا من الضرورات التي لا غنى لأحد عنها. فان في القرآن والسنة مدركات تبدو كأنها وهم اذا نظرنا اليها بالعقل وحده ، فنكتفي بما قررناه ، مؤكدين أن الانسان في أشد الحاجة الى كلا النوعين من الفهم على أن يحسن الانتفاع بكل منهما في مقامه .

رووا أن المسلمين جاءوا مصر لفتحها ، واجتمع أولو الأمر فيها ، وطلبوا الى قائد الحملة أن يرسل اليهم رسولا يفاوضهم ويفاوضونه .. وكان مما جرى في مفاوضاتهم . أن حاولوا توهين عزيمته . والقاء اليأس في قلبه من فتح البلاد ، فما كان منه ، الا أن أجابهم بكل بساطة : يا هؤلاء ، اننا لسنا بصدد فتح البلاد ، فإن الله قد فتحها لنا منذ أن قطعنا اليكم من الأودية ما قطعنا ، فهو سبحانه يقول : « ولا يقطعون واديا الا كتب لهم » .

ونحن نترك لك أن تتأمل هذا الاستخراج الجميل ، والفقه الدقيق ، واليقين الصادق . الذي مَنَّ الله به على هؤلاء المؤمنين .

د ـ والله سبحانه يقول : « وهو يتولى الصالحين » . فكون الله تعالى يتولى الصالحين ، قانون نافذ ، وقول صادق . فليعلم هذا كل من يحب أن يدخل في الرعاية التي لا يرام حماها . وكل ما عليه . أن يأخذ بأسباب الصلاح . حتى تجري عليه أحكام هذا القانون الكريم ...

وقد يموت الرجل الصالح وله ذرية ضعفاء ، فتمتد رعاية الله اليهم . توسعاً منه سبحانه في عموم رحمته ، ولأن رعايتهم رعاية لأبيهم . لما فيها من تطييب قلبه ، وتسكين خواطره ، وأنت تقرأ تصديق هذا الكلام في سورة الكهف اذ يقول سبحانه : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد

Marfat.com

ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري » •

فالله سبحانه قد سخر الخضر عليه السلام لإصلاح الجدار ، ابقاء على ثروة الغلامين اليتيمين ، وانفاذاً لمشيئته في رعاية أبيهم الصالح بعد مماته •

وقد قرأنا استخراجاً لطيفا من هذه القصة ، لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أجدبت الأرض على أيامه ، وشكا اليه الناس ما يلقون من شدة ، وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً ، فأخذ بيده وخرج ليستسقي للناس ، فقال في معنى استسقائه : اللهم ان نبيك كان يستسقيك لأمته فتجيبه ، وها نحن أولاء اليوم ، وليس من يستسقي لنا ، اللهم وهذا العباس عم نبيك ، وبقية أهله ، فاحفظ نبيك الصالح في هذه البقية ، فإنك قلت وقولك الحق : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً » ، فما لبثت السماء أن أقبلت عليهم بالمطر الغزير •

ولعل فيما أسلفنا من هذه الأمثلة ، ما يغنينا عن الاسترسال في الاستشهاد ، ويقف بنا على حقيقة المراد •

ومع أن من السهل أن يلتفت الانسان الى هذه القوانين في القرآن ، ويستخرج منها ما يهديه الله اليه ، فإنا نذكر هذه التوجيهات البسيطة تيسيراً لمهمته •

١ ـ يستطيع كل قارىء أن يجد الكثير من هذه القوانين ، في صيغ المبتدأ والخبر وما هو في حكم المبتدأ ـ كقوله تعالى : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ، لنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولأجر

Marfat.com

الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » « واعلموا أن الله مع المتقين » ... فعليك بملاحظة أمثال هذه الصيغ فان فيها الشيء الكثير .

٢ ـ وفي صيغ الأمر وجوابه ، يسوق الله طائفة كبيرة منها : « استغفروا ربكم انه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدرارا » « قاتلوهم ، يعذبهم الله بأيديكم » .

٣ ـ وفي صيغ الشرط وجوابه يطالعك الكثير من سنن الله في حزم وقوة : « ان تنصروا الله ينصركم » « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » « ولو(١) أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » « فأما(٢) الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

٤ ـ وتستطيع أن ترى في صيغ الحصر والقصر ، قوانين في غاية الظهور والجلاء « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » « ويأبى الله الا أن يتم نوره » « ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم » « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق » .

٥ ـ كل جملة تفيد ترتيب الجزاء على عمل سابق « نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، ونسوا الله فنسيهم » « ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين » .

وليس على المرء بعد هذا ، الا أن يعنى عناية جدية ، بالتنقيب عن هذه القوانين ، فهي سنن الله الباقية النافذة ... وليست هذه الصيغ التي أشرنا اليها كل شيء في موضوعنا هذا ، فإن كل حكم من

(١) لو هنا من حروف الشرط .

(٢) أما : من أدوات الشرط كذلك .

Marfat.com

استخلاصه من آية من الآيات يعتبر قانونا من هذه القوانين ••• والمدار كله على النظر ، بل كيفية النظر في هذه السنن ، المدار على الاهتمام القلبي ، والحرص الذي يشغفك بها كما شغف الذين من قبلنا ••• اقرأ القرآن على هذا الاعتبار ، تنفسح في نفسك له آفاق وآفاق •••

خامسا : والقرآن ، كلام الله سبحانه ، وخزانة معانيه ، وجامع علومه ومعارفه •• وهذه ناحية لا يدرك الناس غورها ، ولا يفقهونها حق فقهها •

فإذا افترق أهل الاذواق الادبية ، في نقد كلام البشر ، الى قائل يدعي أن جودة الكلام راجعة الى اللفظ دون المعنى ••• والى آخر يماري بأن المعنى هو كل شيء وما اللفظ الا وعاء له ، والعبرة بلباب الشيء لا بظواهره •• اذا افترق الأدباء الى هذا وغيره ، فإن مما لاشك فيه – أن الكتاب يتفاوتون بتفاوت ملكاتهم ، وخصوبتها في انتاج المعاني القيمة ••• وان كلامهم بعد هذا يتدرج في أقدار الشرف بحسب ما يتضمن من هذه المعاني كيفاً وكماً •

اذا سلمنا هذا دعوناك يا أخي ، الى تصور الفروق الهائلة بين البشر وبين الحق تبارك وتعالى – ان صح ، أن يكون هناك فرق بين مخلوق يكاد يكون لا شيء ، وبين خالق عظيم جليل هو كل شيء في كل شيء ، ولكنا نضطر الى محاولة تصور هذه الفروق ، لنرتب عليها ادراك شيء من الفروق الهائلة بين ما يضمّنه البشر العاجز الضعيف كلامه ، وبين ما جاءنا في كلام الله القديم من معانيه القديمة ومعارفه التي لا يحيط بها حصر ، ولا يدرك لها غور •

نريد أن نقرأ القرآن الكريم ، ونحن مستحضرون هذا الشعور ، أو هذه الفروق في مشاعرنا ومداركنا ، فان هذا يجعلنا نتوقع أن تشف لنا كل كلمة ، بل كل حرف ، عن محيطات من المعاني لا ساحل لها ،

ونحن لا نقول هذا بروح المتعصب الاسلامي ••• ولكن بروح الانسان الذي تمثل — على قدر ما يستطيع — ما هناك من فروق هائلة بين البشر وبين الله سبحانه ، فلم يجد ما يعبر به عن مراده الا هذا القول الصادق البالغ غاية الصدق •

ان الله سبحانه ساق كلامه ، في قدر محدود ، من صفحات المصحف الشريف وسور مقدرة معلومة ، هي سور القرآن الكريم . وقد استطاع العلماء أن يعدوا آيات القرآن ، ويعدوا كلماته ، بل أن يعدوا حروفه ••• فهي اذن حروف معدودة ، تحوي معاني كلام الله القديم كلها •• فكيف تتصور احتواء هذه الحروف علوم الله سبحانه ، ان لم يكن في كل حرف اشارات الى آفاق وأعماق ؟

ان كاتباً من الكتاب يستطيع أن ينتج في انتاجه الادبي ، من الحروف عدداً يساوي حروف القرآن ، أو أكثر •

فإذا جمعت كل ما أنتج جيل كامل من الكتاب ، وأحصيت حروفه ، وحاولت أن تستخلص ما في هذه الحروف من المعاني ، ثم حاولت أن تقارن هذه المعاني ، بما جاء في كتاب الله ، لأدركك الحياء ، وأعرضت عن المضي في هذه المقارنة تنزيهاً لعقلك ، أن يستمر في شيء غير معقول ••• فاذا جمعت كل ما أنتج كتاب البشرية ، وفلاسفتها ، في كل أجيالها وعصورها ، وتسنى لك احصاء حروفه ، واستخلاص معانيه . ثم حاولت أن تقارن ، بينها وبين كلام الله ، لرفض فقهك ويقينك بالله ، أن يلتفت الى هذه الحماقة ، ولدوى صوت الوحي في أعماق قلبك يخاطب هذه الأجيال البشرية في شخصك • « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » • « ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » •

Marfat.com

ولمضى الوحي الكريم يتكلم عن الطرف الآخر في المقارنة ، وهو علم الله سبحانه « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مددا » • « ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » •

فإذا أنت حاولت، أن تجمع علم البشرية كلها، وهو قليل ، وتضغطه في حيز ، معدود من الحروف ، مماثل لعدد حروف القرآن وكلماته ، أفلا يحق لك أن تقول : ان تحت كل كلمة اشارات واشارات الى علوم ومعارف كثيرة ؟ فكيف والقرآن الذي بين يديك ، جامع علوم الدنيا والآخرة ، مما لا يحيط به الا الله سبحانه ؟

حقاً يا أخي ، ان تحت كل كلمة من القرآن ، لأسراراً بعيدة الاغوار ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصفه ، بأن له ظهراً ، وبطناً وحدا ، ومطلعا ، ويقول وقد فقه منه ما لم نفقه ، انه « لا تنقضي عجائبه » •

فانظر شأن هذا الكلام الذي حوى من العجائب مالا ينقضي ! ولقد كان علماء المادة ، يقفون في أبحاثهم عند الذرة ، ويقولون : انها الجوهر الفرد الذي تتركب منه المادة ، ولا يقبل هو التجزئة ، لتناهيه في الصغر والدقة •• ولكنهم عادوا يطالعوننا بعجيبة من عجائب الذرة ، وهي قابليتها للتجزئة والتحطيم ، اذ حطموها فعلا ، واستكشفوا ما فيها من خلائق الله وأنواع الإشعاع وما زالوا يطالعوننا الى الآن من أسرار جزئياتها بالعجيب الرائع ، واذا بالقرآن يطالعنا بسر تحطيم الذرة كأننا نقرؤه لأول مرة في قوله تعالى: « وما يعزب عن ربك ؛ من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ؛ الا في كتاب مبين » ••• فكلمة « أصغر » وحدها ، ليست اشارة الى الذرة فقط ،

Marfat.com

بل هي تصريح جلي بإمكان تجزئتها وتحطيمها ، ولك أن تحصي كم من الجهود والتجارب والمعارف سخرت وبذلت في سبيل تجزئة هذه الذرة •• وكم من العلوم والمعارف وأسرار القوى ، يندرج تحت أجزائها ؟ واذا عرفت أن تحطيم الذرة انما هو باب فقط ، لآفاق من العلوم جديدة ، أمكنك أن تدرك أن كلمة « أصغر » هذه كانت تسخر من معارف البشر ، حين كانوا ينكرون تجزئتها ، وانها حينئذ كانت تشير للغافلين عما وراءها من المعارف الهائلة الخطيرة •

واذا كان هذا شأن كلمة واحدة من كلماته ، فكيف بكلماته كلها ؟•• بل اذا كان هذا شأن كلمة من الكلام الذي يمس المادة المحسوسة ، فكيف بكلمة تتناول من أسرار الروح مالا نرى ولانحس ؟

ولست بعد هذا أطمع أن أكلف نفسي أو غيري ، أن يسبر أغوار هذه الاعماق ، وانما أن يستحضر ذلك الشعور • الذي يلفته الى أنه يقرأ كلاماً لا كالكلام ، ••• يقرأ كلاماً حافلا بأسرار المعارف والعلوم ، حتى لا يترك سطراً واحدا دون أن يستخرج منه معنى واحدا على الاقل ••• وليعلم أننا لم نشبع أنفسنا بالكلام عما نشعر به نحو القرآن ، وما تحوي آياته من وجوه المعاني العجيبة . فإن هناك لحظات تمر ببعض العارفين ، ينكشف فيها الغطاء عن قليل من وجوه هذه المعاني ، فاذا عوالم رهيبة خطيرة ، لا ينجي منها ، الا أن يعود الغطاء الى ما كان « وما يعلم تأويله الا الله •• والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولو الألباب » « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » •

فقف يا أخي ، وابحث ، ونقب في كلام الله ، على هدى وبصيرة ، فان المعاني تفتح لك ما استغلق من أبوابها •

Marfat.com

اقرأ القرآن على أنه خزانة المعاني ، وجامع المعارف واظر ماذا تحصل لنفسك منها ؟

ابسط مصحفك أمامك ، واقصد سورة من سوره ونقب فيها ، تنقيب الاثري الحاذق العالم ، عن ثمين الآثار وجواهر الكنوز ... اقرأها آية آية ، وضع على هامش مصحفك عنوانا لخلاصة ما يبدو لك من معناها .. ثم اجمع ذلك في جريدة أو « قائمة » تجد نفسك أمام عناوين ، أو رؤوس موضوعات في غاية العمق المليء الحافل بعلوم الحياة وحقائقها ، مما لو أردت استمداد الايام في شرحها وتفصيلها لطال بك الامد ... لقد فتحت مصحفي ووجدتني أمام سورة الزخرف ، وهأنذا أنقل اليك بعض رؤوس موضوعاتها لا كلها :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ القرآن يجمع من خصائص علم الله مضامين العلو والحكمة .

٤ ـ « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » .

٢ ـ إسرافنا في الغي لا يفسد استعدادنا للهداية .

٥ ـ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين » .

٣ ـ من سنن المبطلين رد الحق والاستهانة بدعاته .

٦ ، ٧ ـ « وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون » .

٤ ـ لنا في كل نعمة حسية نفعان: نفع حسي ، ونفع روحي .

١٢، ١٣ ـ « وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه .. الى قوله : مقرنين » .

Marfat.com

٥ ـ النشوء في الحلية والتنعم لا يرشح للشدائد وعظائم الامور .	١٨ ـ « أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » .
٦ ـ لا حجة للادراك الحسي الا فيما يبلغه سلطانه .	١٩ ـ « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم»
٧ ـ الانسياق في التقليد دون التبصر في معالم الحق يورث التفاهة وسوء العاقبة .	٢١،٢٢ ـ « أم آتيناهم كتاباً فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » .
٨ ـ انسياق القادة في تقليد مواريث الترف يورثهم المكابرة فيما يجيئهم من الحق ويصرفهم عن النظر فيه .	٢٣،٢٤ ـ « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة .... مقتدون ، قال : أولو جئتكم بأهدى ... قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون » .
٩ ـ التزام مواريث التمتع الحسي يعطل ملكة التمييز بين الحق والباطل .	٢٩،٣٠ ـ « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى ... مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون » .
١٠ ـ مقادير الرجال في مواهب النفس لا في مواهب الجاه والمال .	٣١ ـ « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .
١١ ـ تفاوت الناس في حظوظ المعيشة ودرجات المواهب سنة عمارة الارض وانعقاد المجتمع .	٣٢ ـ « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ

Marfat.com

بعضهم بعضا سخريا » أي ليدخل بعضهم في مصالح بعض وخدمته وتسخيره بالطبيعة لا بالقهر .

١٢ ـ حقائق الايمان ـ في ميزان الحق ـ معدن العزة والغنى ، وقيم المتاع الدنيوي المطموس معدن الصغار والشقوة .

٣٣ ، ٣٥ ـ « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ... سقفا من فضة ومعارج ... ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

١٣ ـ ذكرالله حياة ملكات القلب وبهجتها ونورها ، فاذا أعرض عنه المرء غشيه من الشيطان ما يطمس ذلك كله .

٣٦ ، ٣٧ ـ « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » .

١٤ ـ أدوم أواصر الخلّة وأزكاها التحاب في الله ، كل آصرة تقوم على الباطل فهي منقوصة .

٣٨ ـ « حتى اذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » .

١٥ ـ اذا تعطلت البينة في عقول المدعوين تعذرت الاجابة الى الحق .

٤٠ ـ « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين » .

١٦ ـ الدنيا تهلكة ، ورسل الحق ودعاته أمنة منها فمن يرد الأمنة أدركته العقبى لامحالة بمشهد من الداعية أو بعد وفاته .

٤١ ، ٤٢ ـ « فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون ، أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون » .

Marfat.com

١٧ ـ الحق عصمة لأهله من فتنة الدنيا وخذلانها .	٤٣ ـ « فاستمسك بالذي أوحي إليك انك على صراط مستقيم » .
١٨ ـ القرآن مدد الحقائق النفيسة ونباهة الذكر .	٤٤ ـ « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون » .
١٩ ـ الحق جوهر الأصالة والنفاسة لا ينقض بعضه بعضا في أي شيء ، أو أي عصر .	٤٥ ـ « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » .
٢٠ ـ زواجر الآيات لا تعظ من قام بالباطل أمره .	٤٧ ـ « فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون ، وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها .. الى قوله : فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون » .
٢١ ـ اذا تعطلت بينة الفكر ولم يبق الا الادراك الحسي اختلت مقاييس القيم ، وفرضت مظاهر الحس أحكامها على مداركهم	٥١ـ٥٣ ـ « ونادى فرعون في قومه قال : يا قومي أليس لي ملك مصر ، وهذه الانهار تجري من تحتي .. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؛ فلولا ألقي عليه اسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ ! » .
٢٢ ـ القيادة في أي أمة ، إما أداة لملء طاقات الشعب بمثل الحق والقوة ، أو تفريغها بتزيين قيم الباطل والحس (انظر آيات ٥١ـ٥٣) خصائص حكم الطغاة تورث الشعب	٥٤ ـ « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .

Marfat.com

تفاهة الاحلام وخفة المتابعة على الباطل (انظر ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤) .

٢٣ ـ من عرّض صفحته للحق هلك .	٥٥ ـ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .
٢٤ ـ من دأب الباطل التشويش والمغالطة بالجدل الباطل .	٥٧ ـ « ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون ، وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا ؛ بل هم قوم خصمون[1] » .
٢٥ ـ الحب في الله صلة باقية وأمن في الدنيا والآخرة .	٦٧، ٦٨ ـ « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .
٢٦ ـ العمل الصالح ابتغاء وجه الله يتضمن سر النعيم الحق .	٧٢ ـ « وتلك الجنة التي أورثتموها بماكنتم تعملون » .

---

(١) روي أنه لما نزل قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » اغتاظ المشركون ، وأراد عبد الله بن الزبعرى أن يغالط النبي صلى الله عليه وسلم بقضية ملفقة ليفحمه ، فقال : يا محمد ، « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » هل هي لنا وحدنا ولآلهتنا ، أو هي عامة لكل الأمم ولكل إله عبد من دون الله ؟ فقال عليه السلام : هي عامة ؛ فقال : يا محمد ، لقد خصمتك ، فإن عيسى عبد من دون الله ، فهو على هذا في النار ، وليست آلهتنا خيرا منه ، وما علينا ولا على آلهتنا أن نكون معه في النار .. فنزل قوله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى انهم عنها مبعدون » « ولما ضرب ابن مريم مثلا .. » إلخ .

Marfat.com

٢٧ — كل تدبير يبرمه — أي يحكمه — عدو الحق لرده بالباطل فهو منقوض في الحال بتدبير من الله أشد أحكاما،شأن المبطل في تدبيره:

★ شأن من يفتل بلا خيط صورة خالية من ايجابيات الكون التي هي قوام كل عمل ومضمونه •

★ من أوهام المبطلين ظنهم القدرة على تقرير العواقب •

★ المبطل فيما يحكم من تدبير انما يصنع بأمر الله عاقبة خذلانه •

٧٩، ٨٠ — « أم أبرموا أمرا فانا مبرمون ؛ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون » •

ومع أن هذه العناوين ، ليست كل ما يؤخذ من الآية الواحدة ، ومع أننا لم نستوعب كل آيات السورة الكريمة ، فأنت ترى أن الطائفة التي سقناها لك من العناوين — طائفة قيمة تمتاز بأن كلا منها يتناول لونا من ألوان الحياة العملية ، أو القلبية ، بل ان منها ما يتناول ما هو وراء المادة كالملائكة ونحوها وكل منها في موضوعه يتضمن الحق من لباب المعارف ، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها •

قراءة القرآن على هذا النحو تقتضيك استحضار قلبك وعقلك ، وهذا وحده هو الذي يفتح لك خزائن تلك المعارف القدسية ، وهي معارف تنقلك الى الملأ الأعلى ، وتذيقك من نفحات رضوان الله ما لا قبل لأحد بوصفه ••

ولقد حدث أخ مسلم جرب هذه الطريقة فقال : لقد كنت أجلس الى مكتبي ساعات طويلة ، أربعا أو خمسا أو أكثر ، فلا يزيدني مر الزمن الا استغراقا في حسن ما أنا فيه ، ولقد كانت تفيض بي النشوة

Marfat.com

فأضطرب ، أو يضيق نطاقي عن احتمال طاقات السرور المتدفق ، فأضرب بيدي على المكتب أو أبدي من ألفاظ الاستحسان على غير ارادة مني •• أقول وقد استطاع هذا الاخ أن يقرأ القرآن كله هذه القراءة وأن يجمع من هوامش مصحفه في ثلاث سنوات ما هديت اليه مواهبه ولا يزال كلما أعاد النظر ، يطلع على شموس ربانية من المعاني القيمة الغالية •• وأنا أشير عليك هنا بكتاب « تفسير القرآن العظيم » للامام الحافظ ابن كثير القرشي •• فهو يعينك على فهم ما تحتاج الى فهمه فعليك به واحرص على اقتنائه •

والذي أريده الآن ، أن أقول لك : اجمع محصول يومك ، وهو في المتوسط لا يقل عن نصف ربع ، وهيئه تهيئة طيبة في قلبك وعقلك •

ثم تحدث به الى اخوانك الذين اعتدت أن تحدثهم أو الى من تشاء من الناس ، مرتبا الترتيب الذي ترضاه ، فإن تحدثك به وهو جديد في وجدانك حي في مشاعرك ، لين عبق في فؤادك ، يبلغ بك درجة كبيرة من التأثير في نفوس سامعيك ، بل في نفسك أنت أيضا ••• وهذا من شأنه من جهة أخرى أن يجعل المعاني تربو وترسخ وتتمكن منك ، وبكثرة ما تلقي على الناس من هذا المحصول ، تنمو ذخيرتك ويسلس لك قياد الاستشهاد •

وأوصي في ختام هـذه الكلمة أن تجمع الآيات التي تتماثل في الإلمام بمعنى واحد أو معان متقاربة ، بحيث يتألف من كل عدد منها طائفة يتكامل فيها عناصر موضوعها ــ اشرع في ذلك بالتدريج في غير تصنع ، وستجد الامام ابن كثير يعينك أجدى معونة على غرضك هذا في أول أمرك ، ثم لا تلبث أن يكون لك كتابك الحافل الزاخر ان شاء الله ، وقد نصحنا بالتدريج لأنه يركز الغرض على مهل في ذهنك وقلبك ،

Marfat.com

فيكون الموضوع في عقلك ، قبل أن يكون في كتابك ويكون استشهادك به على طرف التمام ، قريب المرام ، والله الموفق الى خير السبل •

سادسا : أن تقرأ القرآن على أن الغرض الاسمى له ، هو اعداد الانسان للدار الآخرة •

فكل ما أشرنا اليه من روح الله في القرآن • وما جاء فيه من قصص الجهاد ، وما ضمنه من نظم الاجتماع ، وما أودعه من القوانين والمعارف ليس مقصوداً لذاته ، أو ليس غاية تنتهي اليها أهداف الاسلام ، وانما يراد بها ايقاظ القلوب بدلالتها على الله ، واحاطتها بكل وسيلة مادية أو معنوية لتكون في القلوب سليمة حية ، حتى يمضي بها المرء الى غايته الأخيرة •

فعلينا أن نلاحظ هذا المعنى في كل آية ، فان العبرة لا تكمل الا به ، وجمال التوجيه لا يظهر بدونه ••• وفي المقام ما يغري بالاستطراد والاستشهاد ، ولكنا نمسك ، اكتفاء بفطنة القارىء الأريب ، سائلين الله عز وجل ، بكل اسم هو له سمى به نفسه ، أو أنزله في كتابه ، أو علمه أحداً من خلقه ، أو استأثر به في علم الغيب عنده ، أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهاب همومنا ، وجلاء أبصارنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

السنة

السنة هي المرجع الثاني ـ بعد القرآن الكريم ـ لعلوم الدنيا والدين ، وهي نفحات نفس قدسية ، وخلاصة كاملة لتجارب أعظم عقل فهم القرآن وآيات الكون ، وسنن الاجتماع ، وعلل النفوس ، ومشكلات الحياة ، وضروب الإصلاح •• فإذا أسمعك متحدث : قال

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم ، فأرهف أذنك ، واستجمع مواهبك ومشاعرك ، لأنك ستسمع أصدق قول ، وأنفع قول ، وأطهر قول نطق به بشر ، وهو بهذه الصفات غنم تتضاءل الى جانبه الدنيا وما فيها ، غنم عقلي وروحي واجتماعي وعملي ، يجد فيه كل باحث ري ظمئه الى ما يشتهي من خير المنافع •

وأريد أن أنص على معنى يغيب عن ملاحظة بعض المعاصرين ممن لهم مشاركة في السنة ، ذلك أن تاريخه عليه السلام ، ليس كالتاريخ المدرسي أو الجامعي ، أو ليس كتاريخ الابطال والرجال ••• فتاريخ هؤلاء يؤرخ ما تأثرت به الحياة بفعلهم وتوجيههم الذاتي المنبعث من عواملهم النفسية الشخصية ، أما تاريخه عليه السلام فهو تاريخ عمل الله السافر وغير السافر ، أجراه سبحانه بيد عبد رباني ليس له من الأمر من شيء ، اذا نطق لم ينطق عن الهوى ، واذا رمى فليست رميته ولكن الله رمى •

– ١ –

فللحقبة النبوية خصائص ذاتية ، تميزها من حقب التاريخ العادي جميعا •• فحقب ذلك التاريخ ، صنعها البشر العادي أفرادا وجماعات وشعوبا •• أما تلك الحقبة ، فقد صنعتها عوامل وخصائص جلت أن تكون من مواهبنا العادية ••• ولذا كان من الخطأ البين أن ندرسها كما ندرس تاريخ سائر الحقب •

خطأ ، لأن الدراسة حينئذ تقوم على أساس غير سليم ، أو على غير أساس اطلاقا ، فان التسوية بين العوامل التي صنعت هذه والتي صنعت تلك ، اهدار لواقع أصيل يرفضه العقل ، ويأبى أن يرتب عليه أي نتيجة •

Marfat.com

وخطأ لأنها ــ اذ تثمر غير الحقيقة ــ تعزلنا عن موارد القوة ، ومنابع الخير ومصادر المعرفة ، ونواميس الحق التي تستجيب لرغبات الايمان ومشيئة اليقين بما يبهر اللب ، على غير ما تألف من منطق ، أو نعهد من نواميس •• وذلك لب العبرة ومواطن الحقيقة من السيرة كلها ••

حقا ان بعضهم يدرس السيرة على أنها ثمرة كفاح عظيم ، وآثار نفس قوية أحبت الخير ، والسلم ، والعدل ، والحرية ، والمساواة ، وحققت من ذلك ما يؤثر لها على الاجيال •• ولكن ذلك بعيد كل البعد عن كنه الحقائق والدوافع والاهداف التي كان يحيا فيها ولها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعيد كل البعد عن كنه الحقائق التي مثلت في ذهنه وضميره مستعلنة باهرة ، فميزت نظرته للأمور بمنطق ليس لسواه، وأشربت وجدانه رقائق من الادب العميق جمعت له أطراف الحكمة . فكان سلوكه وكل تصرفه ــ فيما يراه الناس جليلا أو غير جليل ــ صادرا عن تقدير علوي يصيب شاكلة الحقيقة والصواب في كل أمر ، وله في كل ذلك شأو تتخلف دونه طاقات الافذاذ ••

٢ ــ فهو عبد الله

وقد تذكر العبودية فلا يقوم لها في الذهن الا مدلول غائم ، أو مثال هزيل ، أو يمر لفظها فلا نكاد نعيره أدنى التفات ••

أما هو ــ عليه السلام ــ فقد كان محكوما في وجدانه ومنطقه . بكل خصائصها، فقد استعلنت هذه الحقيقة كالشمس الباهرة في كيانه كله. لا تغيب عنه أبدا ، فبعث فيه ذلك من المشاعر السامية والمدارك الدقيقة ، ما تنزه به عن مجال الجهل والغرور ••

Marfat.com

لقدكان شعوره بأنه «عبد الله» شعور العامل في ملك سيده،وليس له فيه من الامر شيء ، ولا سبيل له على أحد من العباد بعد البلاغ •• كان ذلك الشعور واضحا في نفسه أتم الوضوح ، مركزا في احساسه أدق التركيز : يمده في مواطن البأس بالثقة فلا يتضعضع •• ويعصمه في مواطن النصر من المخيلة فلا يجاوز مقام الشكر والخشوع •• ويلوذ به — في مواطن الثناء والتعظيم — الى رتبة المساواة بين الناس ، فيرفض أن يعظم كالملوك ، وأن يفضل على غيره من الانبياء ، ويبرأ من كل غلو ينحله ما هو خاص بمقام الالوهية •• وذلك باب في الادب ، والرفق ، والتواضع ، والصدق والقوة ، والاعتزاز بجوهر العقل وتجنيبه تخييل الوهم والخرافة ، واقامة قواعد السلوك على محض حكم الفطرة •• باب في الأدب النفسي والاجتماعي كان يتحلى منه عليه السلام بالحظ الأوفر ، فزاده الاحساس بعبوديته لله أصالة ومكنة •

ومالم نستحضر تلك الحقيقة في دراسة سيرته — عليه السلام — فقد عز علينا صدق الفهم لما ندرس ، وغابت عنا معادن العبر ، ومواطن الاثارة والانبعاث ••

٣ — وهو رسول الله

وهو رسول الله

وقد تكرر هذا اللفظ — رسول الله — وسار مسيره على ألسنة الناس في كل عصور الاسلام وأجياله ، حتى صار « اصطلاحا » يفقد في الذهن وضوح صورته، وجلال معناه، أو حتى أخذ وسم«الكليشيه» الصامت الجامد ، هذا تكرره الأيدي ، وذاك تكرره الألسنة في غير اكتراث أو القاء بال لمعناه •

Marfat.com

وان الباحث العميق المنصف ، ليستطيع أن يقيم البرهان على صدق رسالته، اذا هو استقرأ ـ في صبر ـ ألوان تصرفه وقوله ـ عليه السلام ـ فانه مفض ولا بد الى وحدة جامعة بين كل عمل وقول له عليه السلام ، فاذا الحبات المنثورة ينتظمها سمط واحد ، ويشيع فيها جميعا ملامح وجدان واحد ، هو وجدان البشر « الرسول » لا وجدان البشر المنبعث من ذات نفسه ، المستقل بارادته في أمر يريده .. فانه ـ عليه السلام ـ منذ أمر بالبلاغ انقدح في وعيه معنى خطير لحقيقة « الرسول » فلم يغب عن ذهنه لحظة ، ولم يغرب عن وجدانه قط ، انه « رسول » كلف إبلاغ أمر الى الناس من قبل الله تعالى ، فهو في كافة أحيانه . وجميع أحواله « رسول الله » ملتزم كل خصائص هذا المعنى على أوفى مدلولاته ، محقق في نفسه كل مقتضياته ، وشرائطه الظاهرة والباطنة ، فلا تجد عملا من أعماله ، أو قولا من أقواله ، الا وهو صادر عن هذا المعنى ، مطبوع بطابعه ... فهو « رسول » أمر من الله أن يبلغ رسالة . فما عليه الا أن يبلغها ، وليس له ـ اطلاقا ـ أن يزيد عليها حرفا . أو ينقص منها كلمة ... وما كان من هذه الرسالة موجبا للثناء وتعظيم القدر ، فالمنطق يقضي أن يصرف الثناء والتعظيم كاملين موفورين الى الله وحده ، صاحب الفضل والمنـة بالرسالة ... وليس من الصدق والكرامة أن يدعي « الرسول » شيئا من ذلك لنفسه ، ولا أن يتقبل شيئا منه .. فكان ـ عليه السلام ـ بهذا المعنى الشاخص في ذهنه وضميره ـ ينسب كل فضل الى الله تعالى ، ويجرد نفسه من أن يكون له في الرسالة أي أثر سوى البلاغ ..

وعادة الكاذب المدعي لما ليس لديه ، المصطنع لغير ما يحس في نفسه ، أن يدركه السهو أحيانا ، فيقع ما يحذر ، ويتخلف الطابع الذي اصطنعه في كثير من قوله وعمله ، فيدركه التناقض ، ويظهر كذبه ... أما الشأن من رسول الله ـ عليه السلام ـ فمطرد في كل ما يقول ويفعل،

Marfat.com

لا تجد شيئا من ذلك الا وهو منبعث فيه عن وجدان واحد عميق أصيل هو أنه « رسول الله » •• ولا تأويل لتلك الاصالة المطردة ، الا صدق نبوته ــ عليه السلام ــ وأنه حقا « رسول الله » ••

فاذا كان وضوح هذا الوجدان في سيرته ــ عليه السلام ــ دليلا على صدق رسالته ، فهو في بابنا ضرب من صدق السمت ، وفهم الواجب . تتضح به الجادة ، وتبصر معالم الغايات بيضاء نقية ، فلا التباس في فهم ، ولا حيد عن الطريق ، ولا تفريط أو ترخيص فيما يجب أن يكون •• وفي نطاقه تحترم الحقائق ، ويعزى الفضل الى أهله ، ويوقى المجتمع آفة الذين يريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا •

واهمال هذا المعنى في دراسة التاريخ النبوي ، لا يضع في آيدينا منه سوى قشور لا تحيي عاطفة ، ولا تنير بصيرة . ولا تنهض همة ••

٤ ـ استقامة خلقه ونور بصيرته

ولا نعني بما تقدم انه كان ــ عليه السلام ــ معطل الارادة ، مفرغا من مزايا العقل والخلق • كلا ، فقد سئلت السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن خلقه ــ عليه السلام ــ فقالت : « كان خلقه القرآن »••

والقرآن حكمة وعلم ، ومكارم أخلاق ، ودستور جامع لعدالة العقيدة . والعبادة ، وضروب المعاملة ••

وكان ــ عليه السلام ــ في رجحان عقله ، واستقامة طبعه ، واعتدال فطرته على سواء الحق ، ووضوح منهاجها لبصيرته ، نمطا فذا في الرجال . صنعه الله على عينه أنموذجا كاملا لما رسم في القرآن الكريم ••• فما من فضل خلق ، وزكاة طبع ، ونفوذ بصيرة في خفايا الامور ، ووقار وحلم ، ومضاء وعزم ، وتمييز صادق لقيم الحق ،

Marfat.com

وذوق أصيل لما عند الله من زاد قدسي ، يسعد به الضمير ، وتهنأ به الروح، الا آتاه الله منه حظه الأوفى ، وسوّاه على مثاله الكامل ، انطابق كل المطابقة لما جاء في القرآن من مثل، ومبادىء، وصور راشدة كريمة.. فكان ـ عليه السلام ـ أفضل نماذج البشر مجانسة للقرآن ، وأصلحها قاطبة لتلقيه ، وتمثيله ، والتجاوب معه علانية وسرا ، وظهرا وبطنا ، والله « أعلم حيث يجعل رسالته » ..

ومن يرجع الى سيرته ومناقبه ـ عليه السلام ـ قبل بعثته ، يجد مصداق ما نقول .. فلم يكن وعاء صلدا أصم ، أفرغت فيه رسالة ، بل كان فطرة حية ، مدركة، مريدة ، واضحة السمت ، راشدة المبادىء ، ذات امتياز في العقل ، والعاطفة ، والخلق ..

فاذا كانت بصائر القرآن قد باركت ذلك ، ورفدته بروافد الحكمة والعلم ، ومواهب الخلق العظيم ، وجمال ما عند الله ، فان ما شخص في فؤاده ، وانقدح في ضميره من معنى « العبودية » و « الرسولية » شيء آخر وارد على تلك المزايا الذاتية قام لها بمقام الاطار العام الذي جمع أطرافها ، وحدد ما لها وما عليها ، وسن لكل من العقل والوجدان منطقه في كل ما يعالج من شأن، وكل ما يأخذ من أمر مع الناس ويدع.. فمنطق الرسول ـ أي رسول ـ في أمر ما ، غير منطق أي رجل آخر يعالج الامر نفسه ، وهو معفى من التقيد بمشيئة سواه ..

والسفير الذي يمثل بلاده لدى أمـة أجنبية ، يلتزم في مظهره وسلوكه شارات معينة تفرضها عليه مهمته ، ويتقيد فيما يعالـج من شؤون ويعرض من مسائل ، برأي أمته ، ومنطق دولته ، لا برأيه هو ، ولا بمنطقه الذاتي ، فالدولة أوسع أفقا في الاحاطة بشتى الاعتبارات ومقتضيات المصالح المختلفة ، ما يعلم منها وما لا يعلم .. ولا شك أنه كان قبل السفارة وسيكون بعدها معفى من كل قيد حسي أو معنوي

Marfat.com

يتعلق بقواعد السلوك ومنطق الفكر •• مع فارق عظيم هو أن فطرته ــ عليه السلام ــ كانت ترجمة ما أوحي اليه ، فلم يُحمل على أمر يكرهه ، ولم يقسر منها على شيء ، بل كان كل هواه مع ما أرسل به •• فاذا حددت له سفارته بين الله والناس منطقا خاصا في معالجة الأمور ، فهو امتياز له على غيره أفسح له في آماد الفكر الى شأو كان يبصر فيه مالا يبصر سواه من هدي الغاية ومقتضيات الهدف ••

وستقرأ في رسالتنا تلك أنه كان في صلــح الحديبية مــع ألف وأربعمائة رجل من أصحابه ، فلم يوافقه على ما اختار من صلح سوى رجل واحد ، هو أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ أما سائرهم ــوعلى رأسهم عمر بن الخطاب ــ فقد كانوا على خلاف ظاهر لما رأى ــ عليه السلام ــ لأنهم كما قال أبو بكر « قصُر رأيهم عما كان بـين محمد وربه » ••

وفي هذا الموقف بالذات ، نرى كثيرا من الدارسين يقفون عند رغبات السلم التي أبداها ، واستمسك بها ــ عليه السلام ــ ويشيدون بها . ولا يرون سواها ، ويعتدونها من سمات عظمته •• ووقوف الرؤية عند تلك الاعتبارات لا يبلغ حقيقة الحكمة التي أوحتها ، وهو قصور يدرك كل من يستصحب معنى « العبوديــة والرسولية » في دراسة سيرته ــ عليه السلام ــ اذ ليست العبرة بما يكون من سلم أو حرب ، انما العبرة بأن يكون في حياة المرء قيم عليا ، وأن تكون تلك القيم مناط همته ، وقوام أمره ، فاذا كلفته أن يسالم سالم ، واذا كلفته أن يحارب حارب ، ورب حرب أجدى على الانسانية من سلم ، والناس بخير ما دامت لهم قيم يحسنون في سبيلها ايثار الموت ، كما يحسنون من أجلها أن يختاروا الحياة •• والى تلك القيم والغايات الرفيعة كان ينظر ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم الحديبية ••

Marifat.com

وثمت أخرى يجب أن يدخلها الباحث في تقديره حين دراسته سيرته – عليه الصلاة والسلام – تلك هي نواميس الروح، وبركات عالم الغيب ..

والروح من أمر ربي ، وبركات الغيب أمر لا ينال بحيلة ،ولا يبلغه منطق ذهننا العادي .. وحين قلت في مبدأ هذا التقديم : « أن نواميس الحق تستجيب لرغبات الايمان ومشيئة اليقين بما يبهر اللب ، على غير ما نألف من منطق أو نعهد من نواميس » انما كنت أعني بركات الغيب وحقائق عالم الروح ، وهي « لب الرسالة ، وضابط التوجيه في السيرة كلها » ..

نعم . فالكون مادة وروح .. والروح آصل من المادة ، وذات هيمنة على مقدراتها ونواميسها .. والانسان – أيضا – مادة وروح ، والروح فيه آصل من المادة .. وهي ينبوع السيادة فيه ، والشرف ، والامتياز من سائر مخلوقات هذه الأرض ..

واتصال الانسان بظاهر الوجود وباطنه – أي بمادته وروحه – هو نموذج الحياة المثلى التي يحقق بها وجوده الكامل ما ظهر منه وما بطن .. وبدون ذلك فهو وجود أبتر لا خير فيه ، اذ تنحصر به حياة المرء في ظاهر حسي مجدب ، قد فقد أكثر وجوده ومواهبه .. بل قد فقد وجوده كله ، اذا رددنا الأمور الى قدرها الحق .

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو النموذج التاريخي المثالي ، الذي حقق الوجود الانساني كاملا في ظاهر الحياة وباطنها . وأخذ بنواميس عالم الغيب والشهادة ، في تناسق بارع دقيق ، انقادت له به السنن بما أراد من تأييد وفوز ، وما شاء من بركات الارض والسماء .

Marfat.com

ان لِعالم الطبيعة طاقات •• ولهذه طاقات وقوانين ، وانجازات في حياتنا ، وآثار واقعية تحسب وتدرس •• ولعالم ما وراء الطبيعة ــ أي عالم الغيب والحقائق المعنوية ــ طاقات ••• ولهذه الطاقات قوانين وسنن وانجازات في حياتنا وآثار واقعية ••• وكلا النوعين يخالف أحدهما الآخر في حقيقته ، وفي سننه وقوانينه ، وفي كيفية اتصال الانسان به ••

ولكن الناس لم يتصلوا ــ غالبا ــ الا بعالم الطبيعة ، ولم يتفاعلوا الا مع طاقات هذا العالم •• أما العالم الآخر وطاقاته وسننه فقد قصرت مداركهم وارادتهم عن بلوغه « والتعامل معه » ولذا خلت حياتهم أفرادا وشعوبا ــ غالبا ــ من آثاره وانجازاته •• ولذا لا يجيلون ذكره في نفوسهم ، واذا تحدثوا عنه فيما بينهم تحدث كل منهم بتصور يخالف تصور الآخر كأنه عدم لا وجود له ، وما هو الا رجم من صنع الوهم وتخييل الأماني والعجز ••

نقول : انه عليه السلام هو النموذج التاريخي القويم ، الذي حقق صلته بعالم الطبيعة وعالم الغيب أو عالم الروح معا، وأثبت وجوده في كل منها ، وتفاعله بكليهما ، وخطط شأنه ورتبه على هدى سنن كل منهما ••وكانت طاقات الغيبوعجائب انجازاتها واحاطتها بواقعه ماثلة لسريرته ، لا تغيب عنها لحظة •• وكان الوحي لا يفتأ يوجهه اليها ويقرر له خصائصها في بركة الانتاج ، والنصر على الأعداء ، وبقاء الأثر ، والتمكن في الارض ، ويسر المؤنة ونجح المقاصد في كل أمر « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا » •••

تلك خمس من الخصائص والعوامل التي انفرد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان في الناس بشرا مثلهم ، يأكل الطعام ويمشي

Marfat.com

في الاسواق ، ولكنهـا جعلت باطنه وسريرته غـير ما لهم من سرائر وبواطن من حيث الصفاء ونفوذ الفكر الى غيب المعاني وترامي المشيئة الإلهية •• فاذا أردنا أن نستشف الحق في سيرته صلى الله عليه وسلم ، فلنستحضر أن تلك السيرة الكريمة ، هـي ــ بعد الوحي ــ من صنع تلك الخصائص التي هي أثر الاصطفاء الإلهي والاعداد للنبوة ، فذلك هو النهج السليم الحق •

ولا يتسع هذا المقام لأن نورد أثر كل خصيصة في سيرته عليه السلام ولا أن نورد مثالا لفعلها في تلك السيرة الكريمة فعلى كل منا أن يستحضر في ذهنه وضميره أنه يقرأ حصيلة نشاط تلك الخصائص . فانه لا يلبث أن يتبين مواطن الابداع والاعجاز في تلك السيرة المشرقة الفريدة ، وحينئذ فقط نتزه عقولنا وننزه السيرة عن أن ندرسها كما تدرس حقائق التاريخ العادي ، وسير رجاله البارزين ••

★ ★ ★

هذه الآفاق الإلهية في سنة الرسول عامرة بعبر وحوادث تخاطب القلب والعقيدة ، ولا تعبأ بالعقل المادي الخاضع لقوانين المادة وحدها . ولذا ترى الباحثين المعاصرين والمدرسين والاساتذة . يسرون مثـلا بقتال الملائكة فيصفوف المسلمين يوم بدر ، وبالرمية المباركة التي أعمت عيون المشركين ، ونحو ذلك مما لا يجدونه سائغاً في منطقهم المادي .لأنه من فعل الله المهيمن على المادة وغير المادة ، أقول : يسرون به وكأنهم لم يروه وهم له في قرارة نفوسهم منكرون ، فيجب أن يكون شأنك غير هؤلاء ••• فالتمس في أخباره صلى الله عليه وسلم دائمـاً ناحيتين : العوامل الإلهية السافرة غـير المحجوبة بحجاب ، والعوامل النفسية الشخصية الخاصة به عليه السلام •• وهذه ان بدت مطبوعة بطابعه الذاتي لأنها من بنات قلبه وانبعاثات نفسه ، هي أيضاً ربانية إلهية ، لتعلق مشاعره وعواطفه صلى الله عليه وسلم بربه دائماً ••• فالأولى

Marfat.com

عوامل ربانية سافرة والاخرى ربانية بالواسطة ، لا يظهر فيها السفور ، الا لمن يقرءون ما وراء السطور ، ويطالعون ببصائرهم مشارق أنوار الله في أمثال هذه الصدور . وقد عنيت بأن أنص لك على ذلك لكي تقرأ تاريخ تلك الحقبة النبوية على حقيقته ، هذه واحدة .. أما الاخرى فهي لتعلم عمليا أن الشخص الـذي يعيش في الدنيا بإلهام مشاعره الربانية لا بوحي معدته وجوارحه الحيوانية ، عاملا بأمر الله لا بهواه ، مجاهدا في سبيل الحق للحق لا في سبيل نوازعه الخاصة ، شخص لا يحجبه عن الله حجـاب ، فهو ينتصر بالله لا محالة ، مؤيداً بجنود السموات والارض ، ما ظهر منها وما بطن ، فافهم هذا يا أخي ، فهو من لب لباب الحقائق العلمية ، التي ترى شواهـدها شاخصة لك في سيرته عليه السلام . ومن ثم فاحرص أن تملأ حياتك بهذه الجنود ، ولا تزهد في نصر الله كما يزهد الجهلة المطموسون .

يا أخي : الخير أمامك ، ليس بينك وبينه الا أن تمد يدك .. يدك الربانية ؛ هذا في تاريخه العملي ؛ ونقول مثله في تاريخه القولي صلى الله عليه وسلم ، فهو كلام لا ككلام الناس ، فاذا حدثك أن مجالس الذكر تحف بها الملائكة ، فاعتقد أن هذا حق من الحق ، لا مجاز فيه ولا كنايـة ، فهـو يقول لك ما يعرف لأنه يعرف من علـم الله مالا يعرف غيره .

واذا دعا المؤمن لأخيه بخير بظهر الغيب ، قالت الملائكة : آمين ، ولك بمثل ما دعوت ، فهو لذلك دعاء مستجاب لا محالة ، واذا وعدك على عمل جزاء ما ، أو وصف لك حقيقـة من الحقائق . أو نصحك نصيحة ... فهو الحق الذي لامرية فيه .. اذا قرأت السنة هـذه القراءة ، فهمت الاسلام حقائقه وأسراره كما كان يفهمه الصحابة ، أو قريباً مما كانوا يفهمون ، وحق لك أن تعرض نفسك للتبشير بدعوة

القرآن الكريم ، والله يسلك بنا واياك مسلك القدوة به صلى الله عليه وسلم •

٣ ـ التاريخ وسير الرجال

ليس الغرض أن ينظر الداعية الى التاريخ نظرة المدرس الذي يجمع المعلومات جمعاً علمياً مرتباً ثم يقدمها لطلابه •

وليس الغرض أن يتظرف الداعية ، فيقص القصص للتسلية ولقطع الوقت في غير عناء ، فإنا نرى كثيرين يركبون هذا النهج التافه فيسوقون القصة تلو القصة دون ربط بينهما ، ودون غاية مقصودة بكل منهما •

وانما ينظر الداعية الى التاريخ على أنه مستودع لأخطاء الانسانية وصوابها وضلالها وهداها • وما جنت في عواقبها من خير وشر ، ويأخذ من ذلك لموضوعه بمقدار •

أرأيت الى نهج القرآن الكريم في ذلك ؟ •• انه هو الذي نقصده !

••• فليس الغرض من القصص ، وسياق التاريخ في القرآن ، أن تعرف أحوال القرون الاولى فقط ، بل الغرض الأعلى هو علاج الانسانية اذ يتناول الغرائز الاصيلة في الانسان ومعايير المعرفة ، ويؤرخ لها ، ويذكر أثرها ، وما أحدثته في بيئتها من خير وشر •

أما الغرائز العارضة، والطباع المتغيرة ، فلا يحفل القرآن بتاريخها، لاندثارها وبطلان تأثيرها كلما تغير الزمان والمكان ، والقرآن كتاب خلود ، فلا بد أن تعلق عبرته بمعايير الادراك وأعمال الغرائز الاصيلة . التي تلازم الانسان في كل عصر وبيئة ، والتي تجعل من بني آدم ، مجموعة انسانية متشابهة في جوهر التكوين ومعدن النفوس ، ولا شك أن هذه الغرائز والمعايير ــ مع وحدتها في بني آدم ــ تتشعب باختلاف

Marfat.com

الظروف الى مناح متعـددة ، وتتخلف بعض خصائص العقل عن أداء عملها ، ولكن مع تعددهاوتفاوت مظاهرها وصورها يمكنك أن تحكم على ما يظهر أمامك ؛ وترجعه الى بواعثه الاصيلة ، وتلحقه بغريزته التي دعت اليه ، وأوحت به •

فما يريد القرآن تفصيل الحوادث ولا سرد دقائق الوقائع ، انما يقف فقط على اللب الذي هو عبرة الحادث ، فتراه مثـلا في موقعة طالوت وجالوت ، لم يسردها السرد التاريخي ، ولم يعرضها عليك العرض الذي يعيد صورتها الى ذهنك ، فليست الصور الظاهرية بذات بال ، ولكنه يكتفي بما يشعرك أن هناك فئة قليلة جدا تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة كثيرة العدد ••• فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ••• اقرأ القصة في سورة البقرة ، تجدها دائرة على الايمان وأثره في تثبيت العزائم والأقدام ، واستنزال النصر من عند الله العزيز الحكيم ، وكل ما يدخل في هذا المحيط من أجزاء الموقعة تركه القرآن جانبا •

وهذا النوع من التحليل التاريخي العميق يقتضي الداعيـة أن يكون عظيم الفهم لدعوته ، قوي الشعور بمقتضيات موضوعه ، حتى لا يقع فيما يخل ويمل •

ومما تجب ملاحظته أن القطعة التاريخية قد يبرز منها عدة معان ، فيسوقها الداعية في مواقف تتعدد بعدد معانيها ؛ ويعرضها في كل موقف في لون مغاير لألوان سابقة ، وهذا كما ترى يرجع الى حكمته ولباقته ويقظة ادراكه ، بحيث يضرب في كل مرة على وتر من الاحساس جديد ، فنهضة هتلر مثلا تستطيع أن تعينك على غرضك اذا كنت بصدد البرهنة على أن الامة اذا عثرت فكبت ـ تسترد شأنها السابق اذا اجتمعت عزائم أبنائها وهممهم على ذلك ، أما اذا لم يكن منهم همة لتحقيق هذا المطلب

Marfat.com

العظيم فلا ... وتستطيع أن تعرض هذه النهضة لتدل على أن الفقر قد يخرج من أكواخه من العباقرة من ينتشل أمة كاملة من حضيض كبوتها ، وأن يتبوأ منها أسمى مراكز القيادة والسيادة فيها ، وهو أمي أو شبه أمي اذا قيس بمعاصريه من عظماء الساسة ورؤساء الشعوب . وتستطيع أن تعرضها اذا كنت تتحدث عن الباطل وسرعة انهياره مهما قوي جنده ، فتحمل على عقيدة النازي التي تجعل منهم رؤوس الناس وسادة الاجناس وتجعل منا نحن عبيداً وخدماً ، وتدعي أن ذلك هو روح الطبيعة ووحي الله ، والله من ذلك بريء ، فالناس لآدم وآدم من تراب ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، ذلك هو الحق الذي يقذف به الله على الباطل فيدمغه ، ويهزمه ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ... ولو ذهبت أستقصي لك الالوان الكثيرة التي يمكن أن تعرض فيها هذه النهضة لخرجت عن قصدي .

وفي التاريخ حوادث على هامشه قد تبدو تافهة ولكن الوقوف عليها قد يستخلص لنا كثيرا من ملامح النفوس وصفات الطباع ، واتجاهات القلوب ، لجماعة ما أو شخص ما ، فعلى الداعية أن يتيقظ لذلك ... وفي تاريخ الجبرتي كثير جداً منه .

٤ — واقع الحياة العملية

واقع الحياة العملية هو تاريخها الجاري ، الذي سيصير يوما ما تاريخها الماضي فهو أيضاً مستودع صوابها وخطئها وضلالها وهداها . وما ترى من عواقب الهدى والضلال ، والخطأ والصواب ... وهو يمتاز عن التاريخ الماضي بأنه يتولى عرض الحياة نفسها أمامك على صفحات الوجود ، لا صفحات الكتب عرضا عمليا حيا يتعرض به نظرك

Marfat.com

وسمعك ومشاعرك ، لا يجمل في ناحية ، ويفصل في أخرى ، بل يقفك أمام حوادث فردية أو جماعية ، تتبين فيها مبلغ اختلال قوانين المجتمع أو سلامتها ، قوانينه الاجتماعية أو الاقتصادية ويقفك أمام نماذج من الصلاح تمثل الجد والصدق والهمة في ابتغاء وجه الله في كل قول أو عمل ... أو أمام لصوص ذهبوا في الناس بسمات الرفعة والفخر ، فأنت تقرأ وترى في كل يوم ، وفي كل طريق ، وفي كل صحيفة ، وفي كل بيت ، وفي كل محكمة ، وفي كل دار من دور اللهو البريء أو العابث – ذلك كله في ثوبه العملي الواقعي الأخاذ ... ، فعليك – بما فقهت من دعوتك وأرهفت من مشاعرك – أن تتأمل ذلك الضرب من التاريخ القيم ، وتتفهم دوافعه ومراميه ، وتحلل علله ونتائجه ، وأن تصنفه أصنافا بعد دراسته وابداء الرأي فيه على ضوء فكرتك ، وليكن لك سجلك تجمع فيه مختاراتك من الحياة ، وسترى بعد ذلك أن ايراد بعض ما تجمع من الامثلة يجعل كلامك حارا قيما فعالا جياشا في نفوس سامعيك ...

وما أحسن ما كان يصنع أحد الإخوان اذ كان يختار موضوع خطبة الجمعة من حصيلة سجله الاسبوعي رده الله الى منبره وثبته على معهوده من النجاح والتوفيق .

* * *

Marfat.com

الباب الرابع

الداعية في كلماته

(١) المحاضرة • (٢) الدرس • (٣) الخطبة • (٤) المقالة • (٥) الحديث العادي •

★ ★ ★

ليس هناك ــ فيما أرى ــ فرق بين المحاضرة والدرس • ولكنهم درجوا على أن تكون المحاضرة أكثر استيعابا لعناصر الموضوع ، وأوسع تفصيلا وافاضة في معاني هذه العناصر ، وأن تكون عناية المحاضر أتم وأوفى ، وأن يحاط السامع بما يجعله يتهيأ لتلقي معلومات ممتازة وتوجيهات قوية صالحة ، وأن يلتزم الترتيب والنظام في المحاضرة . فلا يكثر المحاضر الانسياق مع عواطفه ، والاستطراد مع الخواطر الطارئة مما يبعد بالسامعين عن الموضوع الاساسي ، بينما الدرس قد يقبل شيئاً من هذا ويعذب به •

•• هذا كله مع ظهور الصبغة الربانية في الحديث ، فليس في الكون موضوع أو شأن غير متصل بالله ، وظهور الصبغة الربانية فيه هو المقتضى الضروري أو المقتضى الحتمي لهذه الصلة ، أما تجريد أي موضوع عن الصبغة الربانية فهو شأن الذين يعزلون الحياة عن الله ،

Marfat.com

أو يعزلون الله — حاشاه — عن الحياة ، فتكون الحياة بذلك زيفا في زيف ، ويكون الكلام عنها غير ذي موضوع لا بركة له ولا علم فيه ..

ولتحقيق هذه الصبغة في كلمات الداعية نسوق بعض التوجيهات لما يلتزمه الداعية في الدرس والمحاضرة مقدمة للحديث الخاص الذي سنقدمه عن كل من : المحاضرة — الدرس — الخطبة — المقالة — الحديث العادي كل على حدة ، وبالله التوفيق :

١ — درس الداعية غير درس الاستاذ في المعهد أو المدرسة .

أ — فالداعية لا تعنيه — مثلا — دروس الجغرافيا ، والكيمياء ، والنحو .. الخ .

ب — وطريقة الدرس لدى كل منهما تختلف عن الاخرى .. فدرس المدرسة يهتم له مدرسه باستيعاب التفاصيل والجزئيات ، والا عد مقصرا ، لأن مهمته افادة دقائق الباب .. أما درس الداعية ، فيهتم له بالرقائق ، والقواعد ، والمعاني العامة .. فالدرس في الصيام —مثلا— يعرض له أستاذ المعهد من ناحية الاحكام الفقهية فيتكلم عن تقرير وجوبه .. وعلى من يجب .. وعلى رؤية الهلال وعدم رؤيته .. وعلى النية .. وما يفطر ومالا يفطر .. الخ .

أما الداعية فيعرض له — مثلا — من ناحية أنه سر بين العبد وربه ، يستعين فيه العبد بمراقبة الله على اتمام صومه ، وأثر ذلك في تنبيه مشاعر النفس لها أثرها في ترقية خصائص الانسان .. الخ .. ويستطرد منه الى معنى الأمانة في الصيام ، وأثرها في ضبط سلوك الفرد وتصرفاته ، وفي توثيق روابط المجتمع ، فان كلا من السمع ، والبصر ، واللسان ، واليد أمانة ، وعلى كل جارحة من هذه صيام معروف «ماهو؟» ولأمر ما قال تعالى : « ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه

Marfat.com

مسؤولا » •• وأحاديث الرقائق وآياتها الواردة في الصيام كثيرة جدا ، وهي بمثابة مناجم لاستخراج ذخائر الحقائق والمعاني التي تزكي نفسه ، وتسمو بفكره وذوقه •

وشاهدنا هو الفارق بين طريقة أستاذ الدعوة وأستاذ المدرسة • وهدف كل منهما في النهاية •

٢ ــ والدرس في صناعة التدريس له « عنوان » أو ما يسمونه رأس الموضوع •• أما درس الداعية فيدور ــ عادة ــ حول آية كريمة، أو حديث نبوي •• ومراعاة للفارق السابق يجتنب الداعية « الأسلوب الفني » المختص بحَجَر الدرس ، فلا اعراب ، ولا نظر للاسلوب التقليدي في التفسير ، ولا استيعاب لما تتضمن الآيــة أو الحديث من الاحكام ودقائق المعاني ، بل يكون « المعنى العام » للآية أو الحديث محورا تتجمع حوله خواطرك المتصلة •• ويكون هذا المعنى هو الطرف الذي تتناوله لتبدأ منه الحديث في هوينى ••• فاذا ذكرت أنك داع الى الله وأذبت قلبك في معنى الآية أو الحديث ، أحسست حكمة النص القدسي رحيقا من العلم بين جنبيك ، فاختر من هــذا الرحيق تكملة حديثك ، وليكن درسك هو موضوع قوله عليه السلام : « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ••• الحديث » فان المعنى العام للحديث واضح ، فدع ما تفيده « انما » في الفقرتين ، ودع خــلاف العلماء في مدى ارتباط العمل بالنية ، وابدأ درسك متطامناً عن الطرف الواضح الذي يمده لك معنى الحديث الشريف •• واخلص الى أننا بازاء طرفين : أحدهما في الضمير وهو النية ، والآخر في ظاهر الواقع وهو عمل الانسان ••• وبين هذين الطرفين أوثق صلة ؛ فان العمل هو صورة النية حسنة أو رديئة••والنية هي الروح الذي يسكن العمل••

•• وهنا يجد نفسه بازاء حقائق فلسفية أو روحية جليلة هي لب انسانية الانسان وصلاحيته الحضارية •• ولكنا نختار له مسلكا آخر فالنية عمل القلب •• فاذا كان القلب مقبلا على شهوات النفس وأهواء الحس ولذاته ، متأثرا بها ، كانت نياته من هذا القبيل •• واذا كان القلب مقبلا على الله راغبا فيما عنده ، كانت حقائق ملكوته وخيراته التي لا تنفد تحت تصرفه ، وكانت نياته قدسية متجانسة لتلك الحقائق.

•• وبما أن العمل هو صورة النية فان الاول تكون أعماله صورة لأهوائه وشهواته •• وتكون أعمال الثاني صورة لاقبال قلبه وسعيه في قدس الله••قدس حكمته « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ورحمة « ورحمة ربك خير مما يجمعون » ورعايته ، وسلطانه ، ونصره الذي لا يقوم له شيء في السمـاء ولا في الارض ••• وبما أن النية تسكن الاعمال ، وتثمر فيها هذه الثمار ، كان العمل هو الوسيلة التي يحقق بها لنفسه هذه المغانم •• ولذا كان من فضل الله لأنبيائه أن يرزقهـم سر النية القدسية ـ وهي معرفـة ـ والعمـل بمقتضاها : « يا موسى انني أنا الله لا اله الا أنا ••فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » ويقول عيسى : « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ••• وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتي » ويقول لمحمد صفوة خلقه : « فاعلم أنه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك » •• وابراهيم يعرف ذلك كله فيقول : « رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين » الى غـير ذلك من الشواهد.

فالنية القائمة على معرفة الله لا تثمر لصاحبها بدون عمل ، وقد جاء في القرآن أن يونس لما التقمه الحوت واحتوته ظلمات المحنة دعا دعوته المعروفة ، فنبذه اليم بالعراء وهو سقيم ، يقول الله تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه الى يوم يبعثون » •• أي لولا أنه

Marfat.com

كان من العاملين بطاعة الله •• وقد أخبر الخضر عليه السلام أنه أقام الجدار رعاية لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحا ، فعمل الاب بعد وفاته ظل محتفظا بما ضمّنه القلب اياه من نية ، أي ظل محتفظا بسر حياته على نحو لا تدركه عقولنا ، فهو كما مثله الله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة •••••• تؤتي أكلها كل حين باذن ربها •• الآية » وهذا الأكل ليس أطعمة مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين •• انما هو ثمار من الغنى بغير مال •• والعز بغير عشيرة •• والجاه بغير منصب •• والجند الخفي المسخر لمشيئتك ــ بإذن ربك ــ بعلمك أو بغير علمك ، في حياتك أو بعد موتك •• فاذا كان هذا شأن « كلمة طيبة » فكيف بعمل كاملا تعاون عليه اللسان مع العين وسائر الجوارح ، وقد ضمنه القلب من معرفة الله ما هو سر كل طاقة ونعمة في ملكوت السماء والارض ؟! لا جرم يكون خالدا بخلود مافيه من حقيقة المعرفة والنية ، ممثلا مبادىء صاحبه، وقيمه ، ورغباته ، منجزا له ــ بإذن ربه ــ من أقدار الله ما يرعى الله به نبيه •• وما كان الخضر ــ عليه السلام ــ الا رمزا أو صورة محسة لِقَدَر هذه الرعاية « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين •• وكان أبوهما صالحا فأراد ربك •• الآية » •• فالسر الذي تحركت به أقدار الله يكمن في قوله تعالى : « وكان أبوهما صالحا » أي في العمل الصالح الذي تركه أبوهما ••

وهنا قد تذكر الموعظة الخالدة التي وعظ بها رسول الله منوهاً بالطاقات العلوية التي تكمن في الاعمال الصالحة ، اذ قال : أن غاراً انطبق على ثلاثة رجال بصخرة ضخمة لا قبل لهم بزحزحتها . فأخذ كل منهم يذكر عملا صالحا له ، لما يعلم للاعمال الصالحة من ايجابية عند الله ، فما انتهى الثلاثة من ذكر كل واحد لعمله ضارعا الى الله أن يجيبهم بحق هذا العمل حتى انفرج الغار بتنحي الصخرة عن منفذه ، ونجوا ••

Marfat.com

وبمناسبة ذكر الخضر ــ عليه السلام ــ قد تلمح اشارات في قصته مع أصحاب السفينة ، اشارات تقرر الخصائص التي يكون بها للعمل الصالح ثماره الخفية ــ الى ثمرته المعجلة الظاهرة ــ فهم كانوا « مساكين » « يعملون » « في البحر » .

• والمسكنة لدى أرباب المعرفة هي انخلاع المرء لله من الشعور بحوله وطوله ،أي من جاه مواهبه وماله ، فان ذلك ــ في الحقيقة ــ فضل الله ، لا فضله هو ؛ ومن صدق معرفة الانسان لربه ولنفسه أن لا ينتحل شيئا من ذلك لنفسه ؛ ولا يكون بضميره الا احساس الاضطرار والافتقار إليه تعالى .. واذا كانت هذه الخلال من ثمار معرفة الله . وقد شهد الله لأصحاب السفينة بها ، لا جرم كان لهم حظهم من معرفته تعالى .. وذلك سر حياة العمل وثمره .

• وأما قوله « يعملون » فدال على أنهم كانوا من أهل العمل والجد في كسب الحلال .. والعمل هو صورة النية والمعرفة .

• وأما أن عملهم كان « في البحر » فاشارة الى حال القلق الفاصلة بين من يعمل في البحر، ومن يعمل في البر ؟ فالاول دائم التطلع الى الله طلبا للنجاة من مخاوف البحر ومهالكه .. والبحر لدى أرباب الاشارات رمز لما في الدنيا من لجج الفتن والمعاطب ؛ ولأمر ما أثنى الله على الذين يشفقون من خشيته بأنهم « يؤتون ما آتوا ــ أي يعملون ما عملوا ــ وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون » .

هذه الحقائق الثلاث : المعرفة بالله ممثلة في فقه المسكنة .. والعمل المتقوم على مقتضى المعرفة .. والفرار الى الله من مهالك الحياة، هي منهاج الحياة الذي يوفر لصاحبه أكرم الثمر الروحي والحسي ، ويضفي عليه من مقادير الرعاية ما يخطر بباله ومالا يخطر ؛ وكان الخضر عليه السلام رمز القدر الذي رعى به الله أصحاب السفينة من غصب

Marfat.com

الملوك ، فان عملهم الصالح قد تضمن سنة الرعاية ، اذ قال : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها . وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » .

واذا كان هذا شأن النية بالنسبة للعمل ، فقد قال عليه السلام في بقية الحديث : « فمن كانت هجرته الى الله ... ... ومن كانت هجرته الى دنيا ... الحديث » أي أنه فوض لكل فرد أن يبني بيده العاقبة التي يريدها لنفسه .. فان أراد لها ما عند الله من نصرة وتأييد ويسر فليحضر لذلك نيته في ضميره ، وليضمنه ما يزاول في الحياة من عمل ... وان أراد العرض الادنى ولذة الحس وتحركت بذلك أهواؤه ، وجعله روح عمله ، فقد أراد لنفسه الخذلان . وتهوله فداحة التفريط حين ينكشف عنه غطاؤه في لحظات مغادرته للدنيا فيصيح « رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت » وهيهات .

ومما لا شك فيه أن الحديث أغزر مادة ، وأبعد غورا ، ولكنا ما أردنا الاستيعاب ، بل أردنا لوناً من تفاعل نفس الداعية مع قدسية المعنى النبوي ، تأليف الخواطر التي يستدعيها هذا التفاعل لتكون مادة الدرس الذي يدور حول المعنى العام للحديث الشريف ، وهو نهج غير نهج الدروس الفنية التي تلتزم ما نجده في النووي ــ مثلا ــ لشرح هذا الحديث ومثله .

٣ ــ يراعى في الدرس الربط الدائم بين مادته ــ خواطره وعناصره ــ وبين واقع أحوال الناس وقضاياهم .. فقد يكون الحديث عن الرجل الصالح أبي الغلامين داعيا لإثارة الرغبة في نفوس من يخشون من بعدهم على أولادهم الصغار أن يصنعوا لأولادهم ظلة من رعاية الله كما صنع هذا الرجل ، ولا يكلفهم هذا الا أن يعرفوا قدر الله على مثال ما عرفه أصحاب السفينة .. والكلام عن أصحاب السفينة قد يكون

Marfat.com

داعيا لتوسيع الدائرة ، فيدخل الفلاح ، والراعي ، والصانع ، والبائع ، والموظف اذا هو حقق لنفسه وجدان الاضطرار والافتقار الى الله ، وانخنع من الاعتزاز بما له من جاه المال والموهبة ..

ثانياً ـ المحاضرة

١ ـ ومحاضرة أستاذ الدعوة غير محاضرة أستاذ الجامعة ؛ من حيث أن الداعية لا تعنيه محاضرات الفلك ، والطب ، والاقتصاد .. ونحوه . وأستاذ الدعـوة كأستاذ الجامعـة لا بد له من الرجوع الى المصادر العلمية لجميع ما تفرق فيها من مادة موضوعه ، لكنهما يفترقان بأن أستاذ الجامعة يعنى بالجزئيات والتفاصيل ، أما الداعية ، فبعد الاحاطة بمادة الموضوع يكتفي بالقواعد والاحكام العامة حرصا على انتباه سامعيه واستمرار نشاطهم .. ومن هناك قد ينتهي أستاذ الدعوة من موضوعه في محاضرة واحدة ، وأستاذ الجامعة يحتاج للانتهاء منه الى عدة محاضرات .

٢ ـ يبتعد محاضر الدعوة عن الصبغة المدنية البحتة كما يبتعد عن الاسلوب الاكاديمي ، فلن يحمد له الناس انه مدني الاسلوب ، بل انه يفجؤهم بغير ما يتوقعون وبغير ما يريدون .. الى أن ذلك يعتبر اخفاقا له في مهمته ، اذ هو داعية الى الله عن طريق العلم ؛ فاذا خلا أسلوبه من لون الدعوة ، فقد خرج من زمرة الدعاة ، دون أن يلحقه ذلك بزمرة الجامعيين أو سواهم .. فعلى أستاذ الدعوة أن يذكر دائما أنه يأمر بمعروف ، وينهى عن منكر ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الارض كما يقول الرسول عليه السلام ... والامر بالمعروف هو في الحقيقة تعريف بالاسلام في شتى موضوعاته ؛ والنهي عن المنكر هو نقد لبق لسير المجتمع وعيوبه .. وذلك كفيل بتحقيق الصبغة الربانية لمحاضرة الداعية ، مادام يلتزم استمداد الكتاب والسنة

Marfat.com

مشيرا الى وفائهما وغزارة وعمق حكمة الله فيهما •• الى أن ذلك يكفل له دوام انتباه السامع لأنه سيكون معه دائم التنقل بين مثالية العلم ولمحات النقد لسير المجتمع أو لخطئه في التطبيق ؛ ويتحقق له بذلك كله اقتناع السامع تلقائيا ــ دون املاء ــ بسداد ما شرع الله •• وتلك غاية غايات الداعية ••

٣ ــ والمحاضرة بالنسبة للداعية تفترق عن درسه في أن لموضوعها « عنوانا » يدل عليه ؛ والدرس موضوعه ــ عادة ــ آية كريمة أو حديث نبوي •• ذلك الى أن « الخط العلمي » في المحاضرة أبين منه في الدرس ؛ فان المحاضر اذ يعود من شتى المصادر يجد نفسه مكلفا بتصفية ما حصّل من معلومات ، وجمع ما استخلصه في قواعد وأحكام عامة،ثم يرتبه في نسق يربط المقدمات بالنتائج،ويؤلف من الأشباه والنظائر باقة منسقة المنطق ••• وقد يكون موضوعه اجتماعيا ، أو اقتصاديا ، أو سياسيا ، كما قد يكون من شؤون المعتقدات والعبادة ؛ فيلتزم فيه هذا الخط العلمي الذي تنتظم فيه عناصر البحث وأحكامه العامة في منطق تتكامل فيه وحدة الموضوع ؛ أما الدرس فالعناية به تتركز حول « تجميع الخواطر » على محور معنى الآية أو الحديث ، واستدعاء الآيات والاحاديث ذات الصلة بهذا المحور مع الاشارة الى نماذج السلوك الشعبي التي تتصل سلبا أو ايجابا بلب الدرس •• ومن ثم يكون لكل من الدرس والمحاضرة طابعه كما أن لكل منهما مقامه •• والآن نقدم الحديث الخاص عن كل من المحاضرة والدرس •• الخ على النحو التالي :

Marfat.com

١ ـ المحاضرة

(أ) يختار موضوع المحاضرة ـ طبعا ـ من صميم ما تجري به الحياة ، وهذا يقتضي الداعية أن يكون متصلا بهذه الدنيا منفعلا بما يجري فيها من خير وشر ، وحلو ومر ، ومعروف ومنكر ، ... فما كان من صالح رضي به ، وحمد الله عليه . وما كان من فاسد قام له ، وأخذ في علاجه وتغييره بوسائله الحكيمة ، وموعظته الحسنة .

ومعنى هذا أن الداعية يختار موضوعه مما يعرض له من قضايا الحياة ، أو مما تمليه الحياة عليه ... ومثل هذه الموضوعات ، يجعله أقرب الى قلوب الناس وأملك لزمام انتباههم وعواطفهم ... فلا تجعل الموضوع يعرض نفسه عليك ، فتهرب منه ، أو تقعد عن الاستجابة له ، فالحياة في هذه الحال هي التي تختار لك ، واختيارها أصدق اختيار ، لأنه الهام الله وصوت القضاء ، وصدى ما جرى به القلم في أم الكتاب ولأمر ما ـ نزل القرآن الكريم منجما على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال ...

وطبيعي أن الموضوعات التي يوحيها محيط الزراع ، غير التي يوحيها محيط الطبقات المظلومة من العمال ... وللطلاب آلام وآمال تلهم موضوعات غير التي تجري في المحيطين السابقين ، ولصغار الموظفين مشكلات وأزمات نفسية ومالية لا يتبينها الا من يصغي الى شكواهم ، ويقف على أحوالهم ، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفي المعاملات التي يلقاها بعض الطوائف من بعض ، وفي طبيعة السلوك الاجتماعي الذي تجري عليه حياة بعض الطوائف أو الطبقات ، وفي اختلال الموازين التي يزن بها الناس خلق الرجل ، وشخصيته ونجاحه ، وفي نظام الدواوين والتعليم ، والمحيط التجاري والاداري والسياسي ، في هذا

وفي غيره موضوعات أنت في غنى عن بيانها ، لأنها شاخصة مستعلنة ، تفرض نفسها وحوادثها على جهازك العصبي اللاقط .

(ب) يجب أن يكون الموضوع مدروسا دراسة وافية مستفيضة ، محللا الى عناصر بارزة ، وخطوات واضحة مرتبة ترتيبا طبيعيا ينتقل بالسامع من حلقة الى حلقة، ويفضي في النهاية الى خاتمة يحسن السكوت عليها ، فاذا كنت تريد التحدث الى طائفة من الشباب المثقف ــ مثلا ــ عن مقومات الانسان الفاضل الذي ينشدونه وينشده معهم الاخوان المسلمون ، كان من السهل عليك أن تفترض في هذا الانسان وجوب وجود عنصر علوي باطن يمده بأسباب العزة وكرائم القيم والمبادىء . أما الذليل التافه فليس لنا به حاجة ، ثم يجب أن يكون لهذا الانسان رسالة في الحياة يعمل جاهدا لتحقيقها ، أما الرجل الذي يعيش بلا غاية معينة ، ولا مبدأ معروف ، فهو من السوائم الهمل .

وأخيرا لا بد له بعد العزة والرسالة من العلم(١) ليكون من أمره على هدى وبصيرة ، ومن لا علم له لا بصر له .

فدعائم البنـــاء اذن : عزة ورسالة ، وعلم ، فاذا أوضحت ذلك ، أقنعت سامعيك بما تريد ، أما الكلام المرسل بغير نظام فخيره غـير متحقق .

---

(١) يجب أن يكون مفهوما أننا نقصد بالعلم هنا العلم بالله عز وجل عن طريق التأمل في السماء وما فيها من عجيب صنع الله وآياته ، والارض وما أحدث فيها من كائنات وآثار ، وما بين السماء والارض من ظواهر كونية ، وما أفاض علينا من نعم في أبداننا وأرزاقنا وأسرار نفوسنا وطباعنا وغير ذلك مما يفضي بنا مع النظر والاعتبار الى الله عز وجل . وهذا هو العلم الحق الذي يجب أن تتجه اليه جهود الانسانية ، وكل علم لا يوصل الى الله فهو علم لا بركة فيه ــ وليس معنى ذلك أننا لا نتعلم الصناعات أو طرق معالجة الاشياء لنعيش ونأكل بل أقصد أن يكون غرضنا الاعلى مما نعرفه ــ الله عز شأنه .

Marfat.com

(حـ) أن تستحضر لكل عنصر ما يؤكده ويوضحه من كتاب الله وسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم قولا وعملا ، أو سيرة صحابته ، أو عبر التاريخ، أو حوادث مما تسمع أو تقرأ أو تشاهد ، على نحو ما سقناه لك في مراجع الداعية .

فاذا كنت بصدد شرح العزة في الموضوع السابق مثلا وجدت طبيعة العنصر تلهمك أن العزة معناها ألا يذل المرء لمخلوق مثله .. وهو يذل في هذه الحالة لغرض من اثنين : ليدرك منفعة شخصية ، أو ليدفع ما قد يؤذيه في رزقه أو نفسه ، وحينئذ يزدحم حولك نصوص كثيرة من كتاب الله وأحاديث الرسول ، تؤكد لسامعك أن الاسلام يغرس العزة في نفس المسلم ، ويذهب بأصولها الى أبعد الأعماق ، فهو من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على الارزاق، قد علم أن رزقه في السماء... وما كان في السماء فهو مصون ، بعيد عن أن تتطاول اليه يد عابث من أهل الارض .. ويعلم كذلك أن الله قد فرغ من قسمة الارزاق بين الناس قبل أن يخلقهم ، وقد جفت الاقلام وطويت الصحف على ذلك ، فليس للحوادث بعده أن تجري على خلافه ... والقرآن والسنة حافلان بما يشبع رغبتك في هذا الباب . ولا بد من الحملة طبعا على أولئك الذين يذلون أنفسهم ويبذلون أخلاقهم وأعراضهم ، زعما أن ذلك هو سبيلهم الى ما يصبون اليه من جلب المنافع أو درء المساوىء ... وما أحراك أن تفرد حملة خاصة على أولئك الذين يتعبدون بالمثل السائر « ان كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي » أما الاستكانة الى الذل تخوفا على النفس مما يصيبها من أذى القتل ، أو الضرب أو السجن أو نحوه ، فالمسلم قد ربي على قول الله عز وجل : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير » .

Marfat.com

واذا أقدم المسلم في جرأة وشجاعة ، فلامه اللائمون من الجبناء ، وحذره المحذرون من الضعفاء ، ألقى الله على لسانه ردا حاسماً « وماكان لنفس أن تموت الا بإذن الله كتاباً مؤجلا » .

واذا اعتراه في موقف من مواقف البأس ذبذبة أو تردد ، ناداه هاتف العقيدة من أعماق نفسه : « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل » « واذاً لا تمتعون الا قليلا » وسيجتمع عليك الكثير من نصوص القرآن والسيرة ، وكل منها يعرض نفسه عليك ، فسق ماتختار منها مرتباً واضحاً على قدر ما تراه وافياً بأداء غرضك .

ويجب أن يتحكم في الاختيار وفي ترتيب العناصر وفي جمع الشواهد ، وفي سوق الحديث ، يجب أن تتحكم في ذلك كله العقلية العملية ، ممثلة في مظاهرها التي تقدمت في بيان مزاج الداعية حتى لا تكون غامضاً ولا نظرياً .

واحذر في تقسيم موضوعك ، أو بيان حقيقة عنصرك ، أن تنحو نحو التقسيمات الفلسفية أو التعمق النظري ، ففي موضوع مقومات الانسان الفاضل الذي ننشده لم نذكر لك كل شيء ، وقد يأتي غيري بغير ذلك ، لأنه لم يكن من همنا الاستقصاء الفلسفي الذي يغوص وراء الفروض والعلل ، وانما أخذنا ثلاث لمحات أضاءت لنا من محيط الفطرة في بساطة ووضوح ، ولو أننا أردنا الاستقصاء لما فرغنا من البحث الا بعد عناء ، بل ولا بعد العناء ، فقط لا نخرج الا بالخلافات التي يضرب بعضها بعضا ، والنظريات التي لم ينته أصحابها من التدليل على صحتها بعد .. كان همنا حين الاختيار ، أن نسوق كلاما تقبله فطرة السامع وعقله وكفى ، أما أنه جامع مانع فلا ، ومع أننا نقصد أن يكون كذلك ، فهو في الحقيقة جامع ، لأن الخير في الاسلام وان تعددت صوره ، يرجع الى معين واحد ، فإذا نشأت طفلا مثلا على فضيلة ما ، ألفيت ذلك

Marfat.com

يعود بالتربية والتنمية على الفضائل الاخرى ، وذلك من أسرار الله في شريعته .

(د) يجب أن يعد في عناصر المحاضرة ما يفهم منه أن الناس يجنون في الدنيا لا في الآخرة فحسب ، ثمر ما يبذلون في سبيل الاصلاح من عمل صالح ، وتضحيات لوجه الله ، وثبات على المبادىء الفاضلة ، وصبر على مقاومة الفساد ــ يجب العناية بابراز هذا المعنى ، لا لأنه يشرح الصدور ويشحذ العزائم ، ويجدد الآمال والهمم فحسب ، بل لأنه هو منطق الحياة ، وقانون الوجود الذي لا يتخلف ، فلكل شيء ثمن.ولكل عمل أجر ، ولكل جهد بدني ونفسي ثمر من جنسه في الدنيا والآخرة ، وعاقبة كل أمر ليست الا نيتك التي بدأته بها ، وهو من قوانين الله التي لا تتخلف في حياة الافراد ، ولا في حياة الجماعات والامم ، والكسل لا يهب الا الحرمان ، والفوضى لا تورث الا الخيبة ، والأنانية لا تعقب الا التنازع والتفكك والفشل .

(هـ) يجب أن يكون غرض الداعية من كل ذلك احياء المشاعر الإلهية ، وبث خواطر الخير والتقوى في القلوب ، فكل موضوع يجب أن يعالج على هذا الاساس ، وبعبارة أخرى : يجب أن يكون للداعية في موقف المحاضرة هدفان أساسيان : الأول : علاج موضوعه الخاص ، الثاني : احياء هذه المشاعر القلبية احياء ربانيا ، على أن يكون الغرض الاول مقصودا لذاته ، ومقصودا كوسيلة للغرض الثاني ، ويجب لهذا أن يساق للسامع مايشعره بأنه مسؤول ومحاسب ، وبأن عين الله ساهرة، تطلع عليه وتحيط بظاهره وخفي سريرته . وان الانسان قادر على أن يجعل مايدور في هذه السرائر خيراً محضاً يرضي الله ويسعد العباد ، والسعيد من جعل نفسه ذكية مطهرة .. اجعل ذلك في عنصر واحد ان اقتضاه المقام ، أو اجعله شائعا في العناصر كلها اذا أوجبته المناسبة ،

Marfat.com

أو اجعله في بعض العناصر دون بعض ، اخضع في ذلك لذوق الموضوع، وذوق عقليتك العملية .

(و) وأرى أن تحدث بينك وبين جمهورك تعارفا عاطفيا قبل أن تبدأ في حديث محاضرتك .. فإن مطالعة الجمهور بالموضوع مباشرة تفاجيء مشاعره بأمر لم يتهيأ له . ان المشاعر بيوت مغلقة ، وقد نهانا القرآن عن أن ندخل بيوتا غير بيوتنا ، حتى نستأنس ونسلم على أهلها .

فلا بد من هذا الاستئناس أو التعارف العاطفي كما أسميناه .. ويكون هذا على صورة استفتاح سهل مبسط يتناول أمراً هيناً مما تدركه الأذهان في يسر ، بل مما لا يحتاج في ادراكه الى أقل جهد عقلي . كأن يذكر حادثة خاصة وقعت له ، أو رآها وهو في طريقه . أو نبأ قرأه أو سمعه ، أو ملاحظة لاحظها في الحفل أو في كلمة خطيب سابق الخ .. على أن يكون هذا كله ذا صلة بالحفل وبالدعوة التي تعمل لها صلة مباشرة أو غير مباشرة ، ثم يعلق على استفتاحه تعليقاً يسيراً ملوناً بلون المزاح اذا اقتضى المقام المزاح ، بلون الاستبشار اذا أوجب المقام إزجاء البشرى ، أو بلون آخر من ألوان العواطف والمشاعر التي يقتضيها الحال . فإذا أقبلت عليك القلوب ، وتفتحت لك النفوس ، فقد تحول تيارها اليك ، وألقت بأزمتها بين يديك ، فبادر في الحال بالتقاطها ، وصل خيوطك بخيوطها ، ثم اخلص الى موضوعك بما لا يغير عليك أنس جمهورك بك ، ولا تطالبني بضرب مثل ، فإن هذا ليس من القواعد التي تعلم ، بل من وحي الذوق والهام الطبع اليقظ .. ويكتفى فيه بالتنبيه اليه .

(ز) وهناك حقيقة يجب الالتفات اليها ، وهي أن المحاضرة لا تنضج في ذهن الداعية الا بمرور الزمن وكثرة الالقاء ، فعليك أن تلقيها مرة ومرة ، وعشر مرات أو أكثر من ذلك ، في أماكن مختلفة ، وعليك أن تنقد نفسك عقب كل مرة تلقي فيها محاضرتك ، ووازن بين موقفك

Marfat.com

في آخر كل مرة وسابقتها، فهذا يكسبك ثباتا وقدرة كبيرة على التوضيح، وسهولة في سياق العبارات والألفاظ ، ثم ان كثرة الترديد على ما ذكرنا ، تعين على اختمار المعاني فيلد بعضها بعضا ، وتزداد سمواً وقيمة ، فلا تخش من نفسك أن تقول لك : ان تكرير المحاضرة الواحدة في الاماكن المتعددة ، عي وعجز ، ولا تخش اذا صاحبك أحد في رحلاتك أن تظن أن التكرار يوحي اليه بقلة معارفك ، فكل هذا من خواطر الشر ، فان الحقيقة لا ينقص من قدرها أن تتكرر ، ولا ينقص من قدر صاحبها أن يكررها ، فحسب الانسان أن يكون على حق ، وأن يدعو الى حق ، على أن من مزايا الاعادة أن يزيد الداعية ايماناً ، وتضلعاً ، وتعلقاً بما يقول • أما اذا أجهد الداعية نفسه في تحضير المحاضرات الكثيرة المتعددة النواحي لكي يقنع غيره بأنه بحر لا ساحل له من المعارف ، يتكلم في كل بلدة بما لا يتكلم به في غيرها ، فذلك منهج في الدعوة لا يثمر ، ولا يفي باقناع الناس بحقيقة من الحقائق ، فضلا عن أنه من املاء الأنانية والرياء والسمعة ، وحسبك أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضى حقبة من عمر رسالته في مكة يقول اذا عرض نفسه على القبائل قولا واحدا لا يغيره (أدعو الى أن تعبدوا الله وحده ، وأن تخلعوا هذه الاوثان التي تعبدونها من دونه ، وأن تمنعوني حتى أبلغ عن ربي) وذلك لأنه انما يبلغ حقيقة ، ويدعو اليها ، وليس من همه اثارة اعجاب الناس بمواهبه وملكاته العقلية واللسانية •

٢ ـ الدرس

جرى عرف الوعاظ والدعاة ــ غالباً ــ على أن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله عز وجل ، أو حديثاً من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

Marfat.com

وفي رأيي أن الدرس أشق من المحاضرة، أو بعبارة أحكم ، الدرس أحوج الى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة •• فالمحاضر يحصر همه في اقناع الجمهور بموضوع معين ، ولا يعنيه من الآية أو الحديث الا وجه واحد من وجوه الدلالة ، هو الوجه الذي يتصل بغرضه •• أما المدرس ، فالآية تفرض عليه الدقة وطول التأمل ، والوقوف عند كل كلمة ، بل عند بعض الحروف أحياناً ، وفي كل وقفة من هذه اشارات ومعارف وعلوم الهية تلتمع أنوارها في صدر الباحث ، فإذا به ينشرح ويتسع ، ويفرح بفضل الله •

ومن هنا أحب أن أنبه الى أن الدرس يجب أن يكون أحفل بالرقائق ، التي تحرك القلب ، وتخاطب الوجدان ••• فاذا أفسحت لك الآية بين كلماتها ، وشفت لك عما وراء سطورها • فاستخرج ما تشاء من المعاني ، ثم رتبه واربط بين بعضه وبعض ، ثم وسع دائرة الحديث بما يتصل بالمعنى من آيات الكتاب وسنة رسول الله وصحابته ، وأخبار الناس قديماً وحديثا ، وصل ذلك — ما أمكن — بحوادث الحياة وواقعها العملي •

ودرس الحديث كدرس الآية في كل ما ذكر •

وعندي أن الدرس أكثر فائدة من المحاضرة ••• فالدرس ميسور لك في كل وقت فما عليك الا أن تجلس في ناديك أو مسجدك لتلقي درسك على من يحضر من خلق الله ، وهذا لا يكون في المحاضرة •

ذلك الى أن قلة عدد من يحضر الدرس — عادة — تمكن المدرس من التأثير برقائقه في قلوب مستمعيه ، ومن انشاء صلات روحية تعارفية عملية ، بينه وبينهم ، فيكونون معه غالباً على ما يريد •• أما جمهور المحاضر فقد جاء غالبا « ليسمع » •• ويقضي وقتاً ما •• فإذا استولى المحاضر على ألبابهم واعجابهم . كان أثره « وقتيا » لدى

Marfat.com

الأكثرين وما أقل من يقع في يدك من مستمعي المحاضرة ، ليكون جنديا من جنود فكرتك .

ولست بهـذا أضع من شأن المحاضرة ، فدعوتنا انمـا ذاعت بمحاضرات فضيلة أستاذنا المرشد رحمه الله ، لكني أردت ، أن ألفت نظر الذين يضيعون كثيرا من الوقت في انتظار فرص المحاضرات ، فلا يتكلمون الا حين يجتمع الناس للمحاضرة .

ولا يكفي أن تكون ذا يقظة تامة لما تقرأ وتعي من كتاب الله وسنة رسوله ، لا يكفي ذلك لتؤثر به في النفوس ، فقد يكون شعور سامعك أقل يقظة من شعورك ، فلا بد قبل أن تدلي بمضمون آيتك أو حديثك ، أن تهيىء سامعك ، تهيئـة أنت صاحب السيطرة عليهـا بذوقك ، ولباقتك ، وتجاربك .

حدث سلمان الفارسي رضي الله عنه ، قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابسا ، فهزه حتى تحات ورقه ، فقال : يا سلمان : ألا تسألني لما أفعل هذا ؟ قلت : لم تفعله ؟ قال : ان المسلم ، اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس ، تحاتت خطاياه ، كما تحات هذا الورق ، وقرأ : « أقم الصلاة طرفي النهار ، وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » ألا ترى أن عقولنا وقلوبنا ، بعد هذا التمهيد العملي الجميل ، صارت أكثر تقبلا ، بل أكثر حيوية وسرورا ، بما مازجها من أنوار الآية وحسن توجيهها ؟ وان أحدنا لن يبلغ من يقظـة الشعور والعقل ما بلغه صلى الله عليه وسلم ، ولن يكون قلب أحدنا حيا بالقرآن كما كان قلبه عليه السلام ، ومع ذلك ، رأى الرسول الكريم ، أن يكون حسن التأتي في عرض مواعظ كتاب الله ، فنحن الى هذا المنهج ، أشد

Marfat.com

حاجة منه عليه السلام •• وذلك وحي الفطرة الملهمة ، وفضل العقلية الواقعية اللبقة ، التي بينا ضرورتها للداعية فيما سبق •

ويمكن أن يتسنى للانسان الكثير من هذه التمهيدات ، التي تنبه الذهن ، وتمهد الطريق ، اذا هو أحسن فهم الآية أو الحديث ، وأحاط ببعض اشاراتها ، ومراميها ثم استخرج من ذلك حكما طريفاً يدعو الى العجب ، أو لطيفة تستشرف النفس الى معرفة ما تنطوي عليه ••• ومثال ذلك ، أن بعض السلف الصالح سأل أتباعه وسامعيه : من منكم يحب أن يستوطن الجنة وهو في هذه الدنيا ؟ فكلهم استشرف الى ذلك ورغب فيه أشد الرغبة ، وكان وجه العجب فيه أن الآخرة هي موعدنا بالجنة ، فكيف ندخلها في الدنيا ؟ •

فقال السلفي رضي الله عنه : عليكم — اذاً — بالتزام مجالس الذكر والعلم فان كلا منهما روضة من رياض الجنة ، ومضى الرجل يستشهد لقوله ، بما قال الصادق والمصدوق صلى الله عليه وسلم : « اذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : حلق العلم » •

٣ ــ الخطبة

تستطيع أن تلمح فروقا اصطلاحية ، بين المحاضرة والخطبة فيما يأتي :

(١) يغلب على المحاضرة صبغة تقرير الحقائق ، وتثبيت المعاني • أما الخطبة فيغلب عليها صبغة اثارة العواطف والمشاعر والوعظ •

(ب) عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والاصول والاحكام •• أما عناصر الخطبة ، فأشبه بالخواطر العارضة والمعاني الطارئة •

Marfat.com

(ح) تحتاج عناصر المحاضرة الى الشرح والاستشهاد ... أما الخطبة ، فشأنها الاسترسال مع ما يحضر من الخواطر والمعاني .

وأرى — شخصيا — أن تكون الخطبة مرتجلة : بل أرى أن تكون دروسك ومحاضراتك كلها مرتجلة ... أما محاضر الورقة ، وخطيب الورقة فلا شأن لنا به ، اذ لا حاجة بالنهضات اليه .

نعم قد يحتاج المرء الى تحضير كلامه في الورق ، اذا كان المقام يقتضي تحديد معاني الألفاظ ، وتبين مرامي العبارات ، كهؤلاء السياسيين المسؤولين، أو المفاوضين الذين يضطرون الى تضمين العبارات وتحميل الالفاظ معاني واشارات لا يستطيع الارتجال أن يفي بحقها .. فلنسم أمثال هذه الكلمات « بيانا » فاذا كان لا بد من تسميتها خطبا ، فهي ليست من النوع المنهض الذي نريده .

ونعني بالارتجال ، ارتجال الالفاظ فقط ، لا ارتجال المعاني والعناصر ، اذ لا بد للخطيب الذي يحترم نفسه ويقدر واجبه ، أن يعرف ما سيقول ... لا بد أن يعد لموقفه ، مادته من الافكار والخواطر المناسبة ، وأن يهيئها في نفسه ، وأن يجيلها في ذهنه أكثر من مرة .

وهذا الارتجال المحضر هو ارتجال التركيز ، والبناء ، والثبوت والدوام .. فاذا وقف الداعية ليتكلم ، وقف وهو رابط الجأش ، ثابت النظرات ، مالك لزمام نفسه وزمام موضوعه ، مستندا الى ما أعد من ذخيرة ، فاذا فتح له في موقفه عن جديد من الخواطر والمعاني ، فبها ونعمت ، والا فحسبه أنه ينفق مما لديه .

وهناك ارتجال غير محضر ، وهو في الغالب ، يعبر عن صدى الحوادث في نفسه ، أو هو استجابة لحادث ، أو رؤية ، أو سماع أثار مشاعره ، فلا يزال يرتجل ، ويسترسل مع الدواعي الطارئة والحوافز

Marfat.com

العارضة ، حتى تنحل عقده النفسية ، ويشعر أن قد هدأت ثوائره ، فينتهي عند ذلك ارتجاله •

وهذا النوع لاثارة السامعين اثارة وقتية ، أو توجيههم الى وجهة أو عمل مطلوب لساعته ••• أما أنه للتركيز ، والانشاء والثبوت فلا •

وهذا الارتجال الذي يقوم على حركة الوجدان ، لا يؤدي مهمة الا اذا كان صاحبه يتمتع بموهبة أصيلة ، وتجارب سابقة ، درسها وفكر فيها ، فيرتكز عليها كأنها نقط محضرة ، وبدون هذا يكون الكلام غالبا غير مرتب ، وقد يمل لتفاهته وكثرة اضطرابه •

وكثيرا ما نرى خطباء من ذوي الارتجال المرتجل تخونهم ملكاتهم، فتسمع أحدهم يبدأ لك معنى من المعاني ، ثم لا يلبث أن ينفتح له باب من الاستطراد فيستطرد ، ثم يرسله هذا الاستطراد الى باب آخر ، وهكذا ••• حتى ينسى معناه الاول ••• فمن يرضى لنفسه بمثل هذا ؟

حقا ان أحد هؤلاء ، قد ينجح في ستر موقفه عن أكثر السامعين ، ولكن المسألة ليست مسألة ستر الموقف أو عدم ستره، فالداعية ليس بهلوانا أو مشعوذاً يموه على الناس ويستر عنهم أخطاءه وأكاذيبه ••• انما الداعية بصدد رسالة ذات أهداف ، فهل أصاب أهدافه أولا ••• وهل حقق المهمة التي يدور عليها الكلام أو ستر موقفه وسكت ؟

٤ ـ المقالة

ذكرنا في باب فقه الدعوة والداعية ، شيئا عن الكتابة الضرورية للنهضات ، فلا نطيل باعادة معناه ••• ونزيد عليه هنا ، أن يلاحظ الداعية أنه يكتب للناس كافة ، عالمهم وجاهلهم ، الأمي منهم وغير

Marfat.com

الأمي ; وهذا يقتضيه أن ينزل الى المستوى الذي يألفه الجمهور ، في فهم ما يقرأ أو يسمع ، مستوى الالفاظ السهلة والافكار الواضحة ••• وحسب الفكرة وضوحاً ، أن تكون نابعــة من القلب ••• فتكون ــ مثلا ــ تعبيرا عن عاطفة وطنية ، أو تصويرا لوجدان ديني ، أو عرضا لتجربة انسانية ، أو نقدا بنّاء لاتجاه المجتمع وأحوال الناس •

فاذا كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة، فهي لا شك سهلة واضحة•

هذا ووضوح الفكرة لا يغني عن وضوح اللفظ ، أو عن نزول اللفظ الى مستوى الجماهير •

سأل أحــد الدعاة : ما رأيك في كتابتي ؟ فقال له صاحبه : ان أسلوبك سما ببضاعتك فوضعهــا في شرفات الدور الاعلى ، فرجــل الشارع لا يراها ولا يتأثر بها ، وان كان أهل الطبقة العليا يرونهــا ويعرفون لها مزاياها ••• ولو أنك نزلت ببضاعتك فوضعتها في معارض الدور الاول ، لرآها الجميع ، وانتفع بها رجــل الشارع ••• فقال الداعية ــ وقد أحسّ لهذا القول مرارة ــ : اننا مكلفون أن نرفــع الجمهور الى مستوانا ، لا أن ننزل الى مستوى الجماهير •• فقال له صاحبه : لو أنك أستاذ في اللغة والادب ، لحق لك أن تقول هذا ، ولكنك صاحب دعوة ، وقائم على رسالة ، مكلف أن تقابل الجميع ، وأن تكلم الجميع وأن تفهم الجميع••فاذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم ، أضعت الوقت ، وأخفقت في الرسالة •• ألا ترى الى التاجر ، يحتال في عرض تجارته،وتنسيقها تنسيقا مغريا بالوقوف عليها أو الشراء منها ؟ •• فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة،فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم اليها •

ونقرر على ما مضى أن الجماهير من حيث الاقبال عـلى القراءة كالطفل المعمود(١) ، اذا رأى الطعام أشاح بوجهه ، وانقبضت معدته في جوفه ، فلا يزال به أبواه يغريانه ، ويلطفانه ، ويثيران شهوته ، ويحتالان لتحبيب الطعام اليه لعل أن يأخذ منه شيئاً يقيم به أوده •

نعم ، قد نرى كثيرين من العامة يقرءون ، ولكنهم يقرءون مالا يسمن ولا يغني من جوع ، يقرءون كتب التسلية ، وقصص اللهو الفارغ التي يقطعون بها أوقاتهم ويرتاحون بها من أنفسهم •

ومن هنا نرى الصحفي اللبق ، يدرك هذه الحقيقة ، ويأتي الى الجمهور متطامنا خفيف الخطا ، فاذا عرض عليه خبرا ، عرضه ــ مثلا ــ في قصة قصيرة ، أو نكتة لبقة ، أو فيما يشبه هذا ••• فهو يحتال على طفله المعمود ليعطيه ما يشاء من فنه وفكرته ، فتروج صحيفته ، وتغمر الاسواق ، وتسيطر على الاندية وتدخل البيوت ، وتستقر مع القراء في المخادع •

على الداعية أن يفهم هذا ، وأن يدخل الطفل المعمود في حسابه • وليس له أن يحتج بأنه لا يستطيع أن يفعل فعل الصحفي ، وان وقار الدعوة وجلال معانيها ليس مما يعرض هذا العرض ••• أقول ليس له أن يحتج بهذا أو بما يشبهه ، فانه اذا تحرك ، وحاول ، وجرب • لا يعدم نتيجة طيبة ، وثمرة مبشرة بخير كثير ، ليس ضروريا أن يتبذل الداعية ، ولكن ليس ضرورياً أن يتزمت !

وليس من المحتم أن يجري على نمط الفلاسفة ، وليس من الحتم أن يهبط الى درك العامة •

---

(١) الذي بمعدته مرض •

انك بلا شك صاحب فلسفة راشدة تتصل بأعمق خفايا الفطرة ، وأدق سنن الوجود،ولكن ذلك ونحوه تختص به المصنفات التي تخاطب أهل الفكر والبحث،وهم قلة ــ لهم معك شأن خاص ــ أما المقالات التي تخاطب القاعدة الشعبية فيجب أن تكون خلاصة تجاربك باعتبارك أحد الذين ينفعلون بعواقب الرشد والغي ، فيلقون اليك أسماعهم وألبابهم ..

ومما يهون على الداعية مهمته أنه لن يكتب للجمهور في فلسفة تكوين العقيدة ، ولا في دور العقل في انشاء الصلة بالله أو في كشفها ، ولا في منهج صلة الانسان بغير المنظور من حقائق الكون ؛ ولا في نحو هذا مما يدخل في باب الموضوعات الفلسفية والفكرية ؛ انما سيتحدث اليه عن واقع الحياة اليومية .. وقد قلنا فيما سبق ان واقع الحياة اليومية هو تاريخ الانسانية الحاضر ، وهو مستودع أخطائها وصوابها ، فاذا أخذ الداعية مادة حديثة من صميم ما يجري في هذه الحياة ، وتحدث عن صوابه وخطئه ، وصور كلا في صورته الطبيعية الدارجة ، وعالجه بروحه الرباني ، ووزنه بميزانه الإلهي ، فقد بلغ الرسالة وأدى الامانة .. وسيجد أن كلامه قد غمر الاسواق ، وسيطر على الاندية ، ودخل البيوت ، واستقر مع القراء في المخادع ، لأن الحياة تولت حمله الى كل ذلك .. وليس عليك من حرج بعد هذا أن تكون قد أجريت في كلامك لفظاً عامياً ، أو عبارة متداولة ، أو مثلا سائراً ، أو نحو هذا مما يخف وقعه على الأسماع ، ويعين على بيان حقيقة المراد ... ولأمر ما، كره رسول الله صلى الله عليه وسلم الثرثارين المتفيهقين والذين يخاطبون الناس بما لا يفهمون ، وكان عليه السلام يدخل في كلامه ألفاظا أجنبية ، ويعدل عن لهجته الاصيلة ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات .. فهل نعتبر ؟!

٥ ـ الحديث العادي

اذا أحس الداعية أن له حاجة لدى الجمهور ، يرجو قضاءها ، فيتلطف في الحصول عليها ، فهو داعية حقا •• واذا لم يشعر هـذا الشعور فهو مغلق لا يصلح لهذا الأمر الخطير •

فهؤلاء الذين يسخطون على الجمهور ، وينقمون عليه اعراضه ، قوم فاتهم الكثير من فقه مهمة الداعية •

ليس للجمهور حاجـة اليك فيتودد لقضائها منك ••• أما أنت فصاحب الحاجة فاظر كيف تقبل عليه ، وتقضيها منه ••• فهل هناك غير الحديث الرقيق • والكلام اللين ؟

يقال هـذا في المحاضرة والدرس والخطبة والمقالة ، ولكنه في الحديث العادي ألزم وأظهر ، حيث تواجه صاحبك أو أصحابك وجها لوجه ، أو كلمة لكلمة •

في الناس شذوذ وفيهم تعال وكبرياء وفيهم ميل الى تنقص أصحاب المبادىء وبخسهم أشياءهم ، وفيهـم ميل الى الجدل ورغبة في الغلبة والانتصار ، فعليك أن تذكر هذا كله وأن تعالجه بعلاجه الحاسم ، وماعلاجه الا أن تهمله وتتغاضىعنه وتلتزم حديثك الرقيقوكلامكاللين•

ونوصي الداعية هنا بثلاث خصال :

الأولى : أن يترك كل رغبة في الغلبة والانتصار على مناظره ، بل عليه اذا أحس أن الحديث سيتحول الى مناظرة جدلية ، أن يكف عن المضي فيه ، في أدب وحكمة ولباقة ••• فاذا استطاع بعد ذلك أن يستأنف حديثه الرقيق اللين في جو هادىء فبها ونعمت ، والا فمن الخير أن لا يعود اليه •

ونحن بهذا لا تتقي فقط شر الجدل وما يورث القلوب من حقد وفرقة ، وانما تتقي آفة تحيد بنا عن أسلوب الدعوة الحق ، فليس الجدل من أساليب الدعوة في قليل ولا كثير ، وليست الغلبة والقهر من هذا في شيء ، وليس في الدعوة غالب ولا مغلوب ، ولكن أناس متعاونون على البر والتقوى •••

يجب حقا أن تغلب ••• ولكن حذار أن تحمل الشعور بحب الغلبة والقهر •

ويجب حقا أن تغلب ••• ولكن حذار أن تحمل سلاحا غير القول اللين •• والكلام الهادىء ، والنفس الراضية الوديعة ، فانه سلاح يغلب الاقوياء ، ويستنزل اليك من اعتصم بآفة الجدل والعناد •

الثانية : أن يترك تحدي الناس بما لدعوته من فضل وما لمبادئها من سمو •• ويترك تحديهم بما لرجالها من صلاح وجهاد وفضائل•• ويترك تحديهم بما تزمع الدعوة أن تفعله غداة انتصارها من كيت وكيت وكيت •

ليترك هذا وأمثاله ، ليترك التحدي في جميع صوره ، وليذكر دائما أنه صاحب حاجة يرجو قضاءها ، فهل يقضيها بالتحدي ؟

أنت صائد ، والصيد أمامك تريد أن تقتنصه ، فهل تثيره وتهيجه ، حتى يفر منك فلا تدركه ؟ أو يكون لك شأن آخر ؟

بل اننا فوق هذا نشير باللين • عندما يظهر التحدي من غيرنا ••• نشير بنسيان التحدي ، ونسيان كل أثر له في النفس ، ولنذكر أن الصيد بدأ يستعد للافلات ، فلنتطامن له ، في غير ذلة طبعا ولنظهر له الود الهادىء،والمسالمة الفطرية لا المصطنعة حتى يهدأ ثائره ، ويقر في مكانه •

Marfat.com

ان صاحبك الذي يتحداك ، ليس له مصلحة أدبية أو مادية في أن يتحداك ويغاضبك ، فهو اذاً غير مريض ، ومن السهل علاجه برفق ، واقتناصه بسهولة .

أره من تمسك الود،والتقدير لشخصه ورأيه، وأشعره ـ بحركاتك الرزينة واشاراتك الهادئة ـ أنك في حالة طبيعية بسيطة وأنك خالي الذهن من تحديه اياك ، أو تحديك اياه .

ستقول : كيف ؟ فأقول : جربه عمليا فتجارب الحياة هي التي تشرحه لك ، وتريك أمثلته الكثيرة .

ثالثا : أن يترك « التعالم والتفاصح » على الناس ، فان الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه ، أو من يتظاهر بالامتياز عنهم بشيء .

عليه بالتواضع ، ونسيان علمه وفصاحته ، وأن يتحدث اليهم في فصاحة لاكلفة فيها ولافوارق ، فإنه لايلبث أن يستزج بهم ويستزجوا به .

والويل لمن يشعر بنفسه ، ويحس بمواهبه !.. قد لا يثور به الناس ، وقد لا يؤذيه أحد ، ولكنه لن يقترب منهم ، ولن ينجح في مهمته .

نقول هذا ليغسل كل منا نفسه، ويطهرها من هذا الرجس، وليكون دستورا عمليا لنا في خطاب الناس ، فاذا خاطب أحدنا غيره ، خاطبه على أنه مثله ونظيره ، وأن ما لديه من علم فالفضل فيه لله لا لأحد آخر .

فلنقبل على الناس بفضل الله ، لا بفضل نفوسنا ـ يفتح الله ما يشاء من القلوب والعقول ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً كبيرا .

Marfat.com

Marfat.com

فهرس

مقدمة فضيلة المرشد العام ٣

مقدمة المؤلف ٥ : ليس كتاباً للخطابة ٥ ، الفرق بين الداعية والخطيب ٦ ـ أودية روحيـة ٧ ـ الرجـل الرباني ٨ ـ لا أزكى الإخوان ٩ ـ لا تعصب ١٠ .

الباب الاول : فقه الدعوة والداعية ١٣ ـ ٤٠

الفصل الاول : قضية بين فهمين ١٤ ـ ٢٠

محور الخلاف ١٥ ـ حسية الادراك ١٦ ـ المنطق الحسي والمنطق المعنوي ١٩ .

الفصل الثاني : ذبذبة بين غايتين ٢١ ـ ٣١

يستمعون ولكن ٢٤ ـ فضائل مزعومة ٢٦ ـ تزييف ما لدى القوم من فضائل ٢٧ ـ أخلاق هي مخالب وأنياب ٢٨ ـ اللصوص ٢٩ ـ حين ننظر بعين الحقيقة ٣٠ ـ عود على بدء ٣١ .

الفصل الثالث : الى العلاج ٣٢ ـ ٤٠

أصلان كبيران ٣٤ ـ الدعوة والاصلاح ٣٥ ـ الدعوة والكتابة ٣٧ ـ عبيد يتغنون بمجد سادتهم ٣٧ ـ الدعوة والوعظ ٣٩ .

Marfat.com

الباب الثاني : مزاج الداعية ٤١ ـ ٢٩٨

الفصل الاول : العقلية الواقعية ٤٢ ـ ١٦٥

أسلوب القرآن في عرض الحقائق ٤٢ ـ ضرورة الاسلوب التصويري ٤٤ ـ أولا : القصة ٤٤ ـ مثال من قصص القرآن ٤٥ ـ ١ ـ قوة وعلم ٤٦ ـ القوة في قصة سليمان ٤٧ ـ العلم في قصة سليمان ٤٨ ـ ٢ ـ ورسالة ٥٠ ـ ٣ ـ ايمان الرئيس الاعلى بالغاية وعنايته بكل شيء ٥٢ ـ ٤ ـ ايمان أفراد الشعب برسالة الدولة ٥٤ ـ القصص النبوي ٥٩ ـ قصص مخترع ٦٣ .

ثانياً : ضرب الأمثال ٦٦ ـ ضرب المثل حركة تجديد وتنشيط ٦٧ ـ ألوان من ضرب الامثال ٦٨ ـ زبد وباطل ٨١ ـ الزبد وعناصر تكوينه ٨١ ـ الباطل في نظر أهل الحقائق ٨٣ ـ أهواء الباطل وغازات الزبد ٨٤ ـ خصائص النقص في طينة البشر ٨٦ ـ الموت المعنوي وحقيقته ٨٧ ـ أشواقنا الى الكمال ، وكيف ترتد أهواء مهلكة ٨٧ ـ حيرة أمام العلم الزاخر ٨٩ ـ الهفوات من لوازم الطبع البشري ٩١ ـ الرسول يضرب الامثال ٩٣ ـ ثالثاً : الالتفات الى الآثار ١١١ ـ رابعاً : النظر الى صور المعنويات وآثارها المحسوسة وأوصافها ١٢١ ـ مقابلة الحقائق المغيبة كالسمعيات بأحوال دنيانا العملية ١٣٢ ـ النظر في آيات الله في الآفاق ونعمه السابغة على الناس ١٤٠ ـ ماذا فهمنا من الكون ١٤١ ـ طفولة الانسان ١٤٢ ـ الانسانية بين نظرة ونظرة ١٤٢ ـ مرض يجب أن يزول ١٤٤ ـ علاج ١٤٦ ـ اعتراض وجوابه ١٤٧ ـ فساد الحضارة الغربية ١٤٩ ـ كتاب منشور ١٥١ ـ الداء والدواء ١٥٢ ـ منهاج العلاج ١٥٥ ـ النظر الى الكيف لا الكم ١٥٧ ـ ثمرة العلاج ١٥٨ ـ مثال تطبيقي ١٦٠ ـ توجيه ونماذج ١٦٠ ـ نماذج ١٦١ .

الفصل الثاني : الروحانية الاجتماعية ١٦٦ ـ ٢٢٩

تمهيد ١٦٦ـ مادة وروح ١٦٦ـ كيا ننا الحقيقي ١٦٨ـ كيف يخطىء المرء في حق نفسه ١٧٠ ـ يجب أن يحال بين القلب وبين الهوى ١٧٣ ـ تدارك الخطأ بالزهد ١٧٤ ـ صعوبة تحقيق الزهد ١٧٨ ـ العقل والقلب ١٧٨ ـ لابد من التجرد ١٨٢ ـ أيها الاخ كن مريداً ١٨٧ ـ التجرد هو الرجوع الى الفطرة ١٨٨ ـ أمثلة واقعية لتجرد أهل الجاه والمال ١٩١ ـ ويوسف ١٩٣ ـ ورسول الله ١٨٤ ـ من صفات أهل الروحانية الاجتماعية ١٩٦ ـ الروحانية وذكر الله ١٩٧ ـ معنى الذكر على كل حال ١٩٨ ـ طبيعة الذكر في نفس الرسول ١٩٩ ـ الاقتداء بنهج الرسول ٢٠٠ ـ نحو الربانية ٢٠١ ـ هذا واجبك أيها الداعية ٢٠٢ ـ بعض معالم الطريق ٢٠٣ ـ الروحانية الاجتماعية والاعتزالية ٢٠٨ ـ أثر هذه الروحانية في الدعوة والداعية ٢١٣ .

الفصل الثالث : الطبيعة التنفيذية ٢٣٠ ـ ٢٩٨

تمهيد ٢٣٠ ـ بعض خصائص الايمان ٢٣٠ ـ : ١ ـ الفهم ٢٣١ ـ ٢ ـ حب التعاليم ٢٣٢ ـ ٣ ـ الغيرة ٢٣٣ ـ معنى الطبيعة التنفيذية ٢٣٤ ـ كيف نكسب الطبيعة التنفيذية ٢٣٥ ـ نبرأ من البعد عن الله ٢٣٦ ـ على الداعية أن يعرف غايته أولا ٢٣٦ ـ الغاية الله ٢٣٧ ـ احياء القلب ٢٣٩ ـ الوسيلة الاولى التذكير بالله ٢٤٠ ـ الثانية وقاية القلب من المؤثرات المختلفة ٢٤١ ـ : (أ) مؤثرات اقتصادية ٢٤٢ ـ (ب) مؤثرات نفسية ٢٤٨ ـ (جـ) مؤثرات اجتماعية ٢٤٩ ـ وجوب معالجة العقبات بالرفق ٢٥٢ ـ مثال لنجاح الاسلوب اللين ٢٥٣ ـ دعائم النجاح في المحيط الخارجي ٢٥٤ ـ ١ ـ الحركة ٢٥٤ ـ ٢ ـ الإيغال بالدعوة في صميم حياة الناس ٢٥٤ ـ ٣ ـ التجميع ٢٥٧ ـ أصول التجميع ٢٦٠ ـ الاول : النظام ٢٦١ ـ

Marfat.com

الثاني : الاخاء الفاضل ٢٦٢ ــ خفض الجناح ٢٦٣ ــ ترك المراء ٢٦٥ ــ الصبر ٢٦٦ ــ من بركات الطبيعة التنفيذية ٢٧٣ •

الباب الثالث : مصادر الداعية وموارده ٢٩٩ ـ ٣٦٥

١ ــ القرآن الكريم ٢٩٩ ــ جبهة المنافقين ٣٢٠ ــ جبهة المشركين ٣٢٦ ــ أسس المجتمع في القرآن ٣٣١ ــ ٢ ــ السنة ٣٥٠ ــ ٣ ــ التاريخ وسير الرجال ٣٦٠ ــ ٤ ــ واقع الحياة العملية ٣٦٤ •

الباب الرابع : الداعية في كلماته ٣٦٧ ـ ٣٩٣

١ ــ المحاضرة ٣٧٦ • ٢ ــ الدرس ٣٨٢ • ٣ ــ الخطبة ٣٨٥ •
٤ ــ المقالة ٣٨٧ • ٥ ــ الحديث العادي ٣٩١ •

Marfat.com

من منشورات دار القلم

١ ـ حياة الصحابة : (٤ مجلدات كبيرة) طبعة محققة ، وتحتوي على فهارس علمية .

٢ ـ التاريخ الأندلسي : (من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة) كتاب في مجلد واحد يؤرخ للفترة الاسلامية كلها في الاندلس .

٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط :
كتاب في مجلد واحد يؤرخ من السنة الأولى للهجرة ولغاية السنة ٢٣٢ هـ .

٤ ـ موارد الخطيب البغدادي :
كتاب في مجلد واحد يتحدث عن موارد المؤرخ الخطيب البغدادي في كتابه الكبير (تاريخ بغداد) .

٥ ـ الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير :
كتاب يرصد الاسرائيليات في كتب التفسير ويبين خطرها ومعالجتها .

تطلب جميعها من دار القلم ـ دمشق ـ ص ب ٤٥٢٣

Marfat.com

البهي الخولي

تذكرة الدعاة

الطبعة الخامسة
وفيها زيادات وتنقيحات
١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م

دار القلم
دمشق - بيروت

مكتبة الفلاح
الكويت